حياة الرسول وأهل بيته (ع)

إعداد
لجنة من العلماء

المجلد الأول

دار المحجة البيضاء　　دار الرسول الأكرم (ص)





سلسلة
حياة النبي محمد وأهل بيته
(١)



النبي محمد (ص)

إعداد:
نخبة من العلماء

دار المحجة البيضاء — دار الرسول الأكرم «ص»

المقدمة العامة:

مقدمة الناشر

الحمد لله الواحد الأحد، والفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وأكمل الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً، ومنقذ الأمم من الضلالة والجهالة، وعلى أهل بيته سفينة النجاة، شهداء الرسالة وحملة المبدأ وحماة العقيدة، وعلى أصحابه المجاهدين لنصرة الحق والعدل وعلى جميع من آزروا نبيهم ونصروه واتبعوا المنهج القويم، ولم يحيدوا عن الصراط المستقيم.

إن كتابة التاريخ الإسلامي بكل ما حمل من أحداث ووقائع لنقله الى الأجيال اللاحقة، يستدعي أن يكون المؤرخ غير ميّال مسبقاً إلى انتقاء بعض الأحداث التي تنسجم مع الميول الرسمية التي كان يمليها عليهم رؤساء وحكام تلك الحقبة الزمنية وبالتالي عليه أن ينقل ذلك بكل دقة وأمانة، ومن دون أي تزوير ووضع.

ولله الحمد، فإن أغلب المؤرخين المنصفين[1] وعامة أرباب السير والتراجم دأبوا على سرد حياة النبي (ص) والأئمة من بعده، من غير أن يدخلوا على الوقائع والأحداث التاريخية أية صبغة تحليلية تجعل

(١) إذا تركنا ـ جانباً ـ ما كتبه المؤرخون الرسميون، وما أمروا به من دس.

القارىء ينحاز الى غير الحق مما أجمع عليه المؤرخون، وكان غير بعيد عن الصواب.

وواقع العالم الإسلامي الحاضر، كما نسمعه ونراه ونعيشه مليء بالتزوير والتشويه والوضع والتلفيق على ألسنة وسائل الدعاية والإعلام المعادية للاسلام الأصيل، والحاقدة على ابنائه المجاهدين والثائرين في وجه الظلم والظلام.

وأقل ما يتهم به هؤلاء المجاهدون وعلى ألسنة كثير من ولاة الأمر في مجتمعاتنا ـ أنهم ـ متطرفون...! متعصبون...! رجعيون...! متآمرون...! أو أصوليون ـ أو سلفيون وغير ذلك مما دأبت مختلف الوسائل المنظورة والمكتوبة والمسموعة على الصاقه بهؤلاء.

وهذا الحاضر والواقع الاسلامي، سيصبح بعد أيام تاريخاً مقروءاً، يسطر الأحداث التي نعيشها اليوم للجيل القادم... اليس كذلك؟

إن الجيل القادم ـ إذا كان واعياً ـ سيستنكر بشدة هذا السيل من التهم الملفقة ضد أبطال الإسلام، وشهداء العقيدة، وأما إذا وقع أسيراً للغفلة والتسليم الساذج فسوف يقع ضحيّة هذا البهتان.

وكذلك بالنسبة لكثير من أحداث تاريخنا الأوّل... فقد امتدت اليها ايدي التزوير والتي عاشت على مائدة السلطان تستجديه عطاءً زائلاً، فكتبت ما يحلو للحاكم وما يتناسب مع عطاياه.

ومن ثم فإن أهل بيت النبوة (ع) وعبر تاريخهم الدامي وجهادهم الطويل في سبيل الله والحفاظ على خط الاسلام الأصيل والواضح، كانوا مشردين في آفاق دار الاسلام، وممتحنين في السجون والمعتقلات، أو صابرين محتسبين... ولكن...! تحصى عليهم أنفاسهم وترصد تحركاتهم... وهكذا..

ولذا كان من الواجب محاولة التصدي لكل ذلك بكل عنف وقوة من خلال سيف القلم الحر غير المرتهن لهذا أو ذاك... في محاولة

جادة لإعادة صياغة التاريخ القديم والمشاركة باعداد وصياغة التاريخ الحاضر، ومن ثم الربط الجاد بين القديم والحاضر من أجل تقديم صورة ناصعة عن أبطالنا الشرفاء أينما كانوا، وفي أي عصر عاشوا. . .

ومن هنا تصدت الدار في هذه المحاولة المتواضعة والتي بدأتها مؤسسة البلاغ والتي شاركت في هذه النبذة من سيرة النبي محمد (ص) وأهل بيته الأطهار (ع)، سائلة المولى أن يكون ذلك من مصداق قوله (ع): «واجعلنا من الدعاة الى طاعتك، والقادة الى سبيلك» حتى يسود الاسلام، ويرزقنا الله النصر أو الشهادة.

وهو من وراء القصد

مقدمة خاصة

إن الاهتمام برسول الله (ص) وأهل البيت (ع)، تربية وتأهيلاً وتفضيلاً، لم يكن اهتماماً عاطفياً بقدر ما هو امتثال لأمر إلهي قاطع، صدر عن رب العالمين، حينما أوحى برسالته الخالدة إلى محمد بن عبد الله ليخرج البشرية من ظلمات الالحاد والشرك الى نور الايمان والتوحيد، آمراً رسوله بقوله عز من قائل:

﴿لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودَّة في القربى﴾

فكانت مودتهم ان لاقوا التقتيل والتعذيب والتشريد، وتجرعوا المحن والغصص، صابرين محتسبين، هم وشيعتهم الأبرار، بشكل يفتت الاكباد، ويذيب الجماد.

ولما أخذت الدار على عاتقها نشر نبذة صغيرة عن النبي (ص) وأهل البيت (ع) في محاولة منها للتعريف بهؤلاء الأفذاذ، ليتسنى لكل مسلم التعرف على قادته بشكل صادق وواعي ويكون من السهل التعرف على أئمتنا حتى لا نكون ممن ماتوا ولم يتعرفوا على أئمة زمانهم فنموت ميتة الجاهلية.

فمع الحلقة الاولى من تلك الحلقات:

١ ـ مع رسول الله (ص)

تمهيـد

انهـا غير يسيـرة أن يمارس كـاتب تلخيص حياة رسـول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وايجازها، فحياة الـرسول (ص) سفـر واسع، لا يتسنّىٰ بحال أن تضغط، وتُصغّر فتُعرض من خلال صفحات معدودات.

ثم ان حياة المصطفى (ص) تتفجر عظمة وجلالاً، وإعجازاً ليس له نـظير، حيث تلتقي فيهـا مظاهـر النصر والقـوة، والخشوع والـورع، البأسـاء والضرّاء، والبطولة والألم.

ومن هنا جاء حديثنا الذي بين يديك منصبّاً على إبراز الأُطر الاسـاسية من حياته الشريفة بشكل مُبسط، وشفيعنا في ذلك أننا نكتب بالدرجة الأولىٰ للنشء الجـديد كي نـطلعه ـ وبقـدر ما تسمـح به المحـاولة ـ على مقـومات شخصية الرسول (ص) العظيمة ونشاطاته، ومواقفه قبل الدعوة وبعدها:

في دعوته. . . وفي دولته. . .

فرداً في مجتمع، وداعيةً لرسالة، وقائداً لأُمة. . .

وسنعرض محاولتنا هذه من خـلال ثلاث حلقـات: تتناول الاولى منهـا حياة رسول الله (ص) في مكة المكرّمة قبل الدعوة وبعدها.

وفي الحلقـة الثانيـة ينصبّ الحـديث على حيـاة المصـطفى (ص) في المدينة المنوّرة حيث يضطلع بمهام القيادة الاجتماعية والسياسية ويبني الدولة والمجتمع الرباني.

أمّـا الحلقـة الثـالثـة فنفتـح من خـلالهـا نـافـذة على سيـرة الـرسـول العظيم (ص) من حيث: منهجه العبادي، وتعامله مع أُسرته والأُمة، كما نقف

عند عطائه الفكري الرائد بقدر ما تسمح به محاولتنا كذلك.

والله نسأل أن ينفع أجيال الامة بما عرضنا من حياة رسول الله (ص).

ومنه تعالى نستمد العون والسداد.

مَرحَلة ما قَبل الدَعوَة

الميلاد الميمون:

في ذلك المحيط الصاخب بضلالات الجاهلية، وكل مظاهر التيه والزيغ والبغي فيها، ولد المصطفىٰ محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب (ص).

ولحكمة إلٰهية وُلدَ يتيماً، فقد تُوفي أبوه عبدُ الله في طريق عودته من الشام من تجارة له، ومحمد (ص) لا يزال جنيناً في رحم أمه آمنة بنت وهب (رض).[1].

وكان ميلاده المبارك في شهر ربيع الأول[2] بعد حادثة هلاك أصحاب الفيل المشهورة[3] ـ التي أرّخها القرآن الكريم بسورة منه كاملة[4] ـ بشهر او اكثر، وُلد (ص) فأرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً بلبن ولدها مسروح، انتظاراً لقدوم المرضعات من نساء البوادي، اذ كان من عادة أهل مكة ان يسترضعوا لاولادهم نساء أهل البادية، طلباً للفصاحة والفروسية.

وكالمعتاد قَدِمتْ على مكة عشر مرضعات من قبيلة سعد بن بكر فأصبن الرضاع، إلا واحدة منهن، هي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله، فعُرض عليها الوليد محمد (ص) فتبرَّمت لكونه يتيماً، وما ينجم عن اليتم عادة من قلة ذات

---

(١) السيرة النبوية: ابن هشام ج ١ ص ٢٠٥.

(٢) في السابع عشر أو الثاني عشر منه علىٰ إختلاف في ذلك.

(٣) عام الفيل يوافق سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح (ع)، وهكذا المشهور من الروايات.

(٤) سورة الفيل.

اليد، فاستشارت زوجها الحارث الذي كان يصحبها، قائلة: أنها تكره العودة بغير رضاع ولم يبق أمامها الاّ هذا الطفل اليتيم، فأشار عليها زوجها أن تأخذ الطفلِ عسى الله ان يجعل لهما فيه خيراً. وما أن ألقمته ثديها حتى درَّ لبنُها غزيراً، بينما كان ولدها يتضور جوعاً بسبب قلة لبنها قبل ذلك.

ثم أخذت بركةُ الوليد المصطفى (ص) تعم الحي كله، حتى عادت المرابع ممرعة خضراء، بعد أن كانت قاحلة مجدبة.

وبعد أن أكمل تمام السنتين، وفطم من الرضاع عادت به حليمة الى مكة لزيارة أمه وذويه، فحدثتهم عن آثار عظمة الطفل، ومظاهر الخير فيه، ثمّ عادت به الى الحي مجدداً.

الاعداد الالهي المباشر:

ومما يلفت نظر المتتبع لحياة الرسول (ص) منذ تلك السن المبكرة شعور المتتبع بخضوع النبي (ص) خضوعاً مباشراً لرعاية الله سبحانه وتعالى، لا الرعاية الصحية والنمو السليم فحسب، وإنما الرعاية الخاصة بالاعداد المباشر من أجل النهوض بأعباء الرسالة العظمى فيما بعد.

وقد انطوت كتب السيرة على أحداث غاية في الاهمية تجسد بعمق حقيقة أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كان خاضعاً لِلَون خاص من الاعداد الالهي لتحمل أعباء المستقبل، وهذه جملة بما تقطع به كتب السيرة الصحيحة في هذا المضمار: ـ فعن علي بن أبي طالب (ع) في خطبته القاصعة:

(ولقد قَرَنَ الله به ـ صلى الله عليه وآله ـ من لدن أن كان فَطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره. . .)[5].

وعن الامام محمد بن علي الباقر (ع) وهو بصدد الاشارة إلى مسألة

---

(٥) نهج البلاغة للامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع)/تبويب صبحي الصالح ط ١ س ١٩٦٧ ص ٣٠٠.

الاعداد الالهي الخاص لرسول الله (ص) قبل الدعوة: **(ووكل بمحمد ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده الى الخيرات، ومكارم الاخلاق، ويصده عن الشر ومساوىء الاخلاق)**[6].

وللامام أبي عبد الله الصادق (ع) إشارة لهذا المعنى في حديث له أيضاً[7].

ولقد كان من آثار ذلك الاعداد الرباني المباشر للرسول (ص) انه كان موحِّداً لله عز وجل منذ سني حياته الأُولى، وكان يعلن عداءه للاوثان بلا تحفظ[8]، وكان يحج بيت الله تعالى، ويأبى تناول ما يذبح على النصب، فضلاً عن تسميته على كل طعام[9]، وحمده لله تعالى بعده، الى جانب ما تحلى به من الاستقامة في الخلق، والتزام الفضيلة في القول والعمل، حتى عرف عند عموم الناس بـ «الصادق الأمين» كصفة مميزة له عن سواه.

في كفالة جده:

حتىٰ إذا بلغ المصطفىٰ (ص) الخامسة من عمره عادت به حليمة السعدية الىٰ أمّه، وذويه في مكة، حيث وجد في جده عبد المطلب خير راع له اذ وفر له كل ما يتطلب من حنان فياض وعطف أبوي غامر، فكان يأكل معه، ويدخل عليه في خلوته ليؤنسه، ويجلس على فراشه، ويدنيه منه في مجلسه، ويشدد على العناية به من عامة أهله وبنيه.

كل ذلك كان يؤديه عبد المطلب لا بدافع عاطفي، باعتبار ان محمداً (ص) وديعة فقيده عبد الله فحسب، ولكن لتوسمه في أن لابنه هذا شأناً لا بد أن يصير اليه في مستقبل أيامه.

ومن أجل ذلك كان يوصي به ابنه أبا طالب، وأُم أيمن.

---

(٦) بحار الانوار ج ١٥/للشيخ المجلسي ط طهران ص ٣٦٣.

(٧) الميزان جـ ١٨ ص ٨٠.

(٨ و ٩) الوفا باحوال المصطفى/لابن الجوزي جـ ١ ص ١٣٣، والبحار جـ ١٥ ص ٤١٠.

وحين بلغ السادسة من عمره الشريف، ذهبت بـه أُمه آمنـة بصحبة أم أيمن، لزيارة أخواله بني عدي بن النجار في المدينة، وبعد أن مكثوا هنالك شهراً، قفلوا راجعين الى مكة، وفي الطريق لاقت أمه آمنة منيتها، فدفنت في الابواء، وهي قرية بين مكة والمـدينة، فعـادت به ام ايمن الى جـده، حيث اضطلعت بدور الامـومة كمـا كان جـده مضطلعـاً بدور الابـوّة، على أن عبد المطلب قد اختطفته يد المنون هـو الآخر، فقـد توفي والمصـطفى في السنة الثامنة من عمره الشريف.

في رعاية أبي طالب:

فتولى رعايته عمه أبو طالب[١٠] الذي عامله بالحدب والعطف والرعـاية الابوية الفائقة، بشكل لم يحظ به أحد من أبنائـه قط، فكان ينـام في فراش عمه، ويجلسه في جنبه، ويأكل معه، ويخرجه اذا خرج من داره.. الى غير ذلك من ألوان الرعاية والحدب والاهتمام.

مرحلة الشباب:

وما أن استقبل الرسول (ص) مـرحلّة الشباب حتى شَمَّـر عن ساعـدي الجـد لممارسـة العمل لكسب قـوته، فـرعيُ الغنم كـان أولُ عمـل مـارسـه الـرسول (ص) كمـا حدث بـذلك جـابر بن عبـد الله (ص)، قائـلاً: كنا مـع النبي (ص) نجني الكبـاث ـ وهو ثمـر شجر الاراك النـاضـج ـ فقـال (ص): (**عليكم بالأسود منه، فانه أطيبه، فاني كنتُ اجنيه إذ كنتُ أرعىٰ الغنم**)، قلنا: وكنتَ ترعىٰ الغنم يا رسول الله؟

قال: (**نعم وما من نبي إلا وقد رعاها**)[١١].

فبالرغم من أن الله سبحانه قادر على كفاية عبده ورسوله مشقة العمل،

---

(١٠) ورد ان عبد المطلب هو الذي إختار أبا طالب لكفالة النبي (ص) رغم انه لم يكن أكبر ولد عبد المطلب ولا أكثرهم مالاً، ولكنه كان شقيق عبد الله والد النبي (ص) لامه وأبيه.

(١١) امين دويدار/صور من حياة محمد/ ص ٧٦ ط دار المعارف بمصر.

غير انه تعالى أراد لرسوله أن يكون قدوة للناس، في الاجتهاد في العمل وعدم الاتكال على الغير.

حيث ان الاسلام قد شدد على ضرورة العمل واهميته على لسان رسول الله حيث قال (ص): (**ملعون من ألقىٰ كَلَّه على الناس**)[١٢].

وقال (ص): (**العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال**).

وقال كذلك: (**نعم العون على تقوىٰ الله: الغنىٰ**)[١٣].

في بيت الزوجية:

وفي الخامسة والعشرين من عمره الشريف، ذهب بتجارة الى الشام لخديجة بنت خويلد (رض)، حيث كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً واكثرهن مالاً وأحسنهن جمالاً وكانت تدعىٰ في الجاهلية بـ(الطاهرة) ويقال لها سيدة قريش. وقد اعتادت ان تضارب الرجال في تجارتها[١٤] وحين ذاع صيت المصطفىٰ (ص) بين الناس، وعرفت بصدقه وأمانته وكرم أخلاقه، واستقامة سلوكه، عرضت عليه ان يخرج لها بتجارة الى الشام وضاربته بأجر أكثر من سابقيه من الرجال، فخرج في قافلة لها بصحبة غلامها ميسرة، فباعا وابتاعا وعادا وافرين[١٥]، وراح ميسرة يحدث خديجة عن شمائل المصطفىٰ محمد (ص)، وسمو اخلاقه، فوقع في نفسها حب الرسول (ص) وإختارته لان يكون لها زوجاً لما عرفت فيه من كرم الاخلاق وشرف النفس والصفات العالية، وقد رفضت من قبل عظماء قريش الذين قدموا لخطبتها باذلين لها الأموال، فارسلت اليه نفيسة بنت منبه فقالت:

ـ ما يمنعك أن تتزوج؟

---

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) المضاربة: (في الشرع): عقد شركة في الربح بمال من رجل وعمل من آخر. (وفي الاقتصاد): عملية من بيع أو شراء يقوم بها أشخاص خبيرون بالسوق للانتفاع من فروق الاسعار.

(١٥) عاد وافرا/عاد وقد ربح.

ـ ما بيدي ما أتزوج به.

ـ فـان كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ الىٰ الجمـال والمال والشـرف والكفاءة الا تجيب؟.

ـ فمن هي؟

ـ خديجة!

ـ كيف لي بذلك؟

ـ عليَّ ذلك... فأجابها (ص) بالقبول.

ثم أرسل عمَّه ابا طالب[١٦] إلىٰ خطبتها من وليها وهو عمها، حيث كان ابوها قد مات، فوقع الاتفاق، وتزوَّجهـا المصطفى (ص) وكـان عمره خمسـاً وعشرين سنة، وقد اختلف في عمرها عند زواج الرسول (ص) منها[١٧] وذلك بعد عودته من الشام.

وقد انتقل بعد زواجها الى دارها، وحققا بذلك أروع تـلاحم عاطفي، معطر بالود والوفاء والرحمة.

---

(١٦) البحار جـ ١٦ ص ١٣ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠١ الهامش ط ١٩٣٦.

(١٧) ورد في بعض كتب السيرة ان رسول الله (ص) تزوج خديجة وهي ليست عذراء اي انها كانت قد تزوجت من قبل غيره، وان عمرها كان عند زواجها برسول الله(ص) أربعين عاماً، الا انه وردت روايات أخرىٰ تخالف ذلك، قال ابن شهر آشوب في كتابه.. وروىٰ أحمـد البلاذري وأبـو القاسم الكـوفي في كتابيهما، والمرتضىٰ في الشافي، وابو جعفر في التلخيص: إن النبي (ص) تزوج بها وكانت عذراء. يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الانوار والبدع: إن رقية وزينب كانتا إبنتي هالة أخت خديجة.
وقد نسبت بعض كتب السيرة، رقية وزينب، الىٰ خديجة، بزعمهم انها ولدتهما من زواجها السابق عن زواجها برسول الله (ص).
أما بخصوص عمرها حين زواجها برسول الله (ص) فهناك روايـات متعددة منهـا ان عمرها كان (٢٥) سنة وآخـر (٢٨) سنة، وثـالث (٣٠) سنة، ورابـع (٣٥) سنة، وخامس (٤٠) سنة، وسادس (٤٥) سنة..
ونقل مؤلف كتاب كشف الغمة من كتاب معالم العترة النبوية لابي محمد عبد العزيز الجنابذي الحنبلي انه روى عن إبن حماد وعن إبن عباس: ان رسـول الله (ص) تزوج خـديجة إثنتي عشر أوقية ذهبا وهي إبنة ثماني وعشرين سنة.

وكانت الى جانب حبها له، امرأة شريفة، ذات بصيرة تُحسِن تصريف الامور، في روية، تشد من أزره، وتعينه على النوائب، وتخفف من أعبائه.

ثم كانت أول من صدَّق رسالته من النساء[18]، وبذلتْ كلَّ ثروتها من أجل دعوته، وقد قابلها وداً بود، فلم يتزوج سواها حتى لحقتْ بالرفيق الأعلىٰ.

وقد ظلَّ طوال حياته يُثني عليها، ويذكر مآثرها أمام زوجاته، حتى قالت عائشة: ما غرتُ على نساء النبي (ص) الا على خديجة، واني لم أدركها. قالت: وكان رسول الله (ص) إذا ذبح الشاة، فيقول: أرسلوا بها الى أصدقاء خديجة قالتْ: فأغضبتُه يوماً، فقلتُ: خديجة!

فقال رسول الله (ص): **(اني رُزْقتُ حُبَّها)**[19].

وعن عائشة، قالت: كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيُحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت الا عجوزاً، قد أبدلكَ اللّهُ خيراً منها؟

فغضبَ، ثم قال: **(لا واللّهِ، ما أبدلني الله خيراً منها: آمنتْ بي إذ كَفَر الناس، وصدَّقتني، اذ كذَّبني الناسُ، وواستني بمالها، إذ حرمني الناسُ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء)**[20].

وقد اتسمتْ حياةُ محمد (ص) بالمثابرة والجد منذ صباه، وكان زواجه من خديجة (رض) قد منح حياته (ص) بعض الاستقرار والراحة، ووجد (ص) فيما غمرته به زوجته خديجة (رض) من حنان وعاطفة صادقين، ما يعوضه عن عاطفة الابوة، وحنان الامومة، اللذين فقدهما في مرحلة الصبا، من حياته الكريمة.

وفي هذه الفترة بالذات بدأت أرهاصات النبوة تتجلى في حياته، ومن أجل ذلك راح يستجيب لمتطلبات هذه المرحلة، فها هو، ينقطع في غار حراء

---

(١٨) اعلام الورىٰ/الطبرسي ص ٣٧.

(١٩) فقه السيرة/د. محمد سعيد رمضان البوطي ص ٦٣ نقلاً عن صحيح مسلم.

(٢٠) نفس المصدر/وللاستزادة يراجع امين دويدار، صور من حياة محمد ص ٩٠ ـ ٩١.

اياماً معلومة، وشهراً متواصلاً في كل عام يقضيه بالعبادة، والتأمل والانقطاع لرب العالمين، بعيداً عن أجواء الجاهلية ومفاسدها، في جو خاص من الاعداد الالهي، لحمل الرسالة العظمى.

واستمر هذا اللون من الممارسة حتى بلغ الأربعين من العمر حيث أشرق الوحي المقدس على روحه وقلبه حاملاً له أول بيان من الرسالة الخاتمة: ﴿**إقرأ باسم رَبّكَ الذي خَلَقَ . . .**﴾.

هذا ومن الجدير ذكره ان البشائر التي ذكرتها الكتب السماوية كانت تُبشر بقرب مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان علماء اهل الكتاب يعرفون ذلك معرفة جيدة، لولا أنهم أخذتهم العصبية عندما ظهر الحق وتجلى لكل ذي عينين.

وقد حكى القرآن الكريم ما كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج في هذا المضمار: ﴿**ولـما جاءَهُم كِتابٌ مِنْ عندِ الله مُصَدِّق لِما مَعَهُم، وكانُوا مِنْ قَبلُ يَستَفْتِحونَ على الّذينَ كفروا، فلمَّا جاءَهُم ما عرفوا كفروا بِهِ، فَلعنةُ الله على الكافرين**﴾[٢١].

وهكذا كانت البشائر تترى، والأحاديث تلفُّ الجزيرة، وعلماءُ أهل الكتاب يقرأون في كتبهم عن اقتراب بعثة نبي جديدٍ يملأ الدنيا نوراً، وهداية وبركة.

المكانة الاجتماعية:

على أنه (ص) طوال الخمس عشرة سنة، أو العشرين من عمره قبل الدعوة تركزتْ شخصيته الاجتماعية، فاشتهر بسمو الأخلاق، وكرم النفس والصدق والامانة، حتى صارت ميزة له دون سواه ـ كما أسلفنا ـ .

وقد تجلَّت قوة شخصيته الاجتماعية في حادثة بناء الكعبة المشرفة، فالكعبة قد تعرضت، لسيل جارف، بعد حريق أصابها مما سبب ضرراً فادحاً

---

(٢١) ـ البقرة/ ٨٩.

ببنائها، فرأت قريش أن تعيد بناءها، فخرج الوليد بن المغيرة، في نفر من قريش وابتاعوا خشب سفينة كانت قد تحطمت عند جدة، وأعدُّوه لتسقيفها، وكان بمكة نجار يدعى: باقوم، وهو مولى لسعيد بن العاص، فأمروه أن يمارس البناء.

وقد اشتركت قريش بجميع قبائلها بالبناء، فلما أرادوا وضع الحجر الاسود في موضعه، دَبّ النزاع في قريش، حول من يضطلع بشرف وضع الحجر الأسود في موضعه المعلوم. وودت كل طائفة أن تنال ذلك الشرف دون سواها.

وتأزم الموقف، وكاد أن يفلت الزمام، لولا أن أبا أُميّة بن المغيرة ـ وكان أسنهم ـ قد اقترح عليهم، ان يُحكموا بينهم، اول من يدخل عليهم من باب بني شيبة، فاستجابوا لمشورته، وانتظروا طلعة المنقذ، وطلع عليهم المصطفى (ص)، فلما بصروا به، قالوا: هذا الامين، رضينا به.

هذا محمد..!

فلما أنتهى اليهم وأخبروه خبرهم، قال (ص).هَلُمَّ إليّ ثوبا، فأتى به، فبسطه على الأرض، ثم وضع الحجر الاسود فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ثم أرفعوه جميعاً، ففعلوا حتى اذا بلغوا موضعه حمله بيده الشريفة ووضعه في مكانه الخاص.

حلف الفضول

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى أن المصطفى (ص)، قد شارك في حلف الفضول الذي عقد بين زعماء القبائل العربية بعد حرب الفجار المفجعة[٢٢]، حيث حقق الحلف المذكور، نصراً للمظلومين بعد الاتفاق بين الاطراف المتنازعة على درء المظالم، والتعاون على نصرة الحق، والدفاع عن المظلوم.

---

(٢٢) حرب الفجار: حرب وقعت بين قريش وحلفائها وبين هوازن، وحضرها النبي (ص) وعمره زهاء عشرين سنة.

وقد ورد عن الرسول (ص) ثناء جميل على ما حققه ذلك الحلف بقوله (ص): (ما أحب أن لي بحلفٍ حضرتُه في دار ابن جدعـان حمر النعم[٢٣]، **اعذر به هـاشم وزهرة وتيم، تحـالفوا ان يكـونوا مـع المظلوم مـا بلَّ بحـر صوفه، ولو دعيت به لاجبت، وهو حلف الفضول)**[٢٤].

وَكانت البعثة . . .

حين نتتبع حياة رسول الله (ص) نجد أنه (ص) حين جاءه جبـريل (ع) بأول بيان إلهي بالرسالة لم يفاجأ أبداً، وانما كانت حياته تمر باعداد خاص، فمنـذ مطلع حيـاته كـان يتعهده ربُّـه الأَعلى بالعنـاية والاعـداد وكـان يصنـع شخصيتَه على عينه كما ذكر ذلك الامام علي (ع) في خطبته القاصعة، وكما أشار الامام الباقر (ع) في حديث له بهذا الصدد.

ومع استمرارية ذلك الاعداد الالهي؛ بدأ انقطاع الرسول (ص) في غار حراء، للعبادة والتأمل ـ غار حراء كهف صغير بأعلى جبل حراء في الشمـال الشرقي من مكة ـ وهو لا شك لون من ألوان الاعداد، او مظهر من مظاهره، وقد كان اقصى انقطاع له في الغار شهراً كـاملاً، وهـو شهر رمضـان من كل سنة.

على أنـه كان ينقـطع كذلـك في الليالي ذوات العـدد، ثم بدأ يسمـع الصوت، ويرىٰ النور، ويرىٰ الرؤيا الصادقة[٢٥] التي تأتي كفلق الصبح.

النبي الرسول:

وحين بلغ الاربعين من عمره المبارك، نزل عليه جبـريل عليـه السلام

---

(٢٣) حمر النعم: الابل.

(٢٤) محمد رسول الله (ص)/محمد رضا ص ٣٧/ دار الكتب العربية بيروت ١٩٧٥، وتهذيب سيرة ابن هشام/عبد السلام هارون/ط ٣، ١٩٦٤ القاهرة ص ٤١.

(٢٥) إعلام الورى بأعلام الهدى/للشيخ الطبرسي ص ٣٦.

بالرسالة الخاتمة تالياً عليه أول بيان سماوي:

﴿إقْرأْ باسْمِ رَبِّـكَ الذي خَلَق. خَلَقَ الانسـانَ مِنْ عَلَق. إقْرأْ وَرَبُّـكَ الأكرم. الذي عَلَّمَ بالقَلَم. عَلَّمَ الانسانَ ما لَمْ يَعْلَم﴾[٢٦].

فعاد المصطفى (ص) الى داره حاملاً مشعـل الخير والهدى والخلاص للعالمين.

ولا بد أن يكون جلال الموقف، وعظمة المشهد اللذين تجليا له قد أثّرا في نفسه العظيمة، فاضطجع في فراشه ليأخذ قسـطاً من الراحـة، وفي هذه اللحظات بالذات كان الاتصال العلوي الثاني: **﴿يا ايُّها المدثِّر. قُمْ فَـانذرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثيابَكَ فَطَهِّر. والرجزَ فاهجُرْ...﴾**[٢٧].

وهكذا أَمَرَ الله تعالى رسوله (ص) بحمل الدعوة الالهية الىٰ الناس..

حالات الوحي

ومن المفيـد أن نشير الى نمط الـوحي الذي ظـلَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله يتلقىٰ الحق والهدىٰ في ضوئه:

قال تعالى موضحاً صور الوحي المقدس: **﴿وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يكلمَهُ اللّهُ إلا وحياً أو مِنْ وَراءِ حِجابٍ اوْ يُرسِلَ رسولا، فيوحي باذنه ما يشاءُ إنه عليٌ حكيمٌ وكذلكَ أوحينـا اليكَ روحـاً من أمرنـا ما كُنْتَ تَـدري مَا الكتـاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي بـه مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبـادِنا وانـكَ لتَهدي الى صراطٍ مستقيمٍ﴾**[٢٨].

فالمستفاد من النص القرآني ومن السنة الشريفة بهذا المضمار ان صور

---

(٢٦) سورة العلق ١ ـ ٥.

(٢٧) المدثر. ويراجع تفسير الميزان جـ ٢٠ ص ٧٩ تفسير سورة المدثر.

(٢٨) الشورى ٥١ ـ ٥٢.

الوحي متعددة:

فمرة يتلقى الرسول (ص) الحق من الله عز وجل مباشرة دون واسطة وهو اشد انواع الوحي جلالاً، وعظمة وتأثيراً على نفسية المصطفى (ص)، حتى ان سيرته العطرة تفيد ان بغلته تبرك[٢٩]، اذا تلقى الوحي بهذه الصورة وهو عليها، وان جبينه ليتصبب عرقاً في اليوم الشديد البرد[٣٠].

ومرة يكون الوحي عن طريق رسول خاص من الله تبارك وتعالى الى رسوله (ص) كجبريل (ع) بصورته الملائكية او يتمثل للرسول (ص) بشراً.

ـ ومن صور الوحي كذلك الرؤيا الصادقة، فانّ الأنبياء (ع) لا تنتابهم أضغاث الأحلام، وما يرون في حالات نومهم كالذي يرونه في يقظتهم بالنظر لما يتمتعون به من طاقات روحية جبارة، يستلهمون الحق من خلالها في حالتي اليقظة والنوم سواء بسواء.

وبالاضافة الىٰ ذلك فهناك التسديد الالهي عن طريق الالهام وتسديد روح القدس له.

الرسول يباشر الدعوة:

ولقد بادر رسول الله (ص) الىٰ إعلام علي (ع)[٣١] بأمر الدعوة ـ وكان يومها صبياً طاهراً على فطرة الله التي فطر الناس عليها، لم تُدَنِّسهُ الجاهليةُ بدنس قط، وكان يومها في كنف المصطفى (ص) يحظى برعايته وتربيته ـ فلبى دعوة الله وعانقت روحها روحه.. وعرض رسول الله (ص) دعوته على زوجه خديجة فلبت نداءه وأعلنت الايمان بالرسالة وتشكلت أول نواة لمجتمع المتقين في الارض.

ثم راح يدعو من يتوسم فيه الاستجابة من الناس حتىٰ تكاملوا أربعين

---

(٢٩) بحار الانوار جـ ١٥ (كيفية صدور الوحي).

(٣٠) الميزان جـ ١٨ بحث روائي حول آية (٥١) من الشورى.

(٣١) مسند احمد بن حنبل جـ ٢ ص ٣٦٨ ومستدرك الحاكم جـ ٤ ص ٣٣٦ والكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ٢٢ والاستيعاب جـ ٢ ص ٤٥٩ وغيرها.

شخصاً اغلبهم من الشباب، ومن شتى قطاعات المجتمع، اذ كان فيهم الفقير والغني والقوي اجتماعياً والضعيف، وكانوا اولاً يتعلمون القرآن واحكام الرسالة، ويقيمون الصلاة في الشعاب بعيداً عن أعين الرقباء، وكان (ص) يعين لكل من يسلم حديثاً مؤمناً أسبق منه، يفقهه ويرشده لمعالم الحق.

دار خاصة للدعوة:

ولما ازداد عددهم، وخشوا ان ينكشف تجمعهم اتخذوا دار الارقم المخزومي مدرسة للتعليم والاعداد، وفقاً لمقتضيات المنهج الرباني.

فكانوا يجتمعون فيها ويتعلمون القرآن واحكامه، ويقيمون الصلاة ويتأملون في آيات الله، ويتدبرون في مخلوقاته، ويتعلمون الصبر على الأذى والطاعة، والانقياد لله ولرسوله.

دعوة الاقربين

وبعد أن مضت على هذا اللون من الدعوة الى الاسلام ثلاث سنين، اذن الله سبحانه لرسوله (ص) ان يستفيد من الظروف القبلية التي كانت سائدة في محيطه: ﴿. . **وأنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين، واخْفِضْ جناحَكَ لِمَن آتبعكَ مِنَ المؤمنين، فإنْ عصوكَ فقلْ: إني بريءٌ مما تعملون**﴾[٣٢].

فدعا عشيرته الى طعام، وكانوا أربعين رجلاً، وما أن تأهب الرسول (ص) للحديث حتى قاطعه عمه عبد العزى بن عبد المطلب المعروف بأبي لهب، وحذره من الاستمرار في الدعوة، وحال دون تحقيق هدف الرسول (ص)، فانفض المجلس من غير ان يباشر النبي (ص) عملية دعوته لقومه.

ومضت ايام فدعا الرسول (ص) عشيرته مجدداً، وبعد أن فرغوا من الطعام، بادرهم (ص) بقوله:

(يا بني عبد المطلب ان الله بعثني الى الخلق كافة، وبعثني اليكم

---

(٣٢) الشعراء ـ ٢١٤/٢١٦.

خاصة، فقال: ﴿وانذر عشيرتَكَ الأقربين﴾، وأنا ادعوكم الى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان تملكون بها العرب والعجم، وتنقاد لكم بها الامم، وتدخلون بها الجنة، وتنجون بها من النار: شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله، فمن يجيبني الى هذا الامر، ويؤازرني عليه وعلى القيام به يكن اخي، ووصيي، ووزيري، ووارثي، وخليفتي من بعدي...)[٣٣].

وبين تنديد أبي لهب وتحذيره لرسول الله (ص) من الاستمرار بالدعوة من جهة وتأييد ابي طالب للرسالة من جهة اخرى ومخاطبته للرسول (ص) بقوله: (**فامض لما أمرت به فوالله لا ازال احوطك وامنعك**)[٣٤]، يقف علي بن ابي طالب (ع) ـ وكان أصغر الحاضرين سناً ـ فيدوي صوته: (**أنا يا رسول الله أؤازرك على هذا الأمر**)، فيأمره رسول الله بالجلوس.

ويكرر الرسولُ (ص) دعوتَه، فلم يُجِبْهُ غيرُ علي (ع)، ويعيدُ الرسولُ (ص) دعوتَه على قومه، فكان صوتُ علي وحده يلبي الدعوة، ويهدر بالمؤازرة والنصرة، وحيث لم يلب دعوة الله غير علي (ع) التفت اليه رسولُ الله (ص) قائلاً: (**اجلس، فأنتَ اخي ووصيي ووزيري، ووارثي، وخليفتي، من بعدي**)[٣٥]. فنهض القوم من مجلسهم، وهم يخاطبون ابا طالب ساخرين: (**ليهنئك اليوم أن دخلتَ في دين ابن اخيك، فقد جعل ابنَكَ أميراً عليك!**)[٣٦].

الدعوة العامة:

ثم ان الرسول (ص) دعا قريشاً الى الاسلام، حين أمره ربه الاعلى

---

(٣٤) الكامل لابن الاثير جـ٢ ص ٢٤ والبحار جـ١٨ ص ١٦٤ وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١٠٢.

(٣٣و٣٥و٣٦) اخرج الحديث كل من: البيهقي في سننه ودلائله والثعلبي والطبري في تفسيرهما لسورة الشعراء في تفسيرهما الكبيرين، والطبري في تاريخه جـ٢ ص ٢١٧ وابن الاثير في الكامل جـ٢ ص ٢٢، والسيرة الحلبية جـ١ ص ٣٨١ واحمد بن حنبل جـ١ ص ١١ وص ١٥٩ والنسائي في خصائصه ص ٦ وكنز العمال جـ٦ رقم الحديث ٦٠٠٨ وغيرها بالفاظ متقاربة.

سبحانه بذلك: ﴿فـأصْدَعْ بمـا تؤمر واعـرض عن المشركين. . .﴾[٣٧] حيث صعـد على الصفا وصـاح: (يا صبـاحاه يـا صباحـاه)، وكان ذلـك من عـادة العرب، اذا أرادوا الاجتماع لامر مهم، فاجتمعت اليه قريش فقالوا: ما لك؟

فقـال: (أرأيتُم إن أخبرتكم أنَّ العـدوَّ مصبحكم أو ممسيكم أمـا كنتم تصدقونني؟).

قالوا: بلى.

قال: (فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة. . انقذوا انفسكم من النار، فانني لا اغني عنكم من الله شيئاً، ان مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد اهله ان يسبقوه اليهم).

فقاطعه ابو لهب بقوله: (تباً لكَ، الهذا دَعَوْتَنا؟).

فأنزل الله تبارك وتعالى فيـه: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ وَتَب. مـا أَغنىٰ عنهُ مالُه وما كَسَب. سَيَصْلىٰ ناراً ذاتَ لَهَب. وامرأته حمَّالةَ الحَطَب. في جيدها حبلٌ مِنْ مَسَد﴾[٣٨].

بيد أن إعلان الرسول (ص) ذلك لم يذهب سـدى، فقد كـان له أثـره البـالغ في إسـلام البعض وانضوائهم تحت رايـة «لا إله إلا الله» اضـافة الىٰ دخول نبأ الدعوة الالهية الىٰ كل بيت.

لكن الاعلان المذكور ذاته قد كان فاتحة عهد صراع مرير بين دعوة الله الفتية وكبرياء الجاهلية العربية.

بداية الصراع الفعلي:

تمحورت سياسة رد الفعل من قبل الجاهليين حول مظهرين:

١ ـ استهدف جانب منها شخصية الرسول (ص) بالذات:

في بداية الدعوة، كـانت قريش تنـظر الى رسول الله (ص) كمـا كانت

---

(٣٧) سورة الحجر ـ ٩٤.

(٣٨) سورة المسد.

تنظر للرهبان والحكماء، الذين سرعان ما يخمد تأثيرهم، ويعود الناس بعدهم الى دين الآباء الوثني. ولكن تيار الدعوة الفتية حين بدأ يشق طريقه في المجتمع، ويحقق انتصاراً ملحوظاً، من ناحية اجتماعية، وراحت آيات الله تندد بالاوثان، وبعبادة الاوثان، وتدعو الى الله الواحد الاحد، وتنذر بالعاقبة الوخيمة لغير المؤمنين. عندها احست قريش بالخطر، فجاهروا بعداء الرسول (ص) ودعوته، علىٰ انّ عداءهم له بدأ سلمياً في بادىء الامر، فقد سلكوا سبيل الحط من شأنه وتكذيبه، وراحوا يسألونه عن معجزاته، ويطالبونه بتحويل الصفا والمروة ذهبا، أو يفجر لهم من الارض ينبوعاً، أعذب من ماء زمزم، أو يسيّر الجبال عن أماكنها أو يحيي الموتى الى غير ذلك.

ولكن ذلك الاسلوب التهكمي حيث لم يثنه عن دعوته، اعتمدوا اسلوب الدعاية التزويرية الواسعة، وترويج الاشاعات، فمرة يصفونه بالكذاب، واخرى بالشاعر، وثالثة بالساحر، واستغلوا كل مناسبة، واتسعت دعاياتهم بقصد عزل الرسول (ص) عن المجتمع حتى بلغت الحبشة ويثرب وسواها.

فمن اهتمامهم بأمر الاعلام المضلل، ووسائله، أنهم اجتمعوا يوماً عند الوليد بن المغيرة ـ وكان من دهاة العرب ومن اكبر المستهزئين بالرسول والرسالة ـ فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد؟! أشعر هو أم كهانة، أم خطب؟

فقال الوليد: دعوني اسمع كلامه، فدنا من رسول الله (ص) وكان (ص) عند الحجر يتلو القرآن المجيد.

فقال: يا محمد انشدني من شعرك.

قال (ص): **(ما هو شعر ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وانبيائه ورسله)**.

قال الوليد: اتل علي منه شيئاً.

فقرأ رسول الله (ص) حم السجدة، فلما بلغ قوله تعالى: **﴿فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾**، اقشعر الوليد واخذته رعدة وولى الى داره، ولم يعد الى قريش.

فذهبت قريش الىٰ أبي جهل، فقالوا: يا أبا الحكم ان أبا عبد شمس صبا الىٰ دين محمد، اما تراه لم يرجع الينا، فغدا ابو جهل الى الوليد فقال: يا عم، نكست رؤوسنا وفضحتنا، واشمتَّ بنا عدونا، وصبوت الىٰ دين محمد!

قال الوليد: ما صبوت الى دينه ولكني سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

فقال أبو جهل: أخطب هو؟!

قال: لا ان الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً.

قال: أفشعر هو؟!

قال: لا أما اني سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها، ورجزها، فما هو بشعر.

قال: فما هو؟!

قال الوليد: دعني أُفكر!

وفي اليوم التالي، قالت قريش: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟

قال: قولوا: هو سحر، فانه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله سبحانه على رسوله (ص) في تلك الحادثة قوله تعالى:

﴿ذَرْني وَمَنْ خلقْتُ وَحيدا. وَجَعَلْتُ لهُ مَالا مَّمْدودا وبنينَ شُهودا، وَمَهَّدتُ لهُ تَمْهيدا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزيدَ. كلا إنَّهُ كان لآياتنا عَنيدا. سأُرهقُهُ صَعُودا. إنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّر. فَقُتِلَ كيف قَدَّر. ثُمَّ قُتِلَ كيف قدَّر. ثُم نَظَرَ ثم عَبسَ وَبَسَرَ. ثم أدبرَ واستكبر. فقال ان هذا إلا سِحر يُؤثَر. إنْ هذا إلا قَولُ البَشَر. سأُصْليه سَقر. وما أَدراك ما سَقر. لا تُبْقي ولا تَذَر﴾[٣٩].

ومع الدعاية الواسعة، استعملوا الاغراء والمساومات، فقد أرسلت قريش يوماً عتبة بن ربيعة احد زعمائها، للتفاوض مع الرسول (ص)، فقال له:

---

(٣٩) سورة المدثر ١١ ـ ٢٨.

(. . . يا ابن أخي، ان كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالا، جمعنا لك من اموالنا، حتى تكون اكثرنا مالا، وان كنت تريد به شرفا، سودناك علينا حتى لا نقطع امرا دونك، وان كنت تريد منه مُلْكا، مَلّكناك علينا، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه[٤٠] لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فانه ربما غلب التابع[٤١] علىٰ الرجل، حتى يداوى منه).

فلما فرغ عتبة من عروضه، خاطبه رسول الله (ص): افرغت يا أبا الوليد؟!

قال: نعم.

قال (ص): فاسمع مني!

قال: افعل.

فتلا (ص) عليه سورة فصلت: **﴿حم تَنزيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرحيم. كتابٌ فُصِّلتْ آياتُه. قرآناً عربياً لِقَومٍ يَعلَمون. بشيراً ونذيراً، فَأَعْرَضَ أكثرهم فهم لا يَسمَعُون. وقالوا: قُلوبُنا في اكنَّة مِمَّا تَدعُونا اليه، وفي آذانِنا وَقْرٌ، ومن بيننا وبينكَ حجاب، فاعملْ اننا عاملون. قُلْ: إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحىٰ اليَّ: انما الٰهكُم، الهٌ واحدٌ، فاستقيموا اليه، واستغفِروه وَويلٌ للمُشْركينَ الّذينَ لا يُؤتُونَ الزكاةَ وَهُم بالآخِرةِ هُم كافرون. إنَّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لَهُمْ اجر غيرُ مَمْنون. . .﴾**، حتى بلغ (ص) آية السجدةَ، فسجدَ، وعتبةُ مصغٍ اليه.

ثم قال (ص): **(قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك).**

فعاد عتبة مرتبكاً حتى قال اصحابه:

ـ نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، وما ان جلس بينهم حتى قال: **اني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط.**

(٤٠) الرئي: ما يتراءى للمرء من الجن.

(٤١) التابع عند عرب الجاهلية فرد من الجن يصيب المرء بمس من الجنون.

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم اسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!

قال: هذا رأيي فيه، فأصنعوا ما بدا لكم..[٤٢].

ثم أرسلوا له وفداً من زعمائهم فعرضوا عليه نفس العروض السابقة بيد انه اجابهم بقوله: (.. **ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا، وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وان تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**...)[٤٣].

الضغط العائلي:

ثم اتجهوا للضغط عليه عائلياً، حيث اتصلوا بعمه ابي طالب، فشكوا امره اليه، قائلين: انه سب الالهة، وسفه الاحلام، وفرق الجماعة، فاما ان يكف، او تخلي بينه وبين قريش، فردهم ابو طالب رداً جميلاً.

فعادوا مرة ثانية الىٰ أبي طالب، وقالوا مثلما قالوا في المرة الاولى، واضافوا في عرضهم عليه، أن يعطيهم محمدا (ص) على أن يعطوه كبديل له عمارة بن الوليد بن المغيرة.

وقالوا: لقد جئناك بفتى قريش، جمالا، ونسبا، ونهادة وشعرا.

فأجابهم أبو طالب: (**والله ما أنصفتموني: تعطوني ابنكم اغذوه لكم،**

(٤٢ و٤٣) الرسول (ص) /سعيد حوى/ جـ ١ ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥.

واعطيكم إبن أخي تقتلونه! أتعلمون ان الناقة إذا فقدت ولـدها لا تحن الى غيره . .)[٤٤].

ولما خاب سعيهم للمرة الثانية عادوا بعـد حين للمرة الثـالثة، ولكنهم هذه المرة جاؤوا غضابا، وقالوا لابي طالب: (والله لا نصبر على شتم ابائنا، وتسفيـه احلامنـا، وعيب آلهتنا حتى تكفـه عنا، أو ننـازله وإيـاك، حتى يهلك أحـد الفريقين . .)[٤٥].

فعـظم الامر علىٰ أبي طـالب، واختلى بالـرسـول (ص)، واخبـره بمـا جاءت به قريش هذه المـرة، وكيف انه لا يقـوى على منازلتهم جميعـاً، ولا يمكن ان يخلي بينه وبينهم، فأطرق الرسول (ص) قليلا، وقال: (. . **يا عم والله لـو وضعوا الشمس في يميني، والقمـر في يسـاري علىٰ أن أتـرك هـذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك فيه . .**).

وقام الرسول من عند عمه، والحزن يأخذ منـه كل مـأخذ، فـدعاه أبـو طالب اليه، وخاطبه، بكل شجاعة: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، **فوالله** لا اسلمك لشيء ابدا. وقال:

والـلّهِ لَن يَـصِلوا الـيـكَ بِجَـمْـعِـهِـمْ ... حـتـى اوسَّـدَ فـي الـتُّـرابِ دفـيـنـا
فـاصدعْ بـأمِركَ مـا عليـكَ غضـاضـة ... وآبشـرْ بـذاكَ وقـر منـك عيـونـا
ودعـوتَني وعـلمتُ انـكَ نـاصـحي ... ولـقـد دعـوتَ وكـنـتَ ثُـمَّ امـيـنـا
ولـقـد علمـتُ بـأنَّ ديـنَ مـحـمـدٍ ... مـن خيـر أديـان الـبـريَّـةِ ديـنـا[٤٦]

وقد التف بنو هاشم حول الرسول (ص) واجمعوا علىٰ الذود عنه[٤٧]، الا

---

(٤٤) سيرة الرسول (ص) للسيد محسن الامين العاملي ص ٤١ ـ ٤٢.
(٤٥) المصدر السابق.
(٤٦) رواه الثعلبي في تفسيره نقلاً عن مقاتل وعبد الله بن عباس، والقسم بن محضره، وعطاء بن دينار، ويراجع لنفس الغرض خزانـة الادب للبغدادي/جـ ١ ص ٢٦١، وتاريخ ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢ والاصابة جـ ٤ ص ١١٦، والمواهب اللدنيـة جـ ١ ص ٦١، السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣٠٥ والسيرة النبوية لزيني دحلان هامش الحلبية جـ ١ ص ٩١ و ٢١١، شرح ابن ابي الحديد جـ ٣ ص ٣٠٦ وغيرها.
(٤٧) صور من حياة محمد ص ١٥١.

أبو لهب، فقد تمزق حقدا وهو يرى رسول الله (ص) يحظى بالدعم الاجماعي من عشيرته.

ولما فشلت المفاوضات، جاء دور الاضطهاد المادي للرسول (ص)، وقد إتخذ ألوانا شتّىٰ:

رجموا بيته بالحجارة.

وألقوا رحم الشاة المذبوحة للأصنام عليه.

ألقوا النجاسات أمام داره.

وضعوا الشوك في طريقه.

ألقوا التراب على رأسه.

وضعوا سلى الذبيحة على رأسه وهو ساجد.

وقد خنقه عقبة بن ابي معيط في رجال من قريش حتى كادت روحه (ص) تفيض.

وسلطوا الصبيان عليه يرمونه بالحجارة[٤٨]، الىٰ غير ذلك، وكان (ص) يتلقى ذلك بالصبر، ويحتسب كل ذلك عند الله تعالى، وهو يقول: «**ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت**...».

٢ ـ اضطهاد السابقين الىٰ الاسلام:

وإذا كان الرسول (ص) قد فاوضته قريش، وشكته الى عمه وساومته قبل ان تعمد الىٰ إيذائه، فان السابقين من المؤمنين، لم تنتظر بهم قريش طويلاً، فقد عاملتهم منذ البداية بالارهاب، والاضطهاد، والايذاء، والتشريد.

فما أنْ عرفت قريش اتباع رسول الله (ص) حتى صبَّتْ عليهم العذاب صبا:

فبلال الحبشي، عليه الرحمة، كان يُعذَبه أُميةُ بن خلف الجمحي بأن يلقيه ـ وقت الظهيرة ـ على وجهه، أو ظهره في الرمضاء ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على صدره، وهو يقول له: لا والله لا تزال كذلك حتى تموت،

(٤٨) نفس المصدر ص ١٥٧ وسيرة الرسول ص ٤٣.

او تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيجيبه بلال، وهو تحت التعذيب: أحد، أحد. . .

وكان بنو مخزوم يعذبون ياسراً وابنه عماراً وزوجته سمية وكانوا يخرجونهم الى الابطح ـ وهو أرض واسعة يكثر فيها الحصى ـ ويعذبونهم بالرمضاء، إذا حميت، حتى استشهد ياسر تحت العذاب، وطعن ابو جهل سمية بحربة، فاستشهدت.

وأما عمار فقد رأى من القوم صنوف العذاب، بيد انه ثبت على عقيدته بالرغم من ذلك.

ويذكر ان رسول الله (ص) مر يوماً على آل ياسر، وهم يعذبون فقال: **(صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة. .)**.

وكان خباب بن الأرت، يعريه الكفار ويلصقون ظهره بالرمضاء، إذا حميت، أو يحمون له الحجارة بالنار ويضعونها على جسمه، وقد لووا رأسه، فما اثناه ذلك عن دينه. .

وغير هؤلاء كثير.

ولم يكن الاذى مقصوراً على الضعفاء من المؤمنين وانما كان يمتد ايضاً الى الاقوياء اجتماعياً واقتصادياً ممن لهم قبائل وسطوة وثروة، ولقد وصف ابن عباس ما كان يلاقيه المؤمنون من الاذى بقوله: (. . . **والله ان كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به**)[٤٩].

وازاء ذلك العذاب الأليم، كان رسول الله (ص) يحثُّ أتباعه علىٰ الصبر واحتمال الأذىٰ، ويشجعهم علىٰ الصمود حتى يأتي الله بنصره، فقد ورد عن الخباب قوله: اتيت رسول الله (ص)، وهو متوسد ببردة، في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: الا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال: **(قد كان من قبلكم، لتمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم**

---

(٤٩) سبيل الهدى والرشاد جـ ٢ الباب الخامس عشر ص ٤٧٦.

أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه! ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه وَلَيُتِمَّنَّ اللّهُ هذا الامر، حتى يسير الراكبُ من صنعاء الى حضرموت، ما يخاف الا الله عز وجل، والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون)(٥٠).

الهجرة الى الحبشة:

وحين تَحَجَّرتْ مكةُ في وجه الدعوة الىٰ ذلك الحد المؤلم، رأى الرسول (ص) ان يأذن لعدد من اتباعه، بالهجرة الى الحبشة، ليوفر لهم حماية، ومنجى من الاضطهاد على الاقل، وقد هاجر منهم فعلا أحد عشر رجلا، وأربع نسوة، خرجوا متسللين حتى إذا بلغوا البحر، وجدوا سفينتين للتجار، فاستأجروهما الىٰ الحبشة.

وحين بلغ قريشا أمرهم، تبعتهم عصابة منهم الىٰ البحر فلم تجد لهم أثرا.

ووصلوا أرض الهجرة، وبقوا فيها ثلاثة أشهر، فبلغهم ان قريشا أسلمت، فعادوا الى مكة.

فلم تكف قريش عن ملاحقتهم، بالعذاب، والأذىٰ.

فأمرهم الرسول (ص) بالهجرة الى الحبشة مجددا، فهاجروا، وكانوا ثمانين رجلا، وثماني عشرة امرأة، وفي طليعتهم جعفر بن ابي طالب وزوجته اسماء، وحين وصلوا الحبشة احسن النجاشي جوارهم، فاطمأنوا بشكل لم يجدوا له مثيلا في مكة وما حولها.

وقد أقلق قريشا أمر الهجرة الىٰ الحبشة، فخشيت العاقبة، وساءها ان يمطئن حملة الدعوة هناك، فأرسلت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد الى النجاشي، وحملتهما الهدايا للنجاشي وحاشيته محاولة منها لاقناعه بالتخلي عن جوارهم، واعادتهم الى مكة.

فلما بلغ المبعوثان بلاط النجاشي . . .

---

(٥٠) صور من حياة محمد ص ١٥٦ عن البخاري وبحار الانوار جـ١٨.

قالا له: (ان ناسا من سفهائنا، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في **دينك... وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد ارسلنا اشراف قومهم لتردهم اليهم...)**.

غير ان النجاشي - وهو نصراني صادق النصرانية، ذو مروءة وعدل - لم يطمئن الى رواية المبعوثين، فأرسل الىٰ المهاجرين ليعلم حقيقة الامر.

فاجتمع المهاجرون، وتكلم نيابة عنهم جعفر بن ابي طالب فقال: **(أيها الملك كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. فبعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله والا نشرك به شيئا، ونخلع ما كنا نعبد من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به، فعدا علينا قومنا ليردونا الى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، خرجنا الى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ان لا نظلم عندك)**.

فقال النجاشي: هل عندك شيء مما جاء به؟

قال جعفر: نعم، فتلا عليه سورة مريم، حتى وصل الى آخر ما يتعلق بموضوع نبي الله عيسى (ع) فخشع النجاشي والأساقفة.. وانخرطوا في بكاء.

وقال: ان هذا والذي جاء به عيسى، يخرج من مشكاة واحدة.

فلما أفلت الزمام من مبعوثي الجاهلية، حاولا اثارة الفتنة، بين المسلمين والنجاشي.

وفي اليوم الثاني عاد ابن العاص الىٰ مجلس النجاشي وأخبره ان المسلمين يقولون في عيسى، قولا عظيما!

فسألهم النجاشي..

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا:

هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها الىٰ مريم العذراء البتول.
فأخذ النجاشي عودا وخط به على الارض.
وقال: ليس بين دينكم، وديننا اكثر من هذا الخط[٥١].
فطرد النجاشي المبعوثين، وأعاد إليهم هديتهم.
وهكذا باءت خطة قريش بالفشل، وبقي المهاجرون في الحبشة حيث الطمأنينة، وحسن الجوار، والسمعة الطيبة للاسلام العظيم، بسبب الالتزام الخلقي الذي أبداه المهاجرون في وطن الهجرة.

تصاعد المحنة واعلان الحصار:

وحين فشلت خطة قريش في إفشال هجرة الحبشة، صبّت حقدها على الدعوة في مكة، واتخذ رؤوس الشرك فيها قرارا، مفاده: ان لم يخل ابو طالب بين قريش والرسول (ص)، فلا بد من مقاطعة قريش كلها لبني هاشم جميعاً.

ولما لم يستجب أبو طالب لمطالب قريش، واصر علىٰ حماية الرسول (ص) مهما كان الثمن، كتبت قريش صحيفة فيما بينها، تضمنت مقاطعة بني هاشم جميعاً، في البيع، والشراء، والمخالطة، والزواج، ووقعت من قبل أربعين زعيما، من زعماء قريش، وعلقوها داخل الكعبة، وحصروا بني هاشم جميعهم ـ الا ابا لهب لشدة خصومته لرسالة الله ورسوله (ص) ـ في شعب ابي طالب.

فحصن ابو طالب الشعب وأمر بحراسته، ليلا ونهارا، وصار بنو هاشم لا يخرجون من الشعب إلا من موسم الىٰ موسم: موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة، نظراً لتفاقم الموقف بينهم وسائر قريش.

وقد قطعت قريش عنهم التموين، إلا ما يصل اليهم سراً وهو لا يسد حاجتهم من الغذاء.

---

(٥١) يراجع صور من حياة محمد/ص ١٥٨ وما بعدها وسيرة الرسول/للامين ص ٤٤، ٤٥.

وبلغ بهم الضيق كل مبلغ بسبب ذلك، حتى اذا مضى على المقاطعة ثلاث سنين. . أرسل الله تعالى دودة الأرضة علىٰ صحيفتهم فأكلتها جميعاً غير «باسمك اللّهم».

وانبأ الله رسوله (ص) فأخبر عمه أبا طالب بالأمر فصدق قول ابن أخيه، وخرج ابو طالب الىٰ القوم واخبرهم. . (. . **ان ابن اخي اخبرني، أن الله قد سلط على صحيفتكم الارضة فأكلتها غير اسم الله، فان كان صادقاً نزعتم عنه سوء رأيكم، وان كان كاذبا دفعته اليكم**. .)[٥٢].

قالوا: قد انصفتنا، ففتحوها، فإذا هي كما قال.

ووقع بين قريش نزاع شديد، بعد ذلك تمخض عن تمزيق الصحيفة وانتهاء المقاطعة.

وكان لفشل المقاطعة القرشية واحباطها الأثر الكبير في كسب الانصار والمؤيدين للدعوة داخل مكة.

معجزة الاسراء:

وكان الاسراء[٥٣] من المسجد الحرام في مكة الى المسجد الاقصى في فلسطين، حيث حمل الرسول (ص) باذن الله تعالى الى هناك، ليلا، وعند الصباح راح يحدث قومه عما رأى.

وكان الاسراء إمتحانا لاتباعه، وتثبيتا لهم على الحق، وامتحانا للمشركين، من خلال معجزة جديدة.

وقد أثار الموضوع قريشاً، فراح بعضهم يسأله عن صفة المسجد الاقصى، فوصفه لهم وصفاً دقيقاً، وذكر لهم انه مر بقافلة بني فلان وهم يطلبون بعيرا قد ضلّ لهم، وفي رحلهم قعب ماء فشرب منه وغطاه كما كان.

---

(٥٢) يراجع طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٧٣ و ١٩٢، وتاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٢، الروض الانف جـ ١ ص ٢٣١، وخزانة الادب للبغدادي جـ ١ ص ٢٥٢، وتاريخ ابن كثير جـ ٣ ص ٨٤ وغيرها.

(٥٣) بعد البعثة بثلاث سنين وروي غير ذلك.

ومر بقافلة بني فلان، فنفر بكر فلان، فانكسرت رجله، وسألوه عن قافلة اخرى؟ فقال: مررت بها بالتنعيم، وبيّن لهم احمالها، وهيئآتها، وقال: يقدمها بعير صفته كذا.. وسيطلع عليكم عند طلوع الشمس.

فكان كل ما قاله صحيحاً لا شائبة فيه.

أما المعراج، فهو موضوع آخر، فان الرسول (ص) قد عرج به من عالم الشهادة[٥٤] الىٰ عالم الغيب، حيث الجنة والنار والانبياء والملائكة وغير ذلك، والموضوع ليس له إرتباط بالاسراء، فقد اختلف في زمن وقوعه، فقيل قبل الاسراء، وقيل بعده ـ والله أعلم ـ إلا ان كليهما قد وقعا للرسول (ص)، قطعا في يقظته وبجسمه وروحه معاً.

عام الحزن

وقد تعرضت الدعوة لاخطر محنة، في مسيرتها في مكة المكرمة، وذلك عندما توفي ابو طالب، سندها الاجتماعي الأول، وبعده بأيام توفيت خديجة أمّ المؤمنين سندها الثاني.

ولشدة تأثير الحادثتين في سير الحركة التاريخية للاسلام سمى الرسول (ص) ذلك العام، بعام الحزن، وصرح مرة بقوله: **(ما زالت قريش كاعة[٥٥] عني حتى مات أبو طالب)**[٥٦].

الطائف ترفض الدعوة:

ولما اشتد إيذاء قريش للرسول (ص) ـ بعد افتقاد أبي طالب ـ، ولاقى

---

(٥٤) عالم الشهادة: عالم الأكوان الظاهرة.

(٥٥) كاعة: كاع عن الشيء: هابَهُ وجبُنَ عنه.

(٥٦) محمد رسول الله/ محمد رضا أمين مكتبة جامعة القاهرة ص ١١١، وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة/ج١ ص ١٦، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٢، وتاريخ إبن عساكر ج ١ ص ٢٨٤، ومستدرك الحاكم ج ٢ ص ٦٢٢، وتاريخ إبن كثير ج ٣ ص ١٢٢ وغيرها.

منهم ما لم يجده قبل ذلك، إتجهت نيته (ص) شطر الطائف لعلها تكون منطلقاً للدعوة المباركة بعد ان تحجرت مكة، في وجهها، وبعد ان وقفت الحبشة في حدود ايواء المهاجرين من اتباعه فحسب، حيث ان تفشي الدين المسيحي هناك ووجود الدولة التي ترعاه، فرضا ان لا يمارس الدعاة نشاطاً دعوتياً واسعاً فاكتفوا بما توفر لهم من حماية واطمئنان.

واذا اتجهت انظار الدعوة الى الطائف، سار الرسول (ص) اليها ومعه زيد بن حارثة، واقام فيها شهراً، اتصل خلاله بزعمائها، واصحاب التأثير فيها، ولكن الطائف بدت، كما لو كانت مقاطعة من مقاطعات مكة، تحجرا وفظاظة، فكان رد أكبر رجالاتها: عبد يا ليل ومسعود، وحبيب ابناء عمرو بن عمير، يتسم بالخسة وسوء الادب.

فبعد ان ردوا على دعوته بفاحش القول، اغروا به صبيان الطائف، وسفهاءها، وعبيدها، فانهالوا على الرسول (ص) سبا واستهزاء، ورجما بالحجارة حتى أدموا رجليه، وشجوا رأسه، فالتجأ الى بستان لعتبة، وشيبة، ولدي ربيعة.

ولما تفرق الغوغاء عنه إتجه الرسول الىٰ مصدر القوة والأمل والرجاء فدعا ربه تعالى بنبرة خاشعة: (**اللهم اني اشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، انت رب المستضعفين، وأنت ربي، الىٰ مَنْ تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو الىٰ عدو ملكته أمري؟! ان لم يكن بك عليَ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي.**

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من ان تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)[٥٧].

وحين رأى ابنا ربيعة ما لقي الرسول (ص) اخذتهما الرحمة عليه، فدعيا

---

(٥٧) الوفا باحوال المصطفى جـ ١ ص ٣١١، لابن الجوزي، وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦٠ وما بعدها.

غلاماً لهما يعمل في بستانهما، يدعى، عداسا، فقالا له: خذ قطعا من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب الى ذلك الرجل فقل له يأكل منه.

ففعل الغلام، وحين وضع الطبق بين يدي رسول الله (ص) ومد (ص) يده في الطبق، قال: بسم الله.

فنظر إليه عداس مندهشاً، ثم قال: والله ان هذا الكلام، ما يقوله أهل هذه البلاد!

قال له رسول الله (ص): ومن أهل أيّ بلاد انت يا عداس، وما دينك؟

قال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

قال (ص): من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟!

قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟!

قال رسول الله (ص): ذلك أخي، كان نبيا، وأنا نبي.

فما كان من عداس إلا اكب علىٰ يدي رسول الله (ص) ورأسه يقبلهما، وأعلن إسلامه.

وهكذا عاد (ص) الىٰ مكة بعد أن أجاره مطعم بن عدي حين دخولها خشية قريش.

ثم ان الرسول (ص) بدأ يعرض رسالته علىٰ القبائل، واحدة تلو الاخرى، يدعوهم الى الله سبحانه.

عرض رسالته علىٰ كنده، وبني حنيفة، وبني عامر بن صعصعة وغيرهم، وكلهم رفضوا دعوته، حتى صار يتبع الناس في منازلهم ويقول: من يؤويني؟.

من ينصرني؟ أو يقول: ألا رجل يحملني الىٰ قومه، فان قريشا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي[٥٨].

---

(٥٨) محمد رسول الله/محمد رضا ص ١١٣ دار الكتب العلمية.

بشائر الامل

وفيما كان يعرض (ص) رسالته علىٰ القبائل في مواسم الحج، التقىٰ سنة إحدىٰ عشرة من البعثة المباركة، بجماعة من الخزرج، فطلب منهم ان يجلسوا حتى يكلمهم، فاستجابوا لطلبه، فعرض عليهم الاسلام، ودعاهم الىٰ الله، وتلا عليهم كتابه، فقال بعضهم لبعض: (.. **والله انه للنبي الذي تعدكم يهود، فلا يسبقنكم اليه...**)[٥٩].

فاستجابوا للدعوة، واسلموا، وانصرفوا الى يثرب يدعون الىٰ الاسلام حتى فشا في قومهم.

وفي العام التالي قدم من أهل المدينة إثنا عشر رجلاً فاجتمعوا بالرسول (ص) في العقبة وبايعوه (**على ان لا يشركوا بالله شيئا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، فان وفوا فلهم الجنة، وان غشوا من ذلك شيئاً، فأمرهم الى الله، ان شاء عذب وان شاء غفر..**).

وقد أرسل الرسول معهم مصعب بن عمير ليشرف علىٰ تعليمهم الاسلام واحكامه، وراح مصعب ـ وهو يومذاك في مقتبل دور الشباب من حياته ـ يدور في المدينة علىٰ الناس يدعوهم الىٰ الله ورسالته، يسنده في ذلك، من أسلم من قبل، من أهل المدينة، حتى استجاب لدعوته، سعد بن معاذ واسيد بن حضير وهما أبرز رجالات المدينة، حيث فتح اسلامهما الباب واسعاً لدعوة الله تعالىٰ لتدخل قلوب أهل المدينة.

---

(٥٩) إعلام الورى بأعلام الهدى.

بيعة العقبة:

وبعد أن مضىٰ علىٰ مصعب عام واحد، وهو يدعو الى الاسلام ويعلم من آمن، أحكام الدين ويقرؤهم القرآن، جاء في موسم الحج في وفد إسلامي كبير يضم سبعين رجلاً وامرأتين، وذلك في السنة الثالثة عشرة من البعثة المباركة.

وقد اتفقوا على لقاء رسول الله (ص) سراً عند العقبة، حتى إذا مضى ثلث الليل ونام الحجيج، توافد المؤمنون الى مكان اللقاء، وجاءهم الرسول (ص) بصحبة عمه العباس بن عبد المطلب، فتكلم العباس أولاً: (.. **ان محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وقد أبىٰ الا الانقطاع اليكم، فان كنتم ترون انكم وافون بما دعوتموه اليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه، فمن الآن فدعوه في عز ومنعة من قومه**)[٦٠].

فقالوا: قد سمعنا ما قلت.

فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت، فتلا (ص) القرآن.. ودعا الىٰ الاسلام ثم قال: (**تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وان تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلىٰ أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم، وأولادكم ولكم الجنة...**)[٦١].

فأجابوه الىٰ ذلك، وبايعوه عليه بالاجماع.

وقد كان لبيعة العقبة الثانية أثرها البالغ في نفوس المؤمنين حيث شعروا

---

(٦٠) الوفا باحوال المصطفى جـ ١ ص ٣٣٤ وما بعدها. وتفسير الميزان جـ ٩ سورة الانفال.

(٦١) المصدر السابق.

بتباشير النصر، تبدو لرسالتهم في الأُفق، وانفتحت أمامهم، أبواب الأمل على مصاريعها بعد طول كبت وضيق وإرهاب دام ثلاث عشرة سنة في مكة..

أمّا قريش، فقد أفزعها نبأ البيعة، وطار صواب زعمائها فقرروا البحث عمن عقد البيعة من أهل المدينة مع الرسول (ص) فألقوا القبض على المنذر بن عمرو، ولكنه فر من أيديهم، وألقوا القبض على سعد بن عبادة، فربطوا يديه الىٰ عنقه وسحبوه من شعر رأسه حتى أدخلوه مكة بالضرب الاليم، فخلصه من أيديهم مطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية لعلاقة تجارية له معهما..

الهجرة الكبرىٰ

وحين توفرت الأرض الجديدة التي أصبح بمقدور الدعوة أن تقف عليها لاداء رسالتها العظمى، أمر الرسول (ص) المؤمنين بالهجرة اليها، هربا بدينهم من فتنة المشركين، ومكائدهم.

وهكذا راحت مواكب المهاجرين تتوافد الىٰ دار الايمان سرا، وتحت جنح الظلام، تاركين أموالهم ودورهم من أجل دين الله[٦٢].

وقد حاولت قريش أن تمنع بعض المؤمنين من الهجرة، لخشيتها عاقبة الهجرة، وما سيترتب عليها من تقوية للاسلام، وضعف لمعسكر الشرك والضلال، وقد نجحت في منع البعض فعلاً. . .

ثم أذن الله سبحانه لرسوله بالهجرة الىٰ الارض المباركة، وذلك علىٰ أثر اجتماع قريش في دار الندوة، للوصول الى رأي في موضوع الرسول (ص)، وبعد مداولات بشأنه، قال أحدهم: اثبتوه بالوثائق، واقترح آخر قتله وقال آخر: اخرجوه من مكة. .

واتفقوا علىٰ رأي رابع، يقضي بأن يجمعوا من كل بطن من بطون قريش رجلا ـ بما فيهم بنو هاشم ـ فيضربون رسول الله (ص) بسيوفهم، ضربة رجل واحد، ليذهب دمه هدراً، فلا تستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه.

وحين تم اجماعهم علىٰ رأيهم السالف الذكر. . نَبَّأ الله رسولَه (ص) بمكرهم: **﴿وإذ يَمكُرُ بِكَ الذينَ كفروا لِيثبتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ او يُخرِجُوك، وَيمكُرونَ، ويَمْكُرُ الله، والله خيرُ الماكرين﴾**[٦٣].

---

(٦٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ص ٥٩.

(٦٣) الانفال ٣٠ ـ كما يراجع الميزان في تفسير القرآن جـ ٩ ص ٧٩ طبعة بيروت للاطلاع على التفاصيل.

وبادرت قريش لتنفيذ ما اتفقت عليه ليلا، لكن أبا لهب إقترح عليهم تنفيذ الجريمة عند الصباح.. وقد أخضعوا دار رسول الله (ص) لحراسة شديدة، حتى لا يفلت الزمام من أيديهم.

وفي الأثناء أمر الرسول (ص) علياً (ع) أن ينام في فراشه ويلتحف ببردته، وخرج هو (ص) من بينهم، وهو يتلو قوله تعالى: **﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خَلفِهِمْ سداً فأغشيناهم فهم لا يُبصرون﴾**[٦٤].

إلتقىٰ رسول الله (ص) بابي بكر بن أبي قحافة[٦٥] في مكان ما، في طريقه، واتجها للاختفاء في غار جبل ثور.

وعند الصباح هجم القوم على مخدع الرسول (ص) فوثب علي (ع) في وجوههم قائلاً:

ما شأنكم؟

قالوا: أين محمد؟

قال: أجعلتموني عليه رقيبا؟!

ألستُم قلتم نخرجه من بلادنا، فقد خرج عنكم[٦٦].

فأقبلوا علىٰ أبي لهب يضربونه، قائلين: أنت تخدعنا منذ الليل! ثم تفرقوا في الجبال بحثاً عنه (ص) مستصحبين معهم أبا كرز الذي إشتهر بتقصي الأثر، فعرف أثر الرسول حتى أوصلهم الىٰ الغار، وقال: ما جاوز هذا المكان..

فاما صعد الىٰ السماء او دخل تحت الارض![٦٦].

وبعث الله العنكبوت فنسجت علىٰ باب الغار وبذلك تفرقوا ظناً منهم بان لا أحد فيه، فصرفهم الله عن رسوله (ص).

---

(٦٤) يس ٩.

(٦٥) الميزان بحث (روائي) جـ ٩ ص ٨١.

(٦٦) المصدر السابق ص ٨٠.

وبعد ان مكث رسول الله (ص) في الغار ثلاث ليال واطمأن بأنّ قريشا قد كفت عن طلبه، سار نحو المدينة بصحبة دليل إستأجره من مكة.

وبعد أيام وصل الركب قبا خارج المدينة حيث نزل علىٰ كلثوم بن الهدم شيخ من بني عمرو بن عوف(٦٧).

وأقام (ص) مسجد قبا، وبقي ينتظر قدوم علي بن أبي طالب، حيث كتب اليه أن يلحق به، بعد أن يفرغ من رد الودائع الىٰ أهلها وتنفيذ الوصايا التي أوصاه بها قبل الهجرة.

وحينئذ إبتاع علي (ع) ركائب حمل عليها فاطمة أُمه، وفاطمة بنت محمد (ص) وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة، ثم أمر ضعاف المؤمنين بالهجرة، وأن يتسللوا ليلاً(٦٨).

وحين وصل الركب قبا، إستقبلهم الرسول (ص) وعانق عليا وبكى رحمة به لما أصابه من إرهاق وأذىٰ، كانا باديين علىٰ جسمه الشريف.

وبقي الرسول (ص) بعد مقدم علي (ع) يومين في قبا، ثم ركب راحلته متجهاً نحو المدينة.. فاجتمع اليه بنو عمرو بن عوف، فقالوا يا رسول الله، أقم عندنا، فانا أهل الجد والجلد والحلقة والمنعة.

فقال مشيراً لناقته: خَلُّوا عنها فانها مأمورة(٦٩) حتى إذا بلغ الأنصار نبأه أقبلوا يسرعون للالتفاف حول الراحلة، والرسول (ص) يصر على اخلاء سبيلها حتى مر ببني سالم عند الزوال من ذلك اليوم، وكان يوم جمعة فاستماحوه بالنزول عندهم، فبركت ناقته عند مسجدهم ذاك الذي بنوه قبل قدوم الرسول (ص) الىٰ المدينة، فنزل (ص) وأقام الصلاة، وخطب أول خطبة بعد الهجرة، ثم ارتحل والناس محتفون به أيما احتفاء.

فكانت النسوة يقفن علىٰ السطوح تكبر الله، تعبيراً عن الفرحة والصبية

---

(٦٧) بحار الانوار جـ ١٩ ص ١٠٧ ـ ١٠٩ وروضة الكافي ص ٣٣٩.

(٦٨) اعيان الشيعة جـ ٣ ط ٣ ص ١٥٥.

(٦٩) بحار الانوار جـ ١٩ وروضة الكافي ص ٣٣٩.

يهتفـون: **الله أكبر.. جـاء رسول الله.. تـرحيبـا بمقـدم الـرسـول**، والنـاس يتسابقون للقائه.

وكان لا يمر بـدار إلا اعترضـوا طريقـه: (**هَلم يا رسـولَ الله الىٰ القوة والمنعة والثروة**)، ورسول الله يبتسم شاكـراً وهو يقـول ـ مشيراً الىٰ نـاقته ـ: (**خَلُوا سبيلها فانها مأمورة**)، حتى بركت في موضع المسجد النبوي المبـارك ـ إذ لم يكن مسجداً يومذاك ـ علىٰ باب أبي أيوب، خالد بن زيد الأنصاري، فنزل (ص) عنها فوثبت أُمّ أيوب (ر هـ) إلىٰ الرحل فحلته، وأدخلته منزلها، ثم انه (ص) نزل عنـد أبي ايوب (ر هـ) حتى أُقيم المسجـد الشريف في بقعتـه المعلومة الآن، وأُقيمت الدور حوله..

وبذا دخلت رسالـة الله مرحلة جـديدة.. سيـوافيك الحـديث عنها في الحلقة الثانية من هذا الكتاب إنْ شاء الله.

«والحمدُ لله رَبِّ العالمين»

في دولة المدينة

دخلت الرسالة الاسلامية مرحلة جديدة من مسيرتها العتيدة، بعد الهجرة: مرحلة التطبيق، وبناء المجتمع بكل مؤسساته ومستلزماته.

كانت اول لبنة وضعها الرسول (ص) لارساء قواعد البناء الجديد هي اقامة المسجد النبوي الشريف في نفس البقعة التي بركت فيها راحلته عند اول قدومه للمدينة، فابتاع الارض من صاحبيها ـ سهل وسهيل ابني عمرو ـ واقام فيها مسجده المبارك، وبنيت حوله الدور[1].

ولم يكن بناء المسجد ولا بناء الدور مرهقاً وانما كانت من البساطة بمكان، نفقة وجهدا.

فالمسجد كان فناء واسعاً، جدرانه اقيمت من الآجر والتراب، وسقف جزء منه بسعف النخيل، والجزء الاكبر، بقي مكشوفاً، وقد خصص جزء من المسقوف لسكن المؤمنين، الذين لا يملكون مأوى.

ولم يكن المسجد يضاء، الا في صلاة العشاء، ولوقت محدود عن طريق اشعال بعض القش فيه.

واما مساكن الرسول (ص) فانها لا تختلف في بساطتها عن المسجد الشريف، بناء واضاءة، وقد بقي (ص) ـ كما المحنا سابقاً ـ عند ابي أيوب الانصاري، حتى تم بناء المسجد والدور الخاصة به (ص)، فانتقل اليها[2].

---

(١) الوفا باحوال المصطفىٰ/إبن الجوزي ج ١ ص ٢٥٤.

(٢) بحار الانوار/الشيخ المجلسي ج ١٩ ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

والعظة العملية من بناء المسجد، قبل اي عمل آخر دليل قاطع على ان اساس الحياة الاسلامية واول لبناتها التطبيقية تقوم على العبودية لله تبارك وتعالى والارتباط به، ليكون كل بناء فوق هذا الاساس، قائماً عليه ومستمداً منه.

ولم ينشىء الرسول (ص) دارا للحكومة بعد بناء المسجد، وانما اتخذ المسجد ذاته دارا للعبادة ومكانا للاجتماع والتشاور وادارة شؤون الامة، والفصل في الخصومات، ووضع الخطط العسكرية، وتعيين القيادات العسكرية، والتعليم وسوى ذلك، مما تقتضيه الدولة والمجتمع من شؤون.

واتخاذ الرسول (ص) من المسجد داراً للحكم والقضاء وتدبير الشؤون العامة للأمة جميعاً، يوفر اقوى الادلة العملية على أن الحكم وادارة شؤون الامة الاجتماعية، والاقتصادية، وسواها جزء من العبودية لله تعالى، حيث تبتنى تلك الامور على تطبيق اوامر الله تعالى واحكامه التي تنزلت على رسوله، لادارة شؤون الحياة. تلك الاحكام التي صار رسول الله (ص) من خلالها حاكماً وقاضياً، ومربياً، وقائداً عسكرياً.

وهكذا فان المجتمع الاسلامي ينشأ من خلال عناصر كلها تنطلق من قاعدة الطاعة، والانقياد لله تبارك وتعالى.

ومن هنا فانه يتعذر وجود اي فصام بين جانب وآخر من جوانب الحياة الاسلامية، ما دامت الحياة كلها وبشتى مظاهرها تسير على نمط واحد، وتنبع من مصدر واحد، وتصب في مصب واحد.

أبرز القوىٰ في مجتمع المدينة المنورة:

حل رسول الله (ص) في مجتمع تتوزعه القبلية، والمصالح المادية والافكار المتناقضة.. وكانت ابرز القوىٰ التي عاصرها (ص) في المدينة المنورة هي:

١ ـ المسلمون:

وهم قسمان: انصار ومهاجرون.

ولفظ الانصار اطلقه رسول الله (ص) على الاوس والخزرج من أهل المدينة، بسبب نصرتهم له (ص) واحتضانهم للرسالة والدعوة.

والاوس والخزرج: هما قبيلتان تنتميان الى أوس وخزرج من اليمن، ولدي حارثة بن ثعلبة العنقاء، وامهما قيلة بنت كاهل.

وقد هاجر اوس وخزرج من اليمن بعد تفرق اهل سبأ على اثر سيل العرم الذي خرب سدهم المعروف، وسكنا ومن معهما في أرض يثرب.

وقد عمل اولادهما بالزراعة، لصلاحية الارض لتلك الحرفة، وكانوا في وضع اقتصادي سيء فاستغلهم اليهود بسببه.

وبعد مضي السنين والاجيال، بدأ الصراع يدب بين ابناء اوس واخوتهم ابناء خزرج لاسباب اكثرها شخصية، بيد أن روح الطلب بالثأر عمقت الهوة بين الطائفتين، فاشتعلت نار الحرب بينهم سجالا، واشهر الحروب بينهم: يوم الربيع، ويوم البقيع، والفجار الاول، والثاني، ويوم بعاث، الذي كان آخر حروبهم، حيث اعقبته هجرة الرسول (ص) إلى المدينة المنورة.

وقد بلغ من سأمهم من الحروب والدمار، ان تحالفوا بعد بعاث على تتويج عبد الله بن أبي بن سلول ملكا عليهم[٣].

بيد أنه لم يمض على تتويجه غير وقت قصير حتى كانت الهجرة المباركة..

اما المهاجرون فهم المؤمنون الاولون، الذين غادروا مكة هرباً بدينهم بعد العذاب والمعاناة التي لاقوها من المشركين، فحلوا في المدينة المنورة بعد أن فتح اهلها قلوبهم لتلقي رسالة الله وهديه.

وقد ترك المهاجرون اوطانهم، واموالهم، ودورهم، وعلائق الدم والقربى، من أجل عقيدتهم.

وازاء التحول الجديد في حركة الاسلام التاريخية، تبنى الاسلام خططا

---

(٣) محمد رسول الله (ص)/محمد رضا ص ١٣٦ وما بعدها.

بناءة، بعضها بعيد المدى، وبعضها آنية.

فمن مسألة الهجرة مثلاً، وما ترتب عليها من آثار في حياة المهاجرين واخوانهم الانصار معاً، وما تتطلبه تركيبة المجتمع الاسلامي، ومسؤولياته الرسالية، وقف الاسلام الحنيف موقفاً حاسماً من اجل ايجاد علائق اجتماعية جديدة، لم يألفها انسان الجاهلية عبر التاريخ قط.

وذلك من خلال اشاعة مفهوم الاخوة في الله بأجلىٰ صورها واعمقها كخط استراتيجي عام: **﴿يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾**(٤).

وقد شرح رسول الله (ص) ذلك المفهوم القرآني بقوله:

(ان الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، انتم بنو آدم، وآدم من تراب»(٥).

فمن خلال هذا المفهوم الحيوي عمل الاسلام على تصفية كافة مخلفات الجاهلية، من تفاخر بالانساب او روح استعلائية، او نحوها، وجعل تقوى الله سبحانه معياراً لتحديد قيمة المرء في الحياة الاسلامية، وعنواناً للشخصية الاسلامية.

وقد تجسد مفهوم الاخوة الاسلامي عملياً، من خلال المؤاخاة التي طرحها الاسلام بين المهاجرين والانصار، بعد الهجرة الى المدينة مباشرة.

فأمر رسول الله (ص) كل انصاري ان يتخذ له أخاً من المهاجرين بما يترتب على الاخوة الحقيقية من آثار في الحياة العملية: في المعاملة والمال، وسائر الشؤون.

ومن المناسب ان نذكر هنا، ان رسول الله (ص) حين فرغ من مشروع

---

(٤) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٥) محمد المثل الكامل ـ محمد جاد المولى ص ٣١٣ بيروت ١٩٧٢ ـ عبية ـ نخوة الجاهلية.

المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين، اتخذ من علي بن ابي طالب (ع) اخا له[6]، مخاطباً اياه بقوله: (انت اخي في الدنيا والآخرة)[7].

ولقد تحقق مبدأ المؤاخاة بشكل لم ير التاريخ له نظيراً قط.. فحسبك ان المهاجري، صار يرث الانصاري في ماله بعد مماته دون ارحامه[8] حتى نسخ ذلك بآية من كتاب الله، بعد معركة بدر: ﴿**واولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله...**﴾[9].

وقد بلغ من نجاح المؤاخاة ان الانصار قد شاعت بينهم المنافسة للحصول على المهاجر، وبلغ الامر أن يعملوا بالقرعة احياناً.

كما ان البعض من الانصار قد تنازلوا عن نصف اموالهم لاخوة لهم من المهاجرين.

وليس عجباً اذا حدثنا التاريخ عن بعض من الانصار، ان يطلب الى أخيه المهاجر أن يختار أياً من زوجتيه، ليطلقها من أجله، ليتزوجها بعد الخروج من عدتها[10].

ومن هنا فان مسألة المؤاخاة بقدر ما وفرت من تعايش اخوي رائع بين المهاجرين والانصار، لم تجد له الانسانية مثيلاً قط، قد ساهمت بشكل طبيعي بحل المشكلة الاقتصادية التي عانى منها المهاجرون بسبب الهجرة.

---

(٦) السيرة النبوية/دحلان ج ٢ ص ١٥٠ «المؤاخاة بين المهاجرين والانصار».

(٧) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩ برواية عبد الله بن عمر، وفي مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٤ والمحب الطبري في الرياض ج ٢ ص ١٦٧ والطبقات ج ٣ ت ١ ص ١٣. ومن شاء المزيد فليراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣١٨ ـ ٣٣٣. للسيد الفيروز ابادي.

(٨) بحار الانوار ج ١٩ ص ١٣٠ والميزان ج ٩ سورة الانفال ص ١٤٢ والبحث الروائي ص ١٤٣.

(٩) سورة الانفال الآية ٧٥.

(١٠) الرسول ج ١ ـ سعيد حوى ص ٢٢٣ ط ٣، والسيرة النبوية لدحلان ص ١٧٠ وما بعدها.

ومن الضروري ان نعيد الى الاذهان، ان المهاجرين من جانبهم لم يستغلوا عاطفة اخوانهم الانصار الفياضة نحوهم، وانما عمدوا الى الاكتفاء الذاتي عن طريق العمل بأنفسهم[11]، خصوصاً وان اغلبهم اصحاب اعمال وممارسات ونشاطات مربحة، كالتجارة وسواها.

فلم تكد الامور تستقر بالمهاجرين، حتى مارسوا نشاطهم لكسب عيشهم بأنفسهم، فبعضهم زاول النشاط التجاري وآخرون عملوا بالزراعة، حيث ساعدت ظروف المدينة على ذلك.

ولم يبق دون عمل إلاّ جماعة صغيرة من المؤمنين، وهم ليسوا من الانصار ولا من المهاجرين، وانما هم من الاعراب، اذ لم يتوفر لهم عمل يمارسونه، ولم يكن لديهم مال يسد عوزهم، ولاولئك خصص الرسول (ص) جزء من المسجد لايوائهم، وهم «اهل الصفة»، وقد تحمل المسلمون مسؤولية اعالتهم جميعاً، عن طريق مبدأ التكافل العام.

وهكذا أقام الرسول (ص) صرح الجماعة المؤمنة علىٰ اسس رصينة ومتينة.

٢ ـ اليهود:

وهم اربعة اقسام:

بنو قينقاع في داخل المدينة، وبنو النضير، ويهود خيبر، وبنو قريظة خارجها.

واليهود يمثلون مجتمعاً خاصاً، يخالف مجتمع المدينة في الدين، والمشاعر، والاهداف، فهم وان كانوا في المدينة لكنهم منفصلون عنها اجتماعياً وتنظيمياً ونفسياً.

وقد عمل الرسول (ص) علىٰ مهادنتهم جميعاً ليتجه لبناء الدولة ونشر الدعوة، وترسيخ العقيدة في النفوس.

---

(١١) صور من حياة محمد ص ٢٦٤ والسيرة النبوية/دحلان ص ١٧٥.

وقد افرد لهم جزءاً كبيراً من الدستور الذي وضعه للدولة في بداية الامر، ونكتفي بالبنود التالية منه:

١ ـ المسلمون من قريش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم، امة واحدة من دون الناس.

٢ ـ ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم، والمؤمنون بعضهم اولياء بعض، دون الناس.

٣ ـ يهود بني عوف، امة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، الا من ظلم واثم فانه لايوتغ ـ يهلك ـ الا نفسه وأهل بيته.

٤ ـ ان على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة.

٥ ـ كل ما كان بين اهل هذه الصحيفة، من حدث او شجار يخاف فساده، فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله.

٦ ـ من خرج من المدينة أمن، ومن قعد أمن، الا من ظلم واثم. هذه بعض بنود الدستور الذي وضعه الرسول (ص) للتعايش بين المسلمين انفسهم، وبينهم وبين اليهود من وجهة النظر الاسلامية، ومن شاء الاستزادة فليراجع السيرة النبوية لابن هشام[١٢].

ومن الجدير بالذكر ان اليهود الذين وقعوا هذه الوثيقة، هم: بنو عوف، بنو النجار، بنو الحارث، بنو ساعده، بنو جشعم، ويهود الاوس، وبنو ثعلبة ولم يتخلف منهم سوى بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع، ولكنهم لم يلبثوا ان وقعوا صحفاً مشابهة لها، وخضعوا لنفس الشروط التي حوت.

٣ ـ المنافقون:

وهم فئة من أهل المدينة، دخلت الاسلام على دخل في القلب، وسوء

---

(١٢) ـج ٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

طوية لكنها خشيت من تعاظم المد الاسلامي، فأعلنت اسلامها، وبطنت كفرها.

وكانت دوافع المنتمين لتلك الفئة المنافقة مختلفة:

فبعضهم حمل النفاق لان الاسلام ضرب مصالحه المادية، وبعضهم كان يرى في الاسلام خطراً علىٰ دينه الوثني، وفريق يتأثر بالشبهات التي يثيرها اليهود في وجه الرسول (ص).

وفريق كان ينظر للامور نظرة اقليمية حيث يرى في المهاجرين دخلاء على المدينة، وعنصراً غريباً فيها.

ولكن جميع تلك الاطراف كانت مسلمة بالظاهر، فهم يصلون مع المسلمين، ويصومون معهم، ولكنهم يبطنون العداء والشر للاسلام ورسوله (ص).

واغلب نشاطاتهم العدائية كانت من نوع اشاعة الدعايات المغرضة، كحديث الافك مثلاً، واثارة اليهود وتحريضهم على المسلمين، ولكن اساليبهم كانت تبوء بالفشل الذريع باستمرار نظراً لتولي القرآن الكريم كشفهم، ومهاجمتهم، وفضح اساليبهم الوضيعة امام المسلمين اولاً، ولتعاظم النفوذ الاسلامي ثانياً، وعدم قدرتهم على مواجهته او التأثير فيه.

وهكذا ظل المنافقون عنصراً مشلولاً، طوال حياة الرسول (ص)، لا يملكون تأثيراً يذكر بحال، وان كانوا بين الحين والآخر يثيرون بعض المتاعب للمسلمين.

٤ ـ المشركون:

وهم اقل القوى في المدينة عدداً، وقد كان للتيار الاسلامي الفتي في المدينة دوره الفعال في الاقلال من تأثيرهم في الحياة الجديدة.

ومن هنا، فان المشركين لم يكن لهم ذلك الاثر السلبي ذو الاهمية على الحياة العامة بالرغم من بقائهم على شركهم، بالنظر لقلتهم، ولتعاظم التيار الاسلامي في المدينة المنورة.

السياسة العسكرية في دولة الرسول (ص)

منذ الايام الاولى من عمر الدعوة المباركة والاساليب العملية التي سلكها رسول الله (ص)، لاحداث العملية التغييرية الكبرى في دنيا الناس، خاضعة للتجديد والتبدل.

فمرة يلتزم السرية في العمل ويتخذ دارا لتثقيف الطليعة الاولى من اتباعه.

ومرة يخص عشيرته الاقربين بالدعوة دون سواهم.. ﴿**وانذر عشيرتك الاقربين...**﴾ ثم يتخذ اسلوب الدعوة العامة، طريقا الى ايصال دعوته الى الناس، فيخاطب قريشاً جمعاء عند البيت الحرام، ثم يتجه (ص) للبحث عن ارض جديدة للدعوة، فتكون هجرة الحبشة.

ثم كانت لقاءاته مع القبائل خارج مكة، فيزور الطائف ويقضي فيها شهرا، يعرض دعوته ويطلب النصرة.

واخيراً كانت اللقاءات مع حجيج يثرب[١٣] فتوجت باحتضان اهل المدينة المنورة لرسالة الله تعالىٰ، وما ترتب علىٰ ذلك من هجرة الرسول (ص) والمؤمنين اليها.

علىٰ ان الهجرة المباركة، قد وضعت بين يدي الرسالة والدعوة امكانيات كبيرة، تجعلها قادرة على المواجهة، ورد العدوان.

وهكذا كان قيام الدولة الاسلامية، بقيادة رسول الله (ص) اولى نتائج الهجرة المباركة.

---

(١٣) يراجع ص ٢٥ وما بعدها ـ الدعوة ـ (محمد رسول الله) (ص).

وقد استتبع قيام الدولة الاسلامية مباشرة تبني سياسة عسكريـة، كأحـد اسـاليب العمل الاسـلامي لايصال الـدعوة للنفـوس الظمـأى الى الخلاص، والانعتاق، نظراً لتوفر امكانات هذه السياسة.

واذا تتّبعنا سياسة الاسلام العسكرية، لوجدنا انّها تهدف الى اعطاء دعوة الله سبحانه فرصة مخاطبة الناس وجها لوجه.

ومن هنا فان السياسة العسكرية للدولـة الاسلاميـة، لم تكن الا وسيلة لازالة الحواجز المادية التي تحول دون وصول نور السماء الى البشر، وكـان هـذا القصد مفهـوماً لاعلى مستـوى القيادة الاسـلاميـة فحسب، وانمـا على مستوى القواعد التي تؤلف الجيوش الاسـلامية، فهـذا عامـر بن ربعي، احد جنود الفتح الاسلامي لبلاد الفرس يخاطب رستم قائد جيش الفرس بقوله[١٤]:
(. . . ان الله ابتعثنا والله جاء بنا، لنخرج الناس من عبادة العبـاد، الى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا، الى سعتهـا، ومن جور الاديـان الى عدل الاسـلام، فأرسلنا بدينه الى خلقه، لندعوهم اليه، فمن قبل ذلك منا، قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وارضه يليها دوننا، ومن أبي قاتلناه ابدا، حتى نفضي الى موعود الله).

على أن سياسة الدولة العسكرية لم تكن على نمط واحد وانما سـارت عمليا من خلال نمطين اثنين هما:

١ ـ جهاد الفتح والدعوة الىٰ الاسلام؛ والذي يبرره كون الاسلام رسالة الله الى عبـاده في الارض، فلا بـد من تبليغها للنـاس بالـرغم من الحواجـز والعوائق المادية، من دول وقوى وزعامات، فان وقفت تلك الهياكل الماديـة في طريق الدعوة، فان ضرورة التبليغ ومستلزماته تقضي بازالة تلك الحواجز.

٢ ـ الجهاد الدفاعي، الذي يقتضيه وجوب حفظ الـرسالـة الاسلاميـة، ودولة الرسالة، واتباعها، من العابثين والمتربصين بها، والمهددين لـوجودهـا العملي.

(١٤) لمحات في الثقافة الاسلامية ـ عمر عودة الخطيب ص ٢٨٧ ط ١، ١٩٧٣ بيروت.

وبنـاء على ذلك، فـانه بـالرغم من اتجـاه الفتح الاسـلامي والاعمـال العسكرية الاسلامية، نحـو هدف استـراتيجي واحد، هـو ازالة العقبـات عن طـريق الدعـوة الاسلاميـة، فاننـا نجد الـطابعين المذكـورين يميـزان الفتـوح والحروب والاعمال العسكرية الاسلامية بشكل واضح.

فمعـركة بـدر وخيبر وفتـح مكة، ومعـركة حنين، كـانت عمليات فتـح وتحرير، في حين كـانت أحد والخنـدق ومؤتة وتبـوك ومعارك أخـرى دفاعيـة بشكل جلي، ولندرس الآن نماذج من كلا النمطين:

بدر الكبرى

منذ قيام الدعوة المباركة، حتى السنة الثامنة من الهجرة، ومكة تقف في وجهها عنيدة متحجرة، فأصحاب المصالـح والامتيازات يعملون كـل وسعهم للاحتفاظ بذلك الـوضع الجـاهلي القائم، وابقـاء الامور على مـا هي عليه، تخدم مصالحهم وتدر المال عليهم، وتمنحهم السلطان.

ومن أجل تلك المصالح الذاتية عمل زعماء القبائـل القرشيـة في مكة على صـد تيار الـدعوة، وكبت صـوتها، وخنق اشعـاعها المتـدفق؛ فعـذبـوا المؤمنين ايما تعذيب، وصبوا عليهم البلاء، واشاعوا جو الرعب في مكة ـ كل مكـة ـ من اجـل اجهـاض العمليـة التغييـريـة الكبـرى، التي بـدأهـا رسول الله (ص)...

ثم كانت الهجرة النبوية الى المدينة، حيث تحقق للرسالة الالهية، اعظم نصر تاريخي مؤزر.

بيـد أن مكة بقيت هي هي تـراوح في مكانهـا، لم تغير من مـوقفهـا ازاء الدعوة، ولم يفكر زعماؤها بتغيير مواقفهم الظالمة.

وبسبب ذلك، كانت رسالة الله تعالىٰ ترى في زعامة مكة الجاهلية العدو العتيد الذي يفترض ان تبادر الى ضرب مواقعه للحد من عتوه وتعاليه.

علىٰ ان مكة ـ بالرغم من قوتها، وانتفاخها في وجه الرسالة الالهية.. لا

تملك الا التجارة وطرق التجارة، فزعماؤها انما يتطاولون على الدعوة، وينصبون انفسهم حماة للجاهلية، بسبب ثروتهم المادية الكبيرة التي ترفدها قوافل التجارة.

ومن أجل ذلك انصب تفكير رسول الله (ص) على ضرب المواقع القرشية بالصميم، عن طريق فرض الحصار الاقتصادي علىٰ مكة بالتعرض لقوافلها التجارية، وتهديد طرق المواصلات الاستراتيجية لديها.

وقد بادر رسول الله (ص) بناء على خطته تلك ومنذ السنة الاولى للهجرة الى ارسال بعض القطعات العسكرية لتهديد القرشيين.

أما في مكة ذاتها، او على طرق المواصلات التي تمر فيها القوافل التجارية.

وقد ارسل من هذا النوع من القطعات، عبر سنة واحدة فقط، سرية بقيادة عمه حمزه، وسرية بقيادة عبيدة بن الحارث وقطعة عسكرية بقيادته (ص)، وسرية بقيادة عبد الله بن جحش وغيرها.

وتلك المحاولات، وان لم تحقق نصراً عسكرياً، بل لم ينشب بسببها قتال، الا مرة واحدة، الا انها أرهبت العدو، وفرضت عليه حصاراً اقتصادياً.

وبمقدور المرء ان يقدر حجم المخاوف والمضايقات التي كانت قريش تعاني منها بسبب ذلك، اذا اعدنا الى الاذهان ان القوافل التجارية هي بمثابة شريان الحياة بالنسبة لمكة على الاطلاق. هذا من ناحية العدو.

اما المسلمون فان تلك القطعات العسكرية المتحركة، قد عززت الثقة في نفوسهم وقويت شكيمتهم علىٰ المواجهة.

وفي شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة تواردت الانباء عن مقدم قافلة لقريش، يقودها ابو سفيان، فأسرع رسول الله (ص) بجيش صغير قوامه ثلاثمائة رجل، وبعدة قليلة. . . حتى انهم لم يملكوا سوى سبعين بعيرا، صار يعتقب البعير الواحد منها الاثنان والثلاثة والاربعة. بيد أن خروج الرسول (ص) لاعتراض القافلة التجارية تلك قد تسربت اخباره لابي سفيان،

فغير مسارها الى مسار آخر، ليبعدها عن الخطر، وطلب النجدة السريعة من قريش، فبادرت قريش لحماية قافلتها، بجيش يفوق جيش المؤمنين بثلاثة اضعاف.

وهكذا اصبحت المسألة بالنسبة للمسلمين ليست مسألة قافلة يراد اعتراض سبيلها، وانما هي قريش قد اقبلت، فاما مواجهتها او عدم المواجهة.

وبعد تغير الامور المفاجىء، استشار الرسول (ص) اصحابه في الامر لكي يضعهم أمام مسؤولياتهم الحقيقية، وليطلعهم على حقيقة الموقف.

فصرح المقداد بن عمرو بقوله: (... **والله لو امرتنا ان نخوض جمر الغضا**[١٥]، **وشوك الهراس**[١٦] **لخضناه معك، والله لا نقول لك ما قالت بنو اسرائيل لموسى، اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون، ولكنا نقول: امض لامر ربك فانا معك مقاتلون**).

وتكلم سعد بن معاذ بلسان الانصار، ومما جاء في حديثه: (.. **فمرنا بما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت والله لو أمرتنا ان نخوض هذا البحر لخضناه معك، ولعل الله ان يريك ما تقر به عينك سر بنا على بركة الله**)[١٧].

ثم انه (ص) قال: (**سيروا على بركة الله، فان الله وعدني احدى الطائفتين، ولن يخلف الله وعده، والله لكأني انظر الى مصرع ابي جهل، وعتبة وشيبة وفلان وفلان**).

ثم أمر بالرحيل الى بدر ـ وهو (بئر).

وعند بدر التقى الجيشان، وقد استغاث رسول الله (ص) والمسلمون بربهم، فنصرهم الله تعالى، بمدد من السماء: ﴿**اذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[١٨].

---

(١٥) اشجار الاثل يبقى جمره طويلاً.

(١٦) الهراس شجر له شوك طويل.

(١٧) البحار ج ١٩ ص ٢١٨. والميزان تفسير سورة الانفال.

(١٨) سورة الانفال الآية ٩.

فنصر الله رسوله والمؤمنين، وخسرت قريش ايما خسارة وجلد المسلمون بعزتهم السفح، ومرغوا انوفهم بالوحل.

وشهدت ساحة المعركة رؤوس اساطين الشرك والضلال تتناثر تحت سنابك الخيل، وأرجل الابل تاركة وراءها العار والشنار مرتسماً علىٰ كل ألوان الجاهلية، وأتباعها عبر التاريخ البشري.

معركة الخندق

واذا كانت معركة بدر احدى الامثلة على الخط الهجومي في سياسة الرسول (ص) العسكرية، فاننا قد اخترنا معركة الخندق مثلاً للحرب الدفاعية، التي مارسها (ص) للذود عن حياض الرسالة الغراء، ومعسكرها الفتي.

ففي السنة الخامسة من الهجرة خرج بعض زعماء اليهود الى مكة، وحرضوا المشركين على الاعداد لقتال المسلمين، فرحب أبو سفيان بفكرتهم.

على أن قريش فكرت شيئاً ما قبل الاقدام على تلبية الدعوة، لقتال الرسول (ص) ولعل بعض رجالها استعملوا عقولهم للحظات وسألوا انفسهم: -

الم يكن محمد على حق في دعوته، حتى يستميت طوال تلك السنين من أجل الدفاع عنها؟

وفكروا أن يسألوا اليهود عن الامر، لعلمهم أن اليهود أهل الكتاب الاول، فقال بعض زعمائهم للوافدين من اليهود: **(يا معشر اليهود انتم أهل الكتاب الأول والعلم السابق وقد عَرفتم الدين الذي جاءَ به محمد (ص) وما نحن عليه من الدين؛ فديننا خيرٌ من دينه أم هو أُولىٰ بالحق مِنّا)**.

فأجاب اليهود: **(بل دينكم خير من دينه، فانتم اولى بالحق منه)**[١٩].

---

(١٩) الارشاد ـ للمفيد ص ٥٦ مط الحيدرية ـ النجف ط ٣ ـ ١٩٧٣.

وهكذا ارتكب اليهود جريمة لن تغتفر، حيث فضلوا دين الوثنية الباطل على دين التوحيد الحق، من أجل أن يكسبوا القرشيين لحرب رسول الله (ص) ومن أجل ذلك نزل قوله تعالىٰ فيهم:

﴿أَلَمْ تَرَ الىٰ الذّينَ أوتُوا نصيباً مِنَ الكِتابِ يُؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ، وَيقولونَ للذينَ كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾[٢٠].

وواصل اليهود المحرضون جولتهم في قبائل العرب للتحريض على حرب الاسلام، فأقنعوا بني فزارة وأشجع ومرة وسليم وبني سعد وبني أسد وغيرهم. . .

فاجتمع لقتال الرسول (ص) عشرة آلاف مقاتل، تحت راية أبي سفيان بن حرب الأموي.

وتحركت عساكر البغي صوب المدينة، غير أن الرسول (ص) قد علم النبأ، فقرر أن يتحصن في المدينة دون أن يغادرها. .

وكانت دور المدينة متلاصقة، كأنها سور منيع، وذلك من ناحية الشرق، ومن ناحية الغرب.

أما الجنوب الشرقي فكانت مساكن يهود بني قريظة التي ترتبط مع الرسول (ص) بمعاهدة حسن الجوار.

ولم يبق من المدينة غير الجزء الشمالي مكشوفاً.

فتشاور الرسول (ص) مع أصحابه حول الامر. . فأشار عليه سلمان الفارسي (رض) بقوله: **(انا كنا بفارس، اذا حوصرنا، خندقنا علينا)**. واقترح حفر خندق حول الجزء المكشوف من المدينة، فاستحسن الرسول (ص) رأيه، وبادر (ص)، والمسلمون الى حفر الخندق، حتى انجزوه على عجل، فتم حفره في ستة أيام.

وحصنت المنازل المواجهة للعدو، وأُدخل النساء والاطفال الى المنازل المحصنة.

---

(٢٠) سورة النساء الآية ٥١.

وخرج الرسول (ص) بثلاثة آلاف، وعسكر على مقربة من الخندق، حيث جعل الخندق أمام معسكره. .

وجاءت قريش وأحزابها، حتى وصلت المدينة، فأدهشها الخندق، لانها لم تألف مثله في تاريخ أعمالها العسكرية، فعسكرت قرب الخندق.

غير ان الضجر بدأ يدب في الجيش الغازي، بسبب الخندق، وبسبب برودة الجو، والرياح العاصفة.

ورغبت قريش بالعودة فأحس اليهود بذلك، وأطلعهم حيي بن أخطب، زعيم اليهود أنه سيحاول اقناع يهود بني قريظة، حتى تنقض عهدها مع رسول الله (ص)، وتدخل الحرب لصالح المشركين، اذ سيكون بالامكان زعزعة الخط الدفاعي في المدينة وارباك المعسكر الاسلامي من الداخل، وقطع خطوط التموين عن المسلمين.

واتصل حيي بن اخطب اليهودي ببني قريظة، ولكن كعب بن أسد أغلق الحصن بوجهه، ومنع من دخوله اولا، ولكن ابن أخطب ظل يلح عليه، ويذكره بالعلاقات اليهودية بينهم، وان الوقت قد حان لاخذ الثأر من المسلمين، وان القوى التي تجمعت قادرة على تحقيق النصر، على الرسول وأتباعه، الى غير ذلك من الكلمات الجوفاء المغرية.

فاطمأن بنو قريظة لذلك، وألغوا العهد من جانب واحد، ومزقوا عهد الرسول (ص) الذي كتب بينهم.

ولما سمع الرسول (ص) بنقضهم العهد أرسل اليهم وفدا للتأكد من ذلك، غير أنهم قد استبد بهم سوء الادب، والخبث فلما طالبهم الوفد بالتزام العهد، طالبوا باعادة يهود بني النضير ـ الذين طردهم الرسول (ص) ـ الى ديارهم.

ثم راحوا يهاجمون الرسول (ص) والاسلام. . . ولما لم تنفع معهم المفاوضات، عاد وفد الرسول (ص) ليخبره بحقيقة الموقف.

واستبد الفزع بالمسلمين بسبب تلك التطورات، وزاغت الابصار، وبلغت

القلوب الحناجر كما تحدث القرآن[٢١]، وقد بلغ الحال ببني قريظة أن هاجموا بعض عوائل المسلمين، وأرهبوهم وأعدوا جيشا لدخول الحرب الى جانب الاحزاب. . .

وبدأ هجوم الاعداء بعبور عمرو بن عبدود العامري ـ أحد أبطالهم ـ الخندق مع نفر من المشركين، وهددوا المسلمين في داخل المدينة، فأسرع علي بن أبي طالب (ع) ونفر من المسلمين نحو الثغرة التي عبر منها ابن عبدود وجماعته لافشال أية محاولة أخرى للعبور من قبل المشركين[٢٢].

غير ان عمرو بن عبدود استمر يهدد المسلمين، ويتوعدهم، ويتفاخر، ببطولته ويستعلي وينادي:

هل من مبارز؟

فقام علي (ع) وقال: أنا له يا نبي الله، فقال (ص):

(اجلس انه عمرو):

وكرر ابن عبدود النداء وجعل يوبخ المسلمين ويسخر بهم ويقول:

أين جنتكم التي تزعمون؛ ان من قتل منكم يدخلها، أفلا تبرزون لي رجلاً؟

فقام علي (ع) قائلاً:

(أنا له يا رسول الله).

قال (ص): **(اجلس انه عمرو!!)**.

فأبدى علي (ع) عدم اكتراثه بعمرو أو غيره. . .

فقال (ع) لرسول الله (ص):

وان كان عمرا!!؟

فأذن رسول الله (ص) لعلي (ع) وأعطاه سيفه ذا الفقار، والبسه درعه، وعممه بعمامته.

---

(٢١) سورة الاحزاب الآيات ١٠ ـ ١٣.

(٢٢) السيرة النبوية/دحلان ج ٢ ص ٦ ـ ٧، والارشاد للمفيد ص ٥٨.

ثم قال (ص):

(اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني فردا وأنت خير الوارثين)[٢٣].

ومضى علي (ع) الى الميدان، وخاطب ابن عبد ود بقوله:

(يا عمرو انك عاهدت الله، أن لا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا قبلتها).

قال ابن عبدود: أجل.

فقال علي (ع): **(فاني أدعوك الى الله والى رسوله (ص) والى الاسلام)**.

فقال: لا حاجة لي بذلك.

قال له الامام (ع): **(فاني أدعوك الى البراز)**.

فقال عمرو: اني اكره ان أهرق دمك، وان أباك كان صديقا لي.

فرد عليه الامام (ع): **(لكني والله أحب أن اقتلك)**.

فغضب عمرو، وبدأ الهجوم على علي (ع)، فصده الامام برباطة جأشه المعتادة، وأرداه قتيلا، فعلا التكبير والتهليل في صفوف المسلمين[٢٤].

ولما عاد علي (ع) ظافراً استقبله رسول الله (ص) بقوله: **(لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبدود، أفضل من عمل أمتي الى يوم القيامة)**[٢٥].

وبعد مقتل عمرو بن عبدود، تطور سير المعركة وضيق العدو على المدينة وأحكم الحصار، فاشتد القتال منذ بداية النهار حتى منتصف الليل.

وبالاثناء قدم نعيم بن مسعود الاشجعي[٢٦]، على رسول الله (ص) معلناً اسلامه دون علم قومه، فطلب اليه الرسول (ص) أن يستفيد من وضعه كرجل

---

(٢٣) السيرة النبوية ج ٢ ـ لدحلان ص ٦ و ٧ «غزوة الخندق».

(٢٤) السيرة النبوية ج٢ ـ دحلان ص ٦ ـ ٧ «غزوة الخندق».

(٢٥) مستدرك الصحيحين ج ٢ ص ٣٢ عن سفيان الثوري، ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٩.

(٢٦) فقه السيرة ص ٣٣٠ ـ الغزالي.

من غطفان، تحترمه جميع الاطراف. . فذهب الى بني قريظة ـ حيث كانت له علاقة متينة معهم ـ فـذكـرهم بعلاقته تلك معهم.

ثم قال لهم: (**ان قريشا وغطفان سوف لن يبقوا طويلاً ولا بد أنهم مرتحلون فاذا بقيتم في المدينة فان محمدا (ص) لا بد سيثكل بكم، واذا لا بد أن تأخذوا رهائن من قريش تبقى عندكم حتى لا تتنحى قريش وغطفان عنكم في ساعة الحرب**). فاستجابت بنو قريظة لرأيه.

واتصل بقريش وقال لهم إن بني قريـظة قد أسفت على نقضهـا عهد محمد (ص) وهي تعمل وسعها لارضائه، وانها ستطلب من قريش رهائن كي تقتلهم، فحذار أن تقدموا لهم ذلك.

والتقى بغطفان وقال لهم مثل الذي قاله لقريش.

فاتصل أبو سفيان ببني قريظة طالباً منهم الهجوم[٢٧] ـ في اليوم التالي ـ على المسلمين، وحيث كان ذلك اليوم يوم السبت، اعتذرت بنو قريظة.

وَالَحَّ أبو سفيان عليهم، فلم يستجيبوا وأشاروا الى مسألـة الرهـائن، فاطمأن أبو سفيان الى صحة حديث نعيم بن مسعود، فولى الى غطفان، فرآها مترددة كذلك.

وفي الليل هبت ريح عاصفة شديدة البرد، فجعلت تكفأ القدور، وتقلع الخيام وتطفىء النار.

وقد استولىٰ علىٰ جيش المشركين الرعب، فولوا عن المدينة المنورة هاربين. . .

وعند الصباح نظر المسلمون فلم يجدوا أحداً من أعدائهم فامتلأوا ثقة بالله ونصره. . .

هذه صورة من صور النهج الـدفاعي من السيـاسة العسكـرية للدولـة الاسلامية التي تبناها الرسول محمد (ص).

* * *

---

(٢٧) صور من حياة محمد ـ امين دويدار ص ٤٢٩، وفقه السيرة ص ٣٣٠ ـ للغزالي.

صلح الحديبية

كانت معركة الاحزاب «الخندق» آخر محاولات قريش العملية لمواجهة الاسلام، ورسوله العظيم (ص) حيث بدأت بعدها تخشى الرسول (ص).

أما اليهود من بني قريظة، فقد أنهى الرسول (ص) وجودهم بعد حصار دام خمسة عشر يوماً، فانصرف بعد ذلك للتفكير باسلوب لتقوية الدولة، وترسيخ دعائم المجتمع الاسلامي، يقابله اضعاف أعدائه، ونشر دعوته في بقعة أوسع من الارض. . .

وفي هذه الفترة بالذات بلغ رسول الله (ص) أن محاولة تجري في الخفاء للتنسيق بين قريش ويهود خيبر لغزو المسلمين، فقرر (ص) أن يهادن قريشا ليفصلها عن اليهود أولا، وليتمكن بعد الهدنة أن ينشر دعوته بين العرب من غير قريش ثانياً.

وقد فكر أن يبدأ بتنفيذ خطته من أجل مهادنة قريش في موسم الحج، لان قريشا وجميع العرب يحترمون الاشهر الحرم ـ واشهر الحج بعضها ـ.

وجاء موسم الحج فسار الرسول (ص) ومعه الف وخمسمائة رجلاً من أتباعه، وقد لبى بالعمرة من ذي الحليفة، فكان هو وأتباعه يلبون: (**لبيك اللهم لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. .**)، حتى تكون هيئة خروجه من أجل الحج لا من أجل القتال وكانت السيوف في أغمادها، وكان قد أعلم القبائل العربية من غير قريش، انه خارج للحج، وهو يدعوهم لذلك أيضاً.

والغاية من اعلام العرب بذلك أنه (ص) أراد أن يثبت لهم انما جاء حاجا، فلو جاء للقتال لالتزم السرية، ولا داعي لاستنفار الناس من غير

المسلمين، وهم أعداء له ولرسالته.

والرسول (ص) حين دعا العرب للحج، وأعلمهم بذلك فانما أراد أن يكسب الرأي العام ضد قريش اذا هي منعته عن الزيارة لبيت الله الحرام.

ولما سمعت قريش بمقدمه خافت أن تكون مكيدة دبرها الرسول (ص) لدخول مكة.. فجمعت جيشاً ضخماً بقيادة خالد بن الوليد لصد الرسول (ص)، وقطع الجيش مسافة خارج مكة للقاء المسلمين.

سمع الرسول (ص) بتحرك قريش، فأصر على التزام خطته السلمية التي اختطها، ولذلك غير مسار جيشه، فسلك طريقاً وعراً حتى أوصله وجيشه الى أسفل مكة، حيث توقف مسيره عند الحديبية.

وحين علم خالد بن الوليد بالامر، كر راجعاً بجيشه والفزع يستولي عليهم جميعاً[٢٨]، ودخلوا مكة للدفاع عنها، وتقابل الجيشان لكن قريشا كانت تخشى المسلمين اذا دخلت معهم في حرب، غير أنها كانت مصرة على منعهم من دخول مكة بأي شكل من الاشكال.

وما هي الا أيام، حتى أرسلت قريش وفداً لمفاوضة الرسول (ص)، ومعرفة الوجهة التي جاء من أجلها، وبعد مفاوضة قصيرة، اقتنع الوفد من أن رسول الله (ص) والمسلمين انما جاؤوا للحج لا للحرب.

ولما عاد الوفد، وحدّث قريشا بذلك، اتهمت أعضاء الوفد بالخيانة والمناصرة للرسول (ص).

فأرسلت وفداً آخرا برئاسة سيد الاحابيش، وقد ابتغت أن تثيره على المسلمين اذا فشلت مفاوضته معهم، لينحاز اليها.

ولما بلغ أمر مجيء سيد الأحابيش للرسول (ص)، أمر أصحابه أن يطلقوا الهدي في الوادي.. فلما رآها سيد الاحابيش وعليها القلائد - حيث كانت تلك عادة العرب أن يضعوا القلائد في أعناق ما يهدون من بهائم للبيت

---

(٢٨) يراجع صور من حياة محمد - ص ٤٥٣ وما بعدها، وسيرة دحلان ج ٢ ص ٨، وسيرة ابن هشام وغيرها.

الحرام ـ ورأى المسلمين محرمين، وعليهم آثار السفر، وهم مشغولون بذكر الله، عاد دون أن يلتقي بالرسول (ص) اعظاماً له.

فخاطب قريشاً: **(أما والله ما حالفناكم على أن تصدوا عن بيت الله، من جاءه معظماً لحرمه مؤدياً لحقه)**[٢٩].

ثم خاطبهم بوجوب السماح للرسول (ص) وأصحابه بالحج، والا نازلهم الحرب.

وأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي لنفس الغرض... فأعلمه الرسول (ص) بأنه ما جاء يريد حرباً، وانما لزيارة بيت الله تعالىٰ.

وقد استلفت نظر عروة شدة حب المسلمين لرسول الله (ص) ومدى طاعتهم له، فلما رجع الى قريش، قال: **(أي قوم! والله لقد وفدت علىٰ الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله أن رأيت ملكاً قط، يعظمه أصحابه ما يعظم اصحاب محمد محمداً، اذا أمرهم ابتدروا أمره، واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها..)**[٣٠].

ثم ان رسول الله (ص) أرسل الى قريش رسولا، من قبله، هو خراش الخزاعي، لكنهم لم يقبلوه، وعقروا جمله وأرادوا قتله فخلصه سيد الاحابيش منهم.

ثم أرسل عثمان بن عفان، فدخل مكة بعد أن أجاره ابن عمه ابان بن سعيد بن العاص، فلما وصل الى قريش أبلغهم نية الرسول (ص) الحقيقية من مجيئه الى مكة، وهي الحج ليس غير.

ولكن قريشا تمادت في غيها، وحبست عثمان ثلاثة ايام حتى أشيع خبر مقتله بين المسلمين.

---

(٢٩) سيرة الرسول ـ للسيد محسن الامين العاملي ـ صلح الحديبية.
(٣٠) بحار الانوار ج ٢٠ غزوة الحديبية وبيعة الرضوان.

وهنا دعا الرسول (ص) أصحابه الى مبايعته على القتال، فتسابق المسلمون على البيعة، ولبسوا السلاح وتهيئوا للحرب فكانت بيعة الرضوان[31] التي مدح الله فيها المبايعين في كتابه العزيز بقوله: **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين، اذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكّينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً﴾**[32].

ولما بلغ قريش أمر البيعة، بما فيها من تصميم المسلمين على بيع انفسهم لله تعالى، ولرسوله (ص) خشيت العاقبة اذا هي أقدمت على الحرب، لا سيما وهي خبيرة ببسالة المسلمين، وصمودهم في الحروب، التي خاضتها معهم، فيما سبق.

وهكذا اضطرت الى ارسال وفد مفاوض بقيادة سهيل بن عمرو، وبعد أن جرى بين رسول الله (ص) وسهيل حوار طويل اتفقا على توقيع هدنة بين المسلمين والمشركين في مكة.

وقد أمر الرسول (ص) علياً أن يكتب نص المعاهدة بين الطرفين، والرسول (ص) يملي عليه شروط الاتفاق.

فقال رسول الله (ص): **(اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)**.

فقال سهيل ـ ممثل قريش ـ: امسك لا أعرف الرحمن الرحيم بل اكتب باسمك اللهم.

قال رسول الله (ص): **(اكتب باسمك اللهم)**.

ثم قال (ص): **(اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو)**.

فقال سهيل: امسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك لكن اكتب، اسمك واسم أبيك.

قال الرسول (ص): **(اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، ثم كتب شروط المعاهدة، وقد جاء فيها)**[33].

---

(٣١) مجمع البيان ـ للعلامة الطبرسي ـ تفسير سورة الفتح.

(٣٢) سورة الفتح الآية ١٨.

(٣٣) بحار الانوار ج ٢ ص ٣٥٧، وصور من حياة محمد ـ صلح الحديبية.

١ ـ أن تكون المعاهدة معاهدة هدنة بين الطرفين، مدتها عشر سنين.

٢ ـ من أسلم من كفار قريش والتحق بالرسول (ص) بغير اذن قريش، يرده الرسول (ص) الى قريش، ومن ارتد عن الاسلام من صحابة محمد (ص) وعاد الى قريش لم يردوه اليه.

٣ ـ من رغب من العرب محالفة محمد (ص) فليس عليه بأس، ومن حالف قريشاً من العرب فهو حر في ذلك.

٤ ـ أن يرجع محمد واصحابه عن مكة، ولهم الحق في العودة في موسم الحج القادم، لزيارة بيت الله الحرام، شريطة أن يمكثوا في مكة ثلاثة أيام فحسب، ومعهم السيوف في أغمادها.

ووقع رسول الله (ص) المعاهدة عن المسلمين، ووقعها سهيل عن قريش. وسرعان ما وثبت خزاعة، ودخلت مع الرسول (ص) في حلف ووثبت بنو بكر، ودخلت مع قريش في حلف...

ولقد واجهت المعاهدة اعتراضاً من قبل بعض المسلمين ولا سيما عمر بن الخطاب، لما رآه من تساهل الرسول (ص) ولينه، وكان سبب ذلك الاعتراض على الرسول (ص) هو عدم وعي السر الحقيقي من الهدنة، وقد ظل المعترضون عند موقفهم حتى نزلت سورة الفتح بعد توقيع الهدنة، حيث شرحت فلسفة المعاهدة، وانها نصر مبين للمؤمنين ولرسالتهم.

ولقد كان للمعاهدة أعظم الاثر وأحسنه في مسيرة الاسلام التاريخية:

فقد أعطت فرصة للمسلمين لتبليغ دعوتهم الى العرب من غير قريش، والتفرغ لبناء دولتهم وتقويتها وتعزيز مجتمعهم الفتي، بعيداً عن الضغوط التي كانت قريش تفرضها على المسلمين، كالحروب التي تشنها بين حين وآخر.

ثم ان الدعوة الالهية بدأت تكسب الرأي العام والتأييد من عامة العرب بعد تلك الهدنة..

حتى أن المؤمنين أصبحت لهم القدرة بعد ذلك على الاتصال بالعرب في منازلهم وابلاغهم الدعوة..

ومن ثمرات المعاهدة كذلك، تفرغ المسلمين لمواجهة اليهود وقد تجلى ذلك بغزوة خيبر التي تمت بعد عودة الرسول (ص) من الحديبية بخمسة عشر يوماً.

هذه بعض ثمرات صلح الحديبية التي حققت انعطافاً تاريخياً هائلاً لصالح الرسالة والدعوة...

* * *

آفاق جديدة

بادرت الرسالة الاسلامية الى الافصاح عن هويتها الانسانية العالمية منذ أيامها الاولى في مكة المكرمة.

فهي رسالة تهيء للانسان جميع فرص النمو والازدهار وتوازن بين كافة جوانبه، فلا تمكن لجانب بالتنكر لجانب آخر، ومن الطبيعي ان ذلك الامر لن يكون الا اذا اعترفت الرسالة بالانسان كما هو: طاقاته كلها، وكل حاجاته، وكل كيانه.

ولعل أبلغ نص قرآني دلالة على الصفة الانسانية، للرسالة الاسلامية قوله تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[٣٤].

فالاسلام دين الفطرة الانسانية، وهو يتجاوب معها، فلا يحرفها ولا ينكرها، وانما يعترف بها، ويقر متطلباتها جمعاء.

وكما أفصح الاسلام عن هويته الانسانية، منذ كان دعوة في مكة كما يتجلى ذلك من خلال السور المكية التي تتناول حقيقة الكائن الانساني وتركيبه الروحي ـ المادي.

أقول الى جانب الاعلان عن الهوية الانسانية من قبل الرسالة الاسلامية، أعلنت كذلك عن هويتها العالمية منذ أيامها الاولى، فالآيات التي كشفت عن هذه السمة بكل قوة ووضوح كانت مكية: **﴿ما أرسلناك الا رحمة للعالمين﴾**[٣٥]، **﴿وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾**[٣٦]، وخطاب ـ يا

(٣٤) سورة الروم الآية ٣٠.
(٣٥) سورة الانبياء الآية ١٠٧.
(٣٦) سورة سبأ الآية ٢٨.

أيها الناس. . . انما تكرر في السور المكية مراراً.

وبالرغم من اعلان النصوص الاسلامية الاصيلة، عن الصفة العالمية للاسلام، فان الواقع التطبيقي منذ بداية الدعوة كان يجسد تلك الاطروحة.

فطليعة الدعاة كان تركيبها يشير بوضوح وقوة الى تخطي الاسلام لكل الفروق الجغرافية والقومية والقبلية والحواجز الطبقية وسواها.

ففي أول الدعاة كان•الغني والفقير، وكان الابيض والاسود والعربي والاعجمي، وسوى ذلك، فهناك حمزة بن عبد المطلب، وعمار، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، ومصعب بن عمير، وغيرهم. . .

أما بعد الهجرة المباركة، فقد عبر الاسلام عن طبيعته العالمية بوسائل جديدة، منذ أول فرصة سنحت، فبعد تجميد الصراع بين المسلمين والمشركين من قريش على أثر توقيع صلح الحديبية. . . بدأ الاتصال بالعرب من غير قريش، والاتصال بقادة الدول المعاصرة لدولة القرآن العزيز:

الدول الصغيرة منها والكبيرة كل ذلك القاء للحجة على الناس وابلاغاً لهم بشريعة الله تبارك وتعالى.

واذا كان الرسول (ص)، قد بعث بدعاة مبلغين بالرسالة الى أحياء العرب، وقبائلهم يدعونهم الى الاسلام.

فانه (ص) رأى أن يبعث للملوك والقادة في العالم المعاصر له بكتب يدعوهم فيها الى الله وشريعته أسوة بالعرب. . .

وهكذا كتب الى قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس زعيم الاقباط، والنجاشي ملك الحبشة، والحارث الغساني ملك دمشق، والحارث الحميري ملك صنعاء اليمن وكتب الى ملك عمان، وملك البحرين، وملك اليمامة وغيرهم.

وكانت اجابات الملوك كالآتي:

أما قيصر الروم: فقد عرض الامر على زعماء الروم فرفضوا الكتاب رفضاً شديداً واعلن رفضه معهم، وانتهى موقفه عند هذا الحد.

أما كسرى: فقد مزق كتاب رسول الله (ص)، وكتب الى نائبه على اليمن، واسمه باذان، ان يبعث رجالاً لالقاء القبض على الرسول (ص) وارساله اليه، ونفذ باذان امره، وأرسل رجلين من مدللي قصره، فلما وصلا للرسول (ص)، كره منظر التخنث والنعومة عليهما.

فقال (ص) لهما: من امركما بهذا؟

قالا: ربنا ـ يقصدان ـ كسرى ـ

فقال (ص): (**ابلغا صاحبكما ـ يعني باذان ـ ان ربي قتل ربه كسرىٰ في هذه الليلة**).

فعادا، واخبرا صاحبهما بذلك، وما هو الا وقت قصير حتى يأتي النبأ الى باذان بموت كسرى، فأسلم باذان ومن معه باليمن من ابناء الفرس[٣٧].

وأما النجاشي: ملك الحبشة، فأسلم ووضع كتاب رسول الله (ص) على عينيه، ونزل من سريره، وجلس على الارض اجلالاً للرسول (ص).

ثم كتب اليه برسالة يعلن اسلامه، وتصديقه بما جاء به من عند الله.

وأما عظيم القبط، فقد اعتز بكتاب الرسول (ص) واحتفظ به، واكرم حامل الكتاب، وأرسل كتاباً رقيقاً للرسول (ص) وجاريتين احداهما مارية القبطية التي تزوجها الرسول (ص) وكسوة وبغلة فقبل الرسول (ص) هديته...

وأما الحارث الغساني: فقد رمى كتاب الرسول (ص) وعزم على قتاله، واراد التعاون مع قيصر على ذلك، فرفض قيصر فكرته.

وملك اليمامة: رد على الرسول (ص) بأنه يسلم شريطة ان يعينه ملكاً، فلعنه رسول الله (ص).

أما ملك البحرين: فقد اسلم بعد وصول الكتاب من الرسول (ص) اليه.

---

(٣٧) بحار الانوار ج ٢٠ باب مراسلات النبي (ص) الىٰ الملوك.

وكذلك الحارث الحميري ملك صنعاء: فانه قد أسلم.

وهكذا كانت ردود القادة والملوك المعاصـرين للرسول (ص) مختلفـة، ففيهم من ردّ رداً سيئاً وفيهم من كان رده حسنا[٣٨].

ومهمـا يكن من أمر، فـان طريقـة المكاتبـة قد كـانت اسلوباً فـذاً من أساليب الرسول (ص) في نشر الدعوة الاسلامية.

وبطبيعة الحال، فان الرسول (ص) قد حدد مواقفه فيما بعد وفقـاً لنتائج تلك المكاتبات، حيث رسم خططه المستقبلية للتعبئة الجهادية، وسواها طبقاً لردود حكام تلك البلدان.

---

(٣٨) المصدر السابق من البحار. وفقه السيرة للغزالي.

اذا جاء نصر الله والفتح

اطمأنت العلاقات بين محمد رسول الله (ص) وقريش، وحالفت بنو بكر قريشاً، كما حالفت خزاعة المسلمين، فاتجهت قريش لاعادة مركزها الاقتصادي، عن طريق التجارة، بعد أن اهتز عدداً من السنين لغير صالحها بسبب الحروب التي نشبت بينها وبين المسلمين.

أما المسلمون بقيادة رسول الله (ص)، فقد دأبوا على: ابلاغ رسالة الله الى الناس وايصالها الى أبعد مدى ممكن.

وتعزيز الجبهة الداخلية، وتركيز الدولة الاسلامية في الجزيرة العربية، وانهاء آخر كيان لليهود، وذلك بفتح خيبر.

والاتصال بالقادة والملوك في الدول المعاصرة لدولة الاسلام الفتية ـ كما أشرنا ـ.

الا ان القتال نشب بين خزاعة وبني بكر اثر قيام رجل من بني بكر بهجاء الرسول (ص) على مسمع من رجل خزاعي فأوجعه الخزاعي[٣٩] ضرباً، فتحركت كوامن العداء القديم بين القبيلتين، وهجمت بنو بكر ـ بدعم تام من قريش ـ على خزاعة، فأوقعوا بها خسائر في الرجال، مما حمل خزاعة على طلب نصرة رسول الله (ص) وبعثت اليه عمرو بن سالم، احد زعمائها، فشرح له ما قامت به قريش من الغدر بخزاعة، حيث انشد عند دخوله المسجد الشريف، ورسول الله (ص) جالس:

يا رب اني ناشد محمدا　　حلف ابينا وابيه الأتلدا

---

(٣٩) بحار الانوار باب فتح مكة ج ٢١.

قد كنتم ولدا وكنا والدا	ثمت اسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا	وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	ان سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	ان قريشا اخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي كداء رصدا
وزعموا ان لست ادعو احدا	وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا	وقتّلونا ركعا وسجدا[٤٠]

فقال رسول الله (ص): **(نصرت يا عمرو بن سالم)**، ثم دخل داره وهو يقول: **(لانصرت ان لم انصر خزاعة)**.

على أن قريشاً قد استولت عليها المخاوف، من رسول الله (ص) والمسلمين اذا بلغهم النبأ، فأرسلوا ابا سفيان لتدارك الامر ولتأكيد العهد مع المسلمين.

ولما قدم ابو سفيان الى المدينة المنورة، كان رسول الله (ص) على علم تام بتفاصيل الموقف، فلما عرض ابو سفيان مشروع تأكيد العهد وزيادة المدة لقريش، رفض رسول الله (ص) ما عرض عليه، ولم يصغِ الى مراوغاته ومكره.

ففكر ابو سفيان ان يستعين بصحابة الرسول (ص) لتغيير موقف رسول الله (ص)، فدخل على ابي بكر، وحدثه بأمره، فرفض طلبه، ثم اتصل بعمر بن الخطاب، فلم يستجب له، ثم دخل على ابنته ام حبيبة زوجة الرسول (ص) واراد ان يجلس، فطوت عنه الفراش.

قائلة له: هذا فراش رسول الله (ص) وما كنت لتجلس عليه وانت رجس مشرك. . .

فخرج من عندها ودخل على فاطمة الزهراء (ع) فرفضت ما جاء به، ثم عرض امره على علي بن ابي طالب (ع).

---

(٤٠) محمد رسول الله ـ محمد رضا ص ٣٠٤ والسيرة النبوية لدحلان ص ٧٧ باختلاف يسير.

فقال له علي (ع): **(لقد عزم رسول الله على امر، ما نستطيع ان نكلمه فيه)**.

فلما يئس ابو سفيان عاد الى مكة خائباً...

فتهيأ رسول الله (ص) للحرب وامر الناس بالتهيؤ لها. وقال: **(اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها)**[41].

سار جيش المسلمين بقيادة رسول الله (ص)، وكان تعداده عشرة آلاف رجل، حتى اذا وصل على مقربة من مكة امر رسول الله (ص) كل أحد أن يوقد ناراً حتى تحول ليل الصحراء الشاسعة الى نهار.

وفي تلك الليلة بالذات، كان أبو سفيان ونفر من قريش قد قصدوا خارج مكة، بحثا عن اخبار المسلمين التي انقطعت عنهم تماماً، بسبب تكتم الرسول (ص) واصحابه وحرصهم على وصول مكة دون علم قريش ـ كما اتضح من دعائه (ص) ـ.

وقد فزع ابو سفيان واصحابه من كثرة النيران التي ملأت الصحراء تلك الليلة فراح هو ومن معه يتحاورون بشأنها وهم لا يعلمون حقيقة الموقف.

وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج ليلاً باحثاً عن رجل من قريش ليخبره بقدوم المسلمين، ومدى قوتهم لتأتي قريش وتطلب الامان من رسول الله (ص) قبل أن يدخل عليها عنوة بقوة السلاح، وذلك مما تعجز قريش عن رده..

وسمع العباس صوت ابي سفيان، يحدث اصحابه حول النيران التي تملأ الصحراء، فعرف العباس صوته.

فناداه: ابا حنظلة؟

أجاب ابو سفيان: أبو الفضل؟

قال العباس: نعم.

قال ابو سفيان: فداك ابي وامي! ما وراءك؟!

---

(٤١) سيرة الرسول ـ السيد محسن الامين العاملي ـ فتح مكة.

فقال العباس: هذا رسول الله، وقد جاء بما لا قبل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين.

قال ابو سفيان: فما تأمرني؟

قال العباس: تركب عجز هذه الناقة، فاستأمن لك رسول الله (ص).

وركب ابو سفيان خلف العباس على نفس الناقة، حتى قدما على رسول الله (ص) فطلب العباس له الامان من رسول الله (ص)، فأجابه رسول الله (ص): (**اذهب فقد آمناه حتى تغدو به علي بالغداة**)[٤٢].

وفي الصباح جاء العباس لرسول الله (ص).

فقال له الرسول (ص): (**ويحك يا أبا سفيان، الم يأن لك ان تعلم ان لا اله الا الله**)؟

قال أبو سفيان: بأبي انت وامي، ما اوصلك واكرمك وارحمك واحلمك، والله لقد ظننت ان لو كان معه اله، لاغنى يوم بدر.

فقال (ص): (**ويحك يا أبا سفيان الم يأنِ لك أن تعلم اني رسول الله**)؟

فقال ابو سفيان: بأبي أنت وامي اما هذه، فان في النفس منها شيئاً!!

فقال له العباس: ويحك اشهد بشهادة الحق قبل أن يضرب عنقك.

وهكذا تلفظ ابو سفيان، بالشهادتين تحت ظلال السيوف ونطق بهما على دخل في القلب وسوء طوية.

واخيراً قال رسول الله (ص) للعباس (رض): (**انصرف يا عباس فاحبسه عند مضيق الوادي، حتى تمر عليه جنود الله**)[٤٣].

ومرت عليه جنود الله كتيبة بعد كتيبة يحدوها النصر ويشد ازرها الثقة بالله تعالى وتعلو اصواتها بالتهليل والتكبير والشكر لله تبارك وتعالى، حتى اذا مرت كتيبة رسول الله (ص) وفيها المهاجرون والانصار، سأل ابو سفيان العباس عنها.

---

(٤٢) الميزان ج ٢٠ تفسير سورة النصر، وبحار الانوار ج ٢١ ـ فتح مكة.

(٤٣) الميزان ج ٢٠ تفسير سورة النصر.

فأجابه العباس: انها كتيبة رسول الله الخضراء، وهذا رسول الله وهؤلاء المهاجرون والانصار.

فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن اخيك عظيماً!

فزجره العباس قائلاً: انها النبوة..

فقال: نعم اذن!!

واقبل حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، فنطقا بالشهادتين امام رسول الله (ص)، وبايعاه.

ثم اصدر رسول الله (ص) بياناً ضمنه الامان لقريش، جاء فيه.. (.. **من دخل دار ابي سفيان ـ وهو بأعلى مكة ـ فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام ـ وهو بأسفل مكة ـ فهو آمن، ومن أغلق بابه، وكف يده فهو آمن...**)[44].

وارسل رسول الله (ص) ابا سفيان حكيماً لابلاغ قريش بذلك الامان العام...

ثم انه (ص) توجه نحو مكة، واطبق جيش المسلمين عليها من جميع جهاتها خشية وقوع اي شغب من المشركين.

وقد كان الرسول (ص) حريصاً على ان لا تراق قطرة دم واحدة يومئذ حتى انه خلع سعد بن عبادة من قيادة احدى الفرق، لانه توعد قريشاً، وقال شيئاً يثيرها!

فمما قاله:

اليومُ يومُ الملحمهْ اليومُ تُسْبىٰ الحرمهْ[45]

واعطى (ص) الراية لعلي بن ابي طالب (ع)، فدخل بها الى مكة بشكل لا يثير احداً[46].

---

(٤٤) البحار ج ٢١ ـ فتح مكة ـ وحياة محمد ـ محمد حسين هيكل ـ فتح مكة.

(٤٥) سيرة دحلان ص ٨٦ والميزان ج ٢٠ تفسير سورة النصر.

(٤٦) البحار ج ٢١ (فتح مكة) والسيرة النبوية ـ دحلان ص ٨٧ والميزان ج ٢٠ تفسير سورة النصر.

ولما دخل الرسول مكة: وقف على باب الكعبة وقال:

(.. **لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، الا كل مأثرة اودم او مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، الاسدانة الكعبة، وسقاية الحاج**) ثم قال: (**يا معشر قريش، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب**)، ﴿**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير**﴾.

ثم قال: (**يا معشر قريش ماذا تقولون؟ وماذا تظنون اني فاعل بكم**)؟

قالوا: خيراً.. اخ كريم وابن اخ كريم.

فقال (ص): (**اقول كما قال اخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين.. اذهبوا فأنتم الطلقاء..**)[٤٧].

وبهذا الاعلان كسب الرسول (ص) القلوب وفتح النفوس على الاسلام.

ثم بادر الى تكسير الاصنام، ومسح صورتين كانتا على جدران الكعبة بثوبه، وامر الناس بتكسير ما لديهم من اصنام، وكان يتلو قوله تعالى: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً**﴾.

ولقد ساهم الامام علي (ع) جنباً الى جنب مع رسول الله (ص) في كسر الاصنام، واذ لم يبق سوى صنم خزاعة فوق الكعبة، امر الرسول (ص) عليا بكسره، وقد حمله (ص) حتى تمكن من الصعود فوق الكعبة فرمى بالصنم المذكور الى الارض فكسره[٤٨].

وبعد صلاة الظهر، من ذلك اليوم المجيد جرت بيعة قريش لرسول الله (ص) على الاسلام والطاعة، رجالاً ونساء...

وبذلك سقط اقوىٰ حصون المشركين، واكثرها تنمراً وتحجراً في وجه

---

(٤٧) البحار ج ٢١ (فتح مكة) وصور من حياة محمد ـ فتح مكة.

(٤٨) الزمخشري في كشافه، في تفسير آية جاء الحق وزهق الباطل.

الاسلام العظيم، وتحقق بذلك اعظم نصر للمسلمين ولرسالتهم الكريمة، حيث انضمت مكة الى دار الاسلام . . .

وقد بقي الرسول (ص) في مكة، بعد فتحها خمسة عشر يوماً، ثم تولى تنظيمها ادارياً، فعين عليها هبيرة بن شبل الثقفي، كما عين معاذ بن جبل لتعليم الناس القرآن، وفقه الرسالة . . وبعد ذلك تركها (ص) وتوجه لغزو الطائف، لانهاء جيب آخر للمشركين . . .

وتلاحقت موجات النصر . . .

جاء نصر الله تعالىٰ وفتح المسلمون مكة، وبلغت اصداء النصر الىٰ هوازن، فنظم قائدها جيشاً كبيراً، لصد المسلمين . . .

ولما بلغ رسول الله (ص) ما اقدمت عليه هوازن، زحف عليها باثني عشر الف مقاتل . . غير ان هوازن قد احكمت خطة لملاقاة الزحف الاسلامي، فاتخذت مواقعها على قمم جبال حنين، وعند مضيق الوادي .

ولما قدم المسلمون فاجأهم العدو بالنبال، فاستولىٰ علىٰ المسلمين الذعر واختلط عليهم الامر، ففروا راجعين لا يلوون على شيء، ولم يبق مع رسول الله (ص) غير علي بن ابي طالب، والعباس بن عبد المطلب، ونفر من بني هاشم، واسامة بن زيد، وايمن بن عبيد[٤٩].

وراح رسول الله (ص) ينادي المسلمين: (**ايها الناس هلموا الي، انا رسول الله انا محمد بن عبد الله**[٥٠]. . . فلم يجبه أحد .

وبعد أن مضى بعض الوقت، امر رسول الله (ص) عمه العباس ـ وكان جهوري الصوت ـ ان ينادي المسلمين، ويذكرهم بالعهد الذي بينهم وبين رسول الله (ص)، فرفع العباس صوته منادياً: (**يا معشر المهاجرين والانصار،**

---

(٤٩) سيرة الرسول (ص) ـ السيد محسن الامين ـ نقلاً عن السيرة الحلبية وابن قتيبة في المعارف كما يراجع تفسير الميزان ـ للسيد الطباطبائي ج ١٠ تفسير آية ٢٥ من سورة التوبة والبحث الروائي .

(٥٠) سيرة الرسول ص ١٢٧ ـ للسيد الامين وسيرة دحلان ص ١١٠ بلفظ آخر .

يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، الى أين تفرون؟ هذا رسول الله. . .)[٥١].

فسمع المسلمون صوت العباس، فبادروا للعودة مسرعين، حتى ان بعضهم، ممن لم تطاوعه دابته على العودة تركها في الوادي وهرول بسلاحه، دون دابته، وكل ينادي. . . لبيك. . . لبيك[٥٢].

وتغير الموقف رأساً علىٰ عقب وتحول المسلمون الى مهاجمين، وقاتلوا ببسالة وثقة بنصر الله عالية، فانهزم العدو لا يلوي على شيء.

واستمر العدو منهزماً حتى دخل الطائف، وكانت الطائف تقطنها قبيلة ثقيف، التي كانت قد حصنتها تحصيناً تاماً، فحاصرها رسول الله (ص) والمسلمون.

ولكن المدافعين عنها استعملوا النبال في صد المسلمين، فأوقعوا بعض الخسائر في معسكرهم، فابتعد المسلمون عن الحصن، وبقوا يحاصْرون الطائف عن بعد.

وهلَّ ذو القعدة المكرم، فأسرع رسول الله (ص) الى اداء العمرة في مكة، فرأت هوازن وثقيف ان الوقت قد حان لاستسلامها. . فأرسلت قائدها مالك بن عوف النضري الى رسول الله (ص) وهو في طريقه الى مكة، فأعلن اسلامه، حيث سبق لرسول الله (ص) ان وعده بالعفو اذا هو اسلم، وفعلاً عفا عنه (ص) ورد عليه ماله.

وتتابعت جموع هوازن، لاعتناق الاسلام، ثم ارسلت وفداً الى رسول الله (ص) من أربعة عشر رجلاً، معلنة اسلامها، ودخولها دار الاسلام فرد (ص) عليهم اموالهم واسراهم.

ثم واصل مسيره الى مكة، فلما قضى عمرته قفل (ص) راجعاً الى المدينة المنورة[٥٣]. . بعد أن عين عتاب بن اسيد والياً على مكة، وعاد هو

(٥١) الميزان ج ١٠ تفسير آية ٢٥ من سورة التوبة والبحث الروائي ص ٢٣١.
(٥٢) في ظلال القرآن ج ١٠ سيد قطب تفسير آية ٢٥ من سورة التوبة.
(٥٣) سيرة الرسول (ص) السيد محسن الامين ص ١٣٢.

والمهاجرون والانصار الى المدينة المنورة. . . كي يواصلوا مسيرة البناء والتغيير، بناء المجتمع والدولة وتغيير الانسان على ضوء المنهج العظيم.

غزوة تبوك والزحف علىٰ بلاد الروم:

وفي هذا الوقت بالذات تواردت الانباء الى الرسول القائد (ص) من ان الروم اعدوا العدة لغزو الاجزاء الشمالية من الجزيرة العربية، التي تعتبر جزءاً من الدولة الاسلامية.

فقرر الرسول (ص) ان يصدهم بنفسه. . .

وهكذا اصدر اوامره لاستنفار المسلمين في المدينة المنورة، وخارجها، فلم يدع قوماً من الناس الا اجابوه لذلك، الا ان المنافقين الاوائل، او ممن اظهروا الاسلام خوفاً من سطوة المسلمين، بعد فتح مكة، راحوا يخلقون الاعذار، حتى لا يخرجوا لقتال الروم.

وكان اهم عذر عندهم في ذلك، شدة الحر، وبعد المسافة بين المدينة وبلاد الروم، وقد حكى القرآن الكريم، ما كانوا يتذرعون به من وسيلة، منددأ ومهاجماً: ﴿**وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون**﴾[٥٤].

ولم يقف المنافقون عند هذا الحد، بل راحوا يدعون الناس الى التخلف عن الجيش الاسلامي، واعدوا داراً لتجمعاتهم، فبلغ الرسول (ص) ذلك، فأحرق عليهم الدار اثناء اجتماعهم، ففروا هاربين. . . حيث لقنهم بذلك درساً لقاء خيانتهم للاسلام.

سار جيش الاسلام بقيادة رسول الله (ص) وكان تعداده ثلاثين الفاً، وقد سمي ذلك الجيش (جيش العسرة) لشدة الحر، وبعد المسافة، وقلة المؤونة، ولكنه الجهاد وضرورة الامتحان لارادة الرجال، ومستوى الايمان ومداه في النفوس.

---

(٥٤) سورة التوبة الآية ٨١.

وقد استخلف الرسول (ص) علياً (ع) لادارة المدينة المنورة ولرعاية اهله (ص)، على ان علياً اراد صحبة الرسول (ص) في غزوته الا ان رسول الله (ص) أمره بالبقاء في المدينة المنورة، وخاطبه بقوله: **(اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى، الا انه لا نبي بعدي؟)**[٥٥].

سار جيش رسول الله (ص) حتى بلغ تبوك، على الحدود الفاصلة بين بلاد العرب، وحدود الدولة الرومانية، حيث خاف الروم من جيش المسلمين فهربت قواتهم الى داخل حدودهم قبل وصول الجيش بأيام. . .

فقرر الرسول (ص) عدم التوغل في داخل البلاد الرومانية فعاد بجيشه الى مدينته المباركة، فنزلت سورة التوبة، وهي تفضح المنافقين والمتواطئين معهم، وتكشف خططهم، وتنعى على الذين قعدوا عن الجهاد قعودهم وكسلهم وتثاقلهم.

وقد بادر الرسول (ص) الى احراق مسجد الضرار الذي بناه المنافقون، واتخذوا منه قاعدة للنفاق، والتكتل المضاد للاسلام ودولته وبذلك مزق تجمعهم. . .

(٥٥) مسند احمد بن حنبل ص ٣٣٠ ـ خصائص النسائي ص ١٤ وطبقات ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٤ ـ حلية الأولياء ج ٧ ص ١٩٥ وتاريخ بغداد ج ٧ ص ٤٥٢ وكنز العمال ج ٣ ص ١٥٤ والارشاد ـ للشيخ المفيد ـ غزوة تبوك ـ ومصادر اخرى غيرها.

مشروع البراءة من المشركين

اما المشركون الذين لم يتخلوا عن وثنيتهم، فقد عزم رسول الله (ص) على منعهم من تأدية طقوسهم حول البيت الحرام، نظراً الى اعلانهم الشرك، وسلوكهم غير المحتشم، حيث يطوفون حول البيت عراة، متحللين من الادب، فلا مبرر لبقاء ذلك المظهر البشع، ولا داعي لبقاء قوم يعبدون الاصنام، بعد أن اظهر الله الاسلام، واعزه بنصره، وبعد ان هدمت الاصنام، ودخلت مكة دار الاسلام.

في موسم الحج في السنة التاسعة من الهجرة حيث نزلت سورة التوبة التي الغت كل مخلفات الشرك، وانهت كل وجود للمشركين في مكة، أمر رسول الله (ص) ابا بكر بتبليغها لمن تبقى من المشركين، والذين يتواجدون غالباً عند البيت الحرام في الموسم لاداء الحج على طريقتهم البالية...

فلما كان ابو بكر في بعض الطريق، هبط الامين جبرائيل (ع) بالامر من الله لرسوله (ص) ان يتولى التبليغ علي بن ابي طالب (ع) فبعث رسول الله (ص) كتاباً الى ابي بكر، يأمره باعطاء الكتاب الذي يحمل السورة المباركة الى علي (ع)، وهكذا كان...

فعاد ابو بكر الى رسول الله (ص) كئيباً، فقال له: **انزل في شيء؟**

قال (ص): **(لا، الا اني امرت ان ابلغه انا او رجل من اهل بيتي)**[٥٦].

---

(٥٦) خصائص النسائي ص ٢٠ وصحيح الترمذي ج ٢ ص ١٨٣ واحمد بن حنبل في مسنده ج ٣ ص ٢٨٣ والسيوطي في الدر المنثور، وتفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٤٦، ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ٥١ وغيرها، وللاستزادة يراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣٤٣.

وسـار علي (ع) حتى اذا وصـل مكـة وقف بمنى، وقـرأ السـورة المباركة... ثم نادى بأعلى صوته: **(لا تـدخل الكعبـة الا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله (ص) فعهده الى مدته، ومن لم يكن له عهد، فأجله اربعة أشهر)**[٥٧].

وبهذا البيان طويت آخر صفحة للشرك في مكة المكرمة، وعادت كعبة لله وحده، لا يعبد فيها غيره سبحانه ولا تقام فيها غير شعائر دينه العظيم...

---

(٥٧) حياة محمد ـ محمد حسين هيكل، وبحار الانوار ج ٢١ باب نزول سورة البراءة.

حجة الوداع

جاء موسم الحج من السنة العاشرة، فدعا رسول الله (ص) الناس الى الحج، واعلمهم انه عازم على اداء الفريضة في عامه ذاك، فاجتمع اليه الناس من كل حدب وصوب من أنحاء الجزيرة كلها، حتى تكاملوا مائة الف او يزيدون...

فسار رسول الله (ص) بتلك الجموع الكثيرة، قاصداً حج بيت الله تعالى، وصحب معه نساءه جميعاً وفاطمة (ع) ولم يتخلف الا علي (ع)، حيث كان الرسول (ص) قد ارسله في مهمة لليمن[58].

وكان ذلك الحشد الهائل يردد بين الحين والآخر النداء المقدس الخالد: (**لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك.. ان الحمد والنعمة لك والملك... لا شريك لك لبيك...**).

وعلى مقربة من مكة التحق علي (ع) برسول الله (ص) ليؤدي مناسك الحج معه...

ودخل المسلمون مكة بقيادة رسولهم العظيم (ص) وادوا مناسكهم، حسب ما بينه لهم الرسول (ص).

حتى اذا توجهوا الى عرفة، وقف رسول الله (ص) علىٰ راحلته والقى خطبته الشهيرة، في ذلك الجمع الهائل، فحمد الله واثنى عليه، ثم قال[59]:

(**اوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم علىٰ العمل بطاعته واستفتح الله بالذي هو خير...**

---

(58) الارشاد للشيخ المفيد ـ حجة الوداع، وحياة محمد ـ محمد حسين هيكل.
(59) تحف العقول عن آل الرسول ـ ابن شعبة الحراني ط ٥ ـ ١٩٧٤ ص ٣٩.

أما بعد ايها الناس. . . اسمعوا مني، ما ابين لكم، فاني لا ادري لعلي لا القاكم، بعد عامي هذا، في موقفي هذا. . .

أيها الناس ان دماءكم واعراضكم عليكم حرام، الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، الا هل بلغت؟ اللهم اشهد. . .

فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وان ربا الجاهلية موضوع، وان اول ربا ابدأ به ربا العباس بن عبد المطلب، وان دماء الجاهلية موضوعة، وان اول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن ازداد فهو من الجاهلية. . .

ايها الناس: ان الشيطان قد يئس ان يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي بأن يطاع فيما سوى ذلك، فيما تحتقرون من أعمالكم. .

أيها الناس: انما النسيء، زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما، ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله، وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والارض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله، يوم خلق السماوات والارض منها اربعة حرم.

ثلاثة متوالية وواحد فرد. . . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، بين جمادي وشعبان، الاهل بلغت؟ اللهم اشهد. . .

ايها الناس: ان لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حقاً: حقكم عليهن ان لا يوطئن احداً فرشكم، ولا يدخلن احداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم، والا يأتين بفاحشة، فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فاذا انتهين واطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. . .

اخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكتاب الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا. .

ايها الناس (انما المؤمنون اخوة)، ولا يحل لمؤمن مال أخيه الا عن طيب

نفس منه... الا هل بلغت اللهم اشهد...

فلا ترجعن كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فاني قد تركت فيكم ما أن اخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي اهل بيتي... الا هل بلغت، اللهم اشهد...

ايها الناس: ان ربكم واحد وان اباكم واحد، كلكم لادم وآدم من تراب، ﴿ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ وليس لعربي على اعجمي فضل الا بالتقوى.. الا هل بلغت؟

قالوا: نعم.

قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

ايها الناس: ان الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في اكثر من ثلث... والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى الى غير ابيه، ومن تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

بيعة الغدير المباركة

ولما اتم رسول الله (ص) حجّه قَفَلَ راجعاً الى المدينة، ومعه ذلك الحشد العظيم من المسلمين، وفي غدير خم ينزل عليه وحي الله تعالى يدعوه لاستخلاف علي بن ابي طالب اميراً للمؤمنين بعده. . .

ولحكمة الهية يتم اختيار ذلك المكان بالذات لتبليغ الناس ببيان السماء الخاص باختيار علي (ع) اماماً للمسلمين بعد رسول الله (ص).

فقد كان وقت زوال الشمس يقترب، وكان يوماً قائظاً شديد الحرارة، حتى ان المسلمين حين استوقفهم الرسول (ص) لتلاوة بيان السماء، كان الرجل منهم يلف رداءه على قدميه ليتقي بها حرارة الرمضاء. . . ومع هذا وذاك استوقفهم الرسول (ص) ليبلغهم بما الزمه الله تعالى تبليغهم به بالنظر لاهمية الامر، وضرورته مما لا يسمح بالتأجيل.

استوقف الرسول (ص) المسلمين على مفترق للطرق. . سيتفرقون عنده، وربما لن يسمع الكثير صوت رسول الله (ص) بعد ذلك اليوم.

ولحكمة بالغة ربما كانت آخر ساعة من حياة الرسول (ص) مع الكثير من المؤمنين من أصحابه لان يرشدهم الى أن علياً هو مرجعهم الفكري والاجتماعي بعده دون سواه، لانها تكاد تكون ساعة وداع، ومثل تلك الساعة غالباً ما تكون ذات عاطفة ونكهة خاصة، بحيث لا تنسى وقائعها عند البشر، فربما ينسى الناس هذا الامر، لو ان الرسول (ص) قد بلغهم به قبل سنوات، او يفقد حرارته، ولكنه (ص) وبأمر من الله تعالى جعله آخر ما عهد للناس به. . اذ ربطه بعبارات الوداع لكي يثبت في وجدان الامة، ويكون حياً في ذاكرتها. . .

فوقف رسول الله (ص)، على رحال جمعت له حتى يراه جميع الناس، ويسمعوه.. فحمد الله واثنى عليه ثم قال:

(.. أيها الناس: يوشك ان ادعىٰ فاجيب، واني مسؤول وانكم مسؤولون، فماذا انتم قائلون؟

قالوا: **نشهد انك قد بلغت وجاهدت، ونصحت فجزاك الله خيراً.**

فقال: **اليس تشهدون ان لا اله الا الله، وان محمداً عبده ورسوله وان جنته حق وان ناره حق، وان الموت حق، وان البعث حق بعد الموت، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور؟.**

قالوا: نشهد بذلك.

قال: **اللهم اشهد.**

ثم قال: **ايها الناس ان الله مولاي، وانا مولى المؤمنين وانا اولى بهم من انفسهم، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه.**

أيها الناس، اني فرطكم وانكم واردون على الحوض: حوض اعرض مما بين بصرى الى صنعاء، فيه عدد النجوم قد حان من فضة، واني سائلكم حين تردون علي، عن الثقلين كيف تخلفوني فيهما، الثقل الاكبر: كتاب الله عز وجل، سبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا، ولا تبدلوا، وعترتي اهل بيتي فانه نبأني اللطيف الخبير انهما لن ينقضيا حتى يردا علي الحوض)[٦٠].

---

(٦٠) الصواعق المحرقة لابن حجر، نقلاً عن الترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل، وقد نص عليه أحمد بن حنبل في مسنده وقال: رواه ثلاثون صحابياً، كما اخرجه النسائي بعدة طرق في خصائصه، ورواه ابن ماجة في صحيحه في باب فضائل اصحاب الرسول (ص) ص ١٢، ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١٦، والشيخ المفيد في ارشاده، والطبراني عن زيد بن ارقم، والفخر الرازي في تفسير آية ﴿**يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك...**﴾ وحلية الاولياء ج ٥ ص ٢٦، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٧ ص ٣٧٧ برواية ابي هريرة وكنز العمال ج ١ ص ٤٨ ومن شاء المزيد فليراجع كتاب الغدير ج ١ ليرى رواية الحديث عن طريق ١١٠ صحابياً و ٨٤ تابعياً.

ثم نزل (ص) وصلى ركعتين، فأذن مؤذنه للظهر، فصلى بأصحابه، ثم جلس في خيمته، وامر عليا ان يجلس في خيمة له. . .

فأمر المسلمين ببيعته بالخلافة. .

وهكذا مارس الرسول (ص) ما من شأنه ان يحفظ مستقبل الرسالة والدعوة. . .

جيش أُسامة:

وعاد الرسول (ص) الى المدينة ليواصل مسيرة البناء والتغيير: بناء الدولة والمجتمع وتغيير الانسان، باتجاه الفضيلة والتقوى والعمل الصالح، التي رسمت رسالة الله تعالى ابعادها وحدودها وغاياتها.

وكانت اولى مهامه بعد عودته (ص) من حجه ان يغزو الروم مجدداً فبدأ يجهز جيشاً ضخماً لغزوهم.

وقد ضم الجيش علية القوم، وشيوخ المهاجرين والانصار كأبي بكر، وعمر، وعثمان وسواهم.

وقد عين لقيادته اسامة بن زيد بن حارثة الصحابي الشاب واثناء تجهيزه الجيش تعرض رسول الله (ص) لمرض شديد. . .

قلق الرسول (ص) على مستقبل الدعوة:

وفي احدى الليالي، نادى الرسول (ص) علياً وجماعة من اصحابه وخرج بهم الى البقيع، قائلاً لمن اتبعه: (**اني قد امرت ان استغفر لاهل البقيع**).

فلما وقف بين القبور، قال مخاطباً موتى المؤمنين: (**السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما اصبحتم فيه، مما فيه الناس، اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع اولها آخرها**) ثم استغفر لاهل البقيع طويلاً، ونعى نفسه لمن كان حاضراً من المؤمنين.

ثم أخذ يشتد عليه (ص) المرض، وفي تلك الساعات العصيبة، كان رسول الله (ص) يؤكد باستمرار علىٰ وجوب تسيير جيش اسامة، وعدم التخلف

عنه، لكن كبار الشخصيات قد اعتذروا عن تنفيذ طلب النبي (ص) بأنهم لا يرغبون مفارقة الرسول (ص) وهو يعاني من المرض!!

الوصية الاخيرة:

وفي آخر ساعاته خاطب رسول الله (ص) من حضر عنده من أصحابه بقوله: (**ائتوني بدواة وكتف، لاكتب اليكم كتاباً لا تضلوا بعده ابداً...**)، وقد اغمي عليه من شدة المرض... حتى قال احد الحاضرين ان الرجل ليهجر... وبعد ان افاق.

قال القوم: الا نأتيك بدواة وكتف؟!

فرفض الرسول (ص) قائلاً: (**ابعد الذي قلتم؟ ولكني اوصيكم بأهل بيتي خيراً...**).

ولما قرب اجله اوصى علياً بجميع وصاياه. ثم فاضت نفسه الطاهرة في حجر علي (ع)[61].

وقد تولىٰ علي (ع) واهل بيته تجهيزه... ثم صلوا عليه.

وأمر علي (ع) المسلمين بالدخول علىٰ رسولهم العظيم (ص) للصلاة، والقاء آخر نظرة لهم عليه.

وبعد أن صلىٰ عليه جميع المسلمين... بادر أمير المؤمنين علي (ع) واهل بيته، وجمع من الصحابة الى دفنه في الحجرة التي فارق الحياة فيها... صلى الله عليه وآله الطاهرين.

وهكذا خسرت الانسانية أعظم هادٍ وأجلّ مربٍ عرفته الارض والسماء فصلىٰ الله عليه يوم ولد ويوم هدىٰ الله به الأنام ويوم رحل الىٰ ربه الأعلىٰ.

«والحمد لله رب العالمين»

---

(٦١) مناقب الخوارزمي عن عائشة، والمحب الطبري في ذخائر العقبى ص ٧٣، والكنجي الشافعي في كفاية الطالب ص ١٣٣، وأحمد بن حنبل في مسنده ج ٢ ص ٣٠٠.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الإمام

علي بن أبي طالب ع



سلسلة
حياة النبي محمد وأهل بيته
٢

الإمام
علي بن أبي طالب ع

إعداد:
نخبة من العلماء

دار الرسول الأكرم «ص»
دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٤٧٩

مقدمة خاصة

إن الاهتمام برسول الله (ص) وأهل البيت (ع)، تربية وتأهيلاً وتفضيلاً، لم يكن اهتماماً عاطفياً بقدر ما هو امتثال لأمر إلهي قاطع، صدر عن رب العالمين، حينما أوحى برسالته الخالدة إلى محمد بن عبد الله ليخرج البشرية من ظلمات الالحاد والشرك الى نور الايمان والتوحيد، آمراً رسوله بقوله عز من قائل:

﴿لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودَّة في القربى﴾

فكانت مودتهم ان لاقوا التقتيل والتعذيب والتشريد، وتجرعوا المحن والغصص، صابرين محتسبين، هم وشيعتهم الأبرار، بشكل يفتت الاكباد، ويذيب الجماد.

ولما أخذت الدار على عاتقها نشر نبذة صغيرة عن النبي (ص) وأهل البيت (ع) في محاولة منها للتعريف بهؤلاء الأفذاذ، ليتسنى لكل مسلم التعرف على قادته بشكل صادق وواعي ويكون من السهل التعرف على أئمتنا حتى لا نكون ممن ماتوا ولم يتعرفوا على أئمة زمانهم فنموت ميتة الجاهلية.

فمع الحلقة الثانية من تلك الحلقات:

مع علي بن ابي طالب (ع)



الجزء الأول

بزوغ الفجر

في يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب المبارك، وقبل بعثة محمد رسول الله (ص) باثنتي عشرة سنة، اشتد المخاض على فاطمة بنت أسد، فجاء بها أبو طالب الى الكعبة المشرفة، وأدخلها فيها ثم قال لها اجلسي . . . وخرج عنها، فرفعت يدي الضراعة الى العلي الأعلى سبحانه قائلةً: «ربي إني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصدقة بكلام جدي ابراهيم الخليل -ع- وانه بنىٰ البيت العتيق، فبحق الذي بنىٰ هذا البيت والمولود الذي في بطني الاَّ ما يَسرتَ علي ولادتي»[1 و2].

ولم يمضِ على فاطمة غير ساعة حتى أعلنت أنها قد وضعت ذكراً، وهو أول مولود ولِدَ في الكعبة المشرفة ولم يولد فيها بعده سواه تعظيماً له من الله سبحانه واجلالاً[3 و4]، وأسرع البشير الى أبي طالب وأهل بيته، فأقبلوا مسرعين والبشر يعلو وجوههم.

وتقدم من بينهم محمد المصطفىٰ[5] (ص) فضمه الى صدره وحمله الى بيت أبي طالب، حيث كان الرسول في تلك الآونة، يعيش مع خديجة، في

(١و٢) كشف الغمة للأربلي ج ١ ـ فصل ذكر الامام علي -ع-.

(٣و٤) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٨٣ والكفاية للحافظ الكنجي الشافعي وشرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ص ١٥ ونور الابصار للشبلنجي ص ٧٦ ومطالب السؤول ص ١١ لمحمد بن طلحة الشافعي والمناقب للأمير محمد صالح الترمذي. نقلاً عن الغدير ج ٦ من ٢٢ الى ٣٨ لعبد الحسين الأميني ط ٣ سنة ١٩٦٧ بيروت.

(٥) الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ لابن الصباغ المالكي/ الفصل الأول ص ١٣.

دارهما منذ زواجه منها.

وانقدح في ذهن ابي طالب، أن يسمي وليده «علياً» وهكذا كان...

وأقام أبو طالب وليمة، على شرف الوليد المبارك، ونحر الكثير من الأنعام[6].

وقد حضر وليمته جمع حاشد من الناس: قدموا التهاني، وعاشوا ساعات من البهجة، أبدوا فيها مشاعرهم الفياضة، وأحاسيسهم السامية، نحو عميدهم شيخ الأبطح، ووليده المبارك...

ومرت الأيام سريعة، والوليد المبارك يتقلب بين أحضان والديه: أبي طالب، وفاطمة، وابن عمه محمد (ص)، الذي كان دائم التردد على دار عمه، التي ذاق فيها دفء المودة، وشرب من ينابيع الاخلاص والوفاء الصافية، خلال سنوات صباه وشبابه...

أجل كان النبي محمد (ص) يتردد كثيراً على دار عمه، بالرغم من زواجه من خديجة، وعيشه معها في دار منفردة، وكان يشمل علياً بعواطفه، ويحوطه بعنايته، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره، ويحرك مهده عند نومه، الى غير ذلك من مظاهر العناية والرعاية...

في كفالة رسول الله (ص):

وبعد مضي ست سنوات على ولادة علي (ع) تعرضت قريش لأزمة اقتصادية خانقة، وقد كانت وطأتها شديدة على أبي طالب، إذ كان رجلاً ذا عيال كثيرة، وكهفاً يلوذ به المحتاج والفقير، بحكم مركزه الاجتماعي في مكة... أيرضى المصطفى (ص) وبنو هاشم، أن تقسو الحياة على عميدهم؟!

أقبل الرسول (ص) على عمه العباس بن عبد المطلب، وهو أثرى بني هاشم يومها، فخاطبه بقوله: «... يا عم، إن أخاك أبا طالب كثير العيال،

---

(٦) البحار ج ٣٥ ص ١٨.

وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا الى بيته لنخفف من عياله، فتأخذ أنت رجلاً واحداً، وآخذ أنا رجلاً فنكفلهما عنه. . .»[7].

وحظي رأي المصطفى (ص) بالتأييد والرضاء من قبل عمه العباس، فأسرعا الى أبي طالب، وخاطباه بالأمر؛ فاستجاب لما عرضا قائلاً: «اذا تركتما لي عقيلاً وطالباً، فاصنعا ما شئتما. . .»[8].

فأخذ العباس جعفراً. . .

وأخذ رسول الله (ص) علياً (ع)، وكان عمره يومئذٍ ستة أعوام[9]، وقد قال (ص) بعد أن اختار علياً (ع): (**قد اخترت من اختاره الله لي عليكم ـ علياً**[10]).

وهكذا عاش علي (ع) منذ نعومة أظفاره في كنف محمد رسول الله (ص): نشأ في رعايته، وشرب من ينابيع مودته وحنانه، ورباه وفقاً لما علمه ربه تعالى، ولم يفارقه منذ ذلك التاريخ، حتى لحق الرسول (ص) بربه الأعلى. . .

حصيلة الاعداد النبوي:

أشار الامام علي (ع) الى أبعاد التربية التي حظي بها من لدن استاذه الرسول (ص)، ومداها وعمقها، وذلك في خطبته المعروفة بالقاصعة، إذ جاء فيها ما نصه: «**وقد علمتم موضعي من رسول الله صلّى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني الى**

---

(٧) الفصول المهمة/لابن الصباغ الفصل الأول ص ١٤ وشرح نهج البلاغة جـ ١ لابن أبي الحديد ص ١٥١.

(٨) سيرة ابن هشام ج ١ باب ذكر أن علي بن أبي طالب أول ذكر أسلم ص ٢٨٤، وبحار الأنوار ج ٣٥ ص ٤٤ وشرح النهج ج ١ ص ١٥.

(٩) في رحاب علي/ خالد محمد خالد ص ٤٦ ط/٢ دار الأندلس بيروت وشرح النهج ج ١ ص ١٥.

(١٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٥ نقلاً عن البلاذري والأصفهاني.

صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل».

«ولقد قرن الله به صلّى الله عليه وآله، من لدن ان كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به».

«ولقد كان يجاور في كل سنة (بحراء)، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام، غير رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وخديجة، وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة. . .»[11].

والذي يستقرىء هذا النص، بامعان، يتجلى له أن علياً (ع) قد حظي برعاية الرسول (ص) وحدبه، وإيثاره منذ أيام طفولته، فكان يمضغ الشيء ثم يضعه في حجره، ويضمه الى صدره، ويعامله كما لو كان ولده الحبيب. . .

أما في صباه، وشبابه، فقد انصب جهد رسول الله (ص) على تكوين شخصيته: إذ كان يأمره بالاقتداء به، وسلوك سبيله، وفي كل يوم يرفع له من أخلاقه علماً وعليٌّ كان يتبع أثره، أولاً بأول، كما يصف ذلك في حديثه.

ولهذا وذاك، فإن من خطل-الرأي، أن لا يعتقد أمرؤ أن مسألة اختيار علي (ع) من لدن الرسول (ص) يوم أملق ابو طالب ـ كما أسلفنا ـ كانت هادفة ابتداء لكي يأتي علي (ع) صورة مجسدة لشخصية رسول الله (ص)، في فكره ومواقفه وشتى ألوان سلوكه، بل حتى في مشيته[12].

فلقد كان الإمام (ع) من الصفاء الروحي، والاستقامة الخلقية، وفقاً لما علمه رسول الله (ص)، بحيث كانت تتكشف له الكثير من حجب المستقبل المستور، فها هو يقول: **«ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزول الوحي عليه،**

---

(١١) نهج البلاغة تبويب د. الشيخ صبحي الصالح ط ١ ١٩٦٧ ص ٣٠٠.

(١٢) علي بن أبي طالب/ عبد الفتاح عبد المقصود ج ١ ص ٣٩. والاملاق: الفقر.

صلوات الله عليه، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وانك لعلى خير. . .»[13].

فان الشوط الذي قطعه في مضمار التقرب الى الله سبحانه، وامتثال أوامره، وتجسيد متطلبات رسالته، رشحه لأن يكون وزيراً للنبوة، وهو مقام، لا يناله إلا من قطع شوطاً بعيداً، باتجاه قمة الفضيلة والتقى، فلم يفصله عن الرسول (ص) إلّا درجة النبوة، فارتقى منصة الوزارة بحق وجدارة، وهكذا كان علي. . .

في كنف الوحي

وإذا كان الإمام (ع) قد عاش ست سنوات، في أحضان والديه واخوته، وكان لرسول الله (ص) دور بارز في رعايته، طوال تلك السنوات الندية من عمره (ع). فان رعاية علي وتربيته، صارت من اختصاص المصطفى (ص) دون منازع، منذ السنة السادسة، حيث انتقل (ع) الى دار رسول الله (ص) على إثر الضائقة المالية التي ألمت بأبيه أبي طالب، كما ذكرنا.

ومنذ تلك السن المبكرة عاش علي (ع) مع رسول الله (ص) في بيته قبل الدعوة، حيث قضى تحت رعايته سنوات الصبا وسنوات التفتح على الحياة، وخلالها عايش الامام (ع) كل التطورات التي اكتنفت حياة الرسول (ص). . .

وبناء علىٰ ذلك فعلي لم يحظ بالتربية المألوفة، التي يحظى بها غالباً طفل من لدن أبيه، أو صغير من لدن أخيه الأكبر، وانما كان اعداده وتربيته من نوع خاص، وحسبك أنه كان يتبع محمداً (ص) حتى في ساعات اختلائه في غار حراء. . . ويشهد التطور الروحي والفكري الذي كان رسول الله (ص) يمر فيه، وها هو (ع) يستذكر تلك الأيام الخالدة وذلك الشطر الحساس من حياته،

---

(١٣) نهج البلاغة ص ٣٠١ (الخطبة القاصعة). تبويب د. صبحي الصالح.

فيقول: «. . . **ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري**»[14] ـ كما ألمحنا إلى ذلك ـ أجل كان (ع) يعايش التحول الروحي الهائل، الذي شهدته نفس المصطفى (ص)، حتى أشرق عليه وحي السماء المبارك لينهض بمهمة الدعوة إلىٰ الرسالة الإلهية الخاتمة.

ولقد كان للمستوى الروحي والخلقي البعيد المدى، الذي سمت إليه نفس علي (ع)، أن شعر بالتحول الكبير، الذي جرى في عالم الغيب، من انهزام للشيطان، بعد يأسه من أن يُعبد، فور بعثة الرسالة الخاتمة. . . فلقد شهد علي ارهاصات النبوة، التي شهدها أستاذه ومعلمه الرسول (ص)، وعايشها كما عايشها بملء كيانه، حين سطع الهدى، وتلقى رسول الله (ص) أول بيان من السماء، لتكليفه بحمل الرسالة والدعوة اليها:

﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الانسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ * اَلذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الاِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

(العلق/ ١ ـ ٥)

---

(١٤) الخطبة القاصعة من نهج البلاغة ص ٣٠١ تبويب د. صبحي الصالح.

اول المؤمنين

حين تلقى الرسول (ص) بيان التكليف الإلهي، بحمل الرسالـة، عاد إلى بيته فأطْلَعَ علياً (ع) علىٰ أمره فاستقبله (ع) بالتصديق واليقين، كذلـك فعلت خديجة الكبرى، فانبثق من أجل ذلك أول نواة لمجتمع المتقين في الأرض.

على أنه يجدر بنا، أن نعي أن علياً (ع) لم يدعُه الرسول (ص) الى الاسلام كما دعا غيره فيما بعد، أبداً، لأن علياً (ع) كان مسلماً على فطرة الله تعالى، لم تصبه الجاهلية بأوضارها، ولم يتفاعل مع شيء من سفاسفها، وكل الذي كان: أن علياً (ع) قد أطلعه الرسول القائد (ص) على أمر دعوته ومنهج رسالته، فأعلن تصديقه وأيقن بالرسالة الخاتمة، وبادر لتلقي توجيهاته المباركة تلقي تنفيذ وتجسيد... ولهذا يقال (كرم الله وجهه).

فـان علياً (ع) كـان مؤهلاً ـ كمـا بينـا في مـطلع الحـديث ـ لإتبـاع رسول الله (ص) في دعوته، لأنه (ص) كان قد أنشأ شخصيته، وأرسى لبناتها الأساسية.

ولا أظنني أضيف جديداً إذا قلت أن الإمام (ع) لم يفاجأ بأمر الدعوة

(١٥) اضافة الى كتب التاريخ التي تصرح بأن علياً أول الناس اسلاماً فهناك عدة أحاديث عن رسول الله ـ ص ـ تجسد هذه الحقيقة راجع المستدرك ج ٣ ص ١٣٦ والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ ومناقب الخوارزمي وحلية الأولياء ج ١ ص ٦٦ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٨٥ وسيرة زيني دحلان في هامش الحلبية ج ١ ص ١٨٨: نقلا عن الغدير ج ٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٤٢ ط ١٩٦٧/٣ بيروت.

المباركة، طالما عاش في كنف رسول الله (ص) وتفيأ ظلاله، فالمصطفى محمد (ص) ـ كما نعلم ـ كان يعبد ربه تعالى وينأى عن الجاهلية في مفاهيمه وسلوكه وعلاقاته، قبل أن يتنزل عليه وحي السماء، بأول سورة من القرآن الكريم. . .(١٦).

وعلي (ع) كان مطلعاً على عبادة اخيه رسول الله (ص) وممارساته وتحولاته الروحية والفكرية، فكان يتعبد معه، وينهج نهجه، ويسلك سبيله، في تلك السن المبكرة من عمره. . .

أما حين فاتحه رسول الله (ص) بأمر الدعوة الإلهية، فقد لبى النداء بروحه ووعيه وكل جوارحه، دون أن يباغت في الأمر، وان كان هناك من جدة في المسألة، فإنما هي في الكيفية التطبيقية للرسالة ودرجة المسؤولية الواجب تحملها، أو في تفاصيل الاحكام. . . وحين بُلِّغ رسول الله (ص) بأمر التكليف الإلهي لحمل الدعوة المباركة، بلغ كذلك، أن تنصب دعوته أولاً على الخاصة من أهل بيته (ع)، وقد أشار ابن هشام في سيرته لذلك بقوله: «فجعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يذكر ما أنعم الله عليه، وعلى العباد به، من النبوة سراً الى من يطمئن إليه من أهله. . .»(١٧) ومن أجل ذلك فاتح علياً وخديجة بالدعوة ـ كما ذكرنا ـ وبعدهما زيد بن حارثة، وبقي أمر الدعوة طي الكتمان لا يعلمه غير هؤلاء، وبعض الخاصة من أهل البيت (ع).

وقد أشار الإمام علي بن الحسين (ع) في حديث له حول اسلام جده علي بن أبي طالب (ع) بقوله: (. . . **ولقد آمن بالله تبارك وتعالى وبرسوله (ص) وسبق الناس كلهم الى الإيمان بالله وبرسوله والى الصلاة ثلاث سنين**)(١٨).

---

(١٦) يراجع كتابنا /محمد رسول الله/ الدعوة/ من منشورات مؤسسة البلاغ.

(١٧) جـ ١ ص ٢٥٩ مصر ط ١٩٣٦ تحقيق مصطفى السقا وجماعة.

(١٨) الروضة من كتاب الكافي للشيخ الكليني جـ ٨ حديث اسلام علي ـ ع ـ وهناك أحاديث بهذا الصدد يرويها كل من النسائي وابن ماجة والحاكم والطبري في تاريخه والرياض النضرة جـ ٢ ص ١٥٨ وكتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ١٠٠ وغيرها =

ولأسبقيته في حمل الدعوة أشار الامام (ع) في حديث جاء فيه: «... **ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله صلّى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة...**».

وبعد أن تخطت الدعوة مرحلة دعوة الخاصة من أهل البيت (ع) جاءت مرحلة دعوة من يتوسم رسول الله (ص) فيهم القبول لدعوته، فانخرط عدد من الناس في سلك الدعوة، كان أغلبهم من الشباب، وكانت لقاءاتهم من أجل قراءة القرآن الكريم، والتعرف على أحكام دين الله تعالى تتم بصورة سرية...

أول الدعاة:

ثم أذن الله عز وجل لرسوله (ص) بدعوة عشيرته الأقربين من بني هاشم، ليوسع من مدار الدعوة بذلك، فقال تعالى:

﴿... وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ * وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَريءٌ مِمّا تَعمَلُونَ﴾.

(الشعراء/ ٢١٤ ـ ٢١٦)

فلما تلقى رسول الله (ص) أمر ربه الأعلى بانذار عشيرته الأقربين، امر علياً (ع) أن يدعوهم الى طعام عنده، فحضروا الى دار رسول الله (ص) وكانوا أربعين رجلاً.

وبعد أن تناولوا طعامهم، بادرهم الرسول (ص) بقوله: «... **يا بني عبد المطلب، إن الله بعثني الى الخلق كافة، وبعثني اليكم خاصة، فقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** وأنا أدعوكم الى كلمتين خفيفتين على اللسان،

= راجع ٢٢١ ـ ٢٤٠ ج ٣ من الغدير، على أن تلك الروايات تشير الى أن ايمان علي وعبادته قد سبق فيها الناس بسبع أو تسع سنين، وهي لا تخالف القول بثلاث سنين أبداً فان المراد بأنه سبق بالتصديق بالاسلام بعد الدعوة بثلاث سنين وسبق سواه بالايمان والتعبد مع الرسول (ص) في مرحلة الاعداد التي أشار اليها في خطبة القاصعة بسنوات أخرى...

ثقيلتين في الميـزان، تملكون بهمـا العرب والعجم، وتنقـاد لكم بهما الأمم وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار، «**شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله**» فمن يجيبني الى هذا الأمر ويؤازرني عليه، وعلى القيام به يكن أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي. . .»(١٩).

وبين تنديد أبي لهب، وتحذيره لرسول الله (ص) من الاستمرار بالدعوة من جهة، وتأييد أبي طالب له ومخاطبته لرسول الله (ص) بقوله: «**فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك**»(٢٠).

أقول من خلال التأييد، الذي أعلنه أبو طالب، والتنديد البليـد الذي أعلنه أبو لهب، وقف علي بن أبي طالب (ع) وكان أصغـر الحاضـرين سناً فقـال: «**أنا يـا رسول الله أؤازرك على هـذا الأمر**» فـأمـره رسـول الله (ص) بالجلوس، ولما لم يجبه أحد نهض علي ثانية ورسول الله (ض) يجلسه. . .

وأعاد رسول الله (ص) دعوته الى قومه، فلم يجبه أحد، وكان صوت علي (ع) وحده يلبي الدعوة، ويهدر بالمؤازرة والنصرة، فمزق صمتهم بصلابة أيمانه، وقوة يقينه، وحيث لم يجب رسول الله (ص) أحد للمرة الثالثـة. . . التفت الى مجيبه الوحيد، قائلاً: «**اجلس فأنت أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي**»(٢١).

فنهض القوم من مجلسهم، وهم يخاطبون أبا طالب: «ليهنئك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك، فقد جعل ابنك أميراً عليك»(٢٢).

---

(١٩) أخرج الحديث كل من: ابن اسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في سننه وفي دلائله، والثعلبي، والطبري في تفسيريهما لسورة الشعراء من تفسيريهما الكبيرين، وأخرجه الطبري في تـاريخ السيـرة الحلبية ج ١ ص ٣٨١، والـطحاوي، والضيـاء المقـدسي في مختـاره، وأحمـد بن حنبـل ج ١ ص ١١١ وص ١٥٩، والنسائي في خصائصه ص ٦، وكنز العمال ج ٦ الحديث رقم ٦٠٠٨، والمفيد في ارشاده في مناقب علي ـ ع ـ وغير هؤلاء كثيـر وكلهم أوردوه بألفاظ متقاربة/نقلاً عن المراجعات للسيد شرف الدين ص ١٢٤ وما بعدها.

(٢٠) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤ وبحار الأنوار للشيخ المجلسي جـ ١٨ ص ١٦٤ وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١٠٢ ـ ص ١٠٣.

(٢١ و ٢٢) أخرج الحديث وما مضى من فقراته كل من: البيهقي في سننه ودلائله والثعلبي =

مواجهة الجاهليين:

ودخلت الدعوة الى الله مرحلة المواجهة ـ بعد انذار العشيرة ـ وأول من قاد ردّ الفعل أبو لهب وزوجته، وكانا يعترضان رسول الله (ص) ويزرعان المشاق في طريقه، لإثنائه عن دعوته المباركة، ولكن دعوة الله سبحانه مضت، تشق طريقها في المجتمع الجاهلي المتحجر ذاك، فقد انتقلت بعد ابلاغ العشيرة الى الدعوة العامة، حيث وقف رسول الله (ص) عند البيت الحرام، وخاطب المجموع بأنه رسول الله اليها...[23].

وبعد الدعوة العامة تزايد عدد المؤمنين وأغلبهم من الشباب ومن شتى قطاعات المجتمع المكي...

وكان لتزايد عدد المؤمنين برسالة الله تعالى أثر بالغ على موقف الجاهليين، فقد سلكوا اسلوب الارهاب للرعيل الأول من المؤمنين، فكانت كل قبيلة وكل بيت يتصدى لمن فيه من المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد[24]، والمؤمنون يزدادون صموداً وايماناً بصوت الحق والهدى، الذي دوى به صوت رسول الله (ص) فرددته النفوس الظمأى الى الخير والانعتاق...

وبسبب التعذيب الجسدي الوحشي، الذي صب على المؤمنين، كانت هجرة الحبشة التي قادها جعفر بن أبي طالب والذي يكبر أخاه علياً (ع) بعشر سنين، وكان لجعفر وحكمته الأثر الفعال في إفشال مخطط قريش في إثارة ملك الحبشة على المهاجرين، لطردهم من بلاده[25].

= والطبري ـ في تفسيرهما لسورة الشعراء في تفسيريهما الكبيرين، والطبري في تاريخه جـ ٢ ص ٢١٧ وابن الاثير في الكامل جـ ٢ ص ٢٢ والسيرة الحلبية جـ ١ ص ٣٨١ وابن حنبل في مسنده جـ ١ ص ١١ وص ١٥٩، والنسائي في الخصائص ص ٦، وكنز العمال ج ٦ رقم الحديث ٦٠٠٨ ـ وغير هذه المصادر بالفاظ متقاربة.

(٢٣) تراجع الحلقة الأولى من كتاب محمد رسول الله /الدعوة/ منشورات مؤسسة البلاغ.

(٢٤) المصدر السابق.

(٢٥) المصدر السابق أيضاً.

أبو طالب يتصدى لأعداء الرسالة:

وإذا كانت قريش قد تصدت للسابقين من المؤمنين بالعنف والاضطهاد، فإنها ليست قادرة على التصدي لرسول الله (ص)، قائد الدعوة ورسولها، بنفس المستوى، لعلمها أن أبا طالب شيخ الأبطح، يحول دون تحقيق أي لون من ألوان التصدي والارهاب لرسول الله (ص).

فأبو طالب، رجل مرهوب الجانب، ذو سطوة ونفوذ، ليس في بني هاشم وحدهم، وإنما في قبائل مكة كلها.

وقد كان الرجل سند الدعوة وجدارها الشامخ، الذي تستند اليه منذ تباشير فجرها الزاهر... وقريش كانت تدرك ذلك تماماً.

ومن أجل ذلك، سلكت اسلوب المفاوضة، والمساومة والاغراء: تفاوض الدعوة والرسالة في شخص الرسول (ص) مرة، وفي شخص أبي طالب مرةً أخرى... فحين كانت تعرض المال والسلطان على رسول الله (ص)، مقابل تركه الدعوة، والتنازل عن الرسالة، فانها كانت تفاوض أبا طالب، وتحاوره بشأن دعوة الرسول (ص)، طالبة أن يستعمل نفوذه، بالضغط عليه، لترك رسالته، وتهدده باحتدام الصراع بينه وبين قريش كلها، اذا لم يخلِّ بينهم وبين رسول الله (ص)، ويكف عن اسناده له.

بيد أن أبا طالب، كان يعلن اصراره على التزام جانب رسول الله (ص)، والذود عنه، مهما غلا الثمن، وعظمت التضحيات.

أبو طالب مع رسول الله (ص) في الحصار:

ولما استبد اليأس بقريش، من أن أبا طالب لن يفرّط بمحمد رسول الله (ص) ودعوته... عقد زعماؤها اجتماعاً طارئاً في دار الندوة ـ وهي دار أسسها ايام زعامته لقريش قصي بن كلاب، وقد اعتادت قريش أن تجتمع فيها للتشاور في القضايا المصيرية من حياتها ـ وبالفعل توصل المجتمعون الى قرار، يقضي بحصار بني هاشم، ومن يلوذ بهم، حصاراً اقتصادياً واجتماعياً، ينصب على عدم مبايعة بني هاشم أو الشراء منهم، أو تزويجهم، أو التزوج

منهم، وقد ذيّل قرار المقاطعة ذلك بأربعين توقيعاً لزعماء قريش. . . .

ودخل بنو هاشم شِعْب أبي طالب، بناء على أوامر من عميدهم أبي طالب ذاته، حماية لأنفسهم من سطوة قريش، وأصبح من المتعذر عليهم الخروج الى مكة، الا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة من كل عام. وبالنظر لتفاقم الموقف بين بني هاشم وقريش، شدد أبو طالب الحراسة على الشعب، بعد تحصينه، خشية هجوم قرشي مباغت. . .

واستمر الحال ببني هاشم، بما فيهم رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) هكذا ثلاث سنين ـ وقيل أربعاً ـ وقد عانوا من شظف العيش، والحرمان والفاقة، ما يدمي القلب، ويحز في النفس. . .

ولك أن تقدر حجم ما عانى المحاصرون من ضيق، اذا علمنا أن قريشاً قد شددت عليهم الحصار بشكل كامل، فقطعت عنهم التموين، وكانت غالباً ما تضاعف أثمان البضائع، ليعجز بنو هاشم عن شرائها، بشكل أدى بهم الى المجاعة الحقيقية، حتى أن صراخ أطفالهم وتضورهم جوعاً كان يسمع من بعيد. . .

وبعد أن تصرمت السنون الثلاث او الأربع بعسرها وآلامها وفاقتها، وشدتها أخبر رسول الله (ص) عمه أبا طالب أن صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش قد أتت دودة الأرضة على ما فيها من ظلم وقطيعة فأكلتها، إلّا عبارة «باسمك اللهم»، فأسرع أبو طالب الى قريش، قائلاً[٢٦]:

«. . . إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم الارضة فأكلتها، غير اسم الله، فان كان صادقاً نزعتم عنه سوء رأيكم، وان كان كاذباً دفعته اليكم. . .».

---

(٢٦) بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج ١٩ باب دخول الشعب، طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٧٣، ١٩٢، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٤؛ وعيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥١؛ تاريخ ابن كثير ج ٣ ص ٨٤، ٩٦، ٩٧؛ السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٧؛ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦. نقلاً عن الغدير ج ٧ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٦.

قالوا: قد أنصفتنا... ثم فتحوها، فإذا هي كما قال... ووقع نزاع شديد بين قريش، نتج عنه تمزيق الصحيفة، وانتهاء المقاطعة، ورفع الحصار عن بني هاشم، وقد كان لافشال مشروع الحصار بذلك الشكل الاعجازي الجلي أثره في كسب الدعوة للمؤيدين، والأنصار في مكة...

أرأيت كم من التضحيات في سبيل الله، بذل بيت علي (ع)؟

فإذا كان علي أول من لبى صوت الحق، وظل مجاهداً في الصف الأمامي من الجبهة الاسلامية طوال حياته، فان أباه قد ضحى حتى بمكانته الاجتماعية، التي كان يحظى بها، وذاق المحن من أجل رسالة الله تعالى، حتى كان بحق الدرع الواقي للرسول (ص)، والدعوة، في حين كانت المكانة الاجتماعية: حلم الرجال، ومبتغاهم في ذلك المجتمع القبلي المادي.

وهكذا كان جعفر بن أبي طالب، شقيق عليّ (ع) الذي دشن حياته الاسلامية بقيادة موكب الهجرة الأولى الى الحبشة... وتوّجها بالشهادة في غزوة مؤتة... ففاز بلقب الطيار مع الملائكة في الجنة كما أخبر رسول الله (ص) بذلك...[27].

ولعظيم حب رسول الله (ص) لجعفر، أنه حين قدم المدينة المنورة من الحبشة، وذلك يوم فتح خيبر، استقبله رسول الله (ص) وقبل ما بين عينيه، وهو يقول (ص): «... **ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً: بقدوم جعفر؟ أم بفتح خيبر؟**»[28].

---

(٢٧) بحار الأنوار ج ٢١ باب غزوة مؤتة، ابن سعد في طبقاته ج ٤ ص ٢٣، وأسد الغابة ج ١ ص ٢٨٧؛ ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٤٠٧؛ البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٦، الاستيعاب ج ١ ص ٨١. نقلاً عن مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني باب ذكر مقتل جعفر بن أبي طالب ص ١٠ وما بعدها ط ٢/ ١٩٧٠.

(٢٨) المصدر السابق.

الى دار الاسلام

. . . وفي خضم الصراع العنيف، الناشب بين الدعوة الإلهية المباركة، والجاهلية الرعناء، فجع الإسلام بفقد مؤمن قريش: أبي طالب - رض - فاهتز رسول الله (ص) للحادث الأليم، وعلم أن قريشاً ستعمل على تصعيد حملتها على الدعوة، وعلى شخصه الكريم بالذات. . .

واذا كانت قريش تخشى أبا طالب، ومركزه الاجتماعي، فيما مضى، فقد صفا لها الجو بعد موته، وها هو رسول الله (ص) يفقد سنده الشامخ، ويصاب بعده بفاجعة أخرى، لا تقل في تأثيرها عليه عن الأولى، فقد توفيت زوجته الوفية خديجة، حتى دعا العام الذي فقدهما فيه «عام الحزن».

وللأهمية البالغة، التي يحتلها أبو طالب، في سير الحركة التاريخية لدعوة الله تعالى، صرح رسول الله (ص) بقوله: «**ما زالت قريش كاعةً عني حتى مات أبو طالب**»[٢٩].

وصعدت قريش حملتها على رسول الله (ص) والسابقين من المؤمنين، فاتجه رسول الله (ص) للبحث عن أرض غير مكة، تستقر عليها دعوة الله، فتنمو عليها شجرة الهدى، وراح يتصل بالقبائل، ويعرض أمره على الناس في أطراف مكة. . . ثم زار الطائف، واتصل بزعماء قبائلها، فلم يستجب له أحد ذو أثر اجتماعي، بيد أن اليأس لم يتسرب إلى نفسه، واستمر في عرض نفسه

---

(٢٩) تأريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٢: تأريخ ابن عساكر ج ١ ص ٢٨٤، مستدرك الحاكم ج ٢ ص ٦٢٢؛ تاريخ ابن كثير ج ٣ ص ١٢٢: «نقلاً عن الغدير/ للشيخ الأميني ج ٧ ص ٣٧٦»؛ كشف الغمة في معرفة الأئمة للأربلي ج ١ ص ١٦. وغيرها.
كاعة: تكتم حقدها وتخشى اعلان حربها.

على الناس من خارج مكة، حتى التقى في موسم الحج بنفر من أهل يثرب، وفاتحهم بأمر الدعوة، فاستجابوا له، ولبوا دعوة الله، وعادوا يحملون كلمة الله الى قومهم.

وفي اليوم التالي قدم منهم اثنا عشر رجلاً، فبايعوه على الايمان وحمل الرسالة... فأرسل لتعليمهم احكام دين الله تعالى: مصعب بن عمير، فمكث فيهم سنة كاملة، يدعوهم الى الله، ويؤدبهم بتعاليم رسالته، ويقرئهم القرآن الكريم، فدخل الكثير من الناس في الاسلام، واستجابوا لنداء الدعوة المباركة...

وفي موسم الحج حضر منهم الى مكة وفد كبير يقوده مصعب بن عمير، فالتقوا برسول الله (ص)، وبايعوه على النصرة إن هو هاجر إلى بلدهم...

وتنزل أمر الله تعالى يدعو المسلمين الى الهجرة، فزحفت مواكب المهاجرين صوب الدار الجديدة، مخلفين وراءهم المال والوطن وعلائق الدم والقربى...

ولئن كانت الدعوة قد أوشكت على الدخول في مرحلة جديدة من مراحل مسيرتها العتيدة، فان قريشاً، قد اجتمعت في دار الندوة للتشاور بشأن رسول الله (ص) بالذات، فتوصل قادتها الى قرار يقضي باغتيال جماعي لرسول الله (ص) يتولاه من كل قبيلة رجل منها وأن ينفذ الاغتيال ليلاً...

وكشف وحي الله تعالىٰ ـ لرسوله (ص) أوراق الجريمة التي أجمعت قريش على اقترافها.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ اَوْ يَقْتُلُوكَ أَو يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

(الانفال/ ٣٠)

في فراش رسول الله (ص):

وأبلغ جبرائيل ـع ـ رسول الله (ص) بأمر الله تعالى له بالهجرة الى المدينة المنورة... وحين انتشر الظلام، أسرع المتآمرون لتطويق بيت رسول الله (ص) للحيلولة دون خروجه... وعندها جاء دور علي (ع) حيث

أمره رسول الله (ص) أن ينام على فراشه، ويلتحف ببردته، وخرج صلّى الله عليه وآله من اعداء الله وهو يتلو قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(يس/٩)

فلم يشاهده أحد من المشركين.

وعند طلوع الفجر اقتحم المتآمرون دار رسول الله (ص) لتنفيذ جريمتهم واتجهوا لغرفته، فوثب علي (ع) في وجوههم قائلًا: **ما شأنكم؟** قالوا: أين محمد؟

قال: **«أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا، فقد خرج عنكم...»**[٣٠].

فانقلبوا خاسرين وباءوا بالفشل الذريع... ثم بدا لهم أن يبحثوا عن رسول الله (ص) ويجدّوا في طلبه في الجبال والوديان، واصطحبوا لذلك أبا كرز، وهو رجل شهير بعلم معرفة الأثر، وبالفعل استطاع أبو كرز أن يتابع أثر رسول الله (ص) حتى أوصل القوم الى غار جبل «ثور» مؤكداً لهم أن محمداً رسول الله (ص) قد وصل في نهاية شوطه الى ذلك الغار، وإذن فلا بد أن يكون قد عرج الى السماء أو اختفى تحت الأرض[٣١]، وحيث أن الله سبحانه قد بعث عنكبوتاً فنسجت بيتاً لها على باب الغار، فإن المتآمرين لم يخطر ببالهم أن رسول الله (ص) في داخل الغار الذي يقفون على بابه، وهكذا صرف الله عقولهم فولوا الأدبار...

وعند حلول الليلة الثانية أسرع علي (ع) وهند بن أبي هالة الى الغار للاتصال بالرسول (ص) تحت جنح الظلام[٣٢] وتحاور رسول الله (ص) مع

---

(٣٠) تفسير سورة الأنفال آية ٣٠ يراجع الميزان للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (رض) ج ٩ بحث روائي ص ٨٠.

(٣١) نفس المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣٢) أعيان الشيعة للعلامة السيد محسن الأمين العاملي (رض) ج ٣ ط/٣ ص ١٥٥.

علي (ع) حول مستلزمات الهجرة... فأوصاه بأداء الأمانات الى أهلها، وباللحوق به (ص) بعد ذلك وأوصاه أن يحمل معه فاطمة الزهراء (ع) ومن معها من نساء أهل البيت...

الانتظار في قبا:

وبعد أيام من مسيرة الركب وصل رسول الله (ص) الى «قبا» حيث نزل عند كلثوم بن الهدم أحد زعماء بني عمرو بن عوف[٣٣] وهناك أقام رسول الله (ص) مسجد قبا، ومكث ينتظر قدوم علي بن أبي طالب (ع)[٣٤] إذ كتب إليه كتاباً يأمره بالمسير إليه، وقد حمل الكتاب أبو واقد الليثي، وحيث أن علياً (ع) قد أدى ما أوصاه به رسول الله (ص) قبل هجرته وأعاد الأمانات التي كانت لدى رسول الله (ص) الى أهلها، فقد عجل باللحوق بأخيه رسول الله (ص) فبادر إلى اعداد ركائب لحمل النساء: فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب.

ثم أمر ضعاف المؤمنين أن يتسللوا ليلاً الى ذي طوى وخرج هو والفواطم وأيمن وأبو واقد الليثي نهاراً[٣٥].

ولم تمض غير أيام قليلة حتى وصل ركب علي والفواطم الى قبا، فاستقبلهم رسول الله (ص) وعانق علياً (ع) وبكى رحمة به ـ وذلك لما ألم به من ارهاق وأذى ـ.

وبعد مقدم علي (ع) على رسول الله (ص) بيومين ارتحل رسول الله (ص) وبصحبته علي (ع) ومن معه من المهاجرين الى المدينة المنورة...

وكان الركب النبوي يستقبل استقبالاً مهيباً عند كل حي يمر به... حتى

---

(٣٣) بحار الأنوار ج ٩ والروضة من الكافي ج ٨ ص ٣٣٩، للكليني ط/طهران.

(٣٤) الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ابن الصباغ المالكي «فصل في شيء من شجاعته» ص ٢٨.

(٣٥) أعيان الشيعة ج ٣ ط/٣ ص ١٥٥ «هجرته الى المدينة».

اذا وصل رسول الله (ص) الى المكان الذي أقيم مسجده فيه توقفت راحلته عن المسير فنزل عنها، وأقام ضيفاً عند أبي أيوب الأنصاري (ره). . . ثم بادر الى بناء المسجد والدور الخاصة به وبأهل بيته، وفي طليعتهم علي (ع) اذ أقيمت حجرته بجنب حجرة عائشة زوج النبي (ص)[٣٦].

(٣٦) المرجع السابق.

مهمات ما بعد الهجرة

استقبلت المدينة عهداً جديداً من تاريخها بوصول رسول الله (ص) اليها حيث أرسى (ص) قواعد دولة القرآن، وعمل على تحصينها لتكون مناراً يشع نور الحق الى الآفاق فيبدد ظلام الجاهلية الحالك...

واذا كانت الدعوة بعد الهجرة قد امتلكت دولة، وفرت لها الكثير من شروط الحماية والتحصين، فان ذلك لا يعني بحال أن مكر الأعداء وخططهم لاطفاء نور الإسلام قد انتهت بل العكس هو الذي كان، فالجاهلية بقواها المتعددة وواجهاتها الكثيرة قد أجمعت على حرب الإسلام ودولة الإسلام، وقد دخلت فصائل كثيرة الى الميدان لغير صالح الإسلام، بعد أن أدركت عملياً أن وجودها في خطر بعد امتلاك الإسلام الدولة التي ترعاه ويحقق اهدافه من خلالها...

وهكذا كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد وضعت المسلمين أمام مسؤوليات أشمل ميداناً وأبعد خطراً، حيث بناء الدولة وحمايتها وبناء المجتمع وتحصينه، وصد الأعداء ونشر العقيدة وغير ذلك...

والصراع بطبيعته قد تحول بدوره من صراع أفراد أو ارهاب قبائل، وأصحاب وجاهات لأفراد عزل لا يملكون غير دينهم وثقتهم بالله تعالى... الى صراع عسكري منظم بين قوى جمعتها المصالح والأهواء ولو آنياً لحرب الاسلام العظيم باعتباره ـ وبتقديرهم ـ الخطر الماحق لوجودهم الفكري والعملي... وقد تفجر الصراع العسكري بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

وحسبك أن دولة القرآن قد شهدت عبر عشر سنوات عايشها رسول الله (ص) بعد هجرته الى المدينة عشرات من الأعمال العسكرية بين

حروب دفاعية أو هجومية أو غزوات أو سرايا أو غيرها. . . قدم المسلمون خلالها الكثير من الضحايا ولاقوا صنوفاً من البلاء بيد أنهم أنهوا الوجود العملي للجاهلية العربية. . . فشملت دولة الإسلام الجزيرة العربية دون منازع. . .

واذا تتبعنا تلك المرحلة الدقيقة من عمر الرسالة الخاتمة لوجدنا أن دور علي بن أبي طالب (ع) فيها لم يرقَ إليه دور قط. . . فهو في جميع حروب الإسلام مع أعدائه كان يفوز بقصب السبق لا من باب اشتراكه في الحرب أو قتاله فيها، وإنما بما يقدمه من بطولة وتضحية يسبق بها سواه، ومن المناسب هنا أن نذكر طرفاً من بطولته (ع):

بأس في الحرب

١ ـ في معركة بدر:

كان عدد المسلمين يساوي ثلث جيش عدوهم وكانت العدة لدى المسلمين ليست ذات بال فعلى سبيل المثال كانوا لقلة ركائبهم يركب منهم الاثنان والثلاثة والأربعة على بعير واحد، ولم يكن منهم فارس غير المقداد بن الأسود الكندي، وكانت أسلحة بعضهم من جريد النخل ونحوه. . .

حتى إذا اضطرمت نار الفتنة تقدم علي (ع) وكان يحمل لواء الرسول (ص)[٣٧] فخاض غمار معركة حامية غير متكافئة، كان المسلمون خلالها يستغيثون ربهم طلباً للنصر فاستجاب لهم وأمدهم بالملائكة، وقد انتهت المعركة بمقتل سبعين رجلاً من المشركين كان مقتل نحو نصف عددهم بسيف علي[٣٨].

(٣٧) أحمد بن يحيى البلاذري في أنساب الأشراف ج ٢ ص ٩١ و ٩٤ ط/١ سنة ١٩٧٤ بيروت /ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١١/ وابن سعد في الطبقات ج ٣ ص ١٥.

(٣٨) حياة أمير المؤمنين /محمد صادق الصدر ط/٢ سنة ١٩٧٢ ص ٢٣٠.

٢ ـ وفي معركة أُحد:

كان رسول الله (ص) قد أعطى لواء المهاجرين لعلي (ع) ولما اشتبك الطرفان كان النصر ابتداء للمسلمين، بيد أن حماة جبل أحد الذين أمرهم الرسول (ص) بعدم مفارقته تركوا أماكنهم بعد فرار المشركين بدافع الطمع في الغنائم، فصعدت احدى فرق المشركين بقيادة خالد بن الوليد الجبل فتغير الموقف لصالح المشركين فخسر المسلمون الكثير من الشهداء.... وأصيب الرسول (ص) بجروح في وجهه الكريم وكسرت رباعيته وحيث لم يبقَ مع رسول الله (ص) في ذلك الموقف الرهيب بعد فرار المسلمين غير علي (ع) وأبي دجانة وسهل بن حنيف، استبسل علي (ع) كعادته في الدفاع عن رسول الله (ص) ومجد الرسالة الإلهية، وقتل حملة اللواء من المشركين واحداً بعد الآخر، وكانوا تسعة رجال ثمانية من بني عبد الدار وتاسعهم عبدهم[٣٩]. مما أربك العدو واضطره للفرار.

٣ ـ وفي غزوة الأحزاب:

طوقت المدينة بعشرة آلاف من المشركين[٤٠] بشتى فصائلهم، ونقض بنو قريظة صلحهم مع رسول الله (ص) وانضموا الى صفوف الغزاة، فتغير ميزان القوى لصالح العدو، وبلغ الذعر في نفوس المسلمين أيما مبلغ، فقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزلت نفوس وظنت نفوس بالله الظنونا ـ كما حدثنا القرآن[*] ـ.

وبدأ العدو هجومه بعبور عمرو بن عبد ود العامري أحد أبطال الشرك

(٣٩) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٧/ وأحمد بن حنبل في الفضائل/ وابن هشام في السيرة النبوية ج ٣ ص ٥٢ ودلائل الصدق/ الشيخ محمد حسن المظفر ج ٢ ص ٣٥٧ ط قم. وحياة أمير المؤمنين/ السيد الصدر ص ٢٣٦ وما بعدها والارشاد للمفيد ص ٥٢.

(٤٠) للتفاصيل راجع الحلقة الثانية من محمد رسول الله /الدولة/ منشورات مؤسسة البلاغ.

(*) تراجع سورة الأحزاب /الآية ١٠.

الخندق مع بعض رجاله، فهددوا المسلمين في داخل المدينة بل في داخل تحصيناتهم... وراح ابن عبد ود يصول ويجول، ويتوعد المسلمين ويتفاخر عليهم ببطولته، ويستعلي وينادي:

هل من مبارز؟

فقام علي (ع) وقال: **أنا له يا رسول الله**.

وكرر ابن عبد ود النداء وجعل يوبخ المسلمين، ويسخر بهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون، أن من قتل منكم يدخلها، أفلا تبرزون لي رجلاً؟

ولما لم يجبه أحد من المسلمين، كرر علي (ع) طلبه: **أنا له يا رسول الله**.

فقال (ص): **اجلس إنه عمرو!**

فأبدى علي عدم اكتراثه بعمرو وغيره، قائلاً: **وإن كان عمراً!!**

فأذن رسول الله ـ لعلي (ع)، واعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه، وعممه بعمامته...

ثم قال (ص): **«اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين»**[41].

ومضى علي (ع) الى الميدان، وخاطب ابن عبد ود بقوله: **يا عمرو إنك كنت عاهدت الله، أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلاّ قبلتها**... قال عمرو: أجل.

فقال علي (ع): **فإني أدعوك الى الله والى رسوله (ص) والى الإسلام**.

فقال: لا حاجة لي بذلك.

قال له الإمام: **فإني أدعوك الى البراز**.

فقال عمرو: إني أكره أن أُهْرِقَ دمك، وان أباك كان صديقاً لي...

فرد عليه الإمام (ع) قائلاً: **لكني والله أحب أن أقتلك**، فغضب عمرو، وبدأ الهجوم علىٰ علي (ع) فصده الامام برباطة جأشه المعتاد، وارداه قتيلاً،

(٤١) السيرة النبوية /أحمد زيني دحلان جـ٢ ص ٦ و ٧ «غزوة الخندق».

فعلا التكبير، والتهليل في صفوف المسلمين[٤٢]...

ولما عاد الإمام (ع) ظافراً استقبله رسول الله (ص) وهو يقول؛ **«لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود، أفضل من عمل أمتي الى يوم القيامة»**[٤٣].

وبعد مقتل ابن عبد ود بادر علي (ع) الى سد الثغرة التي عبر منها عمرو ورجاله ورابط عندها[٤٤] مزمعاً القضاء على كل من تسول له نفسه العبور، ولولا ذلك الموقف البطولي لاقتحم جيش المشركين المدينة على المسلمين، بذلك العدد الهائل.

وهكذا كانت بطولة علي (ع) في غزوة الأحزاب أهم عناصر النصر للمعسكر الاسلامي، وانهزام المشركين.

٤ ـ وفي غزوة خيبر:

عجز علية القوم عن الصمود أمام اليهود، ولما بان ضعف الجميع عن اقتحام حصون خيبر حتى تأخر فتحها أياماً قال رسول الله (ص) **«لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه...»**[٤٥].

ولما كان الغد أعطاها رسول الله (ص) علياً فاقتحم حصون خيبر ودخلها عليهم عنوة، وقتل بطلهم مرحباً ثم فتح الحصون جميعاً...

---

(٤٢) المصدر السابق.

(٤٣) مستدرك الصحيحين جـ٣ ص ٣٢ عن سفيان الثوري ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٩.

(٤٤) السيرة النبوية لدحلان ج ٢ ص ٦ و ٧ «غزوة الخندق» وارشاد المفيد ص ٥٨.

(٤٥) أنساب الأشراف ج ٢ ص٩٣ و ٩٤ عن أبي هريرة وابن عباس بلفظ متشابه /وخصائص علي بن أبي طالب للنسائي ص ٩ وما بعدها ط/١ ١٩٧٥ بيروت وفي الاصابة والاستيعاب وحلية الأولياء ومسلم في الصحيح بألفاظ متقاربة.

٥ ـ وفي غزوة حنين:

فرَّ المسلمون فلم يبقَ مع رسول الله (ص) غيـر علي (ع)[٤٦] والعباس وبعض بني هاشم فكان النصر بعد عودة المسلمين لميدان القتال... وكان الظفر...

هذه صور يسيرة من مواقف الصمود التي سجلها الامام علي (ع) بين يدي قائده رسول الله (ص) في أدق الساعات وأكثرها حرجاً[٤٧].

ومن نافلة القول أن نعيد الى الأذهان أن علياً (ع) قد اشترك في حروب رسول الله جميعاً غير تبوك[٤٨] وذلك بأمر من الرسول (ص) بذاته، وكان له في جميعها القدح المعلى، هذا عدا الغزوات التي قادها بنفسه عليه السّلام.

والباحث المنصف حين يتناول حيـاة الامام علي (ع) بـالدراسـة وفي شطرها الجهادي بالذات يقف مذهولاً أمام بطولته الفريدة وتضحياته المعطاءة، لكن البطولة بما هي بطولـة ليست هي الميزة في جهـاد علي (ع) وان كان ميدانها الواسع وشمولها يبقى سمة من سمات علي (ع) ولكن الأهم فيها إنما هو الإخلاص لله تعالى والتضحية في سبيله.

فإيمان علي (ع) بالله تعالى يبقى هو الحافز والمحرك لتلك البطولات العظيمة التي سجلها تاريخ الاسلام في أنصع صفحاته بشكل لم يسجل مثلها لسواه.

---

(٤٦) سيرة الرسول للسيد محسن الأمين نقلاً عن السيرة الحلبية وابن قتيبة في المعارف، وتفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج ١٠ تفسير آية ٢٥ من التوبة والبحث الروائي/ والارشاد للمفيد «غزوة حنين» ص ٨١.

(٤٧) للاستزادة يراجع كتاب الامام علي /عبد الفتاح عبد المقصود وأعيان الشيعة المجلد الثالث/ للسيد محسن الأمين والارشـاد للشيخ المفيـد وسيرة ابن هشـام والفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ المالكي.

(٤٨) راجع أنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ٩٢ ط ١ ١٩٧٤ (ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١١ وابن سعد في طبقاته ج ٣ ص ١٠ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٤٧٥) نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣٠٩، وللمزيد من المصادر يراجع المصدر المذكور.

وحسبك في ذلك أن كثيراً من المواقف العسكرية ـ كما رأينا ـ يتعرض فيها علية القوم فضلاً عن عامتهم للوهن بل والهزيمة النكراء غير أن التاريخ لم يسجل لعلي (ع) إلا الصمود والفداء والتضحية في كل موقف؛ صمد الناس فيه أم انهزموا، الأمر الذي لا يفسره إلا ما يتمتع به علي (ع) من صدق اليقين وعمق الاستعانة والتوكل على الله والعبودية له واللامبالاة بما سواه كبر ذلك أم صغر. هذا عدا عما يتمتع به علي (ع) من علو الهمة وقوة العزيمة ورباطة الجأش وسمو النفس.

علي في منظار الاسلام

لم يحظ رجل في الإسلام ما حظي به علي بن أبي طالب (ع) من ثناء واجلال من لدن الرسالة الإسلامية، وحثها المتزايد لاتباعها لا على تقديره فحسب، وإنما على التزامه، وانتهاج سبيله.

وقد انطوى القرآن الكريم والسنة الشريفة والتاريخ الصحيح على نصوص وروايات تنطق كلها بالثناء على علي (ع) ووجوب سلوك سبيله وخطه.

فمرة تأتي صور الثناء كأوسمة يضعها الإسلام على صدره فيميزه عن سواه من صحابة واتباع ومرة على شكل أحكام واوامر تلزم المسلمين على التزام علي (ع) إماماً ومنهجاً.

فمن أوسمة التقدير التي نالها علي (ع) من الله تعالى ومن رسوله (ص) ما يلي:

١ - **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**.

(الأحزاب - ٣٣)

ذهب المفسرون لهذه الآية أنها نزلت في رسول الله (ص) وعلي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين (ع) حين دعا الرسول (ص) بعباءة وجللهم بها، ولما نزلت الآية قالت أم سلمة زوجة الرسول (ص): هل أنا من أهل بيتك؟

قال: **لا ولكنك على خير**[٤٩]، رغم جلالة أم سلمة وعلو شأنها بين نساء النبي (ص).

---

(٤٩) راجع صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرك الصحيحين =

٢ - ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ الله عَلَى الكَاذِبِينَ﴾.

(آل عمران/٦١)

ذكر أهل التفسير من جميع المسلمين أنها نزلت حين خرج رسول الله (ص) بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلته، فدفعوا الجزية خضوعاً منهم لسلطان دولته (ص)[٥٠].

٣ - ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأَسيراً * إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجهِ الله لَا نُريدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَريراً * فَوَقيهُمُ الله شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّيٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾.

(الدهر - ٨ - ١١)

وهذه باجماع أهل التفسير نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع).

وكان ذلك عندما مرض الحسنان فنذر علي (ع) وفاطمة وفضة - خادمة أهل البيت - إن شفي الحسنان، فإن علياً والزهراء وفضة يصومون لله تعالى ثلاثة أيام.

وبعد شفاء الحسنين صام أهل البيت (ع)...

= جـ٣ ص ١٤٧ والبيهقي في سننه جـ٢ ص ١٤٩ والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذي جـ٢ ص ٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب جـ٢ ص ٢٩٧ وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ١ ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٥٠) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٣٠٠ وأحمد بن حنبل في المسند ج ١ ص ١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور في تفسير آية المباهلة والزمخشري في كشافه والفخر الرازي في تفسيره الكبير وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ص ٢٤٤ وما بعدها.

وعند غروب شمس اليوم الأول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير.

وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه...

وفي ثالث أيام النذر سألهم أسير فقدموا له طعامهم وهكذا بقي أهل البيت (ع) ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء، فأنزل الله فيهم هذه الآيات الكريمة اعظاماً لشأنهم واكباراً لعملهم[٥١] ليكونوا القدوة لغيرهم وليكونوا المثال.

٤ - ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(التوبة/١٩)

نزلت هذه الآية عندما تفاخر طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب: إذ قال طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي!

وقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها.

وفي هذه الأثناء مرَّ عليٌّ بهما وسألهما: بِمَ يَفتخران. فذكروا له ما قالا.

فقال علي (ع): **أنا أوتيت منذ صغري ما لم تؤتيا.**

فقالا وما ذاك؟

فقال (ع): **لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد.** فأنزل الله تعالى الآية المذكورة في الثناء على ما افتخر به علي (ع)[٥٢].

---

(٥١) يراجع الزمخشري في كشافه ج ٢ /والواحدي في أسباب النزول/ ومجمع البيان للطبرسي في تفسير سورة الدهر /والحافظ محمد بن جرير الطبري كما في الكفاية/ وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢ - ٤٧/ والحاكم النيسابوري ذكره في مناقب فاطمة - ع - كما في الكفاية/ وأبو اسحاق الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» /والألوسي في روح المعاني/ والطبري في الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٠٧/ نقلاً عن الغدير للشيخ الأميني ج ٣ ص ١٠٧ - ١١١.

(٥٢) تفسير الطبري عن أنس ج ١٠ ص ٥٩ /وأسباب النزول للواحدي ص ١٨٢/ والقرطبي في تفسيره ج ٨ ص ٩١/ والرازي في تفسيره ج ٤ ص٤٢٢ /والخازن في

واذا كان القرآن الكريم يثني هذا الثناء الجميل على علي (ع) فتعال معي الى السنة الشريفة لنقرأ شيئاً منها في هذا الصدد:

١ ـ قال رسول الله (ص): **أنا مدينة العلم وعلي بابها**[٥٣].

٢ ـ وقال (ص): **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»**[٥٤].

٣ ـ وقال (ص) مخاطباً علياً (ع): **«لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»**[٥٥].

٤ ـ وقال (ص) يوم المؤاخاة ـ بين المهاجرين والأنصار مخاطباً علياً (ع): **«أنت أخي وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيهما بعدك إلا كذاب»**[٥٦].

هذه طائفة من النصوص الخاصة بالثناء على علي (ع)، والاشادة بمقامه في اطار الاسلام ومن شاء المزيد فليراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة وينابيع المودة ومسند أحمد بن حنبل وفضائل امير المؤمنين وامامته من دلائل الصدق وغيرها.

تفسيره ج ٢ ص ٢٢١/ وأبو البركات النسفي ج ٢ ص ٢٢١/ والدر المنثور للسيوطي ج ٣ ص ٢١٨/ وغيرهم مع اختلاف في التفاصيل والألفاظ.

(٥٣) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٦/ ومناقب أحمد بن حنبل وأبو عيسى الترمذي في جامعه الصحيح/ وكنز العمال ج ٦ ص ٤٠١/ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٢/ والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٤ ص ٣٤٨: نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٥٤) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٧٤/ ومسند أبي داود ج ٣ ص ٢٨ والبخاري في باب غزوة تبوك ومسلم والترمذي وغير هؤلاء نقلاً عن المراجعات ص ١٣٣ ـ ص ١٣٦.

(٥٥) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩ /وأحمد بن حنبل ج ٦ ص ٢٩٢/ والنسائي ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٩ وغيرهم راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ ٢ ص ٢٠٧ وغيره.

(٥٦) صحيح ابن ماجة وصحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩ /والنسائي في الخصائص ص ٣ و ١٨ ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٤/ ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٥٩ وغيرها مع اختلاف في الألفاظ يسير.

امام المسلمين وقائدهم:

أما النصوص القاضية بوجوب التزام علي (ع) إماماً وقائداً في دنيا المسلمين فنذكر منها ما يلي:

أ ـ **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**.

(المائدة/٥٥)

قال المفسرون إن الآية الكريمة نزلت في علي بن أبي طالب (ع)[٥٧]. فأكدت وجوب الالتزام به إماماً ومرجعاً فكرياً واجتماعياً وسياسياً للأمة، وقد كان سبب نزولها حين تصدق علي (ع) على مسكين بخاتمه أثناء ركوعه، فالآية إنما نزلت بهذا الصدد وهي تؤكد في ذات الوقت إمامة علي (ع).

ب ـ خطبة الغدير:

وهي البيان الذي وجهه الرسول (ص) الى المسلمين في غدير خم في آخر حجة له لبيت الله الحرام فعن البراء بن عازب قال: «أقبلنا مع رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلم في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فأمر: **الصلاة جامعة**، فأخذ بيد علي فقال: **ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**».

قالوا: بلى.

قال (ص): **ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟**

قالوا: بلى.

---

(٥٧) تفسير البيضاوي /ومجمع البيان للطبرسي/ وأبو اسحاق الثعلبي في تفسيره/ والطبري في تفسيره ج ٦ ص ١٦٥/ والواحدي في أسباب النزول ص ١٤٨/ والخازن في تفسيره ج ١ ص ٤٩٦/ والرازي في تفسيره ج ٣ ص ٤٣١/ وأبو البركات النسفي ج ١ ص ٤٩٦/ والنيسابوري في تفسيره ج ٣ ص ٤٦١/ وابن حجر في الصواعق ص ٢٥ وغيرها نقلاً عن: أعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ص ١٣٠ ـ ص ١٣٤ وخلفاء الرسول الاثنا عشر ص ١٠٣ وما بعدها.

قال (ص): «**فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه، اللهم عاد من عاداه**»[٥٨]. وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) قال: «**من كنت مولاه فعليٌ مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه**»[٥٩].

ج: قال رسول الله (ص): «**علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا على الحوض**»[٦٠].

وفي حديث آخر لرسول الله (ص) يخاطب به عمار بن ياسر (ره) جاء فيه: «. . . **وان سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فاسلك وادياً سلكه علي وخلِّ الناس طراً**. . . »[٦١].

د ـ وقال (ص):

«**لكل نبي وصي ووارث وأن علياً وصيي ووارثي**»[٦٢].

هذا غيض من فيض من النصوص الإسلامية الموثوقة المجمع على صحتها، ووثاقتها من جميع المسلمين[٦٣].

---

(٥٨) اللفظ لصحيح ابن ماجة ص ١٢.

(٥٩) مسند ابن حنبل ج ٤ ص ٢٨١، فقد نص عليه قائلاً رواه ثلاثون صحابياً، وأخرجه أيضاً النسائي في خصائص علي بن أبي طالب بعدة طرق والترمذي والطبراني/ عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك**﴾ وكنز العمال ج ١ ص ٤٨/ ومستدرك الصحيحين وسواهم. نقلاً عن كتاب الغدير تأليف العلامة الأميني ـ ر ه ـ ج ١.

(٦٠) تاريخ البغدادي ج ١٤ ص ٣٢١/ والهيثمي في مجمعه ج ٧ ص ٢٣٥/ وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٧/ وتفسير الرازي ج ١ ص ١١١/ وغيرهم مع اختلاف في الألفاظ. نقلاً عن علي والوصية ص ١١٣.

(٦١) تاريخ الخطيب البغدادي ج ١٣ ص ١٨٦/ والهيثمي في مجمعه ج ٧ ص ٢٣٦ وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٥ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٦٢) ينابيع المودة سليمان الحنفي «باب عهد النبي لعلي وجعله وصياً»، والذهبي في ميزان الاعتدال والسيوطي في اللآلىء والديلمي في كنوز الدقائق ومناقب أحمد بن حنبل وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٤ والمعجم الكبير للطبراني والمحب الطبري في الذخائر وغيرهم نقلاً عن علي والوصية لنجم الدين العسكري ص ١٩٤.

(٦٣) ومن شاء المزيد فليراجع ينابيع المودة /للشيخ القندوزي الحنفي والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادي ومسند أحمد بن حنبل وكتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين وعلي والوصية للشيخ نجم الدين العسكري وغيرها.

علي في عهد الخلفاء

... فاضت نفس رسول الله (ص) في حجر علي (ع)[٦٤] ورحل (ص) الى ربه الأعلى، وهو قلق على مستقبل الرسالة والأمة، كما يجسد ذلك بقوة قوله (ص) عند زيارته لقبور المؤمنين في البقيع في بداية مرضه الذي قضى فيه: «**السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه، مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها...**»[٦٥].

وتأكيده المستمر على ضرورة التزام الثقلين: كتاب الله تعالى والعترة الطاهرة[٦٦].

وطلبه في آخر ساعة من حياته أن يؤتى بدواة وكتف ليكتب للأمة كتاباً لن تضل بعده أبداً[٦٧].

الى غير ذلك من مصاديق توجسه وقلقه (ص) على مستقبل المسيرة الإسلامية، بالرغم من احتياطه لتحصين الأمة وتجنيبها من الوقوع في الفتنة.

وما أن فاضت نفس رسول الله (ص) واشتغل علي (ع). وأهل بيت الرسول (ص) بتجهيزه من أجل مواراة جسده الطاهر في مثواه الأخير، حتى

---

(٦٤) مناقب الخوارزمي عن عائشة ومسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٣٠٠/ وذخائر العقبى للمحب الطبري ص ٧٣ وغيرها ويراجع علي والوصية ص ٢٠٦ - ٢١١.

(٦٥) أخرجه النسائي وأبو داوود وابن ماجة وأحمد بن حنبل في مسنده.

(٦٦) أخرجه الترمذي برقم ٨٧٤ من أحاديث كنز العمال ج ١ ص ٤٤ ومسند ابن حنبل ج ٥ ص ١٨٢ وص ١٨٩ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٤٨ وغيرها.

(٦٧) أخرجه البخاري ج ١ كتاب العلم ص ٢١ ومسلم في آخر الوصايا من صحيحه ج ٣ ص ٢٥٩/ وأحمد بن حنبل في مسنده ج ١ وغيرهم.

عقدت الأنصار وبعض المهاجرين اجتماعاً في سقيفة بني ساعدة لتنصيب من يخلف النبي (ص) في قيادة المسلمين.

وبعد مناقشات حادة وطويلة سادها جو من التوتر والقلق والعنف والخلاف بادر عمر بن الخطاب الى بيعة أبي بكر بالخلافة[٦٨] وطلب من الحاضرين ذلك، ولم يكن علي (ع) على علم بما حدث، ولكن النبأ قد انساب الى مسامعه من خلال الضجيج الذي أحدثه خروج القوم من السقيفة، وهم في طريق توجههم للمسجد النبوي.

وحتى تلك الساعة لا زال علي وأهل البيت (ع) مشغولين بتجهيز فقيد الأمة العظيم رسول الله (ص) إذ ظل جثمانه الطاهر ثلاثة أيام[٦٩] دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الإمام (ع) بما جرى ظل مؤمناً بحقه في الخلافة واعتزل الناس، وما هم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما يسمى بحروب الردة ولا سواها[٧٠].

ولقد استجدت أمور وأحداث خطيرة تتهدد الإسلام وأمته بالفناء، فقد قوي أمر المتنبئين بعد وفاة رسول الله (ص) واشتد خطرهم في الجزيرة العربية من أمثال: مسيلمة الكذاب، وطلحة بن خويلد الأفاك وسجاح بنت الحرث الدجالة وغيرهم وصار وجودهم يشكل خطراً حقيقياً على الدولة الإسلامية.

واشتد ساعد المنافقين وقويت شوكتهم في داخل المدينة وكان الرومان والفرس للمسلمين بالمرصاد[٧١].

هذا عدا عن ظهور التكتلات السياسية في المجتمع الإسلامي على أثر بيعة السقيفة.

---

(٦٨) راجع صحيح البخاري ج ٤ ص ١٩٤ ونراجع السقيفة/ للشيخ محمد رضا المظفر.

(٦٩) تاريخ ابن كثير ج ٥ ص ٢٧١/ وتاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٥٢، نقلاً عن الغدير ج ٧ ص ٧٥.

(٧٠) السقيفة للشيخ المظفر ص ١٦٠ ط ٤/ ١٩٧٣ بيروت.

(٧١) المراجعات /للحجة السيد شرف الدين ص ٣٠٢.

ولقد تعامل الإمام (ع) مع الخلافة حسب ما تحكم به المصلحة الإسلامية حفظاً للإسلام وحماية للجماعة الإسلامية من التمزق والضياع، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

وللإمام علي (ع) كتاب جاء فيه ـ بهذا الصدد ـ ما نصه: «... **فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنماهي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه**»[72].

بيد أن صوت علي (ع) كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتى، وقد تصدى ـ في هذا المضمار ـ لتوجيه الحياة الإسلامية، وفقا لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن أجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الامام (ع) لا يلبث إلا أن يلتقي مع مئات المواقف والأحداث ـ في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ـ التي لا تجد غير علي (ع) مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً وبأمر الشريعة فيها.

والخلفاء الثلاثة لم يروا بداً من استشارته إذا التبست عليهم الأمور، وهكذا تجده مرة مرشداً الى الحكم الاسلامي الصحيح في أمر ما، ومرة تجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجهاً للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الإسلامية العليا.

وبمقدورنا أن نلمس دوره الرسالي ذلك اذا طرحنا بعض مفردات منهجه المتبنى أيام الخلفاء الذين سبقوه:

---

(٧٢) من كتاب له الى أهل مصر مع مالك الأشتر حين ولاه امارتها ص ٤٥١ من نهج البلاغة تبويب الدكتور صبحي الصالح ط ١ ١٩٦٧ بيروت.

أ ـ في خلافة أبي بكر:

١ ـ فكر أبو بكر بغزو الروم فاستشار جماعة من الصحابة فقدموا وأخروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار علياً (ع) في الأمر فقال (ع) **«إن فعلت ظفرت»**.

فقال أبو بكر: بشرت بخير.

وأمر الناس بالخروج بعد أن أمر عليهم خالد بن سعيد[٧٣].

٢ ـ أراد أبو بكر أن يقيم الحد على شارب خمر...

فقال الرجل: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها، فأرسل إلى الامام يسأله عن ذلك فقال (ع): **««مُر نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله (ص)، فإن شهد بذلك رجلان منهم فأقم الحد عليه، وإن لم يشهد أحد بذلك، فاستتبه وخلِّ سبيله»**.

ففعل الخليفة ذلك، فعلم صدق الرجل فخلى سبيله[٧٤].

٣ ـ عن محمد المنكدر أن خالد بن الوليد كتب الى الخليفة أبي بكر أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب، ينكح كما تنكح المرأة، وأن أبا بكر جمع لذلك أناساً من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلم وكان فيهم علي بن أبي طالب أشدهم يومئذ قولاً، فقال:

إن هذا ذنب لم تعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة ـ يعني قوم لوط ـ فصنع الله بها ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار. فكتب أبو بكر بذلك الى ابن الوليد[٧٥].

٤ ـ قدم جاثليق النصارى يصحبه مائة من قومه، فسأل أبا بكر أسئلة، فدعا علياً (ع) فأجابه عنها، ونكتفي منها ـ كنموذج ـ بسؤال واحد من أسئلة

---

(٧٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١١١ ـ نقلاً عن علي والخلفاء للعسكري ص ٦٢.
(٧٤) مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب المازندراني ج ٢ ص ١٧٨.
(٧٥) كنز العمال ج ٣ ص ٩٩، نقلاً عن علي والخلفاء ص ٦٣.

الجاثليق: ـ أخبرني عن وجه الرب تبارك وتعالى!

فدعا علي (ع) بنار وحطب، واضرمه، فلما اشتعلت قال: **أين وجه هذه النار؟**.

قال الجاثليق: هي وجه من جميع حدودها.

فقال علي (ع): **هذه النار مدبرة مصنوعة، لا يعرف وجهها وخالقها لا يشبهها، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله لا تخفى على ربنا خافية**[76].

٥ ـ وأرسل ملك الروم رسولاً الى أبي بكر يسأله عن رجل لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولا يخاف الله، ولا يركع ولا يسجد ويأكل الميتة والدم، ويشهد بما لم يَرَ ويحب الفتنة ويبغض الحق، فأخبر بذلك علياً (ع) فقال:

هذا رجل من أولياء الله: لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولكن يخاف الله ولا يخاف من ظلمه، وانما يخاف من عدله، ولا يركع ولا يسجد في صلاة الجنازة، ويأكل الجراد والسمك، ويأكل الكبد، ويحب المال والولد ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ويشهد بالجنة والنار وهو لم يرهما، ويكره الموت وهو حق[77].

هذه بعض مصاديق اهتماماته بمسيرة الاسلام التاريخية في عهد أبي بكر.

ب ـ في خلافة عمر بن الخطاب:

١ ـ حين أراد عمر بن الخطاب أن يغزو الروم راجع الإمام (ع) في الأمر، فنصحه الإمام بألا يقود الجيش بنفسه مبيناً علة ذلك قائلاً: «. . . **فابعث اليهم رجلاً مجرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله**

(٧٦) علي والخلفاء ص ٦٠ نقلاً عن التستري/ قضاء أمير المؤمنين ص ٦٦ ط/١ سنة ١٣٦٩ هـ النجف الأشرف.

(٧٧) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ١٨٠.

فذاك ما تحب، وان تكن الأخرى كنت ردءاً للناس، ومثابةً للمسلمين»[78].

٢ ـ ورد الى بيت مال المسلمين مال كثير ـ من البحرين ـ فقسمه عمر بين المسلمين، ففضل منه شيء، فجمع عمر المهاجرين والأنصار واستفتاهم بأمره قائلاً: ما ترون في فضلٍ، فضلَ عندنا من هذا المال؟

قالوا: يا أمير المؤمنين إنا شغلناك بولاية أمورنا من أهلك وتجارتك، وضيعتك، فهو لك.

فالتفت عمر إلى علي قائلاً: ما تقول أنت؟

قال الإمام (ع): **قد أشاروا عليك**.

قال الخليفة: فقل أنت؟

قال (ع): **لِمَ تجعل يقينك ظناً**، ثم حدثه بواقعة مشابهة في عهد رسول الله (ص).

وأخيراً أشار عليه الإمام (ع) بتوزيعه على الفقراء، قائلاً: «**أشير عليك أن لا تأخذ من هذا الفضل وأن تفضه على فقراء المسلمين**».

فقال عمر: صدقت والله[79].

٣ ـ عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول ان ترك هذا المال في جوف الكعبة لآخذه وأقسمه في سبيل الله وفي سبيل الخير وعلي بن أبي طالب يسمع ما يقول، فقال عمر، ما تقول يا ابن أبي طالب بالله لئن شجعتني عليه لأفعلنَّ؟ فقال علي: **أتجعله فينا، وصاحبه رجل يأتي في آخر الزمان**[80]. فاقتنع عمر بضرورة عدم التصرف بحلي الكعبة.

٤ ـ بعث أبو عبيدة بن الجراح وبرة بن رومان الكلبي الى عمر بن

---

(٧٨) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح ط ١ ص ١٩٢.
احفز: ادفع وسق، أهل البلاء: أهل المهارة في الحرب، مثابة: مرجع.

(٧٩) علي والخلفاء /نجم الدين العسكري ص ٨٣، نقلاً عن أحمد بن حنبل في المسند ج ١ ص ٩٤ وكنز العمال ج ٤ ص ٣٩ وغيره.

(٨٠) كنز العمال جـ ٧ ص ١٤٧ وصحيح البخاري ٧٢٧/١٩ وغيره نقلاً عن علي والخلفاء ص ٨٧.

الخطاب: ان الناس قد تتابعوا في شرب الخمر بالشام، وقد ضربت أربعين، ولا أراها تغني عنهم شيئاً، فاستشار عمر الناس....

فقال علي (ع): **أرى أن تجعلها بمنزلة حد الفرية «ثمانون جلدة».**

إن الرجل إذا شرب هذى، وإذا هذى، افترى. فجلدها عمر بالمدينة، وكتب إلى أبي عبيدة... فجلدها بالشام[81].

٥ ـ وقد ورد أن عمر بن الخطاب رأى ليلة رجلاً وامرأة على فاحشة، فلما أصبح قال للناس: أرأيتم أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة. فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين؟

فقالوا: إنما أنت إمام.

فقال علي بن أبي طالب: **«ليس ذلك لك، اذن يقام عليك الحد، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهداء»** ثم إن عمر ترك الناس ما شاء الله، ثم سألهم: فقال القوم مثل مقالتهم الأولى... وقال علي (ع) مثل مقالته.

فأخذ عمر بقول الامام[82].

٦ ـ عن ابن سيرين أن عمر بن الخطاب سأل الناس قائلاً: كم يتزوج المملوك؟ وقال لعلي: اياك أعني يا صاحب المعافري ـ رداء كان عليه. ـ

فقال الامام (ع): **اثنتين**[83].

٧ ـ بعد أن فتح المسلمون الشام جمع أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير الى بيت المقدس أو الى قيسارية، فقال له معاذ بن جبل: اكتب الى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك فامتثله، فكتب ابن الجراح الى عمر بالأمر، فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر.

---

(٨١) سنن البيهقي وتاريخ الطبري وكنز العمال ج ٣ ص ١٠١ وشرح الموطأ للزرقاني ج ٤ ص ٢٥ وغيره. نقلاً عن علي والخلفاء ص ٩٠.

(٨٢) كنز العمال ج ٣ ص ٩٦ والفتوحات الاسلامية ج ٢ ص ٤٨٢، نقلاً عن علي والخلفاء ص ٩٨.

(٨٣) مناقب آل أبي طالب. ج ٢ ص ١٩١.

فقال علي (ع): **مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين الى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه الى قيسارية، فانها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى، كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.**

قال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه (وآله) وسلم، وصدقت أنت يا أبا الحسن... ثم كتب الى أبي عبيدة بالذي أشار به علي (ع)[٨٤].

٨ ـ بعد انتصار المسلمين على الفرس في خلافة عمر، شاور ابن الخطاب أصحاب رسول الله (ص) في سواد الكوفة...

فقال بعضهم: تقسمها بيننا، ثم شاور علياً (ع) في الأمر.

فقال (ع): **ان قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا.**

فقال عمر لعلي: **وفقك الله...** هذا الرأي[٨٥].

٩ ـ عن الطبري في تاريخه عن سعيد بن المسيب.

قال: جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم، من أي يوم نكتب التاريخ؟.

فقال علي (ع): **من يوم هاجر رسول الله صلّى الله عليه وآله، وترك أرض الشرك، ففعله عمر**[٨٦]، وهكذا وجد التاريخ الهجري ليؤرخ به المسلمون.

هذه بعض ملامح دور الامام علي (ع) الرسالي في خلافة عمر بن الخطاب.

---

(٨٤) علي والخلفاء ص ١٣٣ نقلاً عن ثمرات الأوراق في المحاضرات لابن الحجة الحموي الحنفي. ج ٢ ص ١٥ طبعة ١٣٦٨ هـ.

(٨٥) علي والخلفاء ص ٢٣٩.

(٨٦) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٥٣، وفي تاريخ اليعقوبي مثله وكنز العمال ومستدرك الحاكم والكامل لابن الأثير، نقلاً عن علي والخلفاء ص ٢٤٠.

ج ـ في عهد عثمان:

١ ـ تزوج شيخ كبير بكراً فحملت، فادعى الرجل أنه لم يصل إليها، فسأل عثمان المرأة: هل افتضك الشيخ؟
قالت: لا. فأمر باقامة الحد عليها.

فقال الامام (ع): **إن للمرأة سمين: سم الحيض وسم البول، فلعل الشيخ كان ينال منها فسال ماؤه في سم الحيض، فحملت منه.** فقال الرجل: قد كنت انزل الماء في قبلها من غير وصول اليها بالافتضاض.

قال الامام علي (ع): **الحمل له، والولد له، وأرى عقوبته على الانكار له**(٨٧).

٢ ـ عن موطأ مالك عن بعجة بن بدر الجهني: أنه أتى ـ عثمان ـ بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهمَّ برجمها فقال علي (ع): **إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إن الله تعالى يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ ثم قال: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾.**
فحولان مدة الرضاعة وستة أشهر مدة الحمل.
فقال عثمان: ردوها(٨٨).

(٨٧) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ١٩٢ وعجائب أحكام أمير المؤمنين/ محمد بن علي القمي (ره) ص ٤٣.
(٨٨) المناقب ص ١٩٢ وابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٥٧ والبيهقي في سننه ج ٧ ص ٤٤٢.

خاتمة

هذه أمثلة يسيرة مما كان ينهض الإمام علي (ع) به من مسؤوليات عظيمة في عهد الخلفاء، وكان دافعه في ذلك الإخلاص للرسالة وحفظ الوحدة الإسلامية وحماية المسيرة الإسلامية من الانحراف.

ولقد تنبه الخليفة الثاني الى أهمية ما يقوم به علي (ع) في هذا المضمار، فصرح مراراً مشيداً بذلك الفضل، ومنوهاً بأهميته في مسيرة الخلافة كقوله: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»[٨٩]، وغير ذلك.

(٨٩) الدر المنثور للسيوطي ج ٣ ص ١٤٤ وسيرة عمر لابن الجوزي ص ١٠٦ والفتوحات الاسلامية لدحلان ج ٢ ص ٤٨٦ وغيرها، نقلاً عن علي والخلفاء للشيخ نجم الدين العسكري ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ٢ والغدير ج ٦ وج ٧، وعجائب أحكام أمير المؤمنين للمفسر الجليل محمد بن ابراهيم القمي.

المقدمــة

الجزء الثاني

الامام الخليفة

بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان أجمعت الأمة على بيعة الإمام علي (ع) خليفة لها، وقد اجتاحت النفوس موجة من العاطفة نحوه، ولكنه رد علىٰ موقف الناس بقوله: «. . . **دعوني والتمسوا غيري**. . .»[1].

فإن علياً أبىٰ أن يكون أسيراً للعاطفة، فلعل نقمة بعض الناس على عثمان هي التي أججت نحوه العاطفة وشدت إليه التيار، وهو يريد من الأمة اقراراً ارادياً لإمامته، ليس محكوماً بالانفعال الآني.

ثم إن علياً ليس ممن تغريه المناصب وتستهويه الكراسي حتى يستجيب فور إقبال الناس عليه، فإن الإمرة كلها لا تساوي لديه جناح بعوضة. بل الدنيا كلها عنده كعفطة عنز ـ على حد تعبير له (ع) ـ ثم ان القيادة لا تساوي عنده شيئاً مذكوراً، إن لم يقم من خلالها الحق ويبطل الباطل. . .

ولهذا لم يستجب لضغط الجمهور في بادىء الأمر، قبل وضعهم أمام اختبار ليتأكد من مدى قدرة الناس على تلقي مناهجه والاستجابة لخططه إذا تسلم زمام الأمر.

فبالرغم من أن العاصمة المقدسة «المدينة المنـورة» قد أصـرّت على اختياره على شكل تظاهرات حقيقية وتجمعات مكثفة حتى صارت المطالبة بقيادته إجماعية لا جماعية، فإنه (ع) بقي عند موقفه المتريّث، بيد أن اصرار الأمة على بيعته جعله يطرح عليها شروطه لقبول الخلافة، فان بايعته الأمة وفقاً لما يلي من شروط استجاب هو لمطلبها في استخلافه. . .

---

(١) نهج البلاغة ـ ص ١٣٦ ـ تبويب الدكتور صبحي الصالح.

وحين أذاع بيانه المتضمن لشروطه: «... **واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ ِ إلى قول القائل وعتب العاتب...**»[٢].

وسارعت الأمة مذعنة لشروطه، ومدت يد البيعة على الطاعة إليه؛ ولبىٰ هو مطلبها ليواجه مسؤولياته القيادية في الأمة الإسلامية على الصعيد الفكرى والعملي...

وقد كانت من أولى مهامه (ع) أن يزيل صور الانحراف التي طرأت على الحياة الإسلامية، وأن يعود بالأمة الى أصالة المنهج الإلهي.

ومن أجل ذلك كان لا بد أن يسير وفق منهاج محدد وشامل يلزم ولاته بتطبيقه... وقد انصب منهاج حكومته على مواجهة المشاكل في الميادين الآتية:

١ ـ الميدان السياسي:

لقد حدّد الإمام القائد (ع) مواصفات ولاة الأمر وموظفي الدولة الذين يرشحهم الإسلام لإدارة شؤون الأمة الإسلامية ببيان أصدره (ع) جاء فيه:

«... **أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة....**»[٣].

---

(٢) المصدر السابق والصفحة ذاتها.

(٣) نهج البلاغة رقم ١٣١ تبويب صبحي الصالح.

نهمته: شهوته الشديدة وحرصه المفرط.

الحائف: الجائر، الظالم.

الدول: المال، والحائف للدول معناه الذي يظلم في توزيع الأموال فيفضل جماعة على أخرى.

المقاطع: الحدود التي حددها الله تعالى.

ففي ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات المسؤولين والموظفين الذين يقرهم الإسلام عمد الإمام علي (ع) إلى الاستغناء عن خدمات قسم من الولاة الذين كانوا يتولون أقاليم الدولة الإسلامية... لأن علياً (ع) لو ساوم ـ كما يريد بعض المؤرخين ـ لتعذر على الأجيال المسلمة التماس الصورة الحقيقية للشريعة التي ابتعث الله بها رسوله العظيم صلّى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ الميدان الاقتصادي:

٢ ـ الميدان الاقتصادي:

كما عمد الإمام علي (ع) الى اصلاح الوضع السياسي والاداري كذلك فعل بالنسبة للوضع الاقتصادي، فقد بادر فور تسلمه زمام الأمور مباشرة الى الغاء طريقة توزيع المال التي اعتمدت فيما سبق.

فقد استبدل الإمام طريقة التمييز في العطاء بطريقة المساواة في التوزيع التي انتهجها رسول الله (ص).

فألغى الإمام (ع) كل أشكال التمييز في توزيع المال على الناس، مؤكداً أنَّ التقوى والسابقية في الإسلام والجهاد، والصحبة للرسول (ص) أمور لا تمنح أصحابها مراتب أو مميزات في الدنيا، وانما لتلك المزايا ثوابها عند الله في الآخرة، ومن كان له قدم في ذلك، فالله تعالى يتولى جزاءه، أما في هذه الدنيا فإن الناس سواسية في الحقوق المالية وأمام القضاء الإسلامي وفي الواجبات والتكاليف.

وقد تضمن بيانه التالي هذه الأفكار الجليلية العادلة: «**ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله يرى أن الفضل له على سواه لصحبته فإن الفضل النيّر غداً عند الله وثوابه وأجره على الله.**

وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فانتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً،

وما عند الله خير للأبرار . . .»[٤].

وهكذا جسَّد الإمام (ع) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الإسلامية دون تمييز لأي سبب من الأسباب.

وهذه بعض ملامح العملية الاصلاحية التي قادها الإمام علي (ع) في شتى مرافق الحياة الإسلامية، في المال والحكم والادارة وسواها:

---

(٤) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده جـ ١، ص ٢٦٩.

منهاج الاصلاح

وضع الإمام (ع) خطته الإصلاحية الشاملة، وقد انصب جلُّ اهتمام الإمام (ع) على اصلاح شؤون الإدارة والاقتصاد والحكم كما قدمنا.

ومن خلال ذلك العمل الإصلاحي الكبير حظيت الأمة عبر مسيرتها الجديدة التي اختطها لها أمير المؤمنين (ع)، بمعطيات جمة ذات مردودات عظيمة لصالح الأمة والمسيرة بشكل عام، نذكر منها ما يلي:

أولاً ـ استعانة الإمام (ع) بجهاز من الولاة والموظفين لإدارة دفة الحياة الإسلامية يعدّ أفراده نموذجاً في مستواهم الروحي والفكري والالتزامي: كعثمان بن حنيف، ومحمد بن أبي بكر، ومالك الأشتر وسواهم.

على أن تلك النماذج الخيرة من الرجال، وان كانوا في مستوى لائق في الفكر والعمل والقدرة الادارية والقيادية، فإن الإمام (ع) قد زودهم بخطط هادية ومناهج راشدة، يهتدون بها في حياتهم العملية، وفي علاقاتهم مع مختلف قطاعات الأمة التي يباشرون قيادتها.

فهو يلزم ولاته بالنصح لعباد الله، واشاعة العدل بينهم ومعاملتهم باللين والحب، والتجاوز عن كل مظاهر الاستعلاء التي يغري بها المنصب غالباً، والحيلولة دون تأثير ذوي النفوذ الاجتماعي في مسيرة العدالة الإسلامية على حساب القطاعات الاجتماعية الأخرى، ونحو ذلك من مستلزمات اشاعة العدل وإقامة الحق بين الناس.

وهذه نماذج من خططه في هذا المضمار:

«... فاخفضْ لهم جناحك وألنْ لهم جانبك وابسطْ لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس

الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يعـذب فأنتم أظلم، وإن يعفُ فهو أكرم. . . »[٥].

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»[٦].

هذه مقاطع من توجيهات الإمام (ع) التي ألزم ولاته بالعمل على ضوئها في حياتهم العملية.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن الإمام (ع) بالرغم من اهتمامه بانتقاء العناصر الكفوءة والورعة فإنه كان يحرص على الإحاطة بأساليبهم في معاملة الأمة من خلال مراكزهم القيادية باستعانته بجهاز من الرقباء والعيون ليرى مدى طاعة الولاة وتنفيذهم لقواعد العدالة الإسلامية، فإذا بدا من أحدهم خطأ أو تقصير، بادر الإمام الى تقويم سلوكه بالوسائل التربوية تارة وبالتهديد أو بالعزل إذا لزم الأمر، وهذه نماذج من وسائله تلك:

فقد بلغه أن عثمـان بن حنيف (رض) واليه على البصـرة دعاه بعض شخصيات أهل البصرة إلى مأدبة، فخشي الإمام (ع) أن تستميله تلك الوسائل أو سواها فينحرف عن خط العدالة الإسلامية المرسوم فيميل في أحكامه أو يجور في قضائه ومعاملته للأمة، فكتب إليه كتاباً جاء فيه: **«أما بعد، يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب الى**

---

(٥) من عهده (ع) الى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، نهج البلاغة ص ٣٨٣ تبويب د. صبحي الصالح.
آس = ساو بينهم. حيفك لهم = ظلمك من أجلهم.

(٦) وصيته الى عبد الله بن عباس حين استخلفه على البصرة. نهج البلاغة تبـويب د. صبحي الصالح رقم ٧٦.
سِع الناس = اشملهم برعايتك في كل جانب من جوانب الحياة.
طيرة = طيش وخفة.

طعام قوم؛ عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظهُ، وما أيقنت بطيب وجوهه فنلْ منه. . .

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد. . .»[٧].

وقد كتب إلى مصقلة الشيباني عامله على (اردشير خرّة) مهدداً ومتوعداً **«بلغني عنك أمرٌ ان كنت فعلته، فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك: إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليَّ هواناً، ولتخفَّنَّ عندي ميزاناً، فلا تستهنْ بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسَرين أعمالاً»**[٨].

وكتب إلى أحد عماله يقول: **«أما بعد فقد بلغني عنك أمر، ان كنت**

---

(٧) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح ص ٤١٦.
مأدبة طعام = طعام دعوة أو عرس.
يستطاب لك = يطلب لك طيبها.
الألوان = أصناف الطعام.
الجفان = جمع جَفنة وهي القصعة.
العائل = المحتاج.
المجفو = مطرود «من الجفاء».
قضم = أكل بطرف أسنانه.
المقضم = المأكل.
الفظه = اطرحه، لا تأكله.
الطمر = الثوب البالي.
طعمه = ما يطعمه ويفطر عليه.
قرص = رغيف خبز.
السداد = الاحتراز من الخطأ.

(٨) المرجع السابق ص ٤١٥ أعتامك: اختارك وأصله أخذ العيمة وهي خيار المال.

فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليَّ حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس...»[9].

وكما كان الإمام (ع) يخطط للولاة ويزودهم بنصائحه الهادية، كان يرسم الخطط كذلك لقادة جيوشه، ويوضح لهم معالم الطريق، وما ينبغي عليهم فعله عند مواجهة العدو.

فكان (ع) ينهاهم عن البغي، ويأمرهم بعدم إثارة الحرب من جانبهم، وإنما ينبغي التسلح بالصبر وضبط النفس، وأن يكونوا في بداية المواجهة كما لو كانوا مدافعين فحسب، فإذا اعتدي عليهم فقد قامت الحجة لصد العدوان؛ فإذا قدِّر وانتصروا على عدوهم فلا يباح أن تحملهم نشوة الظفر على عدوهم الى ملاحقة جنوده الهاربين من القتال، أو الذي لا يملك منهم سلاحاً يدافع به عن نفسه، كما لا يجوز قتل الجرحى، أو الإساءة إلى النساء، وأن بدأن الإساءة بسب أو شتم أو نحوه.

وهذه بعض وصاياه (ع) لجيوشه:

«... لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله، فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً[10] **ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم...»**[11].

«... ألا وإن لكم عندي ألا احتجز دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلّا في حكم، ولا أؤخر لكم حقاً عن محله، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة، وألّا تنكصوا عن دعوة ولا تفرطوا في

---

(٩) المرجع السابق ص ٤١٢ جردت الأرض: اشارة الى الخيانة بتخريب الأراضي.

(١٠) المعور: الذي عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب.

(١١) نهج البلاغة، وصيته (ع) رقم ١٤ ص ٣٧٣، د. صبحي الصالح.

صلاح وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق. . . »[١٢].

وبالنظر للأهمية البالغة التي يحتلها جهاز جباية الأموال في الدولة الإسلامية حيث تشكل الحقوق العامة في ملكية الأفراد عنصراً هاماً من عناصر الاقتصاد الإسلامي، فإن حق الجماعة في الملكيات الخاصة يوفر ضمانة كبرى لمساعدة الدولة الإسلامية على تغطية نفقاتها الكبرى على الصعيد الاجتماعي والعسكري وغيرهما من جوانب الحياة العامة. . . أقول بالنظر لأهمية جهاز الجباية هذا فقد أولاه الإمام (ع) عناية فائقة لا من أجل أن يجمع أكبر نصيب من المال أبداً، وإنما من أجل أن ينخرط ـ ذلك الجهاز ـ في مسيرة العدالة الإسلامية المثلى التي جسدها الإمام (ع) في حياة الناس. فكان الإمام حريصاً على أن يلتزم موظفو ذلك الجهاز بأقصى درجات العدل والفضيلة والنبل، والشعور بالمسؤولية، فليست مهمتهم في نظر الإمام (ع) أن يجمعوا المال من أجل المال، وإنما ينبغي عليهم أن يلتزموا الحق في تعاملهم مع الأمة وأن يعكسوا عدالة الإسلام لمن يلتقون بهم من الناس؛ فلا ينبغي أن يغضبوا أحداً من الناس، ولا يسيؤوا معاملة أحد، ولا يضربوا إنساناً من أجل درهم مثلاً، ولا يجوز أن يعتدوا على مال امرىء من المسلمين أو من غيرهم ممن يتمتع بحق التابعية للدولة الإسلامية.

كما لا يجوز أبداً أن يبيعوا كسوة إنسان أو دابته من أجل استيفاء المال، ولا يحق لأحد الجباة أن يردع أحداً أو يستوفي أكثر من حق الله في ماله، ولا ينبغي أن يستعلي على الناس أو يبخل عليهم بالتحية أو اللطف والمرونة في معاملتهم إلى غير ذلك من وصاياه وبرامجه العظيمة البناءة.

وهذه صور من مناهجه في هذا المضمار:

« . . . فإنكم خزان الرعية ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة ولا تحشموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعُنَّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبداً، ولا تضربُنَّ أحداً سوطاً

---

(١٢) نفس المصدر من كتاب له الى أمراء جيشه رقم ٥٠ ص ٤٢٤.

لمكان درهم ولا تمسنَّ مال أحدٍ من الناس مصلٍّ ولا معاهد. . .»[١٣].

«. . . **انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروِّعَنَّ مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخُذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج**[١٤] بالتحية لهم. ثم تقول: عباد الله، ارسلني اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه. . . .؟»[١٥].

ثانياً ـ تجسيد المخطط الإسلامي للعدالة الاجتماعية بأجلى صوره وأدق تفصيلاته:

إذا كانت جميع جوانب الجهاز الحكومي في الدولة الإسلامية قد تناولتها يد الإصلاح، فحققت أرقى النماذج التي يصبو إليها الإنسان، فإن الإمام (ع) قد خطا في سبيل تحقيق أفضل صورة للعدالة الإجتماعية وفقاً للتصورات الإسلامية التفصيلية.

فقد شهد المجتمع الإسلامي بجميع قطاعاته وقواه عدالة رائدة كالتي شهدها أيام رسول الله (ص) في منطلقاتها وأبعادها.

وفيما يلي شواهد من تلك التجربة التاريخية المشعة التي تفيأت الأمة ظلالها:

أ ـ رفق وتعاهد:

فقد شهدت قطاعات الأمة جميعاً صوراً من التعاهد لأمرها والرفق بها ورعاية شؤونها، والتسوية في العطاء بين جميع حملة التابعية للدولة الإسلامية التي تجسدها هذه النصوص: «**المال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل**

---

(١٣) نهج البلاغة من كتاب له الى عماله على الخراج رقم ٥١ تبويب د. صبحي الصالح.

(١٤) لا تخدج بالتحية = لا تبخل بالسلام عليهم والسؤال عن أحوالهم.

(١٥) نهج البلاغة كتاب لمن يستعمله على الصدقات رقم ٢٥.

لأحد على أحد».

«وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتـه حتى أورده منهل الحق وان كان كارهاً»[16].

أقول إلى جانب هذا وذاك، شهدت الأمة التي قادها أمير المؤمنين (ع) بمختلف قطاعاتها من الوان التدبير لشؤونها، والرعاية لأمورها، والحدب عليها ما حقق لها الكرامة والسعادة والحرية وهذه صور منها:

عن الحَكَم قال:

شهدت علياً، وقد أتي له بزقاق من عسل، فدعا اليتامى وقال: **ذوقوا، والعقوا**، حتى تمنيت أني يتيم، فقسمه بين الناس وبقي منه زق، **فأمر أن يسقاه أهل المسجد»**[17].

وعن هارون بن عنترة عن زاذان قال: انطلقت مع قنبر غلام علي (ع) فإذا هو يقول: قم يا أمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئاً.

قال (ع): **وما هو، ويحك!!**

قال: قم معي...

فقام فانطلق به الى بيته، وإذا بغرارة مملوءة من جامات ذهباً وفضة. فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك لا تترك شيئاً إلا قسمته فادخرت لك هذا من بيت المال.

فقال علي (ع): **ويحك يا قنبر، لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة**، ثم سلّ سيفه، وضربها ضربات كثيرة، فانتثرت... ثم دعا بالناس، فقال: **اقسموه بالحصص**، ثم قام الى بيت المال، فقسم ما وجد فيه، ثم رأى في البيت ابراً ومسال فقال: **ولتقسموا هذا...»**[18].

---

(١٦) روائع نهج البلاغة ـ جورج جرداق ص ١٦٣.

الخزامة = حلقة من شعر توضع في وترة أنف البعير يشد بها زمامه ويسهل قياده.

(١٧) أنساب الأشراف للبلاذري جـ ٢ ص ١٣٦.

(١٨) شرح النهج لابن ابي الحديد تحقيق/ محمد أبو الفضل ابراهيم ط/١٣٧٨ هـ جـ ٢، ص ١٩٨ و ١٩٩.

وعن الحَكَم قال: إن علياً قسم فيهم الرمّان حتى أصاب مسجدهم سبع رمانات، وقال: **أيها الناس إنه يأتينا أشياء نستكثرها إذا رأيناها، ونستقلها إذا قسمناها، وإنا قد قسمنا كل شيء أتانا.**

قال: وأتته صفائح فضة فكسرها، وقسمها بيننا.

وعن علي بن ربيعة قال: جاء ابن التياح الى علي بن أبي طالب (ع) فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء.

فقال علي (ع): **الله أكبر**، ثم قام متوكئاً على يد ابن التياح، فدخل بيت المال وهو يقول:

هـذا جنـاي وخيـاره فيـه وكـل جـان يـده الى فيـه[19]

ثم نودي في الناس، فأعطىٰ - علي - جميع ما في بيت المال وهو يقول: «**يا بيضاء، ويا صفراء، غري غيري**».

حتى لم يبقَ فيه درهم ولا دينار، ثم أمر بنضحه، فصلى فيه ركعتين (ع).

وكان لشدة حرص الإمام (ع) على مصلحة الأمة لرفع غائلة الفقر والظلم عنها أنه التزم السير - عبر أيام خلافته عليها - وفقاً للنهج الآتي: «... **ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي الى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطاناً، وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى.؟**

أأقنع من نفسي بأن يقال هذا: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟»[20].

---

(١٩) مثل يضرب، أراد به الإمام (ع) أنه لم يصب شيئاً من مال المسلمين بل وضعه في مواضعه. تذكرة الخواص: سبط ابن الجوزي ص ١١٧.

(٢٠) نهج البلاغة من كتاب له الى عثمان بن حنيف رقم ٤٥ ص ٤١٨.

ب ـ رقابة دقيقة لوضع السوق:

ولقد كان الإمام علي (ع) حريصاً على تجسيد العدالة الاقتصادية في مرافق الحياة الإنسانية كافة، ومن أجل ذلك فقد التزم خطة لمراقبة السوق من ناحية البيع والشراء وطبيعة ما يعرض للبيع، للحيلولة دون التطفيف في المكاييل والتلاعب بالأسعار أو الغش، فعن الإمام الباقر (ع) قال: «**كان أمير المؤمنين (ع) كل بكرة يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدِرّة على عاتقه، وكان لها طرفان، وكانت تسمى السبيبة، فيقف على سوق فينادي:**

يا معشر التجار قدموا الاستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزينوا بالحلم، وتناهوا عن الكذب، واليمين، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا و ﴿أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[21].

وعن أبي النوار قال:

رأيت علياً (ع) وقف على خياط، فقال له: **يا خياط صلِّب الخيط، ودقق الدرز، وقارب الغرز، فأني سمعت رسول الله (ص) يقول «يؤتى يوم القيامة بالخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاطه، وخان فيه، فيفتضح على رؤوس الأشهاد».**

ثم قال: «**يا خياط إياك والفضلات والسقطات فإن صاحب الثوب أحق بها...**»[22].

هكذا جسد الإمام أمير المؤمنين (ع) المخطط الإسلامي للعدالة الإجتماعية بأدق صورها، وهكذا عامل الأمة بالرفق والحب فعايش آمالها وآلامها حتى قطفت أروع ثمرات العدل في تاريخها كما كانت في عهد

---

(٢١) من سورة هود/٨٥، راجع بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٠٤/من أمالي الصدوق وتذكرة الخواص ص ١٣٤ وأنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ١٢٩ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢٢) تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص ١٢٥.

رسول الله (ص) سواء بسواء.

ج ـ تبني الإمام علي (ع) سياسة نكران الذات لصالح الأمة:

وذلك بالزهد الصادق بكل ما يطمع به الطامعون من مال وملذات وزخرف، فلقد عاش أمير المؤمنين في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه فقراء الأمة، وكان يأكل الشعير تطحنه امرأته أو يطحنه بيده سواء في ذلك قبل خلافته، وبعدها.

وكان يلبس أخشن لباس وأبسطه وكان مبدؤه الثابت في هذا المضمار:

«... ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه»، «فوالله، ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهن من عفصة مقرة»[23].

وبمقدورنا أن نلمس سياسة الإمام (ع) هذه مع نفسه من خلال المصاديق التالية:

عن هارون بن عنترة عن أبيه قال:

«دخلت على علي بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة.

فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك!!

فقال (ع): **والله ما أرزؤكم ـ أنقصكم ـ شيئاً، وما هي إلّا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة»**[24].

وقد خاطبه عاصم بن زياد يوماً بقوله «يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك!».

---

(٢٣) كتابه لعثمان بن حنيف ـ نهج البلاغة رقم النص ٤٥.
التبر: فتات الذهب والفضة قبل الصياغة. الوفر: المال.
الطمر: الثوب الخلق البالي. اتان دبرة = التي عقر ظهرها فقل أكلها.

(٢٤) تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص ١٢١ وعبقرية الإمام للعقاد ص ١٦ ط. بيروت ١٩٦٧.

فأجابه علي (ع):

«ويحك إني لست كأنت. إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيَّغ بالفقير فقره»[٢٥].

وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي (ع) يوماً وليس في داره سوى حصير رث وهو جالس عليه.

فقلت: يا أمير المؤمنين أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال، وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير؟ قال (ع): **يا سويد إن البيت لا يتأثث في دار النقلة وأمامنا دار المقامة، وقد نقلنا اليها متاعنا، ونحن منقلبون إليها عن قريب**[٢٦].

وها هو علي يخرج سيفه ليبيعه في السوق كي يشتري بثمنه ازاراً، وهو أمير المؤمنين وزعيم الأمة الإسلامية الذي تجبىٰ إليه الأموال من جميع بقاع العالم الإسلامي.

فعن أبي رجاء قال: أخرج علي (ع) سيفاً إلى السوق فقال: **«من يشتري مني هذا؟ فوالذي نفس علي بيده لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»**!!!

فقلت له: أنا أبيعك إزاراً وأنسؤك ثمنه الى عطائك، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطاءه دفع إليَّ ثمن الإزار[٢٧].

إنه (ع) لا يأخذ من فيئهم شيئاً، وإن قدِّر له الخروج من الكوفة، فلا يخرج إلّا بالذي جاء به من المدينة المنورة: راحلته ورحله وغلامه:

فعن بكر بن عيسى قال: كان علي (ع) يقول: **«يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي، ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائن»**.

فكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع، وكان يطعم الناس منها الخبز

---

(٢٥) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح رقم ٢٠٩ ص ٣٢٤.
يتبيغ = يستبد به ألم الفقر.

(٢٦) تذكرة الخواص ص ٦٨.

(٢٧) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت.

ولشدة حرصه (ع) على سلوك سبيل رسول الله (ص) في عدله وزهده أشار عقبة بن علقمة قال: دخلت على علي (ع) فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته، وكسر يابس.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟

فقال لي: **يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا، وأشار إلى ثيابه؛ فإن أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألاَ ألحق به**[٢٨].

ولعظيم إيثاره للأمة على نفسه ما رواه عبد الله بن الحسين بن الحسن (ع) قال: أعتق علي (ع) في حياة رسول الله (ص) ألف مملوك مما عملت يداه، وعرق جبينه.

ولقد ولي الخلافة، وأتته الأموال فما كان حلواه إلاّ التمر ولا ثيابه إلاّ الكرابيس[٢٩].

وعن سفيان الثوري عن عمر بن قيس قال: رؤي علىٰ علي (ع) إزار مرقوع، فعوتب في ذلك، فقال:

«يخشع له القلب، ويقتدي به المؤمن»[٣٠].

ولقد بلغ في شدة زهده (ع) ونكرانه لذاته ابتغاء لوجه الله تعالى ما يتجلى عبر عبارته **«... والله لقد رقّعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قيل لي: ألا تستبدل بها غيرها؟ فقلت للقائل: ويحك اعزب، فعند الصباح يحمد القوم السرى»**[٣١].

هذه بعض بنود منهاج علي (ع) مع نفسه وهي تمثل احد روافد العدالة الإسلامية العظمىٰ التي جسدها الإمام (ع) في دنيا الناس أسوة برسول الله (ص).

(٢٨ و ٢٩) المرجع السابق ص ٢٠١ وص ٢٠٢.

(٣٠) تذكرة الخواص ص ١٢١.

(٣١) المرجع السابق ص ١٢٥. المدرعة: ثوب صوفي غليظ.

د ـ مساواة أهل بيته بسائر الناس:

أما منهاج أمير المؤمنين (ع) الذي سلكه في أهل بيته وقرابته فلم يكن بعيداً عن منهاجه مع نفسه إلاّ من حيث الدرجة، فقد كان مبنياً على أساس مساواتهم بالأمة في الحقوق والواجبات، بل إن الذي يتحملونه من مهام من أجل حماية الرسالة والمسيرة الاسلامية أكثر بكثير مما ينالون من حقوق...

فقد كان الإمام (ع) حريصاً على معاملة ذويه في مسألة الحقوق كما لو كانوا من عامة الناس، فلا يفضلهم بعطاء، ولا يميزهم بحق، فلقد سلك معهم أسلوب التدريب والاعداد للعمل بمنهاجه معهم، بل كان يبدو شديداً مع بعضهم من أجل أن ينتهج الخط الذي رسمه الإمام (ع) لمتعلقيه وأهل قرابته.

وهاك صوراً من منهاجه ذلك:

قال مسلم صاحب الحنا:

«لما فرغ علي (ع) من أهل الجمل أتى الكوفة، ودخل بيت المال، ثم قال: **يا مال غرّ غيري**، ثم قسمه بيننا، ثم جاءت ابنة للحسن أو للحسين (ع) فتناولت منه شيئاً، فسعى وراءها ففك يدها ونزعه منها، فقلنا: يا أمير المؤمنين إن لها فيه حقاً، قال (ع): **إذا أخذ أبوها حقه فليعطها ما شاء**»[٣٢].

وروى هارون بن سعيد قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي (ع): يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة؛ فوالله ما لي نفقة إلاّ أن أبيع دابتي!!

فقال الإمام (ع): **لا والله، ما أجد لك شيئاً إلاّ أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك**...[٣٣].

وقد جاءه أخوه عقيل ـ وكان ضريراً ـ يوماً يطلب صاعاً من القمح من

---

(٣٢) أنساب الأشراف ج ٢ ص ١٣٢.
(٣٣) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

بيت مال المسلمين ـ زيادة على حقه ـ وظل يكرر طلبه على علي (ع)، فما كان من الإمام أمير المؤمنين إلا وأحمى له حديدة على النار وأدناها منه، ففزع منها عقيل. ثم وعظه: «**يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى**. . .»[٣٤].

وعن أبي صادق عن علي (ع): أنه تـزوج ليلىٰ، فجعلت له حجلة، فهتكها، وقال:

حسب آل علي ما هم فيه[٣٥].

وعن الحسن بن صالح بن حي قال:

ـ بلغني أن علياً (ع) تزوج امرأة فنجَّدت ـ زيّنت ـ لـه بيتاً، فـأبى أن يدخله[٣٦].

وعن كلاب بن علي العامري قال:

زفت عمتي الى علي (ع) على حمار بأكاف تحتها قطيفة، وخلفها قفة معلقة[٣٧]!!

هكذا كان منهاج علي (ع) مع أهل بيته وذوي قرابته لا يفرط من أجلهم بحق من حقوق المسلمين أبداً، بل يعمل كل ما من شأنه على رفع مستواهم باتجاه مبادئه في الزهد، ونكران الذات في سبيل الله تعالى، ولصالح مجموع الأمة.

ولقد كان منهجه واضحاً كل الوضوح لا لبس فيه ولا غموض ولا يخضع لعاطفة أو مساومة أبداً « . . . **والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجر في الأغلال مصفداً أحب إلي من أن القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً**

---

(٣٤) بحار الأنوار ج ٤٠ باب ٩٨ ومناقب آل أبي طالب ج ١ في المسابقة بالزهد.

(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

حجلة: ستر يضرب للعروس في الليل.

(٣٦) البحار نفس الصفحة.

(٣٧) نفس المصدر ج ٤٠ باب ٩٨ ومناقب آل أبي طالب ج ١ في المسابقة بالزهد

أكاف = كساء يوضع على ظهر الدابة القفة = اناء من خوص النخل.

لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع الى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها. . .»[٣٨].

وهذا السبيل الذي اختاره الإمام (ع) إنما يمثل أحد مصاديق العدل الاجتماعي الشامل الذي حرص أمير المؤمنين (ع) على تجسيده واقعاً حياً في دنيا الناس.

(٣٨) نهج البلاغة رقم النص ٢٢٤.

سياسة رد الفعل

وبسبب ما ألفه رجالات قريش من اثرة وامتيازات لا حصر لها فقد كبر عليهم أن ينهج الإمام (ع) نهج التسوية في الحقوق ـ كما أمر الله سبحـانه ـ وغيره من مبادىء العدالة الاجتماعية التي تبناها بقوة وحرص حرصاً شديداً علىٰ تنفيذها في دنيا الناس.

فقد أنكر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله على الإمام (ع) سياسته تلك واعتبراها مخالفة للنهج الذي ألفه الناس.

فقال لهماالإمام (ع): **ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟**

قالا: إنك جعلت حقنا في القَسْم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلّا كرهاً[٣٩].

فقال الإمام (ع) لهما: **«لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً ألا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته، أم أخطأت بابه؟**

والله ما كانت لي في الخـلافة رغبـة، ولا في الولايـة اربة، ولكنكم دعوتموني اليها، وحملتموني عليها، فلما أفضت إليَّ نظرت الى كتاب الله، وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به، فاتبعته، وما استسنَّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، فاقتديته، فلم أحتج في ذلك الى رأيكما، ولا رأي غيركما ولا

---

(٣٩) علي بن أبي طالب ـ نظرة عصرية جديدة/ تأليف د. محمد أحمد خلف الله وعدد من الكتاب ص ٣٢.

وقع حكم جهلته فاستشيركما واخواني من المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما.

وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة ـ التسوية في العطاء ـ فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وليته هوىً مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ قد فرغ منه، فلم أحتج اليكما فيما قد فرغ الله من قسْمِه، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما في هذا عتبىٰ، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر... رحم الله رجلاً رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً بالحق على صاحبه...»[٤٠].

وهكذا تختلف المنطلقات والمفاهيم، ينطلق علي (ع) مما يأمر به الله تعالى ورسوله (ص) بينما تنطلق «المعارضة» مما توحي به مصالحها.

وشتان بين منطلق يرمي الى تحقيق متطلبات الرسالة ومصلحة مجموع الأمة، ومنطلق مادي لا يرى غير المصلحة الذاتية المحدوده!

موقف معاوية:

وما أن تناقلت الأنباء أمر استخلاف الإمام علي (ع) ونهوضه بأعباء قيادة الأمة إلّا وفزع معاوية بن أبي سفيان معلناً معارضته ورفضه.

وفي الأثناء ورد عليه كتاب من ابن العاص يطلعه على حقيقة الموقف في عاصمة رسول الله (ص):

«من عمرو بن العاص الى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، ما كنت صانعاً فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل ما تملكه كما تقشر عن العصا لحاها...»[٤١].

وها هو الإمام (ع) يكتب لمعاوية كتاباً يستقدمه فيه، بيد أنه لم يستجب

---

(٤٠) نهج البلاغة رقم النص ٢٠٥ تبويب د. صبحي الصالح ط ١ بيروت ١٩٦٧.
(٤١) الإمام علي وفضائله ص ١٧٥، دار مكتبة الحياة/ بيروت.

للإمام (ع) بل ولم يرد على كتابه[٤٢].

وبعد مضي ثلاثة شهور على مقتل عثمان، وقيام الإمام علي (ع) بالأمر يشهر معاوية سلاح المطالبة بدم عثمان، متخذاً منه ذريعة للخروج على إمام زمانه.

وقد بدأت معارضته بنشر ثوب عثمان الدامي في مسجد دمشق وشعيرات من لحيته، وقد جمد عليها الدم، وراح يستثير أهل الشام للنهوض من أجل عثمان والانتقام ممن قتله، ومن ثم أرسل رسولاً إلى الإمام (ع) حتى إذا وصل الرسول إلى المدينة المنورة جعل يسير في دروبها، وهو يحمل صحيفة مختومة مكتوباً عليها من «معاوية الى علي» وهو عنوان يثير الدهشة لدى الناس فهو خال من كل لياقة وكياسة، كما يشير الى أن مرسله لا يحمل الى زعيم المسلمين أي شعور بالاحترام والتقدير.

وفض الإمام (ع) صحيفة معاوية، فوجدها بيضاء لا حرف فيها فسأل رسول معاوية: **ما وراءك؟**

قال بعد أن استأمن الإمام (ع): إني تركت ورائي أقواماً يقولون لا نرضى إلّا بالقود.

قال الإمام (ع): **ممن؟**

قال: يقولون من خيط رقبة علي، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد البسوه منبر مسجد دمشق، وأصابع زوجته نائلة معلقة فيه.

فقال الإمام: **أمنّي يطلبون دم عثمان، اللهم إني أبرأ اليك من دم عثمان...**[٤٣].

ثم أمر الإمام (ع) رسول الشام أن يغادر بعد أن منحه الأمان.

---

(٤٢) الفصول المهمة/لابن الصباغ المالكي ص ٥٠ ويراجع نص كتاب الإمام (ع) في نهج البلاغة رقم ٧٥ تبويب د. صبحي الصالح «باب الكتب» ص ٤٦٤.

(٤٣) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٥١.

ومنذ ذلك التاريخ بادر الإمام (ع) بتجهيز جيشه لاخماد حركة البغاة التي قادها معاوية في الشام.

خلفيات المطالبة بدم عثمان:

ولنا أن نتساءل قبل أن نمضي في حديثنا قدماً، هل كانت الأطراف في كل من الشام والبصرة صادقة في ادعاء المطالبة بدم الخليفة الثالث؟

وللإجابة على هذا السؤال الذي يفرض نفسه على الكاتب والقارىء معاً في هذه المسألة: لا بد من الرجوع الى مواقف تلك الأطراف جميعاً أيام الثورة التي تمخض عنها مقتل عثمان.

فقد كان معاوية يعلم بتفاصيل ما يجري للخليفة في المدينة، وقد استغاث به الخليفة أيام الحصار فلم يغثه بشيء حتى أرسل معاوية جيشاً إلى المدينة بقيادة يزيد بن أسد القسري وقال له: «إذا أتيت ذا خُشُب ـ منطقة خارج المدينة ـ فأقم بها ولا تتجاوزها، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فانني أنا الشاهد وأنت الغائب»[٤٤].

فأقام القسري بجيشه في المكان الذي حدده معاوية، فلما قتل عثمان استدعى معاوية الجيش وقائده الى الشام.

هذه بعض مواقف معاوية؛ من عثمان بن عفان أيام حكمه ومحنته ومن هنا فان شعار المطالبة بدم الخليفة القتيل من قبَله كان مجرد وسيلة لاستدرار العطف وتجميع الأنصار. فدوافعه الحقيقية إنما تكمن في نقمته على سياسة علي (ع) الإصلاحية والتي كانت تمسّ مصالح المترفين علىٰ حساب المجتمع بشكل أو بآخر.

وقد أفصح الإمام (ع) عن موقفه ازاء مقتل الخليفة عثمان بقوله: «**اللهم إني ابرأ اليك من دم عثمان، ما نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا**

---

(٤٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ١٥٤ «شرح كتاب الإمام (ع)» الى معاوية رقم ٣٧.

أراد أمراً بلغه»[٤٥].

ويتضح موقف الإمام (ع) كذلك من كتاب له الى معاوية حيث جاء فيه:

«وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم إليَّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخدعة...»[٤٦].

موقف الإمام علي (ع) أيام الأزمة:

ومن الضروري جداً أن نشير ولو بشكل مقتضب الى موقف الإمام (ع) أيام الأزمة التي تعرضت لها الخلافة في عهد عثمان:

فحين هاج الناس في عهد عثمان حاول الإمام (ع) أن يقنع الخليفة بضرورة الاصلاح، وجرت بينهما احاديث بهذا الشأن، ومما نصح به الإمام (ع) الخليفة قوله:

«... وإني أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكوننَّ لمروان سيِّقة يسوقك حيث يشاء بعد جلال السن وتقضي العمر...»[٤٧].

فقال له عثمان: «كلّم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج اليهم من مظالمهم»[٤٨].

فقال الإمام (ع): **«ما كان بالمدينة، فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»**[٤٩].

قال الخليفة: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام.

---

(٤٥) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٥١.

(٤٦) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٤٧) نهج البلاغة /تبويب د. صبحي الصالح ص ٢٣٥ رقم ١٦٤.

(٤٨) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤٩) المصدر السابق أيضاً.

فخرج الإمام الى الناس، وأخبرهم بما وعد به الخليفة، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً وأشهد عليه قوماً من وجوه المهاجرين والأنصار[٥٠].

وحيث لم يتيسر لعثمان أن يبر بوعده للناس تأزم الموقف مجدداً. . .

وقد زاد في حراجة الموقف عثور المصريين الثوار على بريد من عثمان الى عامله بمصر يأمره بمعاقبة قادة الثائرين بالقتل[٥١] ومعاقبة كل متظلم بالسجن ونحو ذلك. . .

فحوصر الخليفة من قبل المهاجمين والطامعين في الخلافة معاً حتى قطع عنه الماء ـ كما قدمنا ـ فاستنجد بالإمام علي (ع) فأسرع لإنقاذه وأرغم طلحة وسواه، وأدخل إليه الماء[٥٢].

وبعد أن طال حصار الخليفة ـ أربعين يوماً ـ طلب بعض الناس من علي (ع) أن يصلي بهم، فأبىٰ.

فتولى طلحة إمامة الصلاة. . . !

هذه بعض مواقف الإمام (ع) من أجل عثمان. . . وبالرغم من تلك المواقف النبيلة التي وقفها الإمام (ع) من أجل الخليفة فإنه لا يعني بحال أن الإمام كان راضياً عن سياسة الخليفة في المال والإدارة[٥٣].

بيد أنَ الإمام (ع) كان يرى في قتل عثمان خطراً يتهدد الأمة بالنظر لما يعقبه من تمزق في الصف الإسلامي، وتجرؤ من قبل المتربصين بالإسلام والمسلمين.

الأمر الذي وقع فعلاً بعد مقتل الخليفة المذكور مباشرة.

---

(٥٠) الطبري وابن الأثير وغيرهما «نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين عائشة للسيد العسكري ص ٩٨».

(٥١) الطبري وأنساب الأشراف والمعارف لابن قتيبة وسواهم «نقلاً عن المصدر السابق ص ٩٩».

(٥٢) تاريخ الطبري وأنساب الأشراف للبلاذري «نقلاً عن المصدر السابق ص ١١٣».

(٥٣) شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٥ ـ ٦.

حرب البصرة

على الرغم من أن طلحة والزبير كانا من أشد الناقمين على سياسة عثمان ومع أنهما سبقا الناس في البيعة للإمام علي (ع) بعد قتل عثمان، فإن الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام (ع) في الحياة الإسلامية لم تجد هوى في نفسيهما فبدآ في العمل للخروج على الإمام (ع) واثارة المسلمين علبه، فكانت حصيلة ذلك فتنة كبدت الأمة خسارة فادحة، حيث اقنعا عائشة بنت أبي بكر بالخروج معهما الىٰ البصرة لقيادة عملية المعارضة ضد علي (ع).

وقد بذل الإمام (ع) جهداً كبيراً لتحاشي هذه الفتنة فلم يأل جهداً في بذل النصح لهم وتحميلهم مغبة ما سيكون إذا نشبت الحرب، وهذه نصيحته (ع) لهما:

(أما بعد يا طلحة، ويا زبير، فقد علمتما إني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتما أول من بادر الى بيعتي، ولم تدخلا في هذا الأمر، بسلطان غالب، ولا لعرض حاضر، وأنت يا زبير، ففارس قريش، وأنت يا طلحة فشيخ المهاجرين، ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه بعد اقراركما، ألا وهؤلاء بنو عثمان هم أولياؤه المطالبون بدمه، وانتما رجلان من المهاجرين، وقد أخرجتما أمكما من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقر فيه، والله حسبكما. . .)[٥٤].

وفي البصرة استمر الإمام (ع) يبذل نصحه من أجل حقن الدماء، فأرسل للناكثين رسولاً يدعوهم للصلح ورأب الصدع. . .

---

(٥٤) الفصول المهمة ص ٥٥ لابن الصباغ المالكي.

كما التقى بالزبير وذكره بأمور جرت لهما في عهد رسول الله (ص) منها قوله: **ما حملك على ما صنعت يا زبير؟**

قال: حملني على ذلك الطلب بدم عثمان!

فقال الإمام (ع): **إن أنصفت نفسك، أنت وأصحابك قتلتموه، ولكني أنشدك الله يا زبير أما تذكر، قال لك رسول الله (ص): يا زبير أتحب علياً، فقلت، وما يمنعني من حبه وهو ابن خالي.**

فقال لك: أما أنك تخرج عليه وأنت له ظالم!

فقال الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك.

فقال الإمام: «**أنشدك الله أتذكر يوم جاء رسول الله (ص) من عند بني عوف، وأنت معه، وهو آخذ بيدك فاستقبلته، فسلمتَ عليه، فضحك في وجهي، وضحكت إليه. فقلت أنت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال (ص) لك: مهلاً يا زبير ليس بعلي زهو، ولتخرجن عليه يوماً وأنت ظالم له؟**

قال الزبير: اللهم بلى، ولكني قد نسيتُ ذلك، وبعد أن ذكرتنيه لأنصرفنَّ»[55].

وقد عزم الزبير على اعتزال الناس، غير أن ابنه عبد الله وصفه بالجبن إن هو أقدم على ذلك...

وهكذا تفجّر الموقف واندلع القتال بين المعسكرين...

الموقف الإنساني:

غير أن الإمام ظل ملتزماً بالصبر والأناة وبما امتاز به من الروح الإنسانية الرفيعة، فها هو يخاطب جيشه ـ بعد اندلاع القتال، وبعد أن ذهبت كل محاولاته لاصلاح الموقف سدىً ـ ملزماً أصحابه بأرفع الأخلاق التي يريد الله سبحانه من المسلم الالتزام بها في ساحة الحرب «**أيها الناس أنشدكم الله أن**

---

(55) الفصول المهمة في معرفة الأئمة /ابن الصباغ المالكي ص ٦٣ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٧٧، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ١٦٧.

لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سبياً، ولا تـأخذوا سلاحاً، ولا متاعاً»[٥٦]. موضحاً بذلك أحكام شريعة الله تعالى في البغاة.

ثم دعا ربه الأعلى سبحانه مستجيراً من الفتنة التي فجرها الناكثون معلناً براءته منها أمام الله الكبير المتعال.

فبعد أن رفع يديه الى السماء قال: **«اللهم ان طلحة والزبير أعطياني صفقة أيديهما طائعين، ثم نصبا لي الحرب ظاهرين، اللهم: فأكفنيهما بما شئت وكيف شئت. . . »**[٥٧].

وحين أسفرت المعركـة عن انتصار سـاحق لمعسكر الإمـام (ع) علىٰ خصومه أعلن الإمام العفو العام عن جميع المشتركين في حربه:

«ألا لا يجهز على جريح، ولا يتبع مول، ولا يطعن في وجه مدبر، ومن القى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ولا يستحلن فرج ولا مال، وانظروا ما حضر به الحرب من آنية فاقبضوه، وما كان سوى ذلك، فهو لورثته، ولا يطلبن عبد خارج من المعسكر، وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم، وليس لكم أم ولد ـ الأمة استولدت ذكراً أو انثى **ـ والمواريث على فريضة الله، وأي امرأة قتل زوجها، فلتعتد أربعة أشهر وعشراً»**.

فقال بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين تحل لنـا دماؤهم ولا تحـل لنا نساؤهم؟

فقال (ع): **كذلك السيرة في أهل القبلة**[٥٨].

بيد أن بعضاً من جيشه كانوا يرغبون في الحصول على مغانم أكبر مما حدده الإمام (ع).

فقام له رجل قائلاً: يا أمير المؤمنين، والله ما قسمت بالسوية ولا عدلت في الرعية!

---

(٥٦) الفصول المهمة/ للمالكي ص ٦٢ وتذكرة سبط ابن الجوزي.

(٥٧) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٦٢، وتذكرة سبط ابن الجوزي.

(٥٨) أحاديث أم المؤمنين عائشة ق ١ ص ١٨١ نقلاً عن اليعقوبي وكنز العمال.

قال الإمام (ع): ولم؟ ويحك!!

قال: لأنك قسمت ما في المعسكر وتركت الأموال والنساء والذرية!!

فقال له الإمام (ع) موضحاً فلسفة ذلك الموقف الكريم الذي التزمه:

يا أخا بكر: إنك امرؤ ضعيف الرأي أو ما علمت أنا لا نأخذ الصغير بذنب الكبير، وأن الأموال كانت لهم قبل الفرقة وتزوجوا على رشد، وولدوا على الفطرة، وانما لكم ما حوى عسكرهم، وما كان في دورهم، فهو ميراث لذريتهم، فإن عدا علينا أحد منهم أخذناه بذنبه، وان كفّ لم نحمل عليه ذنب غيره.

يا أخا بكر: لقد حكمت فيهم بحكم رسول الله (ص) في أهل مكة: قسَّم ما حوى العسكر، ولم يعرض لما سوى ذلك وانما اتبعت أثره...

يا أخا بكر: أما علمت أن دار الحرب يحلّ ما فيها؟

وأن دار الهجرة يحرم ما فيها إلا بحق...»[٥٩].

هذه بعض مصاديق الموقف الإنساني الفريد الموافق لأمر الله والمطابق لشريعته الغراء الذي التزم به الإمام (ع) في معاملة المنهزمين من خصومه... إنه موقف لا ترى فيه للعاطفة والاندفاع والتشفي أثراً... إنه موقف جسد فيه الإمام حكم الله تعالى.

وهل غير علي (ع) جدير بتجسيد حكم شريعة الله فيما شجر بين الناس بعد رسول الله (ص)؟!

وواصل الإمام (ع) خطواته الانسانية إزاء الناكثين بعد ذلك حيث أعاد عائشة الىٰ المدينة المنورة معززة مكرمة رغم موقفها المشين.

وهكذا حسم الموقف لصالح الإمام (ع) في فتنة البصرة فأبدى الإمام (ع) خلاله وبعده أنبل المشاعر وأصدقها نحو المغرر بهم محاولاً بذلك رأب الصدع وجمع الشمل واعزاز الأمة...

---

(٥٩) نفس المصدر ص ١٨٢ نقلاً عن كنز العمال ومنتخب الكنز.

حرب صفين

بعد أن تم لعلي (ع) النصر عاد بجيشه الى الكوفة، وبعد أن عزز الجيش عزم على التوجه إلى الشام لتصفية المعارضة الباغية التي يقودها معاوية بن أبي سفيان هناك. . .

وسار الإمام (ع) على رأس جيشه، غير أن أنباء مسير الإمام (ع) نحو الشام قد بلغت القاسطين هناك، فقرروا ملاقاة الزحف الإسلامي فتلاقى الجيشان عند نهر الفرات. . .

وبدأ الإمام (ع) ببذل مساعيه لاصلاح الموقف بالوسائل السلمية، فأرسل وفداً ثلاثياً الى معاوية، يدعوه الى تقوى الله والحفاظ على وحدة الصف والدخول في اجماع الأمة «. . . **اذهبوا الى هذا الرجل ـ معاوية ـ وادعوه الى الله تعالى، والى الطاعة والجماعة، لعلّ الله تعالى أن يهديه، ويلتئم شمل هذه الأمة**»[٦٠].

والتقى الوفد بقائد البغاة، وأبلغوه بنوايا الإمام (ع) ووضعوه أمام الله تعالى وحذروه مغبة ما يقدم عليه، غير أن معاوية أبدى اصراراً، وقد ختم رده على الوفد «انصرفوا عني فليس عندي إلّا السيف»[٦١].

على أن الموقف الأموي ذاك لم يصرف الإمام (ع) عن التسلح بالصبر والاناة ولم يثر فيه روح التعجيل بالمواجهة الصارمة حقناً للدماء، وحفاظاً على نفوس الأمة. . .

بيد أن الموقف الإنساني الذي التزمه الإمام (ع) لم يزد القوى الباغية إلّا

(٦٠ و ٦١) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٧٠ وص ٧١.

إصراراً، فعملوا من جانبهم على الحيلولة دون حصول جيش الإمام (ع) على الماء، حيث سبق أن تحرك فيلق لهم واتخذ مواقعه عند ماء الفرات ليمنع جند الإمام من الماء...

وبالنظر لأهمية الماء في الاستراتيجية العسكرية ولعدم توفر مصدر آخر لجيش الإمام غير الفرات؛ فإن الإمام (ع) قد التزم الأناة أيضاً في معالجة الموقف.

فأرسل رسولاً الى معاوية ليبلغه: «**ان الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك عنه**».

فرد عليهم معاوية بقوله: «لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأ»[٦٢]!!.

الأمر الذي اضطر الإمام (ع) الى استعمال العنف في الحصول على الماء لجيشه، حيث لا بديل للعنف...

وهكذا حرك الإمام (ع) فرقة من جيشه لانهاء الحصار المضروب عليهم، فانهزم فيلق معاوية شر هزيمة...

وبعد أن صار الماء في نطاق نفوذ جيش الإمام (ع) أذن للباغين بالتزود منه متى شاءوا، مجسداً بذلك بنداً من أخلاق الإسلام العظيمة في هذا المضمار.

فأعظم بعلي من محارب نبيل، وأكرم به من صاحب قلب كبير...

وحيث أن همَّ الإمام (ع) أن يحقن دماء المسلمين ويصونهم من التمزق، ويدرأ التصدع عن صفهم؛ فقد طلب من معاوية أن ينازله إلى ميدان القتال فيتقاتلان دون الناس لكي تكون إمامة الأمة لمن يغلب: «يا معاوية علامَ يقتتل الناس؟ ابرز إليّ ودعْ الناس، فيكون الأمر لمن غلب»[٦٣].

إلا أن معاوية قد رفض خوفاً من بطش الإمام (ع)... وبالرغم من أن

---

(٦٢) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٣ لابن أبي الحديد/ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط ١٩٥٩ م دار احياء الكتب العربية.

(٦٣) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، وتذكرة الخواص لسبط بن الجوزي، بلفظ متقارب.

الجيش الأموي قد بدأ القتال من جانبه، فإن الإمام (ع) قد التزم بضبط النفس كذلك وحاول أن يحصر القتال في حدود المبارزة المحدودة[٦٤].

ولما لم تلق محاولات الإمام (ع) لرأب الصدع ـ الذي خلفه معاوية في صف الأمة ـ استجابة، تفجر الموقف بحرب واسعة النطاق استمرت اسبوعين دون هوادة.

وقد لاحت تباشير النصر لصالح معسكر الإمام (ع) وأوشكت القوى الباغية على الانهزام، فدبروا «خدعة المصاحف» فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح والسيوف... مما نجم عن تلك الخطة الماكرة تغير جوهري في الموقف العام...

ولقد كان لرفع المصاحف من قبل معسكر معاوية صدىً عميق في معسكر الإمام (ع) إذ سرعان ما سارت كثرة كاثرة من جيشه مطالبة بايقاف القتال... فكثر اللغط بين الصفوف وآثر الآلاف ترك الحرب...

ومع أن الإمام تصدى لكشف خلفيات رفع المصاحف واستعمل كل وسائله الاقناعية في البرهنة على كونها خدعة يراد بها عرقلة تحقيق النصر الذي بات وشيكاً لصالح جيش الإمام (ع). إلا أن المطالبين بإيقاف القتال لم يستجيبوا لنداءاته المتكررة في هذا المضمار، ولعل بعضهم استعمل لغة التهديد للإمام (ع)...[٦٥].

واضطروه أن يبعث الأشعث بن قيس الى معاوية للتعرف على ما يريد من وراء رفعه للمصاحف، فعاد يحمل رغبة معاوية في التحكيم... ثم تلى ذلك الفصل الثاني من المأساة، فاختارت الغوغاء أبا موسى الأشعري لتمثيل معسكر الإمام (ع) بينما اختار معاوية ابن العاص. على أن الإمام (ع) قد رفض فكرة تمثيل الأشعري لمعسكره باعتبار أن الأشعري كان معتزلاً للإمام (ع) ولم يكن يرى في الإمام أهلاً لتولي الخلافة بعد عثمان[٦٦] ـ وهو

(٦٤) المصدر السابق نفسه.
(٦٥) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ١٠٣.
(٦٦) راجع الفصول المهمة ص ٧٨ وتذكرة الخواص ص ١٠٣.

وآخرون ممن اعتزلوا الإمام (ع) ـ وكان يخذل الناس عن نصرة الإمام، مما حمل الإمام على عزله من ولاية الكوفة[٦٧]...

وقد رجح الإمام (ع) أن يكون الممثل لمعسكره في التحكيم عبد الله ابن عباس، غير أن الغوغاء أصروا على اختيار أبي موسى الأشعري بالرغم من تأكيد الإمام على ضعفه ووهن رأيه اضافة إلى مرتكزاته الفكرية وموقفه من حكومة الإمام (ع).

وها هو الإمام (ع) يخاطب المخدوعين بقوله: «**قد عصيتموني في أول الأمر** ـ يشير الى قبول التحكيم وإيقاف القتال ـ **فلا تعصوني الآن، لا أرى أن تولوا أبا موسى الحكومة فانه ضعيف عن عمرو ومكائده**»[٦٨].

إلا أنهم أصروا على اختيار الأشعري...

ومن هنا فإن الباحث البصير لا يمكن أن يركن الى الاعتقاد بأن تلك الأمور قد جرت بشكل عفوي أبداً... فإن سير الأحداث لا يدل على ذلك... اذ أن رفع المصاحف كان قد جرى بتوقيت وتنسيق بين معاوية وحركة موالية له في جيش الإمام (ع) لا بد أن يكون له اتصال معها...

فما أن ارتفعت المصاحف حتى استجاب أولئك لايقاف القتال مستفيدين من سأم الناس من القتال، فوسعوا قاعدتهم في صفوف معسكر الإمام (ع) وفرضوا عليه التحكيم، وممثل معسكره في التحكيم فيما بعد...

وهكذا فاني لا أعتقد بحال أن لا تكون حركة التمرد في جيش الإمام (ع) بذلك الشكل الذي ذكره المؤرخون لا تعتمد على تخطيط أموي مسبق أبداً...

وقد جاءت نتائج التحكيم ـ كما توقع الإمام (ع) ـ لصالح البغاة في الشام حيث بدأ الأمر يستتب لمعاوية شيئاً فشيئاً.

---

(٦٧) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٧٤.

(٦٨) نفس المصدر ص ٧٩.

حرب النهروان

بعد واقعة التحكيم عاد الإمام (ع) بجيشه الى الكوفة... ففوجىء بخروج طائفة من جيشه يبلغ تعدادها أربعة آلاف، معلنة تمردها على الإمام (ع) فلم تدخل معه الكوفة... وإنما سلكت سبيلها الىٰ حروراء، فاتخذت مواقعها هناك...

ومن الجدير بالذكر أن الفئة التي خرجت على الإمام (ع) كان قوامها من الفئات التي أرغمته على التحكيم في حرب صفين[69].

فعند تمرد تلك الفئة وخروجها من جيش الإمام (ع) أعلنت مبررات خروجها تحت شعار «لا حكم إلا لله، لا نرضى بأن تحكم الرجال في دين الله، قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا معنا في حكمنا عليهم، وقد كانت منا خطيئة وزلة حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا الى ربنا، ورجعنا عن ذلك، فارجع ـ يقصدون الإمام (ع) ـ كما رجعنا، وإلاّ فنحن منك براء»[70].

بيد أن الإمام (ع) أوضح لهم حينئذٍ أن الخلق الإسلامي يقتضي الوفاء بالعهد ـ الهدنة لمدة عام ـ الذي أبرم بين المعسكرين قائلاً: **«ويحكم، بعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟»**.

أو ليس الله يقول ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون﴾[71].

---

(٦٩) يوليوس فلهوزن /الخوارج والشيعة ترجمة عبد الرحمن بدوي ط ٢، ١٩٧٦ الكويت ص ٣٢.

(٧٠) وقعة صفين/ نصر بن مزاحم ط ٢، ١٣٨٢ هـ ص ٥١٧.

(٧١) النحل/ ٩١ راجع وقعة صفين: نصر بن مزاحم ص ٥١٧.

إلا أن المعارضة المارقة لم تصغ إلى توجيهات الإمام (ع) واستمروا في غيهم، وتعاظم خطرهم بعد انضمام أعداد جديدة لمعسكرهم، وراحوا يعلنون القول بشرك المنتمين الى معسكر الإمام (ع) - بالإضافة للإمام - ورأوا استباحة دمائهم. . .

ولقد كان الإمام (ع) عازماً على عدم التعرض لهم ابتداءً ليمنحهم فرصة التكفير جدياً بما أقدموا عليه، عسى أن يعودوا إلى الرأي السديد، ولكي يتفرغ كلياً لاستئناف القتال مع البغاة في الشام، بعد فشل التحكيم بعد اللقاء الثاني بين الحكمين، حيث تمت خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري التي أدت الى عدم تحقيق التحكيم. . .

غير أنهم بدأوا يشكلون خطراً حقيقياً على دولة الإمام (ع) من الداخل. . . وبدأ خطرهم يتعاظم فقتلوا بعض الأبرياء، وهددوا الآمنين؛ فقتلوا الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وبقروا بطن زوجه وهي حامل مقرب دون مبرر. . . وقتلوا نسوة من طي.

فلما بلغ أمرهم أمير المؤمنين (ع) أرسل اليهم الحارث بن مرة العبدي، ليتعرف على حقيقة الموقف، غير أنهم قتلوه كذلك[٧٢].

فلما علم الإمام (ع) بالأمر كرَّ راجعاً من الأنبار - حيث كان قد اتخذها مركزاً لتجميع قواته المتجهة نحو الشام - وعندما اقتربت قواته من المارقين بذل مساعيه من أجل اصلاح الموقف دون اراقة للدماء، فبعث اليهم أن يرسلوا اليه قتلة المؤمنين: عبد الله بن خباب والحارث العبدي وغيرهما وهو يكف عنهم، ولكنهم أجابوه: انهم كلهم قتلوه. . .

وبعث الإمام (ع) اليهم الصحابي الجليل قيس بن سعد فوعظهم، وحذرهم مغبة موقفهم الأحمق. . . وأهاب بهم للرجوع عما يرون من جواز سفك دماء المسلمين وتكفيرهم دون وجه حق. . .[٧٣].

---

(٧٢) الفصول المهمة /للمالكي ص ٩١.

(٧٣) المصدر المتقدم ص ٩٢.

وتـابع الإمـام (ع) موقفـه الإنساني الـرشيد، فـأرسل اليهم أبـا أيوب الأنصاري (رض) وبعد أن وعظهم، رفع رايـة ونادى: من جـاء هذه الـراية ـ ممن لم يقتل ـ فهو آمن، ومن انصرف الى الكوفة أو المدائن فهو آمن لا حاجة لنا به بعد أن نصيب قتلة اخواننا[٧٤].

وقد نجحت المحاولة الى حد كبير حيث تفرقوا شيئاً بعد شيءٍ حتى انخفض عددهم الى أربعة آلاف اذ كان آخر عدد لهم اثني عشر الفاً.

وقد بدأ الباقون منهم بالهجوم من جانبهم على جيش الإمام (ع) فأمر أصحابه بالكف عنهم حتى يبدأوا بالقتال. فلما بدأ الخوارج القتال، طوقتهم قوات الإمام (ع) وتحقق الظفر لراية الحق.

وهكذا قضى الإمام (ع) في حـرب النهروان على حـركة الـذين سبق لرسول الله (ص) أن سماهم بالمارقين حين أشار اليهم في حـديث رواه أبو سعيد الخدري قال: «**سمعت رسول الله (ص) يقول يخرج في هذه الأمة قوم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية**»[٧٥].

---

(٧٤) أعيان الشيعة ج ٣، ص ٢٠ (عن الطبري) والفصول المهمة ص ٩٣.

(٧٥) أخـرجه البخـاري في صحيحه والفصـول المهمة ص ٩٤ والبـلاذري في أنسـاب الأشراف ج ٢، ص ٣٧٦ بلفظ آخر، وخصائص النسائي ص ٧١.

في ذمة الله

أنهى الإمام (ع) مقاومة المارقين، فشمر عن ساعديه لاستئناف قتال القاسطين في الشام بعد أن فشل التحكيم عند اللقاء الثاني بين الحكمين.

وقد أمر الإمام (ع) بتعبئة جيشه، وأعلن حالة الحرب لتصفية قوى القاسطين البغاة التي يقودها معاوية، وجاء اعلان الحرب من خلال خطبة لأمير المؤمنين (ع) خطبها في الكوفة ـ عاصمة الدولة الإسلامية ـ فضمنها دعوته للجهاد.

«... الجهاد، الجهاد عباد الله! ألا وإني معسكر في يومي هذا... فمن أراد الرواح الى الله، فليخرج!»[٧٦].

ثم بادر الإمام (ع) الى عقد الوية الحرب، فعقد للحسين راية ولأبي أيوب الأنصاري أخرى، ولقيس بن سعد ثالثة.

وبينما كان أمير المؤمنين يواصل تعبئة قواته من أجل أن ينهي حركة البغي التي يقودها معاوية في بلاد الشام كان يجري في الخفاء تخطيط لئيم من أجل اغتيال الإمام (ع).

فقد كان جماعة من الخصوم قد عقدوا اجتماعاً في مكة المكرمة، وتداولوا في أمر حركتهم، التي انتهت إلى أوخم العواقب.

فخرجوا بقرارات كان أخطرها قرار اغتيال أمير المؤمنين (ع) وقد أوكل أمر تنفيذه للمجرم الأثيم (عبد الرحمن بن ملجم المرادي)، وفي ساعة من أحرج الساعات التي يمر بها الإسلام والمسيرة الإسلامية، وبينما كانت الأمة

---

(٧٦) نهج البلاغة رقم الخطبة ١٨٢.

تتطلع الى النصر على عناصر البغي والفرقة التي يقودها معاوية بن أبي سفيان، امتدت يد الأثيم المرادي الى علي (ع) فضرب الإمام (ع) بسيفه وهو في سجوده عند صلاة الفجر، وفي مسجد الكوفة الشريف، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ٤٠ هجرية.

لقد اغتيل الإمام (ع) وهو في أفضل ساعة حيث يقوم بين يدي الله في صلاة خاشعة.

وفي أشرف الأيام إذ كان يؤدي صوم شهر رمضان.

ثم هو (ع) في أعظم تكليف اسلامي حيث كان في طريقه لخوض غمار حرب جهادية، كما كان في بقعة من أشرف بقاع الله وأطهرها «مسجد الكوفة».

فطوبى لعلي وحسن مآب.

لكن جريمة قتل علي (ع) تبقى أشرس جريمة وأكثرها فظاعة ووحشية، لأنها جريمة لم تستهدف رجلاً كباقي الرجال، إنما استهدفت القيادة الإسلامية الراشدة بعد رسول الله (ص).

واستهدفت كذلك اغتيال رسالة، وتاريخ، وحضارة، وأمة كلها تتمثل في شخص علي أمير المؤمنين (ع).

وبهذا خسرت الأمة الإسلامية مسيرة وحضارة، وأروع فرصة وأطهرها في حياتها بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

ولقد بقي الإمام (ع) يعاني من علته ثلاثة أيام، عهد خلالها بالإمامة الى ولده الحسن السبط (ع) ليمارس بعده مسؤولياته في قيادة الأمة الفكرية والاجتماعية.

وكان (ع) طوال الأيام الثلاثة ـ كما كان طول حياته ـ لهجاً بذكر الله، والثناء عليه والرضا بقضائه، والتسليم لأمره، كما كان يصدر الوصية تلو الوصية، والتوجيه الحكيم إثر التوجيه، مرشداً للخير، دالاً على المعروف، محدداً سبل الهدى، مبيناً طريق النجاة، داعياً لاقامة حدود الله تعالى وحفظها، محذراً من الهوى والنكوص عن حمل الرسالة الإلهية.

وهذه واحدة من وصاياه بهـذا الشأن ـ مخـاطباً بهـا الحسن والحسين سبطي رسول الله (ص) وأهل بيته وأجيال الأمة:

«أوصيكما بتقوى الله، وألّا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تـأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا بالحقِّ، واعملا للأجر وكونـا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

أوصيكما، وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى الله، ونـظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: «صلاحُ ذات البين أفضلُ من عامَّة الصلاة والصيام».

الله الله في الأيتام، فلا تُغبُّوا أفواهَهُمْ، ولا يضيعوا بحضرتكم.

الله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم. ما زال يوصي بهم، حتى ظننّا أنه سيورثهم.

الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم.

الله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم.

الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا.

الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألستكم في سبيل الله.

وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجابُ لكم.

ثم قال:

يا بني عبد المطلب، لا الفيَّنكم تخوضـون دماءَ المسلمين خـوضاً، تقولون: «قتل أمير المؤمنين» ألا لا تَقْتُلُنَّ بي إلا قاتلي.

أنظروا إذا أنامتُّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربةً بضربة، ولا تمثلوا بالرجل، فإني سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: «إياكم والمثلةَ ولو بالكلب العقور»[77].

---

(٧٧) نهج البلاغة /ترتيب د. صبحي الصالح، ص ٤٢١ رقم ٤٧.

وهكذا كانت النهاية المؤلمة لهذا الرجل العظيم. . .

فلقد كانت خسارة الرسالة والأمة بفقده من أفدح الخسائر التي أصيبت بها الأمة بعد رسول الله (ص).

فبموت علي (ع) فقدت الأمة:

بطولة غدت انشودة للزمان. . .

وشجاعة ما حلم التاريخ بمثلها. . .

وحكمة لا يعلم بعدها إلا الله. . .

وطهراً ما اكتسى به غير الأنبياء. . .

وزهداً في الدنيا ما بلغه إلّا المقربون. .

وبلاغة كأنما هي رجع صدىً لكتاب الله.

وفقهاً وعلماً وتضلعاً بأحكام الرسالة رشحته لأن يكون باب مدينة علم الرسول (ص) ومرجعاً للأمة الإسلامية في جميع شؤونها.

فسلام على أمير المؤمنين علي يوم ولد ويوم قضى شهيداً في محرابه، ويوم يبعث حياً.

والحمد لله رب العالمين



الجزء الثالث

توطئة

كنا قد تناولنا في الجزء الأول من دراستنا لحياة أمير المؤمنين على بن أبي طالب (ع) دور رسول الله (ص) في اعداد شخصية الامام علي (ع) والاشراف المباشر على تشكيل عناصرها، منذ طفولته.. حتى صارت شخصية الامام (ع) صورة صادقة تعبر عن الرسول (ص) فكراً وعقيدة وسلوكاً فيما عدا الرسالة ومستلزماتها.

ولقد وصف الامام (ع) طبيعة خضوعه لذلك اللون من الاعداد الرسالي وصفاً دقيقاً بقوله: «**وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل.**

ولقد قرن الله به - صلى الله عليه وآله - من لدن ان كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم: ليله ونهاره.

ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي، وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه - صلى الله عليه وآله -.

فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟

فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، انك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، الا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير وانك لعلى خير . . .»[1].

فهذا النص الكريم اضافة الى ما حفظه لنا التاريخ من سيرة الامام (ع) يجسد لنا بعمق وقوة المدى الذي كان الامام (ع) قد حظي به في مضمار الاعداد الرسالي المخطط الذي خصه رسول الله (ص) به . . . تهيئة له للنهوض بأعباء المرجعية الفكرية والسياسية في الامة بعد رحيل قائده الرسول (ص).

وقد بدأ ذلك الاعداد الرسالي من لدن رسول الله (ص) لعلي (ع) منذ نعومة أظفاره فهو ربيبه الذي فتح عينيه في حجره، وهيأ له من فرص التفاعل معه وسلوك نهجه في الحياة ما لم يتوفر لأحد سواه.

وبالاضافة الى ما كان قد خص به الامام (ع) من لدن الرسول (ص) أيام الطفولة والصبا من رعاية وتبنٍّ وتربية، الأمر الذي ألمحنا اليه في الحلقة الاولى من هذه الدراسة فان الاعداد الرسالي للامام (ع) منذ الدعوة المباركة، وحتى آخر ساعة من حياة رسول الله (ص) قد اتسع مدارا وازداد شمولاً وأصبح أكثر تركيزاً.

والشواهد من حياة رسول الله (ص) متظافرة في هذا المضمار: فضلاً عن حرص الامام (ع) على الاقتداء به بأقصى درجات الاقتداء وأصدقها وأكثرها أمانة، فان رسول الله (ص) كان يخصه بفكر الرسالة وحقائقها ومتطلباتها، ويمده بالمزيد من الثقافة الالهية الخاصة.

وكان (ص) يختلي بالامام (ع) الساعات الكثيرة آناء الليل والنهار ليعمق وعيه لمفاهيم الرسالة ومشاكل المهمة التغييرية التي بدأها رسول الله في الواقع الانساني، وأساليب العمل من أجل اكمال ما بدأه الرسول (ص):

روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن هند الجملي عن علي (ع) قال:

---

(١) نهج البلاغة ـ تبويب صبحي الصالح خطبة رقم ١٩٢ «القاصعة».

«كنت اذا سألت رسول الله (ص) أعطيت، واذا سكت ابتدأني»[٢].

وعن ابن عباس عن علي (ع) قال: **«كان لي من النبي (ص) مدخلان: مدخل بالليل، ومدخل بالنهار...»**.

وعن ابي سعيد الخدري قال: «كانت لعلي من رسول الله (ص) دخلة لم تكن لأحد من الناس».

وعن عبد الله بن يحيى عن علي (ع) قال: **«كنت أدخل على نبي الله (ص) كل ليلة، فان كان يصلي سبح، فدخلت، وان لم يكن يصلي اذن لي فدخلت»**[٣].

وعن ام سلمة قالت: «والذي تحلف به أم سلمة إن أقرب الناس عهداً برسول الله (ص) علي (ع)... لما كان غدوة قبض رسول الله (ص) فأرسل اليه رسول الله (ص) ـ قالت ـ: «وأظنه بعثه في حاجة» فجعل يقول: جاء علي؟ ـ ثلاث مرات ـ فجاء قبل طلوع الفجر فلما أن جاء عرفنا أن له اليه حاجة، فخرجنا من البيت وكنا عند رسول الله يومئذ في بيت عائشة، وكنت في آخر من خرج من البيت، ثم جلست من وراء الباب، فكنت أدناهم الى الباب، فاكب عليه علي (ع)، فكان آخر الناس به عهداً، فجعل يساره ويناجيه»[٤].

ولقد كانت حصيلة ذلك الاعداد الرسالي الخاص من رسول الله (ص) لعلي (ع) أن رشحت الرسالة الالهية الامام عليا (ع) لاحتلال موقع المرجعية الفكرية والسياسية للأمة الاسلامية بعد الرسول (ص).

وقد عبر الاسلام الحنيف عن ذلك الترشيح بشتى الوسائل التعبيرية المباشرة، مجسداً مؤهلات علي (ع) لامامة الأمة المسلمة تارة، ومعلناً تارة

---

(٢) خصائص الامام علي بن أبي طالب ـ للنسائي ط ١ بيروت ١٩٧٥، وأنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ٩٨.

(٣) نفس المصدر ص ٤٨.

(٤) نفس المصدر ص ٦٥ وأخرجه أيضاً أحمد بن حنبل في مسنده والكنجي والمحب الطبري وغيرهم نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ٧٧ ـ ٧٨ مط الأعلمي كربلاء.

أخرى اسناد الامامة له رسمياً.

فضائل علي من حديث رسول الله (ص):

وهذه بعض مؤهلات الامام (ع) كما تؤكدها النصوص الصحيحة:

١ ـ قال رسول الله (ص): «**مثل علي فيكم كمثل الكعبة. .**»[٥]. فحيث توحد الكعبة وجهة الأمة عند ساعات الوقوف بين يدي الله تعالى في الصلاة أو أداء شعائر الحج والعمرة كذلك يفعل التزام علي (ع) والأخذ عنه في دنيا المسلمين.

٢ ـ والامام (ع) هو الصراط المستقيم الذي تستلهم الأُمة منه العلم الالهي ومعارف التشريع بعد رسول الله (ص) دون سواه من الناس:

قال رسول الله (ص): «**علي باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي، حبه ايمان، وبغضه نفاق. . .**»[٦].

وقال (ص): «**أنا مدينة العلم وعلي بابها. . .**»[٧].

٣ ـ وإن علياً كرسول الله (ص) في اقامة العدل بين الناس فكفه ككفه (ص) قال رسول الله (ص): «**يا أبا بكر كفي وكف علي في العدل سواء**»[٨].

٤ ـ ويصف الرسول علياً (ع) بأنه كنفسه، فقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن حنطب قال: قال رسول الله (ص) لوفد ثقيف ـ حين

---

(٥) جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٩٦ وابن عساكر من حديث أبي بكر وعثمان وعائشة وسواهم، وأخرج الحديث الكنجي الشافعي في الكفاية والخوارزمي في المناقب. ولمزيد من المصادر راجع مقام أمير المؤمنين ص ٦ ـ ص ٧ مط الأعلمي ـ كربلاء.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ورواه الديلمي في فردوس الأخبار والحمويني في الفرائد وغيرهم نقلاً عن المصدر السابق ص ٧.

(٧) أخرجه أحمد بن حنبل والترمذي في جامعه الصحيح، نقلاً عن فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي للحافظ أحمد بن محمد الغماري ط ٢ ١٩٦٩.

(٨) أخرجه جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء وابن عساكر في تاريخه الكبير والمناقب للخطيب الحنفي نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ١٢.

جاؤوه: «**لتسلمن أو لابعثن اليكم رجلاً كنفسي ليضربن أعناقكم وليسببن ذراريكم، وليأخذن أموالكم -فألتفت الى علي وأخذ بيده - فقال: هو هذا، هو هذا**»[9].

٥ - وإن الامام عليه السلام أدرى المسلمين قاطبة بشؤون القضاء بعد رسول الله (ص)، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص): «**أقضى أمتي علي**»[10].

وهو اشارة من الرسول (ص) الى أن الامام علياً (ع) أقدر من سواه على ادارة شؤون الأمة وحسم ما يشجر في حياتها العملية.

٦ - وقال المصطفى (ص): «**علي مع الحق والحق مع علي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة**»[10].

٧ - وحيث أن علياً (ع) صنو الحق الذي هدى الله عباده اليه، فلا يفترق أحدهما عن الآخر، فقد دعا رسول الله (ص) أمته لسلوك منهجه والاندماج بخطه لينقذها من الزيغ، ولكي لا تتبع السبل فتضل عن سبيل الله تعالى قال (ص):

«**ستكون من بعدي فتنة، فاذا كان ذلك، فالزموا علي بن أبي طالب، إنه أول من يراني، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهو مني في السماء العليا، وهو الفاروق بين الحق والباطل**»[12].

---

(٩) وأخرجه ابن حنبل في المناقب أيضاً وأخرجه كذلك أبو نعيم في الحلية والترمذي وغيرهما، نقلاً عن علي والوصية ص ٣٤٦ - ٣٤٧ بألفاظ متشابهة.

(١٠) الرياض النضرة ج ٢ ص ١٩٨ والكنجي الشافعي في الكفاية والفصول المهمة - لابن الصباغ المالكي وأنساب الأشراف للبلاذري نقلا عن مقام أمير المؤمنين ص ٣٢ ط الأعلمي.

(١١) الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ج ٤ ص ٣٢١ وابن قتيبة في الامامة والسياسة وكنز العمال والزمخشري في ربيع الأبرار والحمويني في فرائد السمطين وغيرهم، نقلاً عن علي والوصية ص ١١٣.

(١٢) الكنجي الشافعي في كفاية الطالب والحافظ في أماليه وغيرها، ولبقية المصادر راجع علي والوصية للمرحوم الشيخ نجم الدين العسكري ١٦٧.

٨ ـ وحول ايمان علي (ع) ومداه يقول رسول الله (ص): «**لو أن السموات والأرض موضوعتان في كفة وايمان علي في كفة لرجح ايمان علي (ع)**»[١٣].

هذه بعض مؤهلات علي (ع) كما بينها رسول الله (ص).

أما النصوص التي تسند اليه أمر امامة الامة فكرياً وسياسياً ـ بعد الرسول (ص) ـ بشكل صريح فنذكر منها:

١ ـ آية الولاية:

﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسولُهُ وَالّذِين آمَنوا الّذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزَّكاةَ وَهُم راكِعون * وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ والَّذينَ آمَنوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبُونَ﴾.

(المائدة/ ٥٥ ـ ٥٦)

فقد ذكر المفسرون أن آية الولاية هذه قد نزلت في علي بن ابي طالب (ع)، حيث تؤكد بلا أدنى شك أنه يجب على الأمة الإسلامية الالتزام به اماماً ومرجعاً فكرياً وسياسياً بعد رسول الله (ص).

فلقد نزلت هذه الآية الكريمة في علي (ع) كما روى ذلك جمع من الثقات من المحدثين والمفسرين ـ لحد الاستفاضة ـ وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن سائلاً دخل مسجد رسول الله (ص) يسأل المسلمين المعونة فأشار الامام (ع) إلى أصبعه وهو راكع فانتزع السائل خاتم الإمام من اصبعه وتصدق الامام به وهو راكع فنزلت فيه هذه الآية[١٤].

---

(١٣) أخرجه الديلمي عن ابن عمر، يراجع كنز العمال ج ٦ ص ١٥٦ والرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٦ أخرجه عن عمر بن الخطاب نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ١٥ ط الأعلمي ـ كربلاء.

(١٤) راجع تفسير الآية في كل من: تفسير البيضاوي ومجمع البيان للطبرسي، وأبو اسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، وأبو البركات النسفي في تفسيره، والنيسابوري في تفسيره، والشبلنجي في نور الابصار وابن حجر في صواعقه المحرقة وغيرهم. ولمزيد من التعرف على المصادر راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادي ج ١ وأعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ج ٣ ق ١ ص ١٣٠ وما بعدها.

٢ ـ خطبة الغدير التي القاها رسول الله (ص) في حجة الوداع بعد أدائه مراسيم الحج الأكبر:

فعن البراء بن عازب قال: أقبلنا مع رسول الله (ص) في سنته التي حج فيها، فنزل في بعض الطريق فأمر: **الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي،**

فقال: «**ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**».

قالوا: بلى.

قال (ص): «**ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟**».

قالوا: بلى.

قال (ص): «**فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه اللهم عادِ من عاداه**»[١٥].

وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) قال: «**من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**»[١٦].

٣ ـ وعن أم سلمة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله (ص): «**إن الله اختار لكل نبي وصياً، وعلي وصيي في عترتي وأهل بيتي وأمتي بعدي**»[١٧].

هذه بعض النصوص الاسلامية الصحيحة التي أسندت أمر المرجعية الفكرية والسياسية بعد رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب (ع)، ولمن يهمه المزيد من تتبع نصوص الإمامة يمكنه مراجعة المصادر المختصة بالموضوع[١٨].

---

(١٥) لفظ صحيح ابن ماجة ص ١٢.

(١٦) مسند احمد بن حنبل ج ٤ ص ٢٨١ وقد نص على أن الحديث رواه ثلاثون صحابياً. وقد أخرج الحديث غيره كالنسائي في الخصائص والطبراني عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك**﴾ وكنز العمال ج ١ ص ٤٨ ومستدرك الصحيحين ولمزيد من المصادر راجع كتاب الغدير ج ١ للشيخ عبد الحسين الأميني (ره).

(١٧) الموفق بن أحمد الحنفي في مناقبه والحمويني الشافعي في فرائد السمطين وفي مسند أحمد بن حنبل حديث الوصية يشبهه وللثعلبي في الكشف والبيان وابن المغازلي مثله يراجع علي والوصية ص ٢٣٥.

(١٨) ككتاب «الغدير» للشيخ عبد الحسين الأميني و «دلائل الصدق» للشيخ محمد حسن المظفر و «احقاق الحق» للقاضي التستري و «عبقات الأنوار» للسيد مير حامد حسين و «المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين... وغيرها.

شخصيــة علــي (ع)

من خلال عناصرها الاساسية

* علاقة الإمام علي بالله تعالى
* شواهد من عبادة أمير المؤمنين (ع)
* المنهج العبادي في خطوطه الأساسية

تمهيد:

اذا كانت حصيلة الاعداد الالهي المباشر لرسول الله (ص) أن صار خلقه (ص) القرآن بكل ما فيه من فضائل وقيم روحية رفيعة تجسيداً حيا في دنيا الواقع[19]، فان حصيلة الاعداد الرسالي من لدن رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب (ع) أن صار علي (ع) صورة للرسول (ص) فكراً وهديا وموقفاً . .

ولقد قرأنا بين ثنايا النصوص الكريمة التي مرت بنا خلال هذه الدراسة[20]: تلك النصوص التي تكشف بقوة ما لعلي (ع) من مكانة في دنيا الاسلام.

فهو: المطهر من الرجس، وهارون الامة، والذي كفه ككف النبي المصطفى، في العدل، وهو رفيق الحق لا ينفك أحدهما عن الآخر وهو باب مدينة العلم الإلهي، وفاروق الأمة[21] و. . . و. . . الخ.

وكل هذه الأوسمة التي زين بها الإسلام صدر علي (ع) كانت ذات مداليل عملية في دنيا الواقع في حياة علي (ع).

فهذه الصفات السامية جاءت ترجمة لواقع صار اليه الامام (ع) كثمرة للاعداد الرسولي له منذ نعومة أظفاره حتى آخر يوم من أيام المصطفى (ص).

ولعلنا لا ندرك أهمية تلك الأوسمة التي زين بها صدر الامام (ع) ما لم نسلط بعضاً من الضوء على المقومات العامة لشخصيته سلام الله عليه في هذه الصفحات:

---

(١٩) تراجع الحلقة الثالثة من دراستنا «محمد رسول الله (ص)».
(٢٠) راجع الحلقة الأولى من دراستنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.
(٢١) فاروق الأمة رواه عن رسول الله (ص) الطبراني والبيهقي وكنز العمال وسواهم راجع المراجعات لشرف الدين ص ١٧٠.

علاقة الإمام علي بالله تعالى

سبق أن أشرنا في حديثنا عن شخصية رسول الله (ص) الى أن علاقة المسلم بالله تبارك وتعالى، ليست محدودة في احدى زوايا حياته أبداً، وانما هي كما حدد الله سبحانه أبعادها لعباده من خلال شريعته التي ارتضى لهم: تجرد كامل للعزيز المتعال عز وجل بكل خلجات النفس، وبكل حركة في الحياة: في الصلاة والصيام والحج والاعتكاف، بشعائر التعبد وبالعلاقات الأسرية والاجتماعية عامة. بالحكم والقضاء بالمحيا والممات وما بعد الموت[٢٢].

وقد جسد القرآن الكريم حجم العلاقة بين العبد وربه الأعلى بقوله تعالى: ﴿قُلِ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي لله رَبِّ الْعالَمين﴾.

(الانعام/ ١٦١)

على أن شعائر الاسلام الكبرى: كالصلاة والصوم والحج وسواها وان كانت جزءاً من هيكل العبودية لله تعالى التي تشمل الحياة الانسانية كلها. الا أن هذه الشعائر تختص بسمات خاصة «توقيفية» ككيفية الأداء والوقت والعدد، فهي في هذه المجالات محددة من قبل الله تبارك وتعالى فلا مجال فيها لتبديل أو تحوير أو نقص أو زيادة.

ثم انها تمتاز في كونها وقفات خالصة لله سبحانه ليس فيها غايات أخرى غير رضوان الله والاستجابة لأمره، ومن أجل ذلك تفقد هذه الفرائض طابعها العبادي اذا دخل اطارها رياء أو نحوه.

---

(٢٢) الحلقة الثالثة من كتابنا «محمد رسول الله (ص)»

وهي ميزة لا تتحقق في أمور الحياة الانسانية الأخرى وان كانت سابحة في اطار من العبودية لله تعالى.

فالزواج والنشاط الاقتصادي مثلاً ونحوهما من العقود وان كانت شريعة الله تعالى تضعها في مسار العبودية لله، والمرء من خلالها يؤدي عبادة اذا هو التزم بأحكام الشريعة الاسلامية في تحديد وجهتها وأبعادها ومستلزماتها الا أنها تبقى حاملة لأغراض أخرى فالزواج مثلاً وان كان يحقق غاية اسلامية من ناحية تحصين الفرد المسلم عن الوقوع في المحرم، حتى أن الاسلام يعتبر عملية الزواج من قبل المسلم احرازاً لنصف الدين - كما في الحديث الشريف - كما أن الالتزام بأحكام الشريعة الخاصة في حقول التعامل بين الزوجين ونحوها يعتبر أمراً مفروضاً على المؤمنين..

أقول الى جانب هذه الأمور التي ترافق عملية الزواج، فان الميل للجنس يبقى خلفية أساسية من خلفيات حمل الفرد على تعاطيه.

وهكذا تظهر خلفيات أخرى غير الخلفية العبادية في مثل هذه الأمور.

ومن هنا نرى أن أمر الزواج والنشاطات الاقتصادية في مثالنا أمور توجد في كل مجتمع في الماضي والحاضر، قبل عصر التنزيل وبعده بالنظر لارتكازها على حاجات طبيعية لدى الكائن الانساني، ومهمة شريعة الله تعالى ترتكز على اضفاء الصبغة الشرعية عليها بعد تهذيبها وتحديد مسارها ووضع مخطط اسلامي لصوغها وفقاً لمتطلبات الفطرة البشرية.

وبناء على هذا التحديد لطبيعة علاقة المسلم بالله تبارك وتعالى فسنستعرض علاقة الامام علي بن أبي طالب (ع) بالله تعالى من خلال الفرائض والسنن الإسلامية.

شواهد من عبادة أمير المؤمنين (ع)

كحصيلة للاعداد المميّز الذي حظي به الامام (ع) من لدن أستاذه الرسول (ص) - الأمر الذي تناولناه في مدخل هذه الرسالة - فقد طبعت شخصية الامام (ع) بشخصية المصطفى (ص) في جميع مقوماتها: عبادة وفكراً ومواقف.

يسلك سبيله، يقتفي سنته ويقفو أثره، ومن أجدر بتجسيد سنة الرسول (ص) كاملة في دنيا الواقع سوى علي (ع)؟ الذي صنع رسول الله (ص) شخصيته وشكل جميع عناصرها وطبعها بالطابع الالهي منذ نعومة أظفاره..

واذ نعقد هذا الفصل للحديث عن عبادة الامام (ع) ووسائل تعلقه بالله سبحانه، فسنعرض شواهد منها، لندرك السمو الشاهق الذي بلغه الامام (ع) في مضمار الانشداد الى الله واستلهام منهج الرسول (ص) المطهر في هذا المضمار:

صلاة وضراعة:

فلكثرة تعاهده لأمر الصلاة والتضرع الى الله تعالى يشير عروة بن الزبير في حديث له عن أبي الدرداء:

قال: «شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات(٢٣) النجار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات(٢٤) النخل، فافتقدته، وبعد

(٢٣) الشوحط: شجر يتخذ منه القسي.
(٢٤) المغيلات: النخل الوارف الظلال.

عن مكانه، فقلت: الحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغم شجي، وهو يقول: «الهي كم من موبقة حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك.

الهي ان طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ الى الدعاء والبكاء، والبث والشكوى، فكان مما ناجى به الله تعالى أن قال:

«الهي أفكر في عفوك، فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك، فتعظم علي بليتي».

ثم قال: «آه ان أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملأ اذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال: «آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى».

قال أبو الدرداء، ثم أمعن في البكاء، فلم اسمع له حساً، ولا حركة.

فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر، فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو.

فقلت: انا لله وانا اليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب، فأتيت منزله مبادراً أنعاه اليهم.

فقالت فاطمة (ع): يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟

فأخبرتها الخبر.

فقالت: «هي والله - يا أبا الدرداء - الغشية التي تأخذه من خشية الله».

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق، ونظر الي وأنا أبكي فقال:

مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟

فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: **يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني، ودعي بي الى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الاحباء ورفضني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية**».

فقال أبو الدرداء: «فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (ص)»[٢٥].

هذا شاهد من شواهد تعلق الامام (ع) بالله تعالى وشدة انشداده اليه ورهبته منه.

ويبدو أن هذا ديدن علي (ع) كما يتجلى من قول الزهراء (ع) لأبي الدرداء: «**هي والله الغشية التي تأخذه من خشية الله**».

وهذه مزيته عند التوجه الى الله تعالى في صلاته وضراعته، الأمر الذي ألفه أهل البيت (ع) في علي (ع).

ومن أجل ذلك لم يفزعوا حين أنبأهم أبو الدرداء بموته ـ كما ظن هو ـ بل استفسروا عما رأى، فأعلمته الصديقة (ع) أن ما رآه هو المألوف من علي (ع) كل آن حين تأخذه الغشية لله تبارك وتعالى أثناء قيام الليل.

ولكثرة قيامه للعبادة ليلا يحدثنا عبد الأعلى عن نوف البكالي...

قال: «بت ليلة عند أمير المؤمنين (ع) فكان يصلي الليل كله، ويخرج ساعة بعد ساعة، فينظر الى السماء، ويتلو القرآن، فمر بي بعد هدوء من الليل فقال: **يا نوف أراقد أنت أم رامق؟**

قلت: بل رامق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: **يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً،**

---

(٢٥) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١١ ـ ١٢ والأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي ط ٢ ص ١١٥ ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني ج ١ ط ١ مط العلمية قم ص ٣٨٩.

والدعاء شعاراً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم. . .»[٢٦].

وهكذا كان علي (ع) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الأنبياء (ع) إنه ترجمة صادقة لعبادة محمد رسول الله (ص) وزهد المسيح (ع).

أرأيت كيف يندك وجوده على عتبة الخضوع لله والاستكانة له وطلب رضوانه؟

وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف يروي لنا أبو يعلى ـ في المسند ـ عنه (ع) قال: **«ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله: صلاة الليل نور».**

فقال ابن الكواء: ولا ليلة الهرير!؟ قال (ع): **ولا ليلة الهرير**[٢٧].

توجه ورهبة:

ولعظيم اقباله على الله تعالى يشير القشيري في تفسيره:

إنه كان (ع) اذا حضر وقت الصلاة تلون وتزلزل. فقيل له: ما لك؟

فيقول: **جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وحملها الانسان على ضعفه، فلا أدري أحسن اذا حملت أم لا**[٢٨].

ولع بالصلاة:

فعن سليمان بن المغيرة عن أمه قالت: سألت أم سعيد سرية علي (ع) عن صلاة علي (ع) في شهر رمضان.

---

(٢٦) نفس المصدر ص ١٦ عن الخصال للصدوق ونهج البلاغة باب الحكم رقم ١٠٤ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢٧) البحار ج ٤١ ص ١٧. ليلة الهرير = من ليالي صفين الحاسمة التي اشتبك الفريقان فيها طوال الليل دون هوادة.

(٢٨) نفس المصدر ص ١٧.

فقالت: رمضان وشوال سواء، يحيي الليل كله[٢٩].

عبادة الشاكرين:

ولقد عظم المعبود عز وجل في نفس الامام (ع) فصارت عبادته تعبيراً عن الحب له والشوق اليه، واستشعار أهليته للعبادة دون سواه، ومن أجل ذلك كان علي (ع) لا يعبد الله خوفاً من عذابه، ولا طمعاً في جنته ولا فيما أعده من نعيم للمتقين، وانما سما الامام (ع) في علاقته بالله تعالى الى أعلى الدرجات أسوة بأستاذه الرسول (ص)...

وقد كشف الامام (ع) عن جوهر علاقته بالله تعالى وطبيعتها بقوله: **«الهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»**[٣٠].

فأعظم به من يقين، وأكرم به من ايمان!!

ولقد حدد الامام (ع) ألوان العبادة في كلمة خالدة:

«إن قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار»[٣١].

وكانت عبادته (ع) من النوع الأخير، حيث تصدر كحصيلة للشعور بأهلية المعبود واستحقاقه لها.

أما ايقاف العبادة على حصول الثواب فحسب، فهي عبادة من وصفهم الامام (ع) بالتجار، الذين يبتغون الثمن وينتظرون التعويض... وشتان بين هدف الشاكرين، وهدف التجار في ميزان الله تعالى وحسابه.

صلاة الرسول (ص):

ولقد كانت صلاة علي (ع) - أسوة بسائر نشاطاته - كصلاة

---

(٢٩) نفس المصدر ص ١٧.

(٣٠) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٤ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ١٤٤.

(٣١) المصدر المتقدم.

رسول الله (ص) في كيفية الأداء والخشوع والانشداد والتعلق بالله تعالى فعن مطرف بن عبد الله قال: «صليت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب... فلما انصرفنا أخذ عمران بيدي فقال: لقد صلى صلاة محمد، ولقد ذكرني صلاة محمد (ص)[٣٢]».

تعاهدوا أمر الصلاة:

والى جانب تعاهد الامام (ع) لأمر الصلاة فقد كان كثيراً ما يوصي أتباعه بتعاهد أمرها، وأدائها في أوقاتها وتعريفهم بأهميتها وأثرها في شخصية المسلم فها هو يدعو المؤمنين من اصحابه: «**تعاهدوا امر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها فانها ﴿كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ ألا تسمعون الى جواب أهل النار حين سئلوا ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين﴾.**

وانها لتحت الذنوب حت[٣٣] الورق، وتطلقها اطلاق الربق[٣٤]. وشبهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحمة[٣٥]، تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من درن[*]؟.

وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرة عين من ولد ولا مال.

يقول الله سبحانه:

﴿رِجالٌ لا تُلهيهِمْ تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَاقامِ الصَّلاةِ وايتاء الزَّكاة...﴾.

(النور/٣٧)

---

(٣٢) أنساب الأشراف ج ٢ ص ١٨٠ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ نقلاً عن البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم.

(٣٣) حت الورق عن الشجر: قشره.

(٣٤) الربق: حبل فيه عدة عرى كل واحدة ربقة.

(٣٥) الحمة: عين ماء حار يستشفى فيها من المرض.

(*) الدرن: الوسخ.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نَصِباً[٣٦] **بالصلاة بعد التبشير له بالجنة لقول الله سبحانه: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾.
فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه»**[٣٧].

المنهج العبادي في خطوطه الأساسية:

والى منهجه العبادي الملتَزمَ أشار الإمام الباقر (ع) بقوله:
«. . . وما ورد عليه أمران قط كلاهما لله رضى الا أخذ بأشدهما على بدنه»[٣٨].

وقد ورد عن الامام علي (ع) ذاته: **«. . . وانما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر»**[٣٩].

وفي حديث ضرار بن ضمرة لمعاوية بن أبي سفيان حول شخصية الامام (ع) تجسيد لهذه الحقيقة، فمما جاء في حديثه «. . . كان والله صواما بالنهار وقواما بالليل. . .».

توكل صادق ويقين راسخ:

وحيث أن التوكل على الله تعالى زاد المتقين، واليقين بالله شعار المؤمنين الصادقين يملأ قلوبهم بالثقة والاطمئنان والعزة والارتفاع على جميع عقبات الحياة.

فقد كان أمير المؤمنين (ع) قائداً لاهل اليقين بعد رسول الله (ص) ويعسوباً للمتوكلين.

وهذه سيرته العطرة تتحفنا بالعديد من الشواهد في هذا المضمار:
فعن الامام الصادق (ع) قال: **كان لعلي (ع) غلام اسمه قنبر، وكان**

---

(٣٦) نصبا: نصب في الأمر: جد واجتهد فيه.
(٣٧) نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح ١٩٩.
(٣٨) مناقب آل ابي طالب لابن شهر آشوب المازندراني ج ١ مط العلمية/ قم.
(٣٩) نهج البلاغة من كتاب له الى عثمان بن حنيف عامله على البصرة رقم ٤٥ ص ٤١٦.

يحب علياً حباً شديداً، فاذا خرج علي (ع) خرج على أثره بالسيف فرآه ذات ليلة، فقال له: يا قنبر مالك؟

قال: جئت لأمشي خلفك، فـان الناس كمـا تراهم يـا أمير المؤمنين فخفت عليك.

قال: ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض؟

قال: لا بل من أهل الأرض.

قال (ع): ان أهل الأرض لا يستطيعون بي شيئاً الا باذن الله عز وجل فارجع. فرجع[40].

وعن أبي عبد الله (ع) قال: «ان أمير المؤمنين (ع) جلس الى حائط يقضي بين الناس.

فقال بعضهم: لا تقعد تحت هذا الحائط فانه معور.

فقال أمير المؤمنين: حرس امرأ أجله.

فلما قام أمير المؤمنين (ع) سقط الحائط.

وكان أمير المؤمنين (ع) مما يفعل هذا وأشباهه، وهذا اليقين»[41].

وعن سعيد بن قيس الحمداني قال: «نظرت يوماً في الحرب الى رجل عليه ثوبان، فحركت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين (ع).

فقلت: يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع؟

فقال: نعم يا سعد بن قيس، انه ليس من عبد الا وله من الله عز وجل حافظ وواقية، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر، فإذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء»[42].

هذا هو علي (ع) في قوة يقينه بالله تعالىٰ وشدة توكله عليه سبحانه.

---

(٤٠) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١.

(٤١) نفس المصدر ص ٦ نقلاً عن أصول الكافي.

(٤٢) نفس المصدر ص ٦ نقلاً عن أصول الكافي.

مصاديق من زهد الامام (ع):

ولقد كان الزهد معلماً بارزاً من معالم شخصية الامام علي (ع)، وسمة مميزة زيَّنه الله تعالى به فعن عمار بن ياسر (رض) قال: قال رسول الله (ص) لعلي: «**إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها، هي زينة الأبرار عند الله: الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ - تعيب - من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهبك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك اماماً**»[43].

وقد كان من شواهد تلك الصفة التي حباه الله تعالى بها:

أن زهد الامام (ع) عن كل لذاذات الحياة وزينتها وتوجَّه بكل وجوده نحو الآخرة، وعاش عيشة المساكين وأهل المتربة من رعيته.

لقد زهد الامام (ع) بالدنيا وزخرفها زهداً تاماً وصادقاً:

زهد في المال والسلطان، وكل ما يطمع به الطامعون.

فلقد عاش في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه الفقراء من الأمة، وكان يأكل الشعير، وتطحنه امرأته أو يطحنه بنفسه، قبل خلافته، وبعدها حيث كانت تجبىٰ الأموال الى خزانة الدولة التي كان يضطلع بقيادتها من شرق الأرض وغربها. وكان يلبس أبسط أنواع الثياب، فكان ثمن قميصه ثلاثة دراهم.

ولقد بقي ملتزماً بخطه في الزهد طوال حياته، فقد رفض أن يسكن القصر الذي كان معدا له في الكوفة حرصاً منه على التأسي بالمساكين[44].

وهذه بعض المصاديق كما ترويها سيرته العطرة:

فعن الامام الصادق (ع) يقول: «**كان أمير المؤمنين أشبه الناس طعمة برسول الله (ص) يأكل الخبز والخل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم**»[45].

---

(٤٣) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٩٤ ط ١ المطبعة العلمية قم.

(٤٤) علي وحقوق الانسان ـ جورج جرداق ص ٧٥ ط ١٩٧٠ بيروت.

(٤٥) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٣٣٠ عن المحاسن.

وعن الباقر (ع) قال: «ولقد ولي خمس سنين وما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعاً ولا أورث بيضاً ولا حمراً»[٤٦].

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «ما علمنا أن أحداً كان في هذه الامة بعد رسول الله (ص) أزهد من علي بن أبي طالب، ما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة»[٤٧].

وعن الأحنف بن قيس قال: «دخلت على معاوية، فقدم الي من الحلو والحامض، ما كثر تعجبي منه، ثم قال: قدموا ذاك اللون، فقدموا لوناً ما أدري ما هو...!

فقلت: ما هذا؟

فقال: مصارين البط محشوة بالمخ ودهن الفستق قد ذر عليه السكر!!.

قال الأحنف: فبكيت.

فقال معاوية: ما يبكيك؟

فقلت: لله در ابن أبي طالب، لقد جاد من نفسه بما لم تسمع به أنت ولا غيرك!.

قال معاوية: وكيف؟

قلت: دخلت عليه ليلة عند افطاره.

فقال لي: قم فتعش مع الحسن والحسين، ثم قام الى الصلاة، فلما فرغ دعا بجراب مختوم بخاتمه، فأخرج منه شعيراً مطحوناً، ثم ختمه.

فقلت: يا أمير المؤمنين لم أعهدك بخيلاً، فكيف ختمت على هذا الشعير.

فقال: لم أختمه بخلا، ولكن خفت أن يبسّه الحسن والحسين بسمن أو إهالة!.

فقلت: أحرام هو؟

قال: لا، ولكن على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل

---

(٤٦) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٦.

(٤٧) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ١١٧.

واللباس، ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير، فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً»[48].

وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي (ع) بالكوفة، وبين يديه رغيف من شعير، وقدح من لبن، والرغيف يابس. فشق عليَّ ذلك.

فقلت لجارية له يقال لها فضة: ألا ترحمين هذا الشيخ، وتنخلين له هذا الشعير.

فقالت: .. انه عهد الينا ألا ننخل له طعاماً قط...!

فالتفت الامام اليَّ وقال:

ما تقول لها يا ابن غفلة، فأخبرته...

وقلت: يا أمير المؤمنين ارفق بنفسك.

فقال لي: **ويحك يا سويد؟ ما شبع رسول الله (ص) وأهله من خبز بُرٍّ ثلاثاً تباعاً حتى لقي الله، ولا نخل له طعام قط...**»[49].

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: رؤي على علي (ع) إزار مرقوع، فعوتب في ذلك؟

فقال: **يخشع له القلب ويقتدي به المؤمن**[50].

عن الغزالي يقول: «كان علي بن أبي طالب يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا يكون له الا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره»[51].

هذا هو علي في شدة زهده ورغبته عن الدنيا وزخارفها، وفي عظيم اقتدائه برسول الله (ص) وفي مواساته لأهل المتربة من أمته (ص)، فهل حدثك التاريخ عن زعيم كعلي (ع)؟ تجبى اليه الأموال من الشرق والغرب، وعاصمته الكوفة ـ تقع في أخصب أرض الله وأكثرها غنى يومذاك، بيد أنه

---

(٤٨) نفس المصدر ص ١٨٨: يبسه: يضع عليه السمن، والاهالة الشحم أو ما أذيب منه ونحوهما من إدام.

(٤٩) تذكرة الخواص ص ١٢٠، والبُر: الحنطة، ثلاثاً تباعاً: ثلاثة أيام متتالية.

(٥٠) نفس المصدر والامام علي بن أبي طالب ـ محمد رضا ص ١٢.

(٥١) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٦٦ عن الإحياء للغزالي.

يعايش أبسط عيش مواسياً لأقل الناس حظاً في العيش في هذه الحياة... يأكل خبز الشعير دون أن يخرج نخالته.. ويكتفي بقميص واحد لا يجد غيره عند الغسل... ويُحرم على نفسه الأكل من بيت المال... ويرقع مدرعته حتى يستحي من راقعها[٥٢] مجسداً بذلك أرفع شعار للزاهدين: «.. **فوالله ما كنزت من دنيا كم تِبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوب طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأوهن من عفصة مقرة**»[٥٣].

صدقة الامام (ع):

ولا نريد أن نذهب بعيداً في ذكر الشواهد على تعاهد الامام علي (ع) لأمر الصدقة، قبل أن نستقي من القرآن الكريم نماذج من صدقة الامام (ع) عطرتها آيات الله تعالى بالثناء الجميل، ورسمت أبعاد الثواب الالهي العظيم الذي لا يعلم مداه غير الله الذي أعده تبارك وتعالى لأمير المؤمنين (ع):

ففي حادثة اطعام علي (ع) وأهل بيته (ع) للمسكين واليتيم والأسير على مدى ثلاثة أيام وايثارهم لهم على أنفسهم، واكتفائهم بالماء وهم في أيام صوم متتالية... تنزلت آيات الله تعالى مسجلة أعظم مآثر علي (ع) في ضمير الوجود حيث ستبقى ترددها الآفاق والألسنة وصفحات المجد ما شاء الله تعالى:

﴿وَيُطْعِمونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأَسيراً * إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُريدُ مِنكُم جَزاءً وَلا شُكُوراً * إِنّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوماً عَبوساً

---

(٥٢) للاستزادة من شواهد زهد الامام (ع) راجع بحار الأنوار ج ٤٠ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني ج ١ وغيرها.

(٥٣) كتابه إلى عثمان بن حنيف رقم النص في نهج البلاغة ٤٥ باب الرسائل التبر: فتات الذهب والفضة قبل الصياغة.

الوفر: المال. الطمر: الثوب الخلق البالي. اتان دبرة: التي عقر ظهرها فقل أكلها. عفصة مقرة: العفص، هي شجرة البلوط وثمرها. ومقرة، أي مرة.

قَمْطَريراً * فَوَقاهُمُ الله شَرَّ ذلكَ اليَوم وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُروراً * وَجَزاهُمْ بِما صَبَروا جَنَّةً وَحَريرا﴾.

(الانسان/٨ ـ ١٢)

وليس المهم في الأمر حجم ما قدمه الامام (ع) لأولئك المحتاجين، فان الكثير من الناس يبذلون أضعاف ذلك.

ولكن شتان بين من ينفق لوجه الله خالصاً دون شائبة، وبين من ينفق من أجل غرض دنيوي أو جاه أو ذكر يشاع بين الناس. كما أنه شتان بين من ينفق كل ما لديه وهو أحوج ما يكون اليه وبين من ينفق بعض ما لديه...

وهكذا يختلف التقويم عند الله تعالى بين ذا وذاك!

وفي حادثة تصدق علي (ع) بخاتمه على مسكين استبدت به الحاجة، فطاف على الناس فلم يجد من يسد خلته، فأشار اليه علي (ع) وهو يصلي في مسجد رسول الله (ص) ووهبه خاتماً في يده.

فنزل القرآن الكريم على رسول الله (ص) مبيناً فضل ما أقدم عليه الامام (ع) واستعمل القرآن المناسبة لارشاد الأمة الى أن علياً (ع) مرجعها الفكري والعملي بعد رسول الله (ص):

﴿انَّما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسولُهُ والّذين آمَنوا الّذين يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزَّكاةَ وَهُم راكِعون * وَمَن يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ والَّذينَ آمَنوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالِبون﴾.

(المائدة/ ٥٥ ـ ٥٦)

وهذه الآية الكريمة من أكثر النصوص دلالة على أن العمل الصالح في منظور الله تبارك وتعالى انما هو بدوافعه لا بحجم منافعه.

فليس المهم أن تعطي كثيراً، ولكن الأساس في الأمر نية العطاء فالتقييم الرباني انما يدور مدار النية حيث تدور، فكلما اقتربت من الله تعالى وابتغيت رضوانه كان ثوابك أعظم وأجل..

ومن المناسب أن نطرح اضافة الى ذلك مصاديق من سيرة الإمام (ع)

في هذا المضمار مما روته كتب التاريخ:

فعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال: «**كان أمير المؤمنين يضرب بالمر ـ المسحاة ـ ويستخرج الأرضين، وأنه أعتق ألف مملوك من كدِّ يده**»(٥٤).

وعن أيوب بن عطية الحذاء قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «**قسم نبي الله الفيء، فأصاب عليا أرضا، فاحتفر فيها عينا، فخرج ماء ينبع كهيئة عنق البعير، فسماها ينبع، فجاء البشير يبشر. فقال (ع): بشر الوارث هي صدقة بتة بتلاء في حجيج بيت الله، وعابري سبيل الله لا تباع، ولا توهب ولا تورث فمن باعها أو وهبها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا**»(٥٥).

وعن أحمد بن حنبل في الفضائل: أنه كانت غلة علي أربعين ألف دينار فجعلها صدقة (٥٦).

والحديث عن حرص الامام (ع) على تعاهد أمر الصدقة في سبيل الله تعالى يذكرنا بالنفس السخية التي يمتاز بها أمير المؤمنين (ع).

فكثرة أدائه للصدقة وشدة بذله لها وان كان يعكس صورة صادقة عن وجود الامام (ع) وسخائه، الا أن سيرته العطرة تكشف الى جانب ذلك وجهاً آخر من شخصية الامام العظيم.

فقد كان عليه السلام أسخى من الغيث على الامة التي عايشها لا نقصد بهذا جوده بنفسه من أجل حفظ الرسالة ومسيرة الاسلام التاريخية، ذاك الذي يتجلى عبر البطولات التي أبداها (ع) في حروب الاسلام كلها، فحديث كهذا.. يتطلب بمفرده سفراً كاملاً(٥٧)، وانما نقصد ما يتعلق بالسخاء بالمال.

فلقد اعترف بجود الامام (ع) وسخائه أشد الناس عداوة له: معاوية بن

---

(٥٤) البحار ج ٤١ ص ٣٧ عن الكافي ج ٥.

(٥٥) نفس المصدر ص ٤٠ عن الكافي ج ٧.

(٥٦) المناقب ـ لابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٤٦ والبحار ج ٤١ ص ٤٣ عن كشف المحجة لابن طاووس الحلي (رض).

(٥٧) مررنا مروراً عابراً ببعض مواقف الامام وبطولاته العسكرية في الحلقة الأولى فراجع.

أبي سفيان الذي ما برح ينسج الأكاذيب والافتراءات لتشويه سمعة الامام (ع) غير أنه لم يستطع أن ينكر فضيلة الجود عند علي (ع) فقد قال له يوماً مخفى بن أبي مخفى الضبي: جئتك من عند أبخل الناس فقال ابن أبي سفيان: ويحك كيف تقول إنه أبخل الناس، لو ملك بيتاً من تبر - ذهب - وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه(٥٨).

ويقول الشعبي يصف الامام (ع): كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال لا لسائل قط(٥٩).

الجهاد في سبيل الله:

وحياة علي أمير المؤمنين (ع) كلها جهاد في سبيل الله تعالى في مرحلة الدعوة، وبعد قيام الدولة الاسلامية، واذا كان قد وقى الرسول (ص) بنفسه وفداه بوجوده وتعرض لأخطر تآمر جاهلي علىٰ حياة رسول الله (ص) عند مبيته علىٰ فراشه في ليلة الهجرة المباركة، من أجل أن يصرف عنه شر عتاة الجاهلية. فإن عليا قد تحولت حياته بعد الهجرة الى المدينة المنورة الى حلقات متسلسلة من ذلك النوع الجهادي العظيم، فقد كان حامل لواء الزحف الاسلامي في كل غزوات أخيه رسول الله (ص) وطليعة المجاهدين في ساحات الجهاد، وكلما حزبت الأمور وحمي الوطيس انتدبه رسول الله (ص) لكشف زحف العدو عن حياض المسلمين. . .

وكانت كل مواقفه الجهادية من النوع المصيري الذي يحمي الرسالة ويكشف عنها خطر التصفية المحقق والاجهاز الخطير على وجودها، تجلى ذلك في بدر الكبرىٰ حين صفى الكثير من رؤوس الوثنيين وملأ بها ساحة المعركة.

وفي «أُحد» حين أطبق جيش الضلال على معسكر الايمان وكانت الغلبة للعدو، نهض الامام (ع) بدور عرقلة تقدمهم حيث بادر الى تصفية حملة الألوية من بني عبد الدار واحدا تلو الآخر.

(٥٨ و ٥٩) شرح النهج ج ١ ص ٢٢.

وفي غزوة الأحزاب حين بلغت القلوب الحناجر وبلغ الضيق والهلع بالمسلمين كل مبلغ نهض الامام (ع) بالأمر وأرهب العدو وأعاد للمسلمين الثقة بالنفس حين قتل أبرز قوادهم عمرو بن عبد ود العامري.

حيث كان قتل العامري حدا فاصلاً بين المعسكرين إذ تلاه انهزام جيش الأحزاب مع ما امتاز به من ضخامة في العدد والعدة...

وعلي (ع) هو الذي اقتحم حصون خيبر ودخل عليهم عنوة، ففتح الله على يديه حصون اليهود الرهيبة.

وكم أسطر لك من بطولات علي (ع) وصفحات جهاده المشرقة التي تشع بالمجد والعزة والاخلاص؟[٦٠].

فدونك تاريخ الاسلام في عصره الأول: في عهد رسول الله (ص) فأنعم النظر في صفحاته كي تحدثك بفضل علي (ع) على الاسلام رسالة، وأمة، وتاريخاً.

على أن الجانب المعنوي في جهاد علي (عليه السلام) ليس مجسداً في حجم البطولات وعدد المعارك التي خاض غمارها فحسب وانما في صدق النية وحجم الاخلاص الذي امتلأ به قلب علي (ع) وهو يخوض تلك الحروب ببسالة فائقة وشجاعة نادرة وصمود لا يرد.

ومن أجل ذلك كان القرآن الكريم يثني على تلك الروح التي كان يحملها أمير المؤمنين عبر كفاحه من أجل اعلاء كلمة الله في الأرض.

فها هو القرآن الكريم يثني على علي (ع) يوم فدى بنفسه رسول الله (ص):

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾.

(البقرة/ ٢٠٧)

---

(٦٠) راجع الحلقة الأولى من دراستنا أمير المؤمنين (ع) فصل بأس في الحرب.

ويكشف بعمق عن صدق نية الامام (ع)[61].

وها هو كتاب الله العزيز يقطع بأن جهاد علي (ع) وبطولاته وتضحياته كانت من أجل الله واعلاء كلمته في دنيا الناس، ولا يمكن أن تقرن بأي لون من ألوان العمل الآخر. فبسبب الثمن الباهظ الذي يتطلبه الجهاد، وبسبب الدافع الايماني المخلص الذي لا تشوبه شائبة راحت آيات الله تعالى تحدد الموقع الرفيع الذي يحتله علي (ع) في دنيا المتقين:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بـالله وَاليَوْمِ الآخِـرِ وَجَـاهَـدَ في سَبيـلِ الله لَا يَسْتَـوونَ عِنْـد الله وَالله لَا يَهْـدي القَـوْمَ الظَّالِمينَ﴾.

(التوبة/ ١٩)

فعلى أثر حوار تفاخري بين طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب، قال فيه طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي.

فقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها!

وفيما كانا يتفاخران مر الامام (ع) فافتخر عليهما بقوله: «**لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد**».

فنزل قول الله تعالى في ذلك كاشفاً عن المستوى العظيم الذي يتبوأه علي (ع) من ناحية عمله الاسلامي: ضخامة واخلاصاً[62]، بعداً وجوهراً.

---

(٦١) راجع تفسير الآية في الكشاف للزمخشري والواحدي في أسباب النزول وابن الأثير في أسد الغابة ـ يشري = يبيع.

(٦٢) تفسير الطبري عن أنس ج ١٠ ص ٥٩ وأسباب النزول للواحدي ص ١٨٢ والقرطبي في تفسيره ج ٨ ص ٩١ والرازي في تفسيره والنسفي والسيوطي وسواهم.

الأخلاق الاجتماعية

١ ـ إشاعة العدل الاجتماعي بين الناس.

٢ ـ تواضع الامام.

٣ ـ حلم الإمام.

٤ ـ التورع عن البغي.

٥ ـ شواهد من صبر الامام.

بمقدور المتتبع أن يتخذ من وصف ضرار بن ضمرة لأمير المؤمنين (ع) منطلقاً للدخول في عالمه الرحيب، حيث ان الرجل المذكور كان من اصحاب الامام (ع) والمطلعين علىٰ شؤونه.

فقد دخل ضرار على معاوية ـ أيام استكان الناس وأسلموا لمعاويـة القيادة ـ فألح على الرجل أن يصف له عليا (ع) فتردد ضرار كثيراً، فلما مضى معاوية في اصراره قال ضرار:

أما إذا لا بد: «فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله غزير الدمعة، كثير الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب.

كان والله كأحدنا، يجيبنـا اذا سألنـاه، ويبتدئنـا اذا أتيناه، ويـأتينا اذا دعوناه.

ونحن والله مع قربه منا، ودنـوه الينا لا نكلمـه هيبة لـه، ولا نبتديـه لعظمته، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم.

يُعَظِّم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ليلة، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل قائماً في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول:

يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم الي تشوقت، هيهات، هيهات!! قد أبنتك ثلاثا لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير . . .

آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»[٦٣].

وهذا الوصف للامام (ع) علىٰ وجازته يكشف بعمق عن الاطار العام لشخصية الامام (ع) في شتى مـلامحها: في الحقل الروحي والاجتماعي، في علاقته بربه، وعلاقته مع نفسه، وكيفية تعامله مع الناس من حوله.

وحيث قد عقدنا هذا الفصل للحديث عن الأخـلاق الاجتماعيـة التي التزم بها (ع) في حياته العملية، فان حديث ضرار يضع في أيدينا رأس الخيط الذي يوصلنا الى طبيعة العلاقات الاجتماعية التي سلكها أمير المؤمنين في حياته (كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويبتدئنا اذا أتيناه، ويأتينا اذا دعوناه، ونحن والله مع قربه منا ودنوه الينا لا نكلمه هيبة له، ولا نبتديه لعظمته... يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله...».

ويبدو أن هذا اللون من علاقة أمير المؤمنين مع قومه انما كان في أيام حكمه، مما يطرح بين أيدينا تصوراً نـاضجاً عن عـظمة أمير المؤمنين (ع) وبلوغه القمة في مدارج الكمال والفضيلة، فمع أن الامام (ع) كان يحتل موقع القيادة في دنيا الناس، وبيده أزمة حياتهم الفكرية والاجتماعية، نراه كواحد من عامة الناس، وكأنَّ موقعه ليس في أعلى مركز قيادي فهو يلغي الحواجز والألقاب، ويعامل الأمة كما لو كان واحداً من عـامتها بقلب حـان، ونفس متواضعة، وحب صادق عميق... وهي روح لم يألفها التاريخ الانساني منذ الآماد الموغلة في القدم حتى اليوم في قيادة غير قيادة رسول الله (ص) ووصية علي (ع)...

وقد وفق الامام (ع) توفيقاً عظيماً في قيادة الواعين لأهمية قيادته في دنيا المسلمين على الأقل.

فقد كانت قيادته مبنية على الحب والاجلال معاً، فبقدر ما كان يبذل من

---

(٦٣) تذكرة الخواص ص ١٢٧ ـ ١٢٨ والامام علي بن ابي طالب ـ محمد رضا ص ١٢.
تشوقت = تزينت. أبنتك: طلقتك.

دفء وده للأمة، كان أتباعه يمنحونه الكثير من الود والتعظيم. . .

الأمر الذي يذكرنا بسياسة رسول الله (ص) ويطرحها واقعاً حياً في دنيا الناس[٦٤]، فالتجربة واحدة في هذا المضمار وسواه، وان تغير الموقع التاريخي. . . ورحم الله صعصعة بن صوحان حيث يقول في وصفه للامام (ع) «كان فينا كأحدنا لين جانب، وشدة تواضع، وسهولة قياد، وكنا نهابه، مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه»[٦٥]. وتتجلى عظمة الامام (ع) في أخلاقه الاجتماعية من خلال المبادىء الآتية:

أولاً ـ اشاعة العدل الاجتماعي بين الناس:

جاءت الخلافة للامام (ع) في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد، فذوو النفوذ من الناس قد ألفوا الاستئثار واستراحوا اليه، وليس يسيراً أبداً أن يذعنوا لأية محاولة اصلاحية تضر بمصالحهم الذاتية.

ثم ان المطامع قد تنبهت لدى الكثير من الرجال، بعد أن تحولت الخلافة مغنماً لا مسؤولية لحماية الشريعة والأمة، ولقد كان الامام (ع) مدركاً لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمة على بيعته بعد مقتل الخليفة عثمان قائلاً: «دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وان الآفاق قد أغامت والمحجة تنكرت. . .»[٦٦]. ولكن جماهير المدينة المنورة، وجماهير الثوار من العراق ومصر أصروا على استخلافه عليهم، فنزل الامام عند رغبتهم، ولكن وفقاً لشروطه الخاصة ـ هو: «واعلموا

---

(٦٤) راجع الحلقة الثالثة من محمد رسول الله (ص) فصل «علاقة الرسول بالأمة».

(٦٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥ ط ١ ١٩٥٩ م دار احياء الكتب العربية.

(٦٦) نهج البلاغة ص ١٣٦ تبويب صبحي الصالح ـ المحجة = الطريق.

أني ان أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب»[٦٧].

ولقد كانت أولى مهام الامام (ع) أن يجسد العدالة الاجتماعية في دنيا الناس ويمنح المنهج الاسلامي فرصة البناء والتغيير على شتى الأصعدة، فدشن (ع) خططه الاصلاحية، بالغاء السياسة المالية والاجتماعية والادارية التي كان معمولاً بها ليوفر الجو المناسب لتطبيق المخطط الاسلامي في العدالة الاجتماعية، فمن بنود خططه الاصلاحية:

أ ـ استرجاع الأموال التي تصرَّف بها بنو أُمية من بيت مال المسلمين.

ب ـ واستغنى عن كثير من الولاة الذين أساؤوا التصرف، وخالفوا أمر الله تعالى، وتخطوا منهجه الأقوم الذي ارتضاه لعباده..

جـ ـ ثم بادر الى تبني سياسة المساواة في توزيع المال والحقوق، منهياً بذلك دور الطبقية والتمييز والأثرة:

«المال مال الله، يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد»[٦٨].

«الا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة، اذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون، حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا!»[٦٩].

وقد تبنىٰ الإمام سياسة العدل الشامل:

ـ في معاملة أفراد الامة.

ـ وفي منهج الحقوق.

ـ وفي توزيع المسؤوليات.

---

(٦٧) نفس المصدر.

تنكرت = تغيرت علائمها وأصبحت مجهولة.

(٦٨) نفس المصدر.

(٦٩) نفس المصدر.

وكان منهج الامام (ع) في العدل لا يناظره الا منهج رسول الله (ص) ان لم نقل أنه منهج الرسول (ص) بالذات.

فهلم نصغ الى منهاجه المتبنى في سياسة الأمة بالعدل من خلال حديثه (ع): «.. **والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأجر في الأغلال مصفدا، أحب الي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد، وغاصبا لشيء من الحطام.. والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي، ونعيم يفنى ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين**»[٧٠].

«**الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له**»[٧١].

«.. **وايم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وان كان كارهاً...**»[٧٢].

ولم تكن هذه المبادىء التي يتحدث عنها الامام (ع) ذاته، أمنيات، وأفكاراً طرحها في دنيا المبادىء والأفكار، وانما جسدها واقعاً حياً قبل أن يطرحها فكراً...

وهي خصيصة من خصائص علي (ع) فالقول عنده يعقب العمل أو يجري من طبيعته.

ومن أجل ذلك ملأ الامام (ع) دنيا المسلمين قسطاً وعدلاً وحقق انقلاباً في واقع المسلمين على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وفقاً لمقتضيات العدل الالهي فأعاد بذلك أيام رسول الله (ص) في صفائها واشراقها وعدلها الشامل...

---

(٧٠) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح رقم النص ٢٢٤.
حسك = شوك. والسعدان = نبت شائك ترعاه الابل.

(٧١) روائع من نهج البلاغة ص ١٢٣.

(٧٢) نهج البلاغة رقم النص ١٣٦.

فحسبك أن أمير المؤمنين (ع) كان يرتدي القميص المرقوع[٧٣] ويبالغ في رقع مدرعته كلما تمزق جانب منها حتى يبلغ الأمر بالامام (ع) أن يستحي من راقعها[٧٤].

وكان يخرج الى السوق ليبيع سيفه كي يشتري بثمنه إزارا[٧٥] وهو هو في علو شأنه وعظمة مركزه الذي يحتل في دنيا المسلمين حيث تجبى اليه الأموال من أقاليم الدولة الاسلامية جميعها، وثروات الدولة تحت تصرفه...

وكان يأكل خبز الشعير بنخالته وكان غالب إدامه اللبن أو الملح والماء...

ولم يكن للامام (ع) غير قميص واحد لا يجد غيره عند غسله[٧٦].

ومع شدة زهد الامام (ع) في الدنيا، فقد كان حريصاً على توفير الرفاه الاقتصادي للامة التي اضطلع بقيادتها، فكان يقسم الذهب والفضة بين الناس، ويطعمهم اللحم والخبز[٧٧] ويعمل كل ما في وسعه لرفع غائلة الفقر عنهم...

ـ وكان بيت المال لا يكاد ترد اليه الأموال حتى يبادر الامام (ع) الى توزيعها على الناس، لاعطاء كل ذي حق حقه.

ـ وكان منهاجه في توزيع المال التزام أقصى درجات العدالة...

فها هو يخاطب الزبير وطلحة حينما كبر عليهما منهاج المساواة في العطاء: «... **فوالله ما أنا واجيري هذا الا بمنزلة واحدة**»[٧٨].

وها هو سهل بن حنيف يخاطبه: «يا أمير المؤمنين قد أعتقت هذا الغلام، فأعطاه ثلاثة دنانير مثل ما أعطى سهل بن حنيف»[٧٩].

ويأتيه عاصم بن ميثم ـ وكان الامام (ع) يقسم أموالاً فقال:

(٧٣ و ٧٤) تذكرة الخواص ص ١٢٥.

(٧٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

(٧٦) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني ج ٢ ص ٩٧.

(٧٧) من حديث للامام الصادق (ع) البحار ج ٤٠ ص ٣٣٠.

(٧٨ و ٧٩) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٧٨.

- يا أمير المؤمنين اني شيخ مثقل.

فقال الامام (ع):

والله ما هي بكد يدي ولا بتراثي عن والدي، ولكنها أمانة أوعيتها[80].

وجاءه عبد الله بن زمعة - وهو من شيعته - يطلب منه مالا فقال له الامام (ع):

- ان هذا المال ليس لي ولا لك، وانما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم، فان شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم، والا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواهم[81].

ويدخل عليه عمرو بن العاص ليلة وهو في بيت المال يتولى بعض شؤون المسلمين، فأطفأ الامام (ع) السراج وجلس في ضوء القمر[82] فالسراج ملك الأمة، فلا يصح أن يستضيء به ابن العاص، وهو في زيارة خاصة للامام (ع)!

حرص فريد على أموال الأمة، وسهر دائم على مصلحتها وعمل دائب من أجل اسعادها وهدايتها واصلاح شأنها.

على أن تعاهد أمر الأمة من لدن علي (ع) ليس محصوراً في اطار المال وتوزيعه وانما يمتد لكي يشعر الانسان بكرامته ويعيد وعيه بحقه في الحياة الحرة الكريمة، ويعلمه أن يتمرد على الظلم والكبت وسلب الارادة:

- «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا».

- «أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول، فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع،

(٨٠) نفس المصدر ص ٣٧٧.
(٨١) البحار ج ٤١ ص ١١٥ ونهج البلاغة رقم النص ٢٣٢.
(٨٢) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٧٧.

ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»[٨٣].

ـ «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، فانه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه! فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل»[٨٤].

وتمتد ظلال العدالة في عهد أمير المؤمنين (ع) فيرعى أسواقهم من ناحية المكاييل والمعروض من السلع وطبيعة المعاملات فيها، فيخرج كل يوم يتفقد أسواق المسلمين بنفسه فيرشد الضال، ويهدي المقصر إلى طريق الحق، ويأمر بكل معروف، وينهى عن كل المنكر. . .[٨٥].

ولشدة حرص الامام (ع) على تطبيق العدالة الاسلامية بأروع صورها في دنيا الناس، وعلى شتى الأصعدة أنه وجد درعه عند رجل نصراني، فوقف معه أمام القاضي ليقاضيه في الأمر.

فقال الامام (ع): انها درعي، ولم أبع، ولم أهب.

فسأل القاضي الرجل النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

قال الرجل: ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

فالتفت القاضي للامام (ع): طالباً بينة تشهد أن له الدرع.

فضحك الامام (ع) معلناً أنه لا يملك بينة من ذلك النوع. فقضى القاضي بأن الدرع للنصراني، فأخذها ومضى، والامام ينظر اليه.

الا أن الرجل عاد وهو يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدينني الى قاض يقضي عليه. .

ـ الدرع ـ والله ـ درعك يا أمير المؤمنين، وقد كنت كاذباً فيما ادعيت[٨٦].

---

(٨٣) نهج البلاغة رقم النص ١٣١.
(٨٤) نهج البلاغة رقم النص ٢١٦. البادرة = الغضب.
(٨٥) راجع البحار ج ٤١ ص ١٠٤ للاطلاع على منهاجه في مراقبة حالة السوق.
(٨٦) علي وحقوق الانسان ـ جورج جرداق ط بيروت ١٩٧٠ ص ٨٧.

وحصيلة الأمر أن يعلن الرجل اسلامه ويخلص في الوقوف تحت راية الامام (ع) مؤمناً مجاهداً ذائداً عن رسالة الهدى. .

وبقدر ما كان الامام (ع) حريصاً على تجسيد روح العدالة التي صدع بها رسول الله (ص) لاخراج الانسان من ظلام الظلم والقهر والكبت، كان حريصاً كذلك على الزام ولاته وقضاته وقادة جيوشه، وجباة الأموال بالتزام العدل في معاملة الناس، وتحري الحق في الحكم والقضاء واعطاء الحقوق، وفي جمع المال حتى في حالات الحرب وسواها. . .

وصاياه للولاة:

وهذه بعض وصاياه في هذا المضمار:

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، واياك والغضب فانه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»[٨٧].

«أنصف الله، وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فانك الا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. . .»[٨٨].

ومن توجيهاته (ع) لجباة الأموال:

«. . . انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلما، ولا تجتازنّ عليه كارها، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت علىٰ الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امضِ ـ بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم، فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله، أرسلني اليكم ولي الله، وخليفته لآخذ منكم حق الله في

---

(٨٧) وصيته لعبد الله بن عباس حين ولاه البصرة رقم النص ٧٦/ نهج البلاغة.
(٨٨) نفس المصدر ـ عهد الامام (ع) لمالك الأشتر حين ولاه مصر.
طيرة = خفة وطيش.

أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه الى وليه. . .»[٨٩].

«اياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج، أو تبيع دابة عمل في درهم، فانما أُمِرنا أن نأخذ منهم العفو»[٩٠].

ومن تعليماته لجيوشه:

ولقد كان (ع) يوصي جنوده في حالات الحرب **بألا يبدأوا بقتال العدو، حتى يبدأهم بالحرب، ولا يقتلوا من ولّى دبره عن قتالهم، ولا يقتلوا الجريح، ومن عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب، ولا يؤذوا النساء بشيء حتى وان بدأن بسب أو شتم**[٩١].

ونحو ذلك من وصاياه (ع).

أرأيت عدلا رفيعا كهذا العدل؟

بل هل حدثك التاريخ الانساني عن رجل يحب الخير حتى لخصومه الذين ناصبوه العداء؟

انه علي (ع) صاحب القلب الكبير، الذي شمل الناس بحب غامر، فبسط لهم العدل في حياتهم، وأشعرهم بحقيقة الكرامة الانسانية ووفر لهم غطاء من الأمن والاستقرار في جو الشعور بالمساواة والحياة الحرة الكريمة.

ثانياً ـ تواضع الامام:

خلق التواضع في معاملة الناس، بقدر ما يكون عبادة اسلامية ينـدب الشرع الالهي اليها، كذلك يعبر عن احدى صيغ التعامل الفاضل بين أبناء الأمة، فهو من وسائل توحيد الكلمة وجمع الشمل، واشاعة المودة والغاء التفاوت الطبقي.

ولقد كان الامام علي (ع) مثلا أعلى في تواضعه كما كان

---

(٨٩) نهج البلاغة رقم النص ٢٥ باب الرسائل ـ لا تخدج بالتحية = لا تبخل بها عليهم.

(٩٠) من وصيته لصاحب الخراج على القادسية وسواد الكوفة أنظر بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٢٨ والعفو = الفاضل عن النفقة.

(٩١) راجع نهج البلاغة رقم النص ١٤ باب الرسائل وغيره.

رسول الله (ص) من قبل.

وسيرته العطرة تطرح المزيد من الشواهد على ذلك الخلق الاسلامي الرفيع:

فعن الامام الصادق (ع) يقول: **«كان أمير المؤمنين يحطب ويستقي ويكنس، وكانت فاطمة تطحن وتعجن وتخبز»**[٩٢].

وكان الامام (ع) يشتري حاجته وحاجة اسرته الكريمة من السوق بنفسه، ويحملها بيده، وهو أمير المؤمنين، الذي يحظى باحتلال أرفع مركز في حياة المسلمين، ولقد كان الناس يسرعون اليه لحمل أشيائه حين يرون ذلك منه، ولكنه يأبى عليهم ويقول: **رب العيال أحق بحمله**[٩٣].

وكان (ع) يسير في الأسواق وحده، لا يصحبه حشم ولا خدم، ولا جند، فيرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبقالين والتجار ويأمرهم بالتواضع وحسن المعاملة ويتلو عليهم قوله تعالى: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾**[٩٤].

(القصص/٨٣)

ومن عظيم تواضعه (ع) أنه خرج يوماً على أصحابه، وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت اليهم فقال:

- **ألكم حاجة؟** قالوا:

- لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحب أن نمشي معك.

فقال لهم:

- **«انصرفوا فان مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي»**[٩٥].

وقد استقبله زعماء الأنبار وترجّلوا وأسندوا بين يديه فقال (ع):

(٩٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٧٢.
(٩٣) نفس المصدر نقلاً عن فضائل ابن حنبل.
(٩٤) المناقب ص ٣٧٢ وبحار الأنوار ج ٤١ ص ٥٤.
(٩٥) البحار ص ٥٥ عن المحاسن والكافي عن الصادق (ع).

ـ **ما هذا الذي صنعتموه؟ قالوا:**

ـ خلق منا نعظم به امراءنا.

فقال (ع):

ـ **«والله مـا ينتفع بهـذا امـراؤكم، وانكم لَتَشُقُّـونَ بـه على أنفسكم، وتَشْقَون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب، وما أربح الراحة معها الأمان من النار»**[96].

ومن تواضعه الجم أكله خبز الشعير واللبن، ولبسه أبسط أنواع اللباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه[97]، ووقوفه بين يدي القاضي مـع رجل من عامة الشعب الذي يضطلع الامام (ع) بقيادته[98].

ومن أدبه الكامل تسليمه على النساء[99] من قومـه، ومشيه مـع المرأة لقضاء شأن من شؤونها حتى وان جلب له الأمر مشقة، فعن الامام الباقر (ع) قال:

«رجع الامام (ع) الى داره في وقت القيظ، فإذا امرأة قائمة تقول:

ـ ان زوجي ظلمني، وأخافني، وتعدى عليَّ..

فقال الامام:

ـ يـا أمة الله اصبـري حتى يبرد النهـار ثم أذهب معك ان شـاء الله،

فقالت:

ـ يشتد غضبه عليَّ.

فطأطأ الامام (ع) رأسه ثم رفعه وهو يقول:

ـ لا والله أو يؤخـذ للمظلوم حقـه غير متعتـع! أين منـزلـك؟

ووقف الامام (ع) على باب المنزل فقال:

ـ السلام عليكم، فخرج شاب.

---

(٩٦) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٧٢. والبحار ج ٤١ ص ٥٥.

(٩٧) للتفاصيل راجع الحلقة الثانية من هذه الدراسة وبعضاً من فصول هذه الحلقة: كزهد الامام (ع) واقرار العدل.

(٩٨) بحار الأنوار ج ٤١ ص ٥٦ وعلي وحقوق الانسان ـ جرداق ص ٨٧.

(٩٩) الكافي ج ٥ باب التسليم على النساء حديث رقم ٣.

فقال له الامام (ع):

ـ يا عبد الله اتقِ الله، فانك قد أخفتها وأخرجتها!

فقال الفتى: وما أنت وذاك؟ فقال أمير المؤمنين:

ـ آمرك بالمعروف، وانهاك عن المنكر تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف؟

فأقبل الناس يلقون التحية على الامام (ع):

ـ سلام عليكم يا أمير المؤمنين!

فأسف الشاب على ما كان منه وهو يقول:

ـ يا أمير المؤمنين أقلني عثرتي، **فوالله لأكوننّ لها أرضاً تطؤني.**

فالتفت الامام الى المرأة قائلاً:

ـ يا أمة الله ادخلي منزلك ولا تلجئي زوجك الى مثل هذا وشبهه»[100].

وكان الامام (ع) قريباً سهلاً هيناً يلقى أبعد الناس وأقربهم بلا تصنع ولا تكلف، ولم يُحطْ نفسه بالألقاب ولا زخرفة الملك، بل كان يتعامل مع الأمة كفرد منها، يعايش مشاكل الضعفاء، ويحب المساكين، ويتودد للفقراء، ويعِظّم أهل التقوى من الناس.

ولقد كان من شواهد رفقه بالامة وتواضعه في المعاملة وسهولته، ومرونته: مقابلته لمن يلقاه بالبشر وطلاقة المحيا والابتسامة الحلوة وبشر الوجه، الغاءً منه للحواجز والرسميات بين القيادة والامة، وانهاء لدور الزخرفة والألقاب التي يحيط بها الأمراء والقادة أنفسهم عبر تعاملهم مع الناس.

ولاشتهاره بتلك الروح الاجتماعية السمحة بين عامة الناس حاول اعداؤه أن يشوهوا تلك الميزة في الامام (ع) ويحولوها الى عيب ينبزونه فيه امعاناً منهم في تشويه واقع خطه وسياسته وجميل صفاته الشخصية والاجتماعية.

فعمرو بن العاص يحدث أهل الشام عن علي (ع) فيقول: انه ذو دعابة شديدة محاولاً الانتقاص من شأن الامام (ع) والامعان في تغطية فضائله،

---

(١٠٠) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٣٧٤.

والعمل على كل ما من شأنه تضليل الناس هناك لكي يحال بينهم وبين التطلع لواقع الامام (ع) وحقيقته.

حتى أن الامام (ع) حين بلغه افتراء ابن العاص قال:

«عجبا لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فيَّ دعابة واني امرؤ تلعابة»[101].

ولقد كان معاوية بن أبي سفيان يشيع ما يشيعه ابن العاص كذلك في مناسبة وأخرى.

وما يضير أمير المؤمنين (ع) اذا عابه معاوية وابن العاص، فلقد كان عليه السلام يقتفي أثر رسول الله (ص) في سماحة أخلاقه وطلاقة محياه سواء بسواء.

وكان (ع) يعمل على الالتصاق بالناس للتعرف على ما يعانون حتى أنه كان يمشي في الأسواق ويتابع الحركة التجارية من ناحية الوزن والأسعار ونوعية المعروض من السلع ـ كما ألمحنا اليه قبل قليل.

وكان الامام (ع) حريصاً على متابعة تصرفات الولاة في البلدان، والقادة وجباة الأموال، ويأمرهم بالرفق والتواضع في معاملة الناس.

وما أروع روح التواضع عند علي (ع) كما يصفها ضرار بن ضمرة في حديثه لمعاوية ـ الذي افتتحنا به هذا الفصل ـ: «يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب... كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه، ويبتدئنا اذا أتيناه، ويأتينا اذا دعوناه... يعظم أهل الدين، ويحب المساكين»[102].

ثالثاً ـ حلم الامام:

ولقد كان الامام (ع) قمة في حلمه وعفوه عمن يسيء الأدب معه، فهو لا يعرف الغضب الا حين تنتهك للحق حرمته أو تتعدى حدود الله تعالى، أو يعتدى على حقوق الأمة وتضر مصلحتها.

---

(١٠١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥. تلعابة = كثير المرح واللعب.

(١٠٢) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٨١.

وخلق الامام (ع) في الحلم والصفح عن المسيء ظل هو هو لم يتغير، فعلي (ع) في صفحه وحلمه قبل خلافته، كعلي في صفحه وعفوه أيام قيادته المباشرة للأمة، على أن عظمة الامام (ع) تزداد قوة وجلاء حين يظل يصفح ويمعن في عفوه حتى عن أشد خصومه في وقت يمتلك القدرة على العقاب والارهاب والقتل.

فهو في أيام خلافته في مركز يؤهله أن يقتص من خصومه، فهو رئيس الدولة، والمطاع الأول بين أتباعه غير أنه مع هذا وذاك ظل يحمل نفس الروح من العفو والتجاوز كما كان رسول الله (ص) قبله سواء بسواء.

وهذه نماذج من عفوه:

- أسر مالك الأشتر (رض) مروان بن الحكم يوم الجمل فلما مثل مروان بين يدي الامام (ع) لم يستقبله بسوء قط، وانما عاتبه على موقفه الخياني اللئيم فحسب[١٠٣] ثم أطلق سراحه ومروان هو هو في حقده على الإسلام والإمام (ع)، وهو هو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الامام (ع) أشهر من أن نذكره، فهو الذي عارض البيعة للامام (ع) وهرب من المدينة المنورة بعد البيعة مباشرة، وهو الذي ساهم في فتنة البصرة، وألهب الناكثين وأغراهم بالتعجيل بها... الى غير ذلك من مواقفه الخسيسة.

- ولقد عفا الإمام (ع) كذلك عن عبد الله بن الزبير[١٠٤] بعد أسره يوم الجمل، وعبد الله بن الزبير هو الذي كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

- وجيء بموسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفاً في فتنة الجمل فلما وقف بين يدي الامام (ع) خلى سبيله، ولم يعنفه عن دوره في الفتنة، وانما طلب منه أن يستغفر الله ويتوب اليه ثم قال:

(اذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع فخذه، واتقِ الله فيما تستقبله من أمرك واجلس في بيتك)[١٠٥].

(١٠٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨ ونهج البلاغة نص ٧٣.
(١٠٤) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٢.
(١٠٥) بحار الأنوار ج ٤١ ص ٥٠ نقلاً عن النهاية. الكراع = جمع الخيل.

ومن عظيم عفوه ما رواه الامام الباقر (ع) قال: **«كان علي (ع) اذا أخذ أسيراً في حروب الشام أخذ سلاحه ودابته واستحلفه أن لا يعين عليه»**[١٠٦].

أرأيت موقفاً انسانياً كهذا الموقف؟

لقد كان الامام (ع) مدركاً أن الذين يقاتلونه من أهل الشام انما يقاتلونه وهم عن حقيقته غافلون، فقد أغراهم معاوية بالمال، وسد عليهم منافذ التفكير والوعي على الحقائق بما استخدمه من وعاظ سوء وواضعي حديث ممن باعوا ضمائرهم للانحراف صوب الجاهلية.

وبناء على هذا الوعي العلوي لحقيقة مقاتليه ممن أغراهم معاوية وغرر بهم، فقد سبق حلم الامام (ع) عدله في معاملتهم فلم يعاقب من اتخذ منهم أسيراً، وانما يجرده من أداة الشر، ويضعه أمام الله والضمير كي لا يعود لقتال معسكر الحق الذي يقوده الامام (ع).

ويذكرنا هذا الموقف الكريم بموقف معاوية وعمرو بن العاص اللذين كانا يصران على قتل الأشراف من جيش الامام (ع)، بيد أنهما خشيا الفضيحة اذا أقدما على ذلك بعد أن خلى الامام (ع) عن اسراهم ابتداء فعدل معاوية وصاحبه عن موقفهما لا لطيب خلق منهما، وانما خشية نقمة الرأي العام الاسلامي[١٠٧].

ولِمَ نذهب بعيداً وتلك معركة صفين تحمل أحداثها الكثير الكثير من مواقف الصفح العلوي... فحين سبق جيش معاوية الى ماء الفرات أصر على منع الماء عن جيش علي (ع)... فأوفد الامام (ع) لمعاوية وفدا كي يغير موقفه. ولكنه مضى في اصراره وموقفه اللاأخلاقي...

فاضطر الامام (ع) لتحريك قوة من جيشه لفك الحصار. وكانت النتيجة أن سيطر جيش الامام (ع) على الماء... ولكن علياً حمله حلمه الرفيع وكرم نفسه على بذل الماء لخصمه قائلاً لجنوده:

---

(١٠٦) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٨١ عن ابن بطة والسجستاني.

(١٠٧) الامام علي بن أبي طالب ـ محمد رضا ص ٢٢٣.

«خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم. وخلوا عنهم فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم»[108].

ولقد كان مقدراً للامام (ع) أن يذيقهم الهزيمة الشاملة لو أنـه منعهم الماء، وحال بينهم وبينه، ولكنها الأخلاق الالهية التي يتمسك بها ويجسدها حية في دنيا الناس تأبى عليه ذلك اللون من المواقف... حتى يقع التمييز بين منهج الهدى والصراط المستقيم في الفكر والعمل والذي يمثله علي (ع) وبين سبيل الانحراف والالتـواء واللاأخـلاق التي يجسدهـا معاويـة بن أبي سفيان...

ولنا أن نعرض شواهد من حلم الامام (ع) وعظيم صفحـه في حياتـه الخاصة كذلك:

- «دعا الامام (ع) غلاماً له مراراً فلم يجبه، فخرج فوجده على بـاب البيت فقال:

ما حملك على ترك اجابتي؟ قال:

- كسلت عن اجابتك، وأمنت عقوبتك. فقال (ع):

الحمدلله الذي جعلني ممن يؤمن خلقه، امضِ فأنت حر لوجه الله»[109].

- وقـد خاطبـه رجل من الخـوارج بقولـه: «... قاتله الله كـافرا مـا أفقهه!».

فوثب أصحاب الامام (ع) ليقتلوه.. فقال الامام (ع):

رويداً انما هو سب بسب أو عفو عن ذنب[110].

وهكذا شمل الرجل بعفوه، وحال بين القوم وبين معاقبته.

هذا وفي سيرة الامام (ع) الكثير من مثل هذه المواقف التي تعبر عن خلق الهي كريم أطرَّت به شخصية علي (ع)، على أننا لو غضضنا الطرف عن

---

(١٠٨) نفس المصدر ص ١٧٣.

(١٠٩) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٧٩.

(١١٠) نفس المصدر ص ٢٨٠ وبحار الأنوار ج ٤١ ص ٤٩.

مواقف الحلم كافة التي اصطبغت بها حياة علي (ع) بالنسبة الى المسيئين له أو أعدائه لكان في موقف الامام (ع) من قاتله ابن ملجم المرادي أعظم شاهد على تمتع الامام (ع) بنمط من الأخلاق السامية لم يتمتع بها سوى الأنبياء والمقربين الىٰ الله، فهل أنبأك التاريخ عن انسان عامل عدوه بنفس الروح التي عامل بها علي (ع) قاتله، لقد شدد الامام (ع) على أهل بيته أن يطعموا قاتله ويسقوه ويحسنوا اليه فعن الامام الباقر (ع) وهو بصدد ذكر احدى وصايا الامام أمير المؤمنين (ع) في آخر حياته يقول:

«ان علي بن أبي طالب عليه السلام... قال للحسن والحسين (ع): احبسوا هذا الأسير - يعني ابن ملجم المرادي - وأطعموه واسقوه، وأحسنوا اساره فان عشت فأنا أولى بما صنع فيَّ، ان شئت استقدت وان شئت صالحت، وان مت فذلك اليكم، فان بدا لكم أن تقتلوه فلا تمثِّلوا به»[111].

رابعاً - التوَرع عَن البَغي:

والتورع عن البغي أصل من أصول نفسية الامام (ع) وخلق من أخلاقه الكريمة، وهو مظهر من مظاهر التقوى التي يمتاز بها، فهو يتحاشى البغي حتى على أشد الناس خصومة له وللحق الذي هو عليه، وحتى اذا بغي عليه يبقى مصراً على التزام خطه في النأي عما له صلة بأي لون من ألوان البغي...

ومن أجل ذلك كان الامام (ع) داعية السلم الأكبر، مع كثرة الشغب والفتن التي أثارها النفعيون والوصوليون في طريق مسيرته الاصلاحية:

- بذل كل ما في وسعه أن يجنب الامة المسلمة سفك الدماء وتمزق الصف، حين ألح على الزبير وطلحة أن يعدلوا عن موقفهم، سواء من خلال المراسلة، أم الوفود أم اللقاءات الشخصية المباشرة مع الزبير وطلحة[112].

ولقد بلغ الأمر بالامام (ع) حين التقى الجيشان في البصرة أن يدعو

---

(١١١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ٢٠٦ باب ١٢٧.

(١١٢) تذكرة الخواص ص ٧٦.

الزبير فيخرج الامام (ع) بلا سلاح، ويعانقه طويلاً! وربما بكى علي (ع) في ذلك الموقف، ثم عاتب الزبير على خروجه لقتاله، وذكّره بعلائق المودّة القديمة بينهما كما ذكره بقول رسول الله (ص) فيهما: «**أنشدك الله يا زبير أما تذكر، قال لك رسول الله (ص) يا زبير أتحب عليا، فقلت: وما يمنعني من حبه، وهو ابن خالي؟**

فقال (ص): أما أنك ستخرج عليه وأنت له ظالم.

فقال الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك»[113].

وحين أفلت الزمام وأصر الناكثون على اشعال نار الحرب بقي الامام (ع) عند موقفه الرافض للبغي والعدوان، فلنصغ اليه وهو يخاطب جنوده: «**أيها الناس أنشدكم الله أن لا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سبيا ولا تأخذوا سلاحا، ولا متاعا**»[114].

وحتى بعد انتهاء المعركة بقي الامام (ع) عند موقفه النائي عن العدوان فأعلن العفو العام عن جميع المشتركين في حربه: القيادات والقواعد على حد سواء[115].

ـ وذاك الخلق العلوي تجلى في حوادث صفين من بدايتها الى نهايتها: يقطع البغاة عنه طريق الوصول الى الماء وهو في حيويته لجيش مقاتل كبير مثل جيشه فلا يبادر لاستعمال العنف، بل يرسل الوفود، ويبذل المحاولات لتغيير الموقف بالتي هي أحسن.. لكي لا تراق للمسلمين دماء... ولكن البغي الأموي الحاقد الذي يجسده قولهم: «**ولا قطرة حتى تموت ظمأ**»[116] حمله على اصدار أوامره لقواته بالتحرك لكسر الحصار وهكذا كان... وحين امتلك الماء أباحه لجيش عدوه منذ الساعة الأولى من سيطرة قواته عليه.

---

(١١٣) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٦١ وفي تذكرة الخواص رواية مشابهة وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ١٧٦ مثلها.

(١١٤) الفصول المهمة ص ٦٢ وتذكرة الخواص أيضاً.

(١١٥) راجع الحلقة الثانية من هذه الدراسة.

(١١٦) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٤٥ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٣.

ـ ومع أصحاب النهروان بذل الامام (ع) كل مسعى لأجل ابعاد الناس عن القتال، ولكن اصرارهم علىٰ قتال الامام (ع) حال دون بلوغهم الصراط المستقيم فعاثوا في الأرض فسادا وقتلوا نفوساً بريئة، وأثاروا البلبلة في البلاد مما اضطر عليا (ع) الى قتالهم، ولكن بعد محاولات عديدة منه أيضاً لجمع الصف، ودعوات مستمرة لاقرار السلم والقاء السيف[117].

وفي وصايا الامام (ع) لجيوشه وجباة المال والولاة مؤشرات أخرى على التزام علي (ع) لمنهاج اللابغي واللاعدوان على أحد كائناً من كان مما ذكرنا منه طرفا في الصفحات الماضية في هذا البحث.

ـ وما أعظم علياً أمير المؤمنين (ع) وهو ينص في عهده لمالك الأشتر على وجوب التزام الرفق بالناس، وعدم التعامل بأي لون من ألوان البغي والتعالي على الناس، وغمط حقوقهم المفروضة في شرع الله العظيم: «. . . **واشعر قلبك الرحمة للرعية، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فانهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. . . فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. . .**

أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك هوى فيه من رعيتك، فانك الا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان لله حرباً حتى ينزع، أو يتوب»[118].

ولم يكن منهاج علي (ع) هذا خاصاً بأهل مصر، وانما هو منهاجه الشامل لكل البلاد التي رفرفت راية دولته الكريمة عليها.

ـ ولقد كان الامام (ع) يعهد الى ولاته في الأمصار مثل الذي عهده الى

---

(١١٧) راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب.

(١١٨) عهد الامام (ع) الى مالك الأشتر حين ولاه مصر ـ نهج البلاغة رقم النص ٥٣ ص ٤٢٦.

مالك (رض) في وجوب اشاعة العدل، والرفق بالناس، وعدم البغي عليهم بحال من الأحوال أو معاملتهم بأي لون من ألوان الظلم. . .

ولقد ذكرنا بعضاً من وصاياه للولاة فيما مضى من حديث.

خامساً ـ شَواهد من صَبر الامام:

وقوة الارادة والروح العالية في مواجهة مصاعب الحياة ركن أساسي في شخصية علي (ع) وقد لا نغالي اذا اعتبرناها قاعدة للكثير من مواقف الامام (ع) في حياته العملية، مما ذكرناه أو مما لم نذكره، فشدة تعلقه بالله وكثرة عبادته، وتورعه عن البغي وزهده في الحياة الدنيا، وصفحه عمن يسيء اليه وغيرها مؤشرات ضخمة على تسلح الامام (ع) بصبر لا يعرف الهزيمة ولا النكوص عن القصد بشكل جعل الامام (ع) وكأنه الصبر صار انسانا.

ومع أن تلك المواقف والممارسات تمنح الدليل تلو الدليل على حجم الصبر الذي يتمتع به الامام (ع) فانه من المناسب أن نذكر الى جانب ذلك مواقف وأحداثاً جرت في حياة علي (ع) وقد واجهها بالصبر ورباطة الجأش التي لا نظير لها نذكر منها:

١ ـ فحين أجمعت قريش في دار الندوة على قتل المصطفى (ص) من خلال عملية جماعية يتولاها من كل قبيلة شاب قوي ليذهب دم الرسول (ص) هدراً بزعمهم دون أن تستطيع بنو هاشم ـ عشيرة النبي ـ أن تطالب بدمه. . .

حين أجمع رؤوس الشرك على تدبير ذلك الجرم، أنبأ الله تعالى رسوله (ص) بأمرهم:

﴿وَاذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَروا لِيثْبِتُوك أَوْ يَقْتُلُوك أَوْ يُخرِجوك وَيَمْكُرونَ وَيَمْكُرُ الله وَالله خَيْرُ الماكِرين﴾.

(الانفال/ ٣٠)

وأمره تعالى بوجوب الهجرة الى دار الاسلام «يثرب» فخرج (ص) مهاجراً بعد أن ترك علياً (ع) في فراشه ملتحفاً ببردته فقضى الامام (ع) ليلته في فراش رسول الله (ص) دون أن يكترث بما حوله من مكر مبيت. فلقد كان

محتمـلاً أن ينقض أولئك الأوغـاد على الامـام (ع) بسيـوفهم دون رحمـة، مدفوعين بالحقد الجاهلي الأسود البليد، دونما أقل اكتراث، ظنـاً منهم أنه الرسول (ص)، والامام (ع) كان يتوقع ذلك منهم، ولكن ارادة علي ورباطة جأشه المعروفة المستمدة من الثقة المطلقة بالله والايمان الكامل بقدره وقضائه تعالى وقوة صبر الامام (ع) على مواجهة المصاعب والأحداث قد حملته على أن يسخـر بمـا يبيتــون، حتى اذا طلع الصبـاح هجم القــوم على حجـرة الرسول (ص) وعلي (ع) فيها، وهم يظنون أنه رسول الله (ص)... فواجههم الامام (ع) بصلابة ارادته المعهودة:

ما شأنكم؟ قالوا:

أين محمد؟ قال:

أجعلتمـوني عليه رقيبـا؟ ألستم قلتم نخرجـه من بلادنـا، فقد خـرج عنكم!!

هكذا يخاطب الامام (ع) المتآمـرين بمنتهى الصبر والابـاء والصرامـة ساخراً بأولئك الأوباش.

انه موقف شجاع تتصاغر أمامه ارادة الأبطال من الرجال!

وبتلك الارادة بقي الامام (ع) في مكة بعد هجرة رسول الله (ص) يواجه مسؤولياته في تنفيذ وصايا الرسول (ص) واداء المهمات المناطة به كافة.

٢ ـ وفي يوم هجرته خرج الامام (ع) جهارا يقود قافلة المهاجرات من أهل البيت: فاطمة الزهراء، وفاطمة بنت أسد وسواهما، فجرت محاولة من المشركين للحيلولة دون هجرته، ولكن ارادة علي (ع) وقوة تحمله للعقبات أفشلت المحاولة، فلم يعبأ بالفرسان الثمانية الذين أرسلوا لاعتراض سبيله، فواجههم بسيفه، وأهوى به على قائدهم بضربة قاضية، تحول الرجل بعدها الى جثة هامدة يخور بدمه في تلك الفلاة من الأرض، ففر الباقون مخلفين قائدهم المضرج في الميدان[١١٩].

(١١٩) الامام علي رجل الاسلام المخلد ـ عبد المجيد لطفي ص ٥٣ وأعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ص ١٥٦ ـ ص ١٥٧.

٣ ـ وفي دار الهجرة واجه الامام (ع) مسؤولياته العظيمة كجندي من جنود الرسالة في الرعيل الأول، فأبدى (ع) من قوة الارادة ومضاء العزيمة والقدرة على مواجهة المصاعب ما يعد مفخرة يعتز بها انسان الاسلام بامتداد وجوده التاريخي، فالامام (ع) عبر المعارك الهجومية والدفاعية ـ التي خاضها رسول الله (ص) من أجل نشر الرسالة الالهية أو حماية وجودها العملي في حياة الناس ـ كان قطب رحاها الخائض المقدام لغمراتها الذي لا تأخذه في الله لومة لائم من أجل اخماد طغيان الشرك والمشركين واعداء الرسالة المتربصين كافة، فما من حرب تسعر وما من معركة تدور رحاها إلا دعي علي (ع) لاخماد فتنتها وتنكيس رايات الجاهلية فيها: في بدر، وأحد والأحزاب، وحنين، وخيبر... و.... و...

وفي كثير من المواقف يسود الهلع في معسكر المسلمين، ويستبد الوهن والنكوص عن مواجهة العدو، فيعيد سيف علي (ع) الثقة للنفوس ويجدد في معسكر الايمان روح القدرة على المواجهة وصد العدوان...

الأمر الذي يكشف عما يتمتع به الامام (ع) من نفس كبيرة تعلو على كل وهن، وتسخر من كل ضعف، وترتفع فوق كل ذلة وهوان... انها قوة الارادة... ومضاء العزيمة وشدة الصبر على المكاره مقرونة باليقين العميق بالله تعالى، والاستمداد منه والتوكل عليه دون سواه.

٤ ـ وقد تولى الإمام (ع) الخلافة في ظروف صعبة دقيقة على مضض ـ وبعد محاولات عديدة من الرفض لها من قِبَله[١٢٠] ـ وما أن عقدت له البيعة حتى نكث قوم وقسط آخرون، ومرق غيرهم، كل ذلك من أجل أن يحال بين الامام (ع) وبين استئناف المسيرة الإسلامية التي بدأها رسول الله (ص).

ولقد تحمل أمير المؤمنين (ع) ما تحمل من الآلام والمشقات في سبيل اخماد الفتن السوداء التي أثارها أصحاب المنافع الشخصية وأصحاب المصلحة من سياسة الانحراف، في طريق مسيرته الاصلاحية، فقابل كل ذلك

---

(١٢٠) تراجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب.

بالصبر الجميل، وبالتسليم لقضاء الله تعالى، حتى رحل الى ربه الأعلى شهيداً مثقلاً بالمتاعب والآلام.

٥ ـ واذا تركنا تلك الأمور جانباً وألقينا نظرة على جوانب أخرى من حياة الامام (ع) لنحدد مواقع الصبر والارادة الصلبة لما صح أن تفوتنا مواقف الصبر التي وقفها أمير المؤمنين (ع) حين يفارق أحبته ورفاق الدرب، وأولهم رسول الله (ص) الذي فاضت نفسه الشريفة في حجر الامام (ع)[١٢١] وواراه الثرى بنفسه، وعايش مأساة فراقه بكل أبعادها، وها هو يخاطب رسول الله (ص) وهو يلي غسله وتجهيزه بكلمات حزينة تدمي القلب وتزرع الأسى: «**بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء. خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك؟ وعممت حتى صار الناس فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لانفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً، وقلَّا لك، ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطاع دفعه! بأبي أنت وأمي، اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك**»[١٢٢].

واذا أعدنا الى الأذهان ما يحظى به رسول الله (ص) من حب وتعظيم في نفس أمير المؤمنين (ع) لأدركنا حجم الأسى الذي صب على الامام (ع) بفقده (ص)، فعلي (ع) قد حظي بتربية الرسول (ع) ورعايته واعداده ومصاحبته منذ الصبا حتى فارق رسول الله (ص) الدنيا.

ولقد كانت تلك التربية وتلك الأخوة بينهما مليئة بضروب الود والحنان والوفاء والاخلاص مما ليس له نظير[١٢٣].

---

(١٢١) مسند احمد بن حنبل ج ٢ ص ٣٠٠ ومناقب الخوارزمي عن عائشة وللامام علي (ع) اشارة لهذه الحقيقة في نهج البلاغة رقم النص ٢٠١.

(١٢٢) نهج البلاغة من كلام له (ع) رقم ٢٣٥.
أنفدنا = أفنينا. ماء الشؤون = منابع الدمع. الداء مماطلاً = مما طلا بالشفاء.
الكمد محالفاً = الحزن ملازماً. قلا = محالفة الحزن ومماطلة الشفاء قليلان لك.

(١٢٣) راجع الحلقة الأولى من هذا الكتاب.

على أن الامام (ع) التزم جانب الصبر راضياً بقضاء الله المحتـوم في رسول الله (ص).

٦ ـ وفي خضم الأحداث المريرة التي عايشهـا أمير المؤمنين (ع) في هذه الفترة، ألمت بالزهراء سيدة نساء العالمين العلة التي توفيت على أثرها فلحقت بالراحل العظيم أبيها حيث كان الامام (ع) طوال فترة المرض الذي عانت منه فاطمة (ع) يعايش ما تعاني بملء كيانه، فهي وديعة رسول الله (ص) ومدرسة الامامة التي خرّجت قادة الأمة الهداة (ع) وهي الصـابرة المحتسبـة وهي بعد ذلك زوجه الوفية التي عايشت معه آماله وآلامه طوال حياتها...

لقد رأى الامام (ع) زهراء الإسلام، بعد رسول الله (ص): وهي تعايش مرارة الأسى ثم وهي تستسلم لفراش المرض فيشحب لونها، وتتردى أوضاعها الصحية يوماً بعد يوم، ثم يراها وهي تفارق الدنيا، فيباشر تغسيلها وتجهيزها ودفنها عليها السلام، ثم يقف على شفير قبرها مودعاً بعبارات تذيب القلوب الحديدية: «**السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحـاق بك! قـلَّ يا رسـول الله عن صفيتك صبـري، ورق عنها تجلدي، الاّ أن في التأسي لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع تعزٍ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك فانا لله وانا اليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعـة، وأخذت الـرهينة! امـا حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد الى أن يختـار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئـك ابنتك بتضـافر امتـك على هضمها فـأحفها السؤال، واستخبـرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودع، لا قالٍ، ولا سئم، فان انصرف، فلا عن ملالة، وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين**»[١٢٤].

---

(١٢٤) نهج البلاغة رقم النص ٢٠٢.
التأسي = الاعتبار. الفادح = المثقل. التعزي = التصبر. ملحودة القبر = الجهة المشقوقة منه. مسهَّد = اشتد به الأرق. هضم = ظلم. احفاء السؤال = الاستقصاء فيه. القالي = المبغض. السئم = الضجر.

وهكذا استسلم الامام (ع) لقضاء الله تعالى واستعان على الأسى بجميل الصبر.

٧ ـ وكما صبر الامام (ع) لفقد رسول الله (ص) والصديقة الزهراء (ع) تجمل بالصبر كذلك لفقد اخوة له في الله، انقطعوا اليه في الوفاء وبذلوا أرواحهم وكل ما يملكون في سبيل رسالة الله تعالى، وقد تصدوا لهدم الباطل، وواجهوا الانحراف، فاستشهدوا في ساحات الجهاد كعمار بن ياسر ومالك بن التيهان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصاري ومالك الأشتر، ومحمد بن أبي بكر وسواهم.

وها هو الامام (ع) يذكرهم قبل اغتياله بأيام في خطبه له جاء فيها:

(. . . **اين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية؟ وأبرد برؤوسهم الى الفجرة.**

«ثم أطال البكاء» وقال:

اوه على اخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه أحيوا السنة، وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه. . .»[125].

٨ ـ ومن شواهد صبر الامام (ع) كذلك رفضه للدنيا ولذاتها وتحمله لأذى الجوع، والتقشف وزهده بالمال حتى يبلغ به الحال أحياناً أن يشد حجر المجاعة[126]، على بطنه، ولقد رأيت في حديثنا عن زهده وعدالته[127] ما يغنيك عن تعداد شواهد أخرى من قوة تحمله وارادته في مواجهة المشقات وعقبات الحياة.

---

(١٢٥) نهج البلاغة أواخر خطبة رقم ١٨٢.
أبرد برؤوسهم = أرسلت رؤوسهم بالبريد الى الطغاة للتشفي منهم.
أوه = كلمة توجع.

(١٢٦) شرح النهج ج ١ ص ٢٢.

(١٢٧) في الحلقة الثانية والثالثة من هذا الكتاب.

وهكذا عايش الامام (ع) حياة مليئة بالكدح والآلام، زاخرة بالرزايا، حافلة بالمحن، غير أنه واجهها جميعاً بقوة صبره، وعظيم ارادته التي لا تقهر.

* * *

في حقل المعرفة

* صور من فكر الإمام.
* مصنفات الإمام.
* طرف من مواعظ الإمام.
* قبس من حكم الإمام.

ان محاولة الحديث عن دنيا المعرفة عند علي (ع) مهما أعطيت من التوفيق يستحيل عليها أن تحد الفكر العلوي العظيم، وتحيط بأبعاد المعرفة التي تميز بها الامام (ع) وطرحها في ساحة الفكر الانساني، وحسبك أن كل مدرسة فكرية ظهرت في دنيا المسلمين، كل منها تعلن انتماءها فكرياً للامام (ع) حتى وان كانت مخالفة للواقع والحق، وكأن قولها بالاستمداد من علي (ع) يعطيها صفة الشرعية وحق الحياة، فالأشاعرة نسبوا أنفسهم له، والمعتزلة ادعوا الانتماء اليه، وزعمت مدرسة الرأي في الفقه انتماءها اليه، وذهب المتصوفة الى أن امامهم أمير المؤمنين فيما ذهبوا، وسوى هؤلاء كثير[١٢٨].

هذا فضلاً عن حَمَلة مبادئه من الذين التزموا مذهب أهل البيت (ع) الثقل الثاني بعد القرآن الكريم، الذي ألزمت الشريعة بالتمسك بهما وسلوك دربهما على لسان رسول الله (ص) مبلغاً عن الله عز وجل:

«اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[١٢٩].

فادعاء جميع المدارس الفكرية والفقهية انتماءها للامام علي (ع) وانتهالها من فيض علمه مؤشر كبير على عظمة الامام (ع) وعلو شأنه في دنيا الفكر الاسلامي. الأمر الذي لم يكن لأحد من المسلمين بعد رسول الله (ص) طوال التاريخ الاسلامي.

---

(١٢٨) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٧ وما بعدها ط ١، ١٩٥٩ ط دار احياء الكتب العربية.

(١٢٩) روى هذا الحديث باختلاف يسير في اللفظ: مسلم في الصحيح، والحاكم في مستدرك الصحيحين وأحمد في المسند، والمتقى في كنز العمال، وغيرهم.

فعلي (ع) قد تنازعته كل الحركات الفكرية والفقهية التي ولدت في تاريخ المسلمين، بل قال بالانتساب اليه أصحاب النشاطات الفكرية والثقافية والعلمية من نحويين وأهل القراءات وعلماء التفسير وأهل الحديث والفقه وسواهم، على أن الانتساب لعلي (ع) في الحقل المعرفي أو ادعاء الانتساب اليه لم يأتِ عفوا أبدا، وانما هو شاهد قوي على أن عليا (ع) لم يترك حقلا من حقول المعرفة الصحيحة الا ووضع أسسه وحدد معالمه وترك الباب مفتوحاً لرواد المعرفة أن ينهلوا منه.

ولم يكن العطاء الفكري العظيم الذي أسداه الامام (ع) للانسان الا حصيلة طبيعية للاعداد الخاص الذي توفر للامام (ع) من لدن رسول الله (ص) منذ طفولة الامام (ع) حتى آخر ساعة من حياة الرسول (ص).

ولقد أشار الامام (ع) ذاته الى ذلك الاعداد الذي وفره له رسول الله (ص) وكشف عن أهميته وأبعاده في حياة الامام (ع) بقوله: «... **وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه: ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، واشم ريح النبوة**»[١٣٠].

ولاستمرارية ذلك الاعداد الخاص لعلي (ع) يشير أبو سعيد الخدري (رض) بقوله: «كانت لعلي من رسول الله (ص) دخلة لم تكن لأحد من الناس»[١٣١].

---

(١٣٠) نهج البلاغة/ الخطبة القاصعة. رقم النص ١٩٢.
(١٣١) أنساب الأشراف ج ٢ ص ٩٨ ـ البلاذري.

وعن ابن عباس «رض» عن علي (ع) قال:

«كان لي من النبي (ص) مدخلان: مدخل بالليل، ومدخل بالنهار»(١٣٢).

ولقد كان ذلك الاعداد الرسولي منصباً على جميع جوانب شخصية الامام (ع) من أجل تأهيله فكرياً ونفسياً لاحتلال موقع المرجعية الفكرية والسياسية للأمة الاسلامية بعد غياب رسول الله (ص) عن مسرح الحياة.

وحيث أن حديثنا هذا يهدف الى دراسة العطاء الفكري الثري الذي وهبه الامام (ع) للانسانية، فلا بد من أن نشير الى أن رسول الله (ص) حين أكمل بناء الجانب الفكري من شخصية الامام (ع) وأهله لخلافته في هذا المضمار، أخذ (ص) يبلغ الأمة بحقيقة ما وصل اليه الامام (ع) من مستوى عظيم في ميدان المعرفة:

قال (ص):

- **«أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتِه من بابه»**(١٣٣).

- **«علي باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به...»**(١٣٤).

وعن ابن مسعود قال: كنت عند النبي (ص) فسئل عن علم علي (ع)؟ فقال:

- **«قسمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً، وهو أعلم بالعشر الباقي»**(١٣٥).

وهناك أحاديث شريفة بهذا الشأن لا تكاد تحصى كثرة، وهي تهدف

---

(١٣٢) خصائص الامام علي بن أبي طالب ـ للنسائي ص ٤٩.

(١٣٣) أخرجه الترمذي في صحيحه وأحمد بن حنبل والحاكم في المستدرك والحافظ أبو محمد السمرقندي في بحر الأسانيد وابن جرير في تهذيب الآثار والأربلي في كشف الغمة ويراجع فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي للحافظ أحمد بن محمد الصديق الغماري ط ٢، ١٩٦٩.

(١٣٤) أبو نعيم في حلية الأولياء والديلمي في فردوس الأخبار وغيرهما ويراجع مقام أمير المؤمنين ط الأعلمي ص ٧.

(١٣٥) أخرجه الخوارزمي وابن المغازلي الشافعي والمناقب لابن شهر آشوب ج ٢ ص ٣٠.

جميعاً الى بيان المكانة التي يحتلها الامام (ع) في الجانب المعرفي، وتدعو الأمة صراحة الى وجوب أخذ معارف التشريع الإلهي عن طريقه[136]، فمنه تستمد الهدى، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى بعد رسول الله (ص).

ولقد أدرك الكثير من معاصري الامام (ع) ما يحظى به الامام (ع) من علو شاهق في مجالات المعرفة بشتى حقولها وجوانبها، وما يتبوؤه من مقام رفيع في مسيرة الاسلام الخالدة:

فها هو ابن عباس (رض) يقول:

ـ أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأنه لأعلمهم بالعشر الباقي[137].

وعطاء بن أبي رباح يقول ـ حين سئل هل تعلم أحداً بعد رسول الله (ص) أعلم من علي؟

ـ لا والله ما أعلمه.

وعمر بن الخطاب يقول:

ـ العلم ستة أسداس، لعلي من ذلك خمسة أسداس، وللناس سدس، ولقد شاركنا في السدس حتى لهو أعلم به منا[138].

ولكم كان الخلفاء الذين سبقوه تاريخيا يرجعون اليه في مسائل القضاء والحكم والادارة، حتى أن عمر بن الخطاب كان يردِّدُ: «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» أو يقول: «أعوذ بالله من معضلة لا علي لها»[138].

وعائشة تقول:

«علي أعلم الناس بالسنة»[139].

---

(١٣٦) راجع مناقب آل أبي طالب ج ١ فصل في المسابقة بالعلم، والبحار ج ٤١ باب ٩٣ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها.

(١٣٧) بحار الأنوار ج ٤٠ باب ٩٣ عن النقاش في تفسيره، ومناقب آل أبي طالب ج ١ فصل المسابقة في العلم.

(١٣٨) راجع فصل في عهد الخلفاء في الحلقة الأولى من دراستنا عن أمير المؤمنين (ع).

(١٣٩) البحار ج ٤٠ باب ٩٣.

وغير هؤلاء كثير. . .

على أن أمير المؤمنين (ع) قد أفصح مراراً وفي مناسبات شتى عما يحمل من علم شامل غزير.

فتراه يخاطب أصحابه بأن صدره يحمل علماً عظيماً تلقّاه من رسول الله (ص) ولو وجد له حملة أمناء يتصدون لحمله وتبليغه لأودع بعض علمه لديهم:

- «ان في صدري هذا لعلماً جماً، علَّمنيه رسول الله (ص) ولو أجد له حفظة يرعونه حق رعايته، ويروونه عني كما يسمعونه مني، اذاً لأودعتهم بعضه. . .»[١٤٠].

ثم يكشف في مناسبة أخرى عن حجم ذلك العلم الذي يحمل ويبين أبعاده ومساحته:

فعن ابن نباتة قال:

- لما بويع أمير المؤمنين (ع) بالخلافة خرج الى المسجد معتماً بعمامة رسول الله (ص) لابساً بردته، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ، وأنذر، ثم جلس متمكناً، وشبك بين أصابعه، ووضعها أسفل سرته ثم قال:

- «يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فان عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الانجيل بانجيلهم، وبين أهل الزبور، بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، حتى ينهي كل كتاب من هذه الكتب ويقول: يا رب ان علياً قضى بقضائك، والله اني لأعلم بالقرآن وتأويله من كل مدع علمه، . . . ثم قال: . . . سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن أية آية لأخبرتكم بوقت نزولها، وفيم نزلت، وأنبأتكم بناسخها ومنسوخها، وخاصها من عامها، ومحكمها من متشابهها، ومكيها من مدنيها والله ما من فئة تضل أو تهدي إلا وأنا أعرف قائدها وسائقها وناعقها»[١٤١].

---

(١٤٠) المرجع السابق باب ٩٣ نقلاً عن الخصال.

(١٤١) البحار ج ٤٠ باب ٩٣ ويشبهه في الارشاد للشيخ المفيد ص ١٩١.

«سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل»[١٤٢].

ولو قدر أن عليا (ع) لم يتسن له أن يساهم بما ساهم به من علم جم ـ الأمر الذي سنتناول خطوطه العريضة في هذا الفصل ـ في المجالات الفكرية، فإن نداءاته الملحة في مناسبة وأخرى: «**سلوني قبل أن تفقدوني**» آية جلية على قدراته الفائقة في حقول المعرفة بشتى ضروبها وامتداداتها. ولو قدر كذلك أن الرسول (ص) لم يكشف عما لعلي (ع) من سابقة في العلم وعلو شاهق في المعرفة، لكان اصرار علي (ع) على دعوة الناس بتلقي العلوم منه شاهداً قوياً لا يرد على ما له (ع) من علم غزير، فإن ثقته العالية بنفسه في مضمار العلم هي التي تدفعه دفعاً لتكرار ذلك النداء الفريد، الذي ما حدثنا التاريخ أن رجلاً قدم عليه قبل علي (ع) خوف الفضيحة والنكوص عن الاجابة!

ولقد تنبه الكثير من أصحاب العقول الى ما ينطوي عليه ذلك النداء العلوي: «**سلوني**» من أهمية بالغة، فقد قال سعيد بن المسيب:

«ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب»[١٤٣].

وعن ابن شبرمة يقول: «ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر: سلوني الا علي بن أبي طالب»[١٤٤].

فالنداء المذكور بكثرة الحاحه وحرارته يحمل بين ثناياه دليلاً علىٰ ما حواه الامام (ع) من علم شمولي يمد الانسان بالغنى والخير والهدىٰ والسداد.

---

(١٤٢) أعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ص ٦٣ عن الاستيعاب ومثلها في الاصابة والاتقان وحلية الأولياء وفي صحيح مسلم ج ٦.

(١٤٣) المصدر السابق.

(١٤٤) المصدر السابق.

من أبعاد المعرفة

بمقدورنا بعد ايراد التوطئة المتعلقة بالحقل المعرفي عند أمير المؤمنين أن نقول إن تصوراً قد تكامل لدينا حول عمق المعرفة وشمولها عند الإمام (ع) فهو: وريث رسول الله (ص) والمبين للأمة ما بعث به، ومرجعها في كل تساؤلاتها الفكرية الملحة كل ذلك كان حصيلة لاعداد مسبق من لدن رسول الله (ص) أشرنا لبعض مصاديقه فيما مضى من حديث.

بقى أن نشير في هذا الفصل الى أبعاد المعرفة التي أسداها الامام (ع) للانسان: المسلم منه وغير المسلم.

ففكر علي (ع) وان كان رسالياً هادفاً الى خدمة الرسالة الالهية وحملتها وعاملاً على دفع عجلة مسيرة الاسلام التاريخية الى الأمام، فانه يبقى منهلا عذبا لتصيب منه الانسانية بشتى نحلها واتجاهاتها الفكرية، وهو كفيل بهدايتها الى الحق والى صراط مستقيم.

وقبل أن نعرض الخطوط العامة للجانب المعرفي عند الامام (ع) جدير بنا أن نشير الى أنه (ع) بالرغم مما طرحه في دنيا الفكر الانساني من أبواب المعرفة المتعددة فاننا نظل عند قناعتنا من أن الامام (ع) لم تسعفه الظروف الاجتماعية والسياسية على حد سواء في أن يسدي للانسان بالكثير مما عنده من معرفة.

فاذا أهملنا أثر الظروف السياسية ـ التي ألمت بالامام (ع) ومنعته من اداء مهماته على الشكل المرجو من أجل مصلحة الرسالة والانسان، ـ فان الظروف الاجتماعية لا تقل خطرا عن تلك الظروف، فالمجتمع الذي عايشه الامام (ع) لم يكن في مستواه من ناحية وعيه الحضاري قادراً على ادراك

الامام وأهميته ودوره الرسالي الخطير في حياة الناس، ولعل أبلغ شاهد على ذلك ما كان يواجهه الامام (ع) من تساؤلات فجة واعتراضات تافهة حين يدعو قومه للافادة مما يحمل من علم جم تلقّاه من رسول الله (ص).

ونذكر بهذا الصدد بعض تلك المواقف التي تقطر سخفا وبلادة: ـ فقد خاطب الناس مرة بقوله: **سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تُضِل مائة أو تهدي مائة الا نبأتكم بناعقها، وسائقها، ولو شئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه.**

فقام اليه سنان بن أنس النخعي قائلا:

أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر(145)!!

ـ وبينما كان الامام (ع) يوماً يحدث قومه عن بعض حوادث المستقبل كبر على أعشى باهلة ـ عامر بن الحارث ـ ما تحدث به الامام (ع) فقال له:

يا أمير المؤمنين ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة(146).

هذه بعض المواقف التي اتخذها السفهاء من الناس الذين عاصروا الامام (ع) فأضاعوا أثمن فرصة مرت بالأمة بعد رسول الله (ص).

وبالرغم من ذلك كله فاننا ينبغي ألا نغفل ما كان ينطوي عليه ذاك المجتمع من طلاب للمعرفة من أجل الوصول إلى الهدى والخير.

وكانت تلك الفئة واعية لحقيقة الامام (ع) مؤمنة بقدرته الفائقة على طرح شتى أنواع الفكر الاسلامي في العقائد والتشريع وفي مختلف أبواب المعرفة الضرورية لمسيرة الانسانية كلها.

وقد قابل أمير المؤمنين (ع) أولي الألباب بنفس الثقة التي أولوها له، فخصهم بالكثير من ألوان الاعداد والتوجيه والتثقيف ليواصل المسيرة التي بدأها رسول الله (ص) والتي يقودها خط الامامة عبر التاريخ الاسلامي ابتداء بعلي (ع) وانتهاء بأبي القاسم الامام المهدي (ع).

---

(١٤٥) شرح النهج ج ٢ ص ٢٨٦ ـ ونفس الرواية في البحار ج ٤٠ باب ٩٣ ص ١٩٢ ولكنه يروي أن الرجل كان تميم بن أسامة التميمي.

(١٤٦ و١٤٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٨٩ و ص ٢٨٦ وما بعدها.

وقد بلغ بالامام (ع) أن يكشف الكثير من أسرار المعرفة لأولئك المتقين الأفذاذ من الرجال[147].

كما وقد تعاهد الامام (ع) أمر اعداد الحملة الحقيقيين للرسالة الالهية ممن بدأ الرسول (ص) عملية اعدادهم أو غيرهم . . .

على أن الذي توفر للامام (ع) طرحه من آراء ومبادىء وحكم ومفاهيم في ساحة الفكر الانساني كفيل بعضه دون جميعه بابراز عظمة الامام (ع) وقدراته العلمية الفائقة.

وها نحن أولاً، نعرض صوراً من المعرفة عند الامام (ع):

صور من الفكر العقائدي

للامام (ع) باع طويل في عرض الصيغ المحددة للعقائد الاسلامية من خلال ما طرحه من خطب ورسائل ومواعظ ومناقشات.

والباحث فيما خلفه الامام العظيم (ع) من ثروة فكرية يتجلى له بعمق أن أمير المؤمنين (ع) قد أعطى للعقيدة الاسلامية وركائزها الأساسية على وجه الخصوص الكثير من الاهتمام والعناية، وأغلق الباب بوجه أي شذوذ وانحراف وعدول عن مضامينها الحقيقية بأسلوب واضح وجلي لا يمكن صرفه أو تأويله لأي معنى آخر غير ما أراده الامام (ع). فالله تعالى وأسماؤه الحسنى وصفات ذاته وصفات أفعاله، والرسالة والنبوة والوحي، والملائكة والامامة والقضاء والقدر، والبعث والنشور وفلسفة الدنيا والجنة والحساب وسواها من أسس العقيدة الاسلامية قد طرحها الامام (ع) في صيغ محددة نابضة بقوة الحجة والبرهان والوضوح.

ولو قدر للامة المسلمة بجميع فرقها أن تنهل من المنهل العذب الرقراق الذي فجره علي (ع) في دنيا الفكر الاسلامي، لاجتمعت الكلمة وتوحد الصف والهدف، وما شهدت دنيا المسلمين أي لون من ألوان الشطحات والانحرافات المضلة التي جنح اليها رهط من أتباع المدارس الفكرية عند المسلمين.

وبقدر ما تسمح به محاولتنا لدراسة الخطوط العامة لما خلفه لنا الامام أمير المؤمنين (ع) من ثروة فكرية سنعرض نماذج من الفكر العقائدي الذي زين الامام (ع) بها صفحات الفكر الانساني بشكل عام:

وحدانية الله عز وجل:

«الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور مَيدان أرضه(١٤٨).

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكما التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار اليه، ومن أشار اليه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن قال «فيم» فقد ضمنه، ومن قال «علام؟» فقد أخلى منه.

كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم.

مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير اذ لا منظور اليه من خلقه متوحد اذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده، أنشأ الخلق انشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامه نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالما بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها واحنائها..»(١٤٩).

---

(١٤٨) فطر الخلائق = ابتدعها على غير مثال سابق.
وتد = ثبت. الميدان = التحرك بالتمايل.

(١٤٩) نهج البلاغة رقم الخطبة ١.
لا عن حدث = لا عن ايجاد موجد. المزايلة = المفارقة والاختلاف. الروية =

«الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تقعد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تحيط به الابصار والقلوب. .»[١٥٠].

«لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يتقدمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم»[١٥١].

«الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو انس، لا يدرك بوهم، ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين، ولا يحد بأين، ولا يوصف بالأزواج ولا يخلق بعلاج، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس. . .»[١٥٢].

هكذا حدّد أمير المؤمنين (ع) مفهوم وحدانية الله سبحانه وتعالى، وهكذا عرف علي (ع) الله رب العالمين، ووصفه كما أراد الله تعالى أن يوصف به، فقد نزهه عن التشبيه والتجسيم والمكان والتجزئة والتبعيض وكل نقص، وأخرجه بوصفه عن كل صفة من صفات مخلوقاته، كما شاء الله تعالى أن يوصف، وكما علّم أولياءه أن ينعتوه.

الرسالة والنبوة:

وكما حدد الامام أبعاد التوحيد وحقيقته، أعطى (ع) التحديد الموضوعي الشامل للنبوة والرسالة مبيناً فلسفتها وأهدافها، وموضحاً أن اللطف الالهي

التفكير. أجال = ردد أو أدار. همامة = اهتمام الأمر وانشغال بال. لأم = قرن. غرز الغرائز = أودع فيها الطباع. قرائن = جمع قرونة وهي النفس. الاحناء = الجوانب.
لا تقعد القلوب منه على كيفية = أي ليست له كيفية فتحكم بها.

(١٥٠) نفس المصدر رقم ٨٥.

(١٥١) نهج البلاغة رقم النص ١٨٢. يتعاوره = تطرأ عليه الزيادة والنقصان.

(١٥٢) نفس المصدر والخطبة. وهم = تفكير وتوهم. . . النائل = العطاء. أين = اشارة للمكان.

بالعباد اقتضى ارسال الأنبياء (ع) الى الناس ليأخذوا بأيديهم الى حيث الهدى والرشاد وسبيل الحق، بعد أن تنكروا لعهد الله اليهم، وخرجوا عن مقتضى الفطرة التي فطرهم الله تعالىٰ عليها قال (ع):

«واصطفى سبحانه من ولده - من ولد آدم - أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله اليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة[١٥٣] أو محجة قائمة. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله: على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء.

الى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لانجاز عدته، واتمام نبوته، ماخوذاً على النبيين، ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير الى غيره، فهداهم به من الضلالة، وانقذهم بمكانه من الجهالة...»[١٥٤].

---

(١٥٣) الميثاق = العهد. الأنداد = الأمثال وهم المعبودون من دون الله تعالى. اجتالتهم = أبعدتهم عن هدفهم. واتر = جعل بين كل نبي وآخر فترة. ليستأدوهم = ليطلبوا الاداء منهم. وصب = تعب.

(١٥٤) نهج البلاغة رقم النص ١ «باب الخطب». نسلت القرون = تتابعت. المحجة = الطريق الواضحة المستقيمة.

انجاز عدته =وعده الله تعالى بارسال محمد (ص).

السمات: العلامات التي بشر بها النبيون السابقون لرسول الله محمد (ص).

ملحد في اسم الله = يخرج به عن حقيقة مسماه.

«بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه، لئلا تجب الحجة لهم بترك الإعذار اليهم، فدعاهم بلسان الصدق الى سبيل الحق. . »(١٥٥).

«فبعث الله محمدا صلى الله عليه وآله بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان الى عبادته، ومن طاعة الشيطان الى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه، ليعلم العباد ربهم اذ جهلوه، وليقروا به بعد اذ جحدوه وليثبتوه بعد اذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته وكيف محق من محق بالمثلات، واحتصد من احتصد بالنقمات. . . »(١٥٦).

خط الامامة في دنيا الاسلام:

ويجلي الامام (ع) حقيقة خط الامامة وضرورته في دنيا المسلمين ويحدد مرامي الأئمة (ع) ويرشد الأمة المسلمة اليهم باعتبارهم الامتداد الحقيقي للرسالة، والحملة الحقيقيين لرسالة الله تعالى وهديه للعالمين بعد رسوله (ص)، بهم يقام الحق وتحمى الشريعة ويصان الدين، وتحفظ كلمة الله تعالى. وتبلغ الأمة الهدى والخير، وبسواهم يكون الضلال والانحراف والضياع يقول (ع):

- « . . لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الامة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا: هم أساس الدين، وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة، الآن اذ رجع الحق الى أهله، ونقل الى منتقله»(١٥٧).

«ان الائمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على

---

(١٥٥) نفس المصدر نص ١٤٤.

(١٥٦) نفس المصدر رقم النص ١٤٧.

تجلى = ظهر بآيات لا برؤيته المباشرة. المثلات = العقوبات.

(١٥٧) خطبة رقم ٢ من نهج البلاغة. الغالي = المغالي المبالغ الذي يتجاوز الحد في الافراط.

سواهم، ولا تصلح الولاة في غيرهم»[١٥٨].

وبعد هذا التحديد الدقيق للامامة والائمة، يحذر (ع) من مغبة نكران الائمة والتنكر لهم: «**. . . وانما الائمة قوّام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار الا من أنكرهم وأنكروه. . .**»[١٥٩].

ويحذر من مغبة نكرانهم في مسيرة الحياة الإسلامية حيث يوضح بكل جلاء أن الحق لا يقترن بسواهم وأن الهدى لا وجود له الا بمتابعتهم: «**فأين تذهبون، وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم، وكيف تعمهون، وبينكم عترة نبيكم، وهم أزمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش. .**»[١٦٠].

ثم يشير الامام (ع) الى أن خط الامامة مصاحب لمسيرة الأمة، وأرض الله لا تخلو من حجة من آل محمد (ص) يحمل الهدى للناس:

«**الا أن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء: اذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون**»[١٦١].

ونكتفي بهذه النماذج من الفكر العقائدي الذي عرضه الامام (ع) في ساحة الفكر الاسلامي، ومن شاء الاستزادة فدونه نهج البلاغة فانه ينبوع لا ينضب يمد المتتبع بشتى ضروب المعرفة في مضمار العقيدة وسواها.

---

(١٥٨) نفس المصدر رقم النص ١٤٤.

(١٥٩) نفس المصدر رقم النص ١٥٢.

(١٦٠) نهج البلاغة رقم النص ٨٧. تؤفكون = تصرفون عن الحق. الأعلام = الدلائل على الحق. المنار = جمع منارة. يتاه بكم = الحيرة والضلال. تعمهون = تتحيرون. العترة = النسل.
ردوهم ورود الهيم العطاش = هلموا الى بحار علومهم مسرعين كاسراع الابل العطشى الى الماء.

(١٦١) نفس المصدر رقم النص ١٠٠. خوى نجم = غاب.

صور من الفكر السياسي ـ الاجتماعي

بالرغم من قصر المدة التي قضاها أمير المؤمنين (ع) في قيادة الامة اجتماعياً وسياسياً فان الفكر السياسي الذي عرضه الامام (ع) كفيل بتغطية حاجات الانسان عبر امتداده التاريخي على هذه الأرض، فقد جاءت خطب الامام (ع) ورسائله وأوامره وارشاداته زاخرة بهذا اللون من الفكر، مجسداً أروع أطروحه وأنضجها لادارة شؤون الحياة الانسانية.

ففي الحقل الاقتصادي عرض الامام (ع) نظاماً متكاملاً لعلاج المشكلة الاقتصادية، وظاهرة الانحراف عن خط العدالة الاسلامية في التوزيع، وحدد برامج واضحة لتجاوز الأخطاء المتراكمة في مسألة توزيع المال بين الناس من خلال منهاج التسوية في العطاء.

ولم يلتمس الامام (ع) المواقف الوعظية في علاج المشكلة الاقتصادية، واقرار العدالة في المجتمع فحسب وانما سلك إلى جانب مخاطبة الضمائر والاستفادة من رصيد الايمان بالله فيها، سلك سبيل استخدام الضوابط القانونية في تحقيق التوازن والعيش الرغيد، وانهاء دور الظلم في المجتمع، ومن أجل ذلك استرد الأموال التي تدفقت على جيوب فئة من الناس من غير حق، وسلك سبيل مراقبة طرق جباية الأموال، وكيفية توزيعها على قطاعات الأمة، كما شدد على مراقبة ولاته في الأمصار، واستحدث نظام المراقبة والتفتيش ليحيط علما بتصرفاتهم وممارساتهم ومن هنا تجد الكثير من النصوص التي يوجه فيها الامام (ع) والياً أو جابياً للمال باتجاه الطريقة المثلى في عمله المناط به، كما نجد نصوصاً يوبخ فيها الامام (ع) ذلك الوالي أو يستدعيه للحساب أو يعزله عن منصبه لخيانة الأمانة التي أنيطت به[١٦٢].

(١٦٢) راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب (الفصل الأول) لملاحظة النصوص بهذا الصدد.

وكما وضح الامام (ع) مناهجه القويمة المجسدة لشرع الله تعالى في المال، كذلك فعل بالنسبة للادارة وشؤون القيادة الأخرى في المجتمع، فبالرغم من كثرة النصوص التي حفظها لنا نهج البلاغة وكتب السيرة الأخرى التي يحدد (ع) فيها مسؤولية الولاة والعمال على البلدان، وما ينبغي أن يلتزموا به في حياتهم العملية، يضع الامام (ع) المواصفات الواجب توفرها في شخصية الحاكم المسلم سواء أكان حاكماً عاماً للأمة أو حاكماً محلياً، ونكتفي هنا بذكر نماذج من هديه وتوجيهاته بهذا الصدد:

«... وقد علمتهم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم، والأحكام، وامامة المسلمين: البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الامة»[١٦٣].

«من نصب نفسه للناس اماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم»[١٧٤].

«لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا يصانع ولا يضارع، ولا يتبع المطامع».

واذا شئنا الرجوع الى أوسع نص لتحديد مواصفات الحاكم المسلم، ففي عهد الامام (ع) الى مالك الاشتر حين ولاه على مصر غنىً عن طرح أي دليل آخر، حيث اشتمل العهد المذكور على كل مستلزمات القيادة الصالحة،

---

(١٦٣) نهج البلاغة رقم النص (١٢٩).
النهمة = المبالغة في الحرص وشدة الشهوة. المقاطع = حدود الله. الدول = المال. الحائف = الظالم.
والمراد بالحائف بالدول = الظالم في توزيع المال حيث يفضل قوماً على قوم في العطاء.

(١٧٤) نفس المصدر رقم ٧٣ في باب المختار من كلامه (ع).

وما ينبغي أن تنهض به من مسؤوليات في حياة الامة على الصعيد الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، وسوى ذلك من شؤون.

كما حدد العهد بعمق ووضوح كل ما يتطلبه المجتمع وما ينبغي للحاكم المسلم النهوض به عبر مسؤولياته القيادية كي يستجيب لطموحات الأمة التي يدير دفة حياتها(١٦٥).

ومن المناسب أن نشير هنا الى أن عهد الامام (ع) الى واليه الأشتر قد انطوى على أفكار اجتماعية غاية في الأهمية، فقد تناول الامام (ع) تركيبة المجتمع، والقوى المؤثرة، والقطاعات الضرورية فيه تناول خبير ملّم بها، فقد درس الامام (ع) أهمية القطاع الزراعي وأثر التجار والقضاة والولاة والجنود في مسيرة المجتمع وبناء الحضارة، وحدد كيفية التعامل مع تلك القوىٰ الهامة في المجتمع، وحدد مسؤوليات السلطة العليا تجاه كل واحدة من تلك القوى الفاعلة في الحياة العامة، كما ذكر القطاعات الضعيفة من أهل اليتم والشيخوخة وسواهم مما يعتبر وجودهم طبيعياً في المجتمعات، فدرس حالهم وحدد العلاج لما يعانون(١٦٥).

هذا وقد سبق الامام علي (ع) علم الاجتماع الحديث في دراسته للمجتمع وتحديد المؤثرات فيه بزمن طويل، مما يستحق أن يحمل بجدارة لقب مؤسس علم الاجتماع والواضع للبناته الأولى، رغم الاختلاف في الرؤية والمنهج الذي يعتمده الامام (ع).

---

(١٦٥) يراجع عهد الامام (ع) الى مالك الأشتر واليه على مصر في نهج البلاغة رقم النص ٥٣ في باب الكتب.

مصنفات الامام (ع)

وأعماله الفكرية

وأميـر المؤمنين (ع) أول من صنف في دنيـا المسلمين، ويحصـي المؤرخون لسيرة الامام (ع) عدداً من مؤلفات الامام وأعماله العلمية تأتي في طليعتها:

١ ـ جمع القرآن الكريم مرتباً حسب النزول:

وبينَّ في ذات الوقت عامه، وخاصـه، ومطلقـه، ومقيده، ومحكمـه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وعزائمه ورخصه، وسننه، وآدابه [١٦٦] كما أشار الامـام (ع) الى أسباب النـزول لآيات الكتـاب العزيـز، حتى لقد قـال ابن سيرين: لو أصبت ذلك الكتاب لكان فيه العلم[١٦٧].

وجَمْعُ الامام (ع) للقرآن الكريم على النمط المذكور انما هو للتفسير أقرب منه للجمع الخالص، فقد أودع في عمله ذلك علماً كثيراً، الأمة في مسيس الحاجة الى مثله.

كما أن أمير المؤمنين (ع) قد تفرغ للعمل الرسالي الكبير، بعد حادثة السقيفة وما تمخض عنهـا من استخلاف أبي بكـر، فعكف (ع) على انجاز المهمة التاريخية في تدوين القرآن في مصحف واحد. ولقد روى عنه بهذا الصدد قوله:

ـ «لمـا قبض رسول الله (ص) أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري

(١٦٦ ـ ١٦٧) المراجعات /السيد عبد الحسين شرف الدين مراجعة (١١٠) ص ٣٢٦.

حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن»[١٦٨].

وبمقدور المرء أن يقدر قيمة ذلك العمل اذا وضع نصب عينيه ما يحظى به القرآن الكريم من قيمة عظمى في دنيا المسلمين من الوجهة الفكرية والتشريعية والحضارية.

٢ ـ مصحف فاطمة:

ويبدو أن الامام (ع) بادر ـ بعد انجاز مهمة جمع القرآن الى تأليف كتاب لفاطمة الزهراء (ع) صار يعرف عند ابنائها بمصحف فاطمة، وكان يتضمن مواعظ وحكماً وأمثالها وعبراً وأخباراً وأفكاراً مستقبلية لتكون عوناً على التخفيف من الآلام التي اكتنفت حياة الزهراء (ع) بعد وفاة أبيها رسول الله (ص)[١٦٩].

٣ ـ الصحيفة:

وهي كتاب في الديات «وهي الأموال المفروضة في الجناية على النفس أو الطرف أو الجرح أو نحو ذلك وتثبت الدية في موارد الخطأ المحض أو الشبيه بالعمد أو فيما لا يكون القصاص فيه أو لا يمكن...»[١٧٠].

وقد روى البخاري ومسلم من تلك الصحيفة وأوردها ابن سعد في كتابه الجامع، كما أكثر ابن حنبل الرواية عن هذه الصحيفة.

٤ ـ الجامعة:

وهي كتاب في صحائف من الجلود، أملاه رسول الله (ص) على أمير المؤمنين (ع) وقد تضمن كل ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام، وقد جاء الكتاب مفصلاً لما جاء في كتاب الله من أحكام وأوامر ونواه.

---

(١٦٨) مناقب آل أبي طالب ج ١ «في المسابقة بالعلم» ج ٢ ص ٤١. وفي الاتقان ومناقب الخوارزمي مثله.

(١٦٩) المراجعات مراجعة ١١٠ ص ٣٢٧.

(١٧٠) مباني تكملة المنهاج ج ٢ كتاب الديات/ السيد أبو القاسم الخوئي/ طبع النجف

وقد ورث الائمة من أهل البيت (ع) هذا الكتاب كابرا عن كابر، وكانوا يطلقون عليه تارة اسم الجامعة، وتارة الصحيفة، وأخرى كتاب علي، ورابعة الصحيفة العتيقة.

ووردت عن الصادقين (ع) عدة روايات تؤكد أهمية كتاب الجامعة، وكونه مرجعهم في أخذ التشريع الالهي، وأنهم لا يحتاجون الى الناس لوجود ذلك الكتاب، فعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال: «**ان عندنا ما لا نحتاج معه الى الناس، وان الناس ليحتاجون الينا، وان عندنا كتاباً أملاه رسول الله (ص) وخطه علي (ع) صحيفة فيها كل حلال وحرام**»[١٧٢].

ويقول الامام الصادق (ع) أيضاً يصف فيه الجامعة: «**تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج الناس اليه، وليس من قضية الا وهي فيها حتى أرش الخدش**»[١٧٣].

٥ ـ صحيفة الفرائض:

ويبدو أن هذه الصحيفة قد دون فيها الامام (ع) قضاءه في المواريث وغيرها من أبواب القضاء، ومن المرجح أن تكون هذه الصحيفة بعضاً من «الجامعة»[١٧٤].

٦ ـ كتاب الجفر:

«وهو لغة جلد الماعز أو البعير أو الثور»:

وقد أطلق اسم الجفر على أحد أبواب العلم الذي دونه الامام أمير المؤمنين (ع) من املاء رسول الله (ص) على جلد، ويبدو أن كتاب الجفر غير الجامعة من ناحية المدلول الذي يتضمنه، فالجفر كما تفيد روايات الائمة من أهل البيت (ع) ينطوي على حوادث المستقبل، وصحف الأنبياء السابقين

---

(١٧٢) أصول الكافي ج ١ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة، ومصحف فاطمة (ع).

(١٧٣) الأديم = الجلد. الفالج = الجمل العظيم ذو السنامين. والارش = دية الجراحات.

(١٧٤) عقيدة الشيعة في الامام الصادق/ السيد حسين يوسف مكي العاملي ص ٦٥.

والكتب المنزلة قبل القرآن الكريم[175].

وللامام علي (ع) تصانيف أخرى ذكرها المؤرخون ككتاب زكاة النعم، وكتاب في أبواب الفقه، وكتاب في علوم القرآن وغيرها[176].

المصنفات في تراث الامام الفكري:

وبالرغم من أن الامام (ع) قد دون عدداً من المؤلفات العظيمة فانه يبدو أن مؤلفاته قد انصبت على ما قضت به الضرورة من حفظ الرسالة الالهية وتوضيح معالمها للأجيال من خلال شرح القرآن الكريم، وتبيان بعض مقاصده، أو تحديد بعض أبواب الفقه الاسلامي، أما آراؤه وأفكاره الأخرى التي تحتل مركز الريادة في الفكر الاسلامي، والتي جاءت انعكاساً للرسالة الالهية على صفحة ذهنه وعقله، فكانت خطباً ومناقشات وحكماً ومواعظ وتوجيهات ونحوها من أدوات التعبير عن ماهية الرسالة، فالامام (ع) لم يتصدَّ لجمعها في تصانيف محددة ومن المؤكد أن يكون جزء كبير منها قد اندرس بيد أن بعضاً من آرائه وأفكاره قد حظي بالتدوين بعد زمن طويل من وفاة الامام (ع) ومن المرجح أن يمثل ذلك البعض نسبة جد قليلة من عطائه الفكري العظيم الذي وهبه للامة عبر عمره الشريف.

فقد جمع العلماء بعض ما خلفه الامام (ع) من مبادىء ومفاهيم في مؤلفات عديدة نذكر منها:

١ - **نهج البلاغة**، جمعه الشريف أبو الحسن الرضي بن الحسين الموسوي، المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ويشتمل الكتاب على ما اختاره الشريف من خطب الامام (ع) وكتبه ورسائله وحكمه ومواعظه، وقد اهتم بالكتاب المذكور جل العلماء والمفكرين ورجال الأدب قراءة واستيعاباً وشرحاً، حتى بلغت شروحه أكثر من خمسين شرحاً، ومن أشهر الشراح للنهج: أبو الحسن

---

(١٧٥) يراجع أصول الكافي ج ١ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة (ع) وعقيدة الشيعة في الامام الصادق ص ٦٦.

(١٧٦) أعيان الشيعة ج ٣ ق ٢ باب (مؤلفات أمير المؤمنين (ع)).

البيهقي، والامام فخر الدين الرازي، والقطب الراوندي، ومحمد ميثم البحراني، وعز الدين بن أبي الحديد المدائني، ومحمد عبده وغيرهم.

ولقد انطوى نهج البلاغة على روائع في الفكر بشتى شعبه ومناحيه:

في العقائد والأخلاق ونظام الحكم وطبيعة المجتمع، وعلاقة الانسان بالله تعالى ونحو ذلك من أبواب.

وهو الى جانب ذلك جاء آية في الأدب الانساني الرفيع الذي عز نظيره في أدب اللغة العربية دقة وعمقاً وتصويراً وجزالة الفاظ.

٢ ـ **مسنده** الذي جمعه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفَى سنة ٣٠٣ هـ وأسماه مسند علي، وقد ضمنه بعض ما أثر عن الامام (ع) من أحاديث وروايات عن رسول الله (ص).

٣ ـ **غرر الحكم ودرر الكلم**. جمعه عبد الواحد بن محمد الآمدي، وهو يشتمل على طائفة من حِكَم الامام (ع) القصيرة ويقارب في حجمه نهج البلاغة.

٤ ـ **مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب**. جمعه أبو اسحاق الوطواط الأنصاري ويحتوي على طائفة من حِكَم الامام (ع).

٥ ـ مائة كلمة جمعها الجاحظ.

٦ ـ **نثر اللآلىء** جمع أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب مجمع البيان في تفسير القرآن.

٧ ـ ما اشتمل عليه **كتاب صفين** لنصر بن مزاحم من خطب الامام (ع) وكتبه.

٨ ـ **جنة الأسماء**: شرحه الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفَى سنة ٥٠٥ هـ.

٩ ـ ما أثر عنه من **الأدعية والمناجاة** وقد طبع بعضه باسم الصحيفة العلوية. جمعها عبد الله بن صالح السماهيجي.

١٠ ـ **قلائد الحكم وفرائد الكلم** جمع القاضي أبي يوسف الاسفراييني، وغير ذلك من التصانيف[١٧٧].

---

(١٧٧) راجع أعيان الشيعة ق ٢ ج ٣ ص ٢٧٤ ط ٣ ـ بيروت للسيد محسن الأمين.

انباء المستقبل

والمقصود بها هنا ما تحدث به الامام (ع) عن أمور مستقبلية وشيكة الوقوع بعد عصره، منها ما يختص بأفراد معينين، ومنها ما يتعلق بمسيرة الأمة المسلمة كمجموع.

وبطبيعة الحال ان ما طرحه الامام (ع) من هذا القبيل كان قد تلقاه من رسول الله (ص) مباشرة، أو وعاه بنفسه بما أعطاه الله من طاقة روحية هائلة تمنحه القدرة على استقراء المستقبل والاستشراف على حوادثه وقواه المؤثرة، والجوانب الايجابية فيه والسلبية.

ولقد رأينا في بداية هذا الفصل كيف أن الامام (ع) يعلن على المنبر مراراً عن قدرته على كشف الكثير من أحداث المستقبل:

«.. لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتُضِل مائة الا نبأتكم بناعقها وقائدها، وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً ويموت موتاً. . .»[178].

واذا تتبعنا الفكر المستقبلي الذي حفظته لنا سيرة أمير المؤمنين (ع) وجدناه ـ بالرغم من قلته بالقياس الى غيره من أبواب فكر الامام (ع) ـ آية على عظمة الامام (ع) وسمو كيانه الروحي الذي أهله لمعرفة الكثير من أسرار المستقبل بما فيها من متغيرات في دنيا الأفراد والجماعات.

هذه جملة مما حفظ لنا المؤرخون في هذا المضمار.

١ ـ عن سويد بن غفلة أن علياً (ع) خطب ذات يوم، فقام رجل من

(١٧٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٨٦ / والبحار ج ٤٠ ص ١٣٠ عن النهج.

تحت منبره، فقال:

- يا أمير المؤمنين، اني مررت بوادي القرى، فوجدت خالد بن عرفطة قد مات، فاستغفر له، فقال (ع):

- **والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة، صاحب لوائه حبيب بن حمار.**

فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال:

- يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمار واني لك شيعة ومحب، فقال: **أنت حبيب بن حمار؟** قال: نعم.

فقال له ثانية: **والله انك لحبيب بن حمار؟**

فقال: إي والله!

فقال (ع): **أما والله انك لحاملها ولتحملنها، ولتدخلن بها من هذا الباب،** «وأشار الى باب الفيل بمسجد الكوفة» قال ثابت الشمالي - الذي روى الحديث عن سويد بن غفلة.

- فوالله ما مت حتى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد الى (حرب) الحسين بن علي (عليه السلام) وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته، وحبيب بن حمار صاحب رايته فدخل بها من باب الفيل(١٧٩).

٢ - عن اسماعيل بن رجاء قال:

قام أعشى باهلة - وهو غلام يومئذ حدث - الى علي عليه السلام وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال:

يا أمير المؤمنين، ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة!

فقال علي (ع): **ان كنت آثماً فيما قلت يا غلام، فرماك الله بغلام ثقيف،** ثم سكت فقام رجال، فقالوا:

- ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال:

- **غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمة الا انتهكها، يضرب عنق**

---

(١٧٩) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة ج ٢ ص ٢٨٧. أعشى باهلة = عامر بن الحارث.

هذا الغلام بسيفه، فقالوا:

ـ كم يملك يا أمير المؤمنين (ع) قال:

ـ عشرين ان بلغها، قالوا:

ـ فيقتل قتلاً أم يموت موتاً؟ قال:

ـ بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال اسماعيل: فوالله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة، أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج (بن يوسف الثقفي) فقرعه، ووبخه واستنشده شعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس(١٨٠).

٣ ـ قال علي (ع) لعمرو بن الحمق الخزاعي:

«يا عمرو انك لمقتول بعدي وأن رأسك لمنقول، وهو أول رأس ينقل في الاسلام، والويل لقاتلك! اما انك لا تنزل بقوم الا أسلموك برمتك».

قال الأزدي ـ راوي الحديث ـ فوالله ما مضت الأيام حتى تنقل عمرو بن الحمق الخزاعي في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب خائفاً مذعوراً، حتى نزل في قومه من بني خزاعة، فأسلموه، فقتل، وحمل رأسه من العراق الى معاوية بالشام، وهو أول رأس حمل في الاسلام من بلد الى بلد(١٨٠).

٤ ـ إخبار الامام (ع) عن الضربة التي يضرب في رأسه فتخضب منها لحيته بسيف ابن ملجم المرادي لعنه الله تعالى.

٥ ـ اخباره بامتلاك معاوية لأمر المسلمين بعده.

٦ ـ اخباره عن قتل الامام الحسين (ع) في كربلاء.

٧ ـ اخباره عن الحجاج بن يوسف الثقفي وما يكون من فعله.

٨ ـ اخباره عن حركة عبد الله بن الزبير وفشله وقتله.

٩ ـ وعن هلاك البصرة بالغرق مرة وبسيطرة الزنج عليها اخرى.

---

(١٨٠) نفس المصدر ص ٢٨٩. وص ٢٩٠.

١٠ ـ واخباره عن مقتل محمد صاحب النفس الزكية وأخيه ابراهيم بعد ثورتهما على العباسيين في عهد أبي جعفر المنصور.

١١ ـ وعن قيام الدولة العلوية في المغرب، ودولة بني بويه في العراق.

١٢ ـ اخباره عبد الله بن العباس عن انتقال الحكم الى أولاده وقيام الحكم العباسي.

١٣ ـ وعن خروج الامام المهدي عجل الله فرجه وقيام دولة الاسلام المباركة[١٨١].

ومن نافلة القول أن نشير الى أن نهج البلاغة ينطوي على الكثير من النصوص التي تناول الامام (ع) فيها الحديث عن امور مستقبلية، وقعت بعد عصره، واخرى نعايش طرفاً منها[١٨٢].

---

(١٨١) دراسات في نهج البلاغة ـ محمد مهدي شمس الدين ط ٢، ١٩٧٢ ص ١٨٦ وما بعدها. وللاستزادة يراجع فصل المغيبات من نفس الكتاب و ج ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ط ١، ١٩٥٩.

(١٨٢) مثل خطب الملاحم رقم ١٠١، ١٢٨، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٨، ١٨٧، والخطب التي تتحدث عن آخر الزمان مثل ١٠٨ و ١٠٣ و ١٦٦.

الملاحم = الوقائع العظيمة.

طرف من مَواعظ الامام

وللامام باع طويل في القاء المواعظ البليغة التي تحمل الحجج البالغة، فتهز السامع والقارىء، وتترك أثراً عظيماً في النفس.

والموعظة عند علي (ع) تحمل مفاهيم وعطاء ثرا، تحدد للمسلم طريقه الى الله وأساليب تفاعله مع رسالة الله تعالى ومع الناس من حوله.

وفضلاً عما حمله نهج البلاغة من مواعظ لأمير المؤمنين (ع) فان كتب الوعظ والارشاد والتوجيه الاسلامي لا يكاد يخلو منها كتاب من ذكر طرف من مواعظ الامام (ع).

ونذكر هنا بعضاً من مواعظه التي ضمنها نهج البلاغة:

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فان الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل.

أيها الناس: انما يجمع الناس الرضى والسخط، وانما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: ﴿فعقروها، فاصبحوا نادمين﴾ فما كان الا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة.

ايها الناس، من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه»[183].

---

(١٨٣) رقم النص ٢٠١ (باب الخطب): نهج البلاغة.

السخط = الغضب. ثمود = قوم نبي الله صالح (ع).

خارت = من الخوار صوت الثور، أي حين خسف الله أرضهم كان لها صوت كصوت الثور.

السكة المحماة = حديدة المحراث. الأرض الخوارة = اللينة الهشة.

- «أيها الناس، انما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتم. ان المرء اذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ لله آباؤكم: فقدموا بعضاً يكن لكم قرضا، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم»[184].

- «أوصيكم عباد الله، بتقوى الله، التي هي الزاد وبها المعاد: زاد مبلغ، ومعاد منجح، دعا اليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع داعيها، وفاز واعيها.

عباد الله ان تقوى الله حمت أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ، واستقربوا الأجل فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل . . .»[185]،

---

(١٨٤) نفس المصدر رقم النص ٢٠٣. مجاز = ممر الى الآخرة.

(١٨٥) نفس المصدر ص ١٤٤.

وعاها = فهمها وحفظها.

حمت = منعت، يعني التقوى منعت الأولياء من ارتكاب الجرائم.

الهواجر = الأيام الشديدة الحر ومع شدة حرارتها فقد أظمأ المتقون أنفسهم فيها صوما.

النصب = التعب.

قبس مِن حكم الامام

ونختم هذا الفصل بايراد اضمامة من حكم أمير المؤمنين (ع) اتماماً للفائدة:

١ ـ اذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

٢ ـ أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

٣ ـ من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

٤ ـ ما أضمر أحد شيئاً الا وظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه.

٥ ـ فوت الحاجة أهون من طلبها الىٰ غير أهلها.

٦ ـ قيمة كل امرىء ما يحسنه.

٧ ـ قال عليه السلام يصف الغوغاء: «هم الذين اذا اجتمعوا غلبوا واذا تفرقوا لم يعرفوا».

٨ ـ عجبت لأقوام يحتمون الطعام مخافة الأذى كيف لا يحتمون الذنوب مخافة النار.

٩ ـ أربع لو ضربتم فيهن أكباد الابل، لكان ذلك يسيرا: لا يرجونَّ أحد إلّا ربه، ولا يخافن الا ذنبه، ولا يستحي أن يقول لا أعلم اذا هو لم يعلم، ولا يستكبر أن يتعلم اذا لم يعلم.

١٠ ـ اتقوا معاصي الله في الخلوات، فان الشاهد هو الحاكم.

١١ ـ الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق[١٨٦]. والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسد.

---

(١٨٦) ملق = التملق. العي = العجز.

١٢ ـ عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء.

١٣ ـ من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ.

١٤ ـ الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله[١٨٧] ولم يؤمْنهم من مكر الله.

١٥ ـ رب عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه.

١٦ ـ عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينيك.

١٧ ـ لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: نكبته، وغيبته، ووفاته.

١٨ ـ الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا الى ركن وثيق.

١٩ ـ الناس أعداء ما جهلوا.

٢٠ ـ من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها[١٨٨].

وبهذا نصل الى نهاية المطاف في حديثنا عن المقومات العامة لشخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفقنا الله تعالى للأخذ بنهجه في الفكر والعمل انه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

---

(١٨٧) روح الله = لطفه ورأفته. مكر الله = أخذه للعبد بالعقاب دون شعوره.

(١٨٨) للمزيد راجع باب المختار من حكم الامام (ع) في نهج البلاغة، وتحف العقول لابن شعبة الحراني وج ١٩ وج ٢٠ من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وغيرها.

الفهرس

الموضوع الصفحة

الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة

الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة



الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩

سلسلة
حياة النبي محمد وأهل بيته
٣

السيدة فاطمة بنت محمد (ع) الزهراء

إعداد:
نخبة من العلماء

دار المحجة البيضاء
دار الرسول الأكرم (ص)





مقدمة خاصة

إن الاهتمام برسول الله (ص) وأهل البيت (ع)، تربية وتأهيلاً وتفضيلاً، لم يكن اهتماماً عاطفياً بقدر ما هو امتثال لأمر إلهي قاطع، صدر عن رب العالمين، حينما أوحى برسالته الخالدة إلى محمد بن عبد الله ليخرج البشرية من ظلمات الالحاد والشرك الى نور الايمان والتوحيد، آمراً رسوله بقوله عز من قائل:

﴿لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودَّة في القربى﴾

فكانت مودتهم ان لاقوا التقتيل والتعذيب والتشريد، وتجرعوا المحن والغصص، صابرين محتسبين، هم وشيعتهم الأبرار، بشكل يفتت الاكباد، ويذيب الجماد.

ولما أخذت الدار على عاتقها نشر نبذة صغيرة عن النبي (ص) وأهل البيت (ع) في محاولة منها للتعريف بهؤلاء الأفذاذ، ليتسنى لكل مسلم التعرف على قادته بشكل صادق وواعي ويكون من السهل التعرف على أئمتنا حتى لا نكون ممن ماتوا ولم يتعرفوا على أئمة زمانهم فنموت ميتة الجاهلية.

فمع الحلقة الثالثة من تلك الحلقات:

مع الصديقة فاطمة الزهراء (ع)



بَيت النّبوّة

في جزيرة العرب.. في أرض البؤس والجاهلية والشقاء.. عايشت العرب فترة من أشد فترات التاريخ ظلاماً. ومرحلة من أكثر المراحل تأخراً وانحطاطاً.

فالأرض جرداء جدباء، والقلوب قاسية متحجرة، والنفوس خائفة مضطربة، والحياة بدوية قلقة، لا الخصب يعمر الأرض، ولا الايمان يضيء النفوس، ولا العلم يقود العقول، اذ لم يُرَ في هذه الحقبة من حياة العرب، إلا أوثاناً تعبد، وغارات تشن، ودماء تسفك، وحرمات تهتك، فلا الحياة تحترم، ولا صوت المظلوم يسمع، ولا قلب الضعيف ينعم بالأمن..

وفي غمرة هذا الضلال والظلام، وتحت وطأة هذا اليأس والعذاب والانحطاط شاء الله بلطفه أن ينفخ في هذه الإنسانية روح الحياة، ويهبها نعيم الأمن والرخاء، ويخرجها من ظلمات الجاهلية الى نور الإيمان، فولد فيها محمد (ص)، ولد محمد (ص) في بيت من أرفع بيوت العرب شأناً، وأعلاها مجداً، وأكثرها عزة ومنعة.. فكبر محمد (ص) وترعرع وشب، وشبت معه آمال الحياة كلها..

وها هو محمد (ص) بن عبد الله في ريعان الشباب، وقمة الفتوة، وعنفوان الرجولة.. إنه شاب من أكثر شباب قريش فتوة وجمالاً، وأعلاها شرفاً ونسباً.. وهو بعد ذلك، يمتاز عن سائر شباب قريش بشرف نفسه، وكمال خلقه، ونضج شخصيته.. فقد شاء الله أن يربى محمداً (ص) ويعده، ويؤهله لحمل الرسالة، والاضطلاع بتبليغ الأمانة.. لقد أحيط محمد (ص) برعاية الهية خاصة، رسمت حياته وفق قدر رباني متناسب مع ما ينتظره من عظم المسؤولية، وما يمكنه من حمل الرسالة، ونشر الدعوة...

نسبه، أرض مولده، طفولته، تربيته، زواجه.. وكل شيء في حياته..

وها هو محمد (ص) يبلغ من الشباب، وعلى وجه التحديد سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف.. فكان ولا بد له من الاقتران بامرأة تناسب انسانيته، وتتجاوب مع عظيم أهدافه، وترتفع الى مستوى حياته.. بما ينتظرها من جهاد، وبذل، وصبر..، ولم يكن في دنيا محمد (ص) من امرأة تصلح لهذه المهمة غير خديجة (رض)... وشاء الله ذلك، فيتجه قلب خديجة نحو محمد (ص)، ويتعلق قلبها بشخصه الكريم.. وتطلب هي النزول في ساحة عظمته، وتعرض نفسها عليه.. فيقبل محمد (ص) ذلك الطلب، ويقترن بخديجة.

لقد تزوج رسول الله (ص) خديجة[1]، وهو لما يزل في الخامسة والعشرين..

ولقد كانت خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية امرأة غنية، وفيرة المال والثراء، سيدة جليلة القدر، عظيمة الشأن في مكة.. وكان أهل مكة يسمونها (الطاهرة).

(١) ورد في بعض كتب السيرة ان رسول الله (ص) تزوج خديجة وهي ليست عذراء أي انها كانت قد تزوجت من قبل غيره، وان عمرها كان عند زواجها برسول الله (ص) أربعين عاماً، إلا أنه وردت روايات أخرىٰ تخالف ذلك، قال ابن شهر آشوب في كتابه.. وروىٰ أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضى في الشافعي، وابو جعفر في التلخيص: ان النبي (ص) تزوج بها، وكانت عذراء.

ويؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الانوار والبدع: (ان رقية وزينب كانتا إبنتي هالة أخت خديجة).

وقد نسبت بعض كتب السيرة رقية وزينب الىٰ خديجة بزعمهم انها ولدتهما من زواجها السابق عن زواجها برسول الله (ص).

أما بخصوص عمرها حين زواجها برسول الله (ص) فهناك روايات متعددة، منها ان عمرها كان (٢٥) سنة وآخر (٢٨) سنة، وثالث (٣٠) سنة، ورابع (٣٥) سنة، وخامس (٤٠) سنة، وسادس (٤٥) سنة،... الخ.

ونقل مؤلف كتاب (كشف الغمة) من كتاب (معالم العترة النبوية) لأبي محمد عبد العزيز الجنابذي الحنبلي، انه روىٰ عن إبن حمّاد وعن إبن عباس ان رسول الله (ص) تزوج خديجة عن اثنتي عشر اوقية ذهباً وهي إبنة ثماني وعشرين سنة.

وهكذا أقيم البناء واجتمعت الأركان فشيد بيت النبوة من الأم (الطاهرة) أم المؤمنين الكبرى. . خديجة بنت خويلد، والزوج الرسول محمد (ص) ذي الخلق العظيم، الذي سمته قريش أيام جاهليتها بالصادق الأمين. . .

لقد كانت هذه الأسرة المثالية واحة الفضيلة في صحراء الجاهلية، وبحبوحة السعادة في دنيا الشقاء آنذاك، يغمرها الحب، ويشد أواصرها الاخلاص.

أحب رسول الله محمد (ص) خديجة (رض) وأحبته، وأخلص لها وأخلصت له. . فلم يكن يرى في الدنيا من النساء من تعادل خديجة. . فهي اول من امن برسالته، وصدق دعوته، وبذلت مالها وثروتها الطائلة في سبيل الله تعالى، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية، فتحملت مع رسول الله (ص) عذاب قريش ومقاطعتها وحصارها. . وكان هذا الإخلاص الفريد، والايمان الصادق، والحب المخلص من خديجة حرياً بأن يقابله رسول الله (ص) بما يستحق من الحب والاخلاص والتكريم، وبلغ من حبه لها، وعظيم مكانتها في نفسه الطاهرة أن هذا الحب والوفاء لم يفارق رسول الله (ص) حتى بعد موتها، ولم تستطع أي من زوجاته أن تحتل مكانها في نفسه، فقد روي عنه (ص) أنه كان اذا ذبح الشاة يقول:

(أرسلوا الى أصدقاء خديجة) فتسأله عائشة في ذلك فيقول: **(انّي لأحب حبيبها)**.

ويروى أن امرأة جاءته (ص) وهو في حجرة عائشة، فاستقبلها واحتفى بها، واسرع في قضاء حاجتها، فتعجبت عائشة من ذلك، فقال لها رسول الله (ص):

(انّها كانت تأتينا في حياة خديجة).

وجرت مرة محاورة بين رسول الله (ص)، وزوجته عائشة، حين شعرت بالغيرة تملأ قلبها من كثرة ذكر رسول الله (ص) لخديجة، وتعلق حبه بها، فقالت له: (ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها) فآلم

النبي (ص) هذا القول: ورد عليها قائلاً:

(ما أبدلني الله خيراً منها، كانت أم العيال، وربّة البيت، آمنت بي حين كـذّبني الناس، وواستني بمـالها حين حـرمني الناس، ورزقت منهـا الولـد وحرمت من غيرها) [٢].

وخديجة بنت خويلد حرية بهذا القدر والمقام عند رسول الله (ص) بعد أن حازت المقام الرفيع والدرجة السامية عند ربها، فهي المرأة التي حباها رب العالمين، وبشرها بالخلد والنعيم.

فقد روي (إن جبرائيل أتى رسول الله فقال، يا رسول الله هذه خديجة، قد أتت معها اناء فيه ادام، أو طعام، أو شراب، فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السـلام من ربها، ومني وبشرهـا ببيت في الجنـة من قصبٍ(*) لا صخب فيـه ولا نصب)[٣].

ولذا قال فيها رسول الله (ص):

(أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خـويلد، وفاطمـة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون) [٤].

هذه هي خديجة أم فاطمة، وذاك أبوها محمد رسول الله (ص)، ففي أجواء هذا البيت ولدت الزهراء، وتحت هذه الظلال عاشت وترعرعت، وفي هذه الرعاية نشأت وتربت، وكانت طبيعياً أن تؤثر هذه البيئة العائلية على حياة

---

(٢) باقر شريف القرشي ـ حياة الامام الحسن بن علي /ج ١/ ط ٣/ ص ٤٠ ـ نقلاً عن اسعاف الراغبين المطبوع على هامش نور الابصار ص ٩٦ للشبلنجي. وما يقرب من ذلك في مسند أحمد ج ٦ ص ١٥٠. وفي سنن إبن ماجة في باب الغيرة من أبواب النكاح.

(*) من قصب: من ذهب.

(٣) صحيح البخاري /ج ٥/ ص ٤٨. ومسند أحمد بن حنبل.

(٤) محب الدين الطبري ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى /ص ٤٢/ ط ١٩٦٧ م. وروىٰ نظيره الحاكم في مستدركه (ج ٣ ص ١٥٧ وص ١٨٥) وخرجه أحمد وأبو حاتم.

فاطمة، وشخصيتها، فتتأثر بأبويها، وتقتدي بخيرة خلق الله، خلقاً وانسانية . .
فكانت خيرة النساء، وقدوة المرأة المسلمة، وأم الأئمة الهداة (ع).

ومما لا شك فيه فان عوامل الوراثة والبيئة هذه والتي توفرت لفاطمة (عليها السلام) مع بقية العوامل قد صاغت من فاطمة الوليدة الأولى في عامل الإسلام . . .

فاطمة الوليدة

في ظلال أبيها رسول الله (ص) وبين أحضان أمها الطاهرة، خديجة بنت خويلد بن أسد، (ولدت فاطمة الزهراء في مكة المكرمة في يوم الجمعة(*) في العشرين من شهر جمادي الاخرة)[٥] فاستقبل رسول الله ابنته الحبيبة بالفرح والرضاء وسماها (فاطمة)[٦]. . . لقد أثمرت شجرة النبوة، واذن

(*) قال بعض المؤرخين انها ولدت قبل البعثة بخمس سنين، وتذهب معظم روايات أهل البيت (عليهم السلام) الىٰ انها ولدت بعد البعثة بخمس سنين (الكافي بسند صحيح، المصباح الكبير، دلائل الامامة، مصباح الكفعمي، الروضة، مناقب ابن شهر آشوب، وغيرها).

ومما يؤيد ذلك ما ذكرت كتب التاريخ من أن كل ولد خديجة ولدوا بعد الاسلام، باستثناء عبد مناف، وكانت فاطمة أصغر أولاد الرسول (ص)، ومما يدل علىٰ انها ولدت بعد البعثة روايات كثيرة أكدت علىٰ أنَّ نطفتها قد انعقدت من ثمر جاء به جبرائيل الىٰ النبي (ص)، منها ما روي عن ابن عباس، وسعد بن أبي وقاص، وعائشة.

وما روي عن طريق أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كالامام الصادق (عليه السلام). . . من انه (ص) قال لعائشة حينما عاتبته على كثرة تقبيله إبنته فاطمة قال (ص): نعم يا عائشة لما أسري بي الىٰ السماء أدخلني جبرائيل الجنة، فناولني منها تفاحة، فأكلتها، فصارت نطفة في صلبي، فلما نزلت واقعت خديجة، ففاطمة من تلك النطفة ففاطمة حوراء أنسية، وكلما إشتقت الىٰ الجنة قبّلتها. . . ونقل ذلك في مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٥٦، وتلخيصه للذهبي، ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٠٢، وتاريخ بغداد ج ٥ ص ٨٧ وميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٩٧ وص ١٦٠. . . كما ورد في البحار عن أمالي الصدوق، وعيون أخبار الرضا، ومعاني الأخبار، وعلل الشرائع، وتفسير القمي. . . وغيرها الكثير. وللتفصيل راجع الصحيح في سيرة الرسول (ص) لجعفر مرتضىٰ العاملي.

(٥) السيد محسن الأمين ـ المجالس السنية /ج ٥/ ص ٥٣/ط ٦.

(٦) وردت أحاديث متعددة في علة تسميتها بفاطمة، منها ما روي عن الامام علي بن موسىٰ الرضا، عن آبائه من أهل البيت (عليهم السلام)، قال: قال رسول الله (ص):

الله لدوحة الرسول (ص) أن تمتد فروعها، وتستطيل آفاقها بميلاد فاطمة في أجيال هذه الأمة.

لقد ولدت فاطمة (ع)، وهي تحمل روح رسول الله (ص)، وصفاته، وأخلاقه، فكانت الوارث والشبيه، اذ لم يكن في الدنيا أحد يماثل الرسول في صفته وشمائله كفاطمة (ع)، ولقد لفتت هذه العلاقة والرابطة بين رسول الله (ص) وابنته فاطمة أنظار الذين عايشوها، فتحدثوا عن ذلك الشبه وكرروا القول فيه، فهذه زوج رسول الله عائشة تتحدث عن هذه العلاقة والرابطة الجسدية والروحية والأخلاقية بين رسول الله وابنته فاطمة تقول:

(ما رأيت أحد أشبه سمتاً، ودلا وهدياً برسول الله (ص) في قيامها، وقعودها، من فاطمة كرم الله وجهها، كانت إذا دخلت عليه قام اليها فأخذ بيدها فيقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت اليه فاخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها)[7].

وروت عائشة أيضاً:

(ما رأيت أحداً أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله)[8].

لقد ملأت فاطمة بيت الأبوين رسول الله (ص)، وزوجته خديجة بالبهجة والسرور، فهي ملتقى الحب بينهما، وثمرة العلاقة الودية في حياتهما، وفرع النبوة الشامخ، وظله المستطيل، ومستودع نور النبوة المتقلب في أصلاب الساجدين، فحق لهذا البيت أن يزهو بمناغاة فاطمة، ويمتلىء سروراً بابتساماتها المشرقة الوليدة.

اني سميت إبنتي فاطمة لأن الله عز وجل فطمها وفطم من أحبها من النار. عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٤٦.

كما وردت روايات متعددة في علة تسميتها بالزهراء، منها ما روي عن ابن عمارة عن أبيه، قال: سألت أبا عبد الله ـ الصادق ـ (عليه السلام) عن فاطمة لم سميت زهراء؟ فقال: لانها كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض. معاني الأخبار ص ٦٤ ـ علل الشرائع ج ١ ص ١٨١.

(٧) الفيروزآبادي ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة /ج ٣ /ص ١٢٧/ ط ٣ مستدرك الصحيحين ج ٤ ص ٢٧٢. الادب المفرد للبخاري ص ١٣٦ ـ سنن أبو داود ج ٢ ص ٣٥٤ وسنن الترمذي ص ٥٥٠ قريباً منه ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٥٤.

(٨) فضائل الخمسة: عن مستدرك الصحيحين ج ٣ /ص ١٥٤.

فاطمة البنت

وهكذا ولدت فاطمة، ودرجت في بيت النبوة، وترعرعت في ظلال الوحي، ورضعت مع لبن خديجة، حب الإيمان، ومكارم الأخلاق.. وحنان الأب الرسول (ص) والأم، أم المؤمنين الطاهرة، وهكذا عاشت فاطمة في ظلال هذا الجو الروحي، والسمو العائلي، وتشبعت روحها بالحنان النبوي الكريم.

وشاء الله تعالى أن تبدأ فاطمة طفولتها الطاهرة، في مرحلة من أشد مراحل الدعوة الإسلامية ضراوة ومحنة، وأكثرها قسوة وأذى لأمها وأبيها...

لقد ولدت فاطمة في حدة الصراع بين الأسلام والجاهلية. وفتحت عينيها في ضراوة الجهاد بين الطليعة المؤمنة، وقريش الوثنية الجائرة.. وها هي قريش تفرض المقاطعة والحصار على رسول الله، وأعمامه بني هاشم، وأصحابه من الدعاة وطلائع الجهاد، فيدخل رسول الله (ص) شعب أبي طالب، وتدخل معه زوجته المجاهدة رفيقة حياته، وشريكته في جهاده وتدخل معهم فاطمة، وتحاصرهم قريش ثلاث سنين، في هذا الشعب، ذاق (ص) ومن معه فيها شظف العيش، وقساوة المقاطعة، ومرارة الجوع والحرمان دفاعاً عن الحق وتضحية من أجل المبدأ، وكانت بداية هذا الحصار في السنة السابعة بعد البعثة النبوية..، وبذا عايشت الزهراء الحصار، وذاقت في طفولتها مرارة الجهاد، وألم الكفاح..

وتمر سنون الحصار، صعبة ثقيلة، ويخرج رسول الله (ص) ومن معه من الحصار والمقاطعة، وقد كتب الله تعالى لهم النصر والغلبة، وتخرج خديجة وقد أثقلتها السنون، وأرهقها عناء الحصار والحرمان.. وها هي قد بلغت الخامسة والستين من عمرها الجهادي المشرق، وحياتها المثالية الفريدة

في دنيا المرأة.. لقد قرب أجل خديجة.. وشاء الله تعالى أن يختارها لجواره، ، فتتوفى في ذلك العام، الذي خرج فيه المسلمون من الحصار، وكان العام العاشر من البعثة...

وتوفي في العام ذاته أبو طالب عم الرسول (ص)، وحامي الدعوة الإسلامية، وناصر الإسلام، ولقد شعر رسول الله بالحزن والأسى.. وأحس بالفراق والوحشة.. إنه فقد الحبيب والعون والمواسي، فقد خديجة، زوجته، وحبيبته وعونه، وفقد عمه، الحامي والمدافع عنه.. فسمي ذلكم العام بعام الحزن، حقاً إنه عام الأحزان.. عام فقد فيه رسول الله (ص) أحب الناس الى قلبه، وأكثرهم عطفاً عليه..

وليس رسول الله (ص) وحده هو الذي رزىء في ذلك العام، بل وفاطمة الصبية الصغيرة التي لم تشبع من حنان الأمومة، وعطف الوالدة بعد... فقد شاطرته هذه المأساة، ورزئت هي الأخرى، فشملتها المحنة في ذلك العام الحزين.. عام الألم والمأساة، وشعرت بغمامة الحزن واليتم تخيم على حياتها الطاهرة....

لقد فقدت أمها، وفارق مصدر حبها وحنانها.. فشعرت بالألم والفراق وغياب الأم يملأ قلبها، ويحز في نفسها، فتسأل أباها بلهفة وحزن: (**أبي، أبي، أين أمي، أين أمي!؟**) ثم تفيض الحزن دموعاً.. والفراق حسرة.

ويحس الأب الرسول (ص) بوطأة الحزن على نفس فاطمة (ع)، ويرى دموع الفراق تتسابق على خديها، فيرق القلب الرحيم، وتفيض مشاعر الود والأبوة الصادقة، فيحنو رسول الله (ص) على فاطمة، يعوضها من حبه وحنانه ما فقدته في أمها، من حب ورعاية وحنان..

لقد أحب رسول الله (ص) فاطمة وأحبته، وحنا عليها، وحنت عليه، فلم يكن أحد أحب الىٰ قلبه ولا إنسان أقرب الى نفسه من فاطمة.. لقد أحبها وصاغ حبه لها، وقربها منه؛ أوسمة شرف، وعبارات خلود، فكان يؤكد كلما وجد ذلك ضرورياً، هذه العلاقة بفاطمة، ويوضح مقامها ومكانتها في أمته، وهو يمهد لأمر عظيم، وقدر خطير، يرتبط بفاطمة، وبالذرية الطاهرة التي

أعقبتها فاطمة، وبالأمة الاسلاميةكلها. . كان يؤكد ذلك ليعرف المسلمون مقام فاطمة، ومكانة الأئمة من ذريتها، ليعطوا فاطمة حقها، ويحفظوا لها مكانتها، ويرعوا الذرية الطاهرة حق رعايتها. .

فها هو رسول الله (ص) يعرّف فاطمة، ويؤكد للمسلمين:

(فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني)[9].

(انما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها)[10].

ويسأل الإمام علي (ع) رسول الله (ص) فيقول:

(يا رسول الله أي أهلك أحب إليك؟ قال: فاطمة بنت محمد. .)[11].

إن قولة الرسول (ص) هذه ليست عاطفية بقدر ما هي توجيه للأمة نحو هذه المرأة الأسوة القدوة.

وتكبر فاطمة وتشب، ويشب معها حب أبيها لها، ويزداد حنانه عليها، وتبادله فاطمة هذا الحب، وتملأ قلبه بالعطف والرعاية فيسميها **(أم أبيها)**[12].

لقد كانت تحنو عليه (ص) حنو الأمهات على أبنائهن، وترعاه رعاية الوالدات لصغارهن.

---

(٩) البخاري ج ٢ ص ١٨٥ ـ مسند أحمد ج ٤ ص ٣٣٢ ـ وفي مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٥٤. عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (ص) لفاطمة: ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك.

(١٠) سنن الترمذي ـ مسند أحمد ج ٤ ص ٥ ـ خصائص النسائي ص ٢٥ وفيه من آذىٰ رسول الله (ص) فقد حبط عمله.

(١١) الطبري /ذخائر العقبى/ ص ٣٦. وخرجه الحافظ ابو القاسم الدمشقي. وروى الترمذي في سننه (ص ٥٤٩) عن بريدة، كان أحب النساء الىٰ رسول الله (ص) فاطمة ومن الرجال علي (عليه السلام). وروىٰ مثله (ص ٥٥٠) عن عائشة. ورويَّ مثله في خصائص النسائي ص ٢٠ ـ والحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٥٤ وص ٢١.

(١٢) راجع أسد الغابة لابن الأثير /ج ٥/ ص ٥٢٠ قال كانت فاطمة تكنى أم أبيها، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر /ج ٢/ ص ٧٥٢. نقلاً عن فضائل الخمسة ج ٣ /ص ١٢٦.

انه النموذج القدوة من العلاقـة الأبويـة الطاهـرة التي تساهم في بنـاء شخصية الأبناء، وتوجه سلوكهم وحياتهم، وتملأ نفوسهم بالحب والحنان، لقد كانت هذه العلاقة هي المثل الأعلى في رعاية الإسلام للفتاة والعناية بها، وتحديد مكانتها.

فاطمة الممتحنة

وشاء الله سبحانه أن تشهد فاطمة فترة صراع الدعوة في مكة، وتشهد محنة أبيها (ص)، فترى الأذى والاضطهاد يقع عليه، تشهد جو مكة المعادي لبيت النبوة، بيت الهدى والايمان والفضيلة، وتشاهد أباها والصفوة المؤمنة من دعاة الإسلام، والسابقين بالايمان، يخوضون ملحمة البطولة والجهاد، فيؤثر هذا الجو الجهادي في نفسها، ويساهم في تكوين شخصيتها، واعدادها لحياة التحمل والمعاناة..

لقد عايشت فاطمة (ع) كل ذلك وهي بعد لما تزل صبية صغيرة، وعايشت المحنة الأشد مع أبيها، بعد فقد أمها، المواسي والأنيس والحبيب، الذي كان يخفف عنه متاعب الحياة، والآلام والاضطهاد.. وبعد فقده عمه أبا طالب، حامي الدعوة والمدافع عن رسول الله (ص).. أبو طالب الذي ما تجرأت قريش في حياته أن تؤذي محمداً (ص)، أو تنال منه شيئاً، الا وكان لها بالمرصاد.. هذه الحماية التي عبر عنها رسول الله (ص) بعد فقده أبا طالب بقوله: **(ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب)**.

لقد صبت قريش حقدها وأذاها على رسول الله (ص) في تلك الفترة العصيبة من عمر الدعوة، وبكل ما تملك من وسائل الأذى، والاستهزاء والسخرية، ومحاولات الانتقاص من مكانة محمد (ص) وشخصيته... لقد تحمل محمد (ص) من أجل دعوته، وفي سبيل مبادئه ورسالته، ما لم يتحمله أحد من الأنبياء، فقد بلغ الأمر بأحد سفهاء قريش، أن يغترف غرفة من تراب الأرض ويقذفها بوجه رسول الله (ص) وعلى رأسه، فيتحمل رسول الله (ص) هذا الأذى، ويعود الى بيته صابراً محتسباً وقد لطخ التراب وجهه ورأسه!! يعود إلى بيته وتنظر فاطمة اليه فترى ما لحق به من أذى قريش وتماديها في

الصلف والغـرور، فيحـز الألم في نفسهـا، ويعـظم عليهـا تجـرؤ السفهـاء والمغرورين من طغاة الجـاهلية ومتكبـريها على رسـول الله (ص)، ثم تقوم لأبيها، وتنفض التراب عن رأسه ووجهه الكريم. . . ولم يمر هـذا المشهد المؤلم دون أن يؤثر في نفسها، فيستبد بها الحزن والألم على القائد رسول الله أبيها (ص)، فتبكي وتتألم، لجرأة هؤلاء الجاهلين الطغاة على رجل يريد أن يخرجهم من الظلمات الى النور، ويهديهم سبيل الهـدى والرشـاد. . ويؤثر موقف فاطمة في نفس أبيها، ويشعر بحرارة الألـم تمس قلبها، فيحاول (ص) أن يخفف عنها، ويحثها على التجلد والتحمل، فيـمد يـديه الكـريمتين، ويضعهما على رأسها، فيمسه برقة وحنان، وهو يقول لها:

لا تبكي يـا بنيّة، فـان الله مـانـع أبـاك، ونـاصـره على أعـداء دينـه ورسالته [١٣].

بهذه الكلمات الجهادية المربية يحاول رسول الله (ص) أن يـزرع في نفس فاطمة (ع) روحـاً جهاديـاً عاليـة، ويملأ نفسهـا وقلبها بـالصبر والثقـة بالنصر. .

ولم تنتـه هـذه المشـاهـد المثيـرة المؤلمـة، ولن يقف أذى قـريش، واستخفافها برسول الحق، ودعوة الهدى والتحرير الى هذا الحد، بل راحت تتمادى في غيها، وتصر على عنتها وكبريائها.

وهكذا يفعل الطغاة والمغرورون بالقوة والسلطة، في كل عصر وجيل، ويصـر رسـول الله (ص) على دعـوتـه أيضـاً، ويستهين ومعـه صحبـه الأبرار، بكل وسائل الأذى والاضطهاد والاستهزاء، وتلك سمة بارزة في حياة الرسل (ع)، ودعاة الايمان على امتداد خط الصراع والجهاد من أجل الحق، فيصر على موقفه، ويمضي في سبيل دعوته، ويتابع بعزيمة لا تلين: نشـر رسالته الغراء. . ، ويمزق هذا الاصرار صبر قريش، ويثيـر سفهاءهـا فتكرر حماقتها، وتقف موقفاً ساخراً آخراً من رسول الله (ص)؛ لـلاستخفاف بـه،

---

(١٣) هاشم معروف الحسيني ـ سيرة المصطفى ـ ص ٢٠٥ ـ ط ١.

وايقاع الأذى على نفسه، علها تنال من عزيمته، أو تصده عن دعوته، فقد سجل لنا التاريخ حادثة أخرى تكشف تفاهة الوسائل، وقذارة الأساليب التي يلجأ اليها أعداء الإيمان، وتتوسل بها أحزاب الجاهلية والضلال في صراعها مع أنبياء الله (ع)ودعاة الحق والإيمان. . . .

(فقد روي عن عبدالله بن مسعود، قال: ما رأيت رسول الله (ص) دعا على قريش غير يوم واحد، فانه كان يصلي، ورهط من قريش جلوس، وسلى(*) جزور قريب منه فقالوا من يأخذ هذا السلى فيلقيه على ظهره، فقام رجل وألقاه على ظهره، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة عليها السلام، فأخذته عن ظهره، فقال (ص): (اللهم عليك بالملأ من قريش، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهم عليك بأبي بن خلف، وأمية بن خلف). قال عبدالله بن مسعود، فقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعاً، ثم سحبوا الى القليب(*) غير أبي، أو أمية، فانه كان رجلاً ضخماً فتقطع)[١٤].

وهكذا عايشت وشهدت فاطمة وهي لما تزل صبية محنة أبيها وأذى قريش واستهزاءهم به، فساهمت هذه المواقف الصعبة في صنع شخصيتها، وعلمتها كيف تواجه الحياة وتنتصر على المحنة. . بل المحن التي كانت بانتظارها. .

فلقد كانت هذه الشدائد تمرُّ على الزهراء فاطمة بمثابة تأهيل نفسي وعقلي لتستقبل فيما بعد ما ينتظرها من عزائم الأمور بصبر وجلد عزّ مثيله.

(*) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه ولد الماشية من بطن أمه ملفوفاً فيه.
(*) القليب: البئر.
(١٤) الطبري /ذخائر العقبى/ ص ٤٧، وخرجه البخاري.

فاطمة المهاجرة

الجاهلية في كل عصر وجيل، مرض فكري وأخلاقي، يعبث بعقل الإنسان، ووعيه ونفسه، فيصده عن الحق، ويحرفه عن الاستقامة، ويحبب له العيش في مستنقع الرذيلة، والتحرك في صحاري التيه والظلام، لذلك فهو يغشو عن دعوة الحق، ويصم أذنيه عن سماع الهدى..

وهكذا كانت قريش.. ولذا سعت وبكل جهدها لتتخلص من رسول الله (ص)، فائتمر قادة الجاهلية، وأئمة الشرك، وقرروا قتل رسول الله (ص) والتخلص منه، بعد أن يئسوا من اخماد صوته، واطفاء أنوار دعوته..

وشاء الله تعالى غير ذلك.. شاء الله تعالى أن يتم نوره، وينصر نبيه (ص)، ويظهر دعوته، فأمره بالهجرة.. والانتقال من أرض مكة الى يثرب.. ولم يكن الانتقال من مكة والبحث عن أرض جديدة حادثاً أولدته مؤامرة القتل، بل كان رسول الله (ص) يمهد لذلك، ويبحث عن منطلق آخر لنشر دعوته، وبناء مجتمع الرسالة، فكان من قبل قد ذهب الى الطائف، ولم يحظ أهلها ـ ثقيف ـ بنصرته، والاستجابة لدعوته، فردوه، ورفضوا تصديقه، وأسأؤوا اليه، وأمروا عبيدهم وسفهاءهم أن يرموه بالحجارة، فأخرجوه بالسخرية والأذى من قريتهم، فتركهم رسول الله (ص) وخرج، ثم عاد إلى مكة، وكان رسول الله (ص) يتّصل بالحجاج القادمين من قبائل العرب الى مكة، ويعرض عليهم دعوته، وشاء الله تعالى أن تكون يثرب هي الناصر والمنطلق، فيلتقي بأهلها، ويتجه نظره نحوها ويزداد اهتمامه بها، ويواصل نشر دعوته فيها، فكان هذا الاعداد والبناء الرسالي في المدينة المنورة، هو الذي مكن الرسول (ص) من الانتقال اليها، عندما تآمرت قريش على قتله، فهاجر (ص) كما هاجر

ابراهيم وموسى (ع) من قبل. . خرج رسول الله (ص) من مكة مستخفياً بظلام الليل، تاركاً وطنه وأحباءه وأهله، وفيهم فاطمة ابنته الحبيبة، وابن عمه علي بن أبي طالب (ع) عونه وسنده، وسيفه الضارب المقدام، وفدائيه الشجاع. . لقد ترك علياً نائماً في فراشه، وأوصاه أن يرد الأمانات التي كانت عنده ـ عند النبي ـ إلى أهلها. . ثم أمره أن يلتحق به، أن يهاجر الى يثرب، ويصطحب معه أهل بيته. . وينفذ علي الوصية، ويشتري الركائب لحمل النسوة، ويجمع أهله وعياله، ويلتئم شمل الركب الهاشمي المهاجر بقيادة على بن أبي طالب (ع) فيضم الفواطم، فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) وفاطمة بنت أسد ابن هاشم، أم الامام علي، ومربية رسول الله (ص)، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة، والتحق بهم أيمن، وأبو واقد الليثي. . .

ويخرج الركب ويستحث المهاجرون السير، ويسوق أبو واقد المطايا سوقاً حثيثاً، مخافة أن تلحق قريش بالركب. . فينظر الامام علي (ع) الى النسوة، ويرفق بهن، فيقول لأبي واقد:

(إرفق بالنسوة يا أبا واقد).

. . ويمضي الركب عبر صحراء الجزيرة يعد السير، ويصحر في وضح النهار، بتحد واستهانة بكبرياء قريش وغرورها. . فانه يستظل بسيف علي بن أبي طالب (ع)، قاهر الجاهلية، ومحطم أصنامها وصلفها، ولم يخرج علي (ع) بالركب، تحت جنح الظلام، أو في غفلة من رقابة قريش. . إنه خرج متحدياً لقريش، مستهيناً بخيلائها وعنتها، إنه يريد أن يضرب معنوياتها وكبرياءها بعزته الجهادية الفذة، ويضع الخطوة الأولى على طريق التحدي في مرحلة الصراع الجديدة التي بدأها رسول الله (ص) بقرار الهجرة. . وتحس قريش بالجرح عميقاً في قلب كبريائها، إن ابن أبي طالب تحدى ارهابها وقوتها وطغيانها، وخرج في وضح النهار. . ماذا يعني هذا الموقف من علي؟ ولماذا يخرج بهذه العلنية بركب أهل بيت النبوة. . ؟

أليس هو التحدي والاستهانة بقريش ومقاومتها وتصديها؟ انه كذلك. . ، لذا فقد قررت قريش ارسال ثمانية من فرسانها لقتل علي (ع)، والتعرض

لركب النبوة المهاجر، فيدركون علياً (ع) والركب قرب ضجنان، ويأمر علي الرجلين اللذين كانا معه أن يبتعدا بالأبل ويعقلاها، ثم تقدم هو الى النسوة فأنزلهن، ويستقبل العصابة بسيفه. . انه يعرف لغة الجاهلية، ووسائل ارغامها، فيخاطبها بالذي تفهم، فيواجهونه بالكلمات الجارحة: أظننت يا غدار أنك ناج بالنسوة، ارجع، لا أبا لك، فقال علي (ع): فإن لم أفعل؟ قالوا: لترجعن راغماً، ودنوا من المطايا ليثوروها، فحال علي (ع) بينهم وبينها، فأهوى له جناح(*) فراغ عن ضربته، وضرب جناحاً على عاتقه فقدَّه نصفين، حتى دخل السيف الى كتف فرسه، وشدَّ على أصحابه، وهو على قدميه شدة ضيغم وهو يقول:

خلوا سبيل الجاهد المجاهد   آليت ألاّ أعبد غير الواحد

فتفرق القوم عنه، وقالوا أحبس نفسك عنا يا ابن أبي طالب، فقال لهم:

(أنّي منطلق الى أخي وابن عمّي رسول الله (ص)، فمن سرّه أفري لحمه، وأريق دمه، فليدن منّي)[١٥].

وهكذا فرت فرسان قريش، ولحقت بها أول هزيمة عسكرية يشتبك فيها مسلم مع قريش، فهي أول معركة تتخذ طابع المواجهة القتالية المسلحة بين المؤمنين والمشركين. .

ثم التفت علي المنتصر الى صاحبيه أيمن وأبي واقد، وقال لهما: أطلقا مطاياكم. . ثم واصل السير، حتى وصل ضجنان، فنزل فيها، ثم أقام يومه وليلته، فلحقت به أم أيمن، ونفر من المستضعفين إلى لقاء رسول الله (ص) أكثر سرعة وعجالة. . فرسول الله (ص) قد وصل يثرب وحل بقبا، فأقام فيها ينتظر وصول علي وفاطمة، وممَنْ صاحب الركب النبوي المهاجر، أقام بقبا وكان يقول لأبي بكر الذي طلب منه الدخول الى المدينة:

(*) جناح = هو مملوك لحرب ابن أمية.

(١٥) الحسيني ـ سيرة المصطفى /ص ١٥٩.

(ما أنا بداخلها، حتى يقدم ابن عمّي وابنتي)[١٦]،

ويواصل علي سيره ليلا، ويكمن نهاراً يواصل السير على قدميه، من دون أن يركب ظهراً، أو يستخدم دابة، فيطوي الأرض ما بين مكة والمدينة على قدميه[١٧]، حتى تفطرت قدماه وتورمتا من شدة السير، ويصل الركب قبا، ويسر رسول الله (ص) بسلامة الوصول، ولقاء الأحبة، ثم يقول:

(أدع لي علياً، قيل لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي (ص) واعتنقه وبكى، رحمة به، لما بقدميه من الورم، وتفل في يديه وأمرّهما على قدميه، فلم يشتكهما بعد حتى قتل)[١٨].

لقد عظم هذا الموقف في نفس رسول الله (ص) كما كان عظيماً عند الله سبحانه، فاستحق أن يخلد، وأن يكون نموذجاً وقدوة جهادية وعقائدية لأجيال المسلمين.

ومن هنا جاء تخليد الوحي له، ونزول القرآن فيه وصفا وتعظيماً[١٩]:
(. . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله، والله عنده حسن الثواب)[٢٠].

إنه فك ارتباطه بالأرض، وهاجر إلى الله تعالى. . إنه قطع صلته بالديار وسار نحو الله تعالى. . إنه أعرض عن الأهل والعشيرة في أشد ظروف المحنة، وتجرد لتحمل الأذى والمشاق، والتعب والعناء في سبيل الله تعالى. . واستجابة لله تعالى وطلباً لمرضاته. . وطاعة لرسوله (ص).

(١٦) هاشم معروف الحسيني ـ سيرة المصطفى ـ ص ٢٥٨.
(١٧) المسافة بين مكة والمدينة ـ حوالي ـ ٤٥٠ كم.
(١٨) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ٢ ـ ص ١٠٦.
(١٩) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ـ الميزان في تفسير القرآن / ج ٤/ ص ٩١/ ط ٣.
(٢٠) آل عمران / ١٩٥.

علي يخطب فاطمة

.. وتحل فاطمة بدار هجرتها، وتنضم الى بيت أبيها المتواضع في أرض الإسلام الجديدة فتنعم بعنايته وحبه هناك.. ذلك الحب، وتلك الرعاية التي لم يحظ بها أحد من الناس سواها، حتى أن زوجة أبيها عائشة كانت تتحدث عن هذه العلاقة الأبوية الفريدة في دنيا الإنسان فتقول: (مارأيت أحداً أشبه سمتا ودلا وهديا وحديثا برسول الله في قيامه وقعوده من فاطمة بنت رسول الله (ص)، قالت: وكانت اذا دخلت على رسول الله (ص) قام اليها، فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي (ص) إذا دخل عليها، قامت من مجلسها، فقبلته وأجلسته في مجلسها)[٢١].

وفي المدينة استمر رسول الله (ص) في رعايته الفائقة لفاطمة وعنايته بها واكتسبت هي من هذه الرعاية والعناية أدباً نبوياً رفيعاً أهّلها لأن تكون في مستوىً عالٍ من الفضائل والأخلاق وهي بنت صغيرة بعد.

فقد روي عن أم سلمة انها قالت[٢٢]: تزوجني رسول الله (ص) بعدما دخل المدينة وفوض أمر إبنته إليّ فكنت أؤدبها وكانت والله أأدب مني وأعرف بالأشياء كلها.

وها هي فاطمة الشابة النضرة، ذات الشرف والجمال والمجد الرفيع، تعيش في كنف أبيها، فتتجه الأنظار إليها ويحدِّث بعض الصحابة نفسه بأن يحظى بالاقتران بها، وينال شرف الانتساب الى أبيها، فهي أعظم امرأة في

---

(٢١) الطبري ـ ص ٤٠. ومثله في سنن أبي داود (ج ٢ ص ٣٥٤)، ومستدرك الحاكم (ج ٣ ص ١٥٤)، وغيرها.

(٢٢) بحار الأنوار ج ٤٣ الباب الأول عن دلائل الإمامة باسناده عن ابن عباس.

شرفها ودينها ومكانتها عند بارئها، فهذا رسول الله (ص) الناطق بلسان الوحي يخاطبها ويقول:

(**يا فاطمة انّ الله عزّوجلّ يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك**)[23].

ويحدثها في مقام آخر، فيخبرها: بأنها سيدة النساء وخيرتهن: (. . . **أما ترضي أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين، أو سيّدة نساء هذه الأمة**)[24].

ويخاطب المسلمين في مقام آخر، معرّفا بفاطمة، ومخبراً عنها، فيقول: (**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ**)[25].

فاذا كانت هذه فاطمة، وهذا مقامها عند بارئها، وتلك مكانتها في بيت النبوة، فمن لا يحب شرف الاقتران بها من كبار الصحابة، ووجهاء المسلمين، والفوز بمصاهرة أبيها. . . لذا فقد اتجهت أنظار البعض منهم إلى فاطمة فحدث نفسه بالمثول بين يدي أبيها، واعلان رغبته في التزوج بها. . فيقدم على ذلك أبو بكر وعمر بن الخطاب، وغيرهما من أكابر قريش، فيخطب كل واحد منهم فاطمة لنفسه، ولكن رسول الله (ص) يعتذر عن الاستجابة لطلبهم ويقول: (**لم ينزل القضاء بعد**)[26].

---

(٢٣) الطبري ـ ذخائر العقبىٰ ـ ص ٣٩. وفي مسند الامام علي بن موسىٰ الرضا (ع) وخرجه أبو سعد في شرف النبوة ـ وابن المثنىٰ في مجمعه ـ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٥٤، وغيرها.

(٢٤) الطبري ـ ذخائر العقبى ص ٤٠ وخرجه مسلم وخرج الدولابي معناه ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٥٦ ـ وفي البخاري ج ٢ ص ١٨٥ قال النبي (ص): فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. وفي سنن الترمذي ص ٥٤٠ عن حذيفة قال: أتيت النبي (ص) فصليت معه. . .

قال: هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة، استأذن ربه ان يسلم عليّ ويبشرني بان فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

(٢٥) الطبري/ ذخائر العقبىٰ ص ٤٢ والاستيعاب ج ٤ ص ٨٩٥ وخرجه أحمد وأبو حاتم.

(٢٦) الطبري /ذخائر العقبىٰ/ ص ٣٠. وأخرجه ابو الخير القزويني الحاكمي.

وحين اعتذر رسول الله (ص) عن تزويج فاطمة، لعمر أو لأبي بكر اتجها الى الامام علي (ع) وهو يسقي في بستان نخل، فقالا: (قد عرفنا قرابتك من رسول الله (ص) وقدمك في الإسلام، فلو أتيت الى رسول الله (ص) فخطبت اليه فاطمة لزادك الله فضلاً إلى فضلك، وشرفاً إلى شرفك، فانا نرجو أن يكون الله ورسوله انما يحبسانها عليك.. فانطلقَ فتوضأ ثم اغتسلَ ولبس كساءه، وصلى ركعتين، ولبس نعليه، وأقبل الى النبي (ص) وكان في منزل أم سلمة، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وجلس بين يديه، ينظر إلى الأرض، فقال له النبي (ص): **أتيت لحاجة؟ قال: نعم، أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة، فهل أنت مزوّجي يا رسول الله؟**، قالت أم سلمة، فرأيت وجه رسول الله يتهلل فرحاً وسروراً، ثم يبتسم في وجه علي، ودخل على فاطمة فقال لها: **انّ علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله في الاسلام، وانّي سألت ربّي أن يزوّجك خير خلقه، وأحبّهم اليه، وقد ذكر من أمرك شيئاً، فما ترين؟** فسكتت، فخرج رسول الله (ص) وهو يقول:

الله أكبر، سكوتها اقرارها، فقال: **يا علي هل معك شيء أزوّجك به؟ قال سيفي ودرعي وناضح**(*)، (وفي رواية) **وفرسي**، فقال: **أما سيفك فلا غنى بك عنه، تجاهد به في سبيل الله، وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك، وتحمل رحلك في سفرك وأمّا درعك فشأنك بها.**

فانطلق علي وباع درعه، إلى عثمان بن عفان، باربعمائة وثمانين درهماً، فصبهما بين يدي النبي (ص)[٢٧].

وبعد أن قرت عين رسول الله (ص) بهذه الخطبة السعيدة، وزوج الله فاطمة عليا (ع).. أراد رسول الله (ص) أن يعلن لمجتمع المسلمين، ولصحابته المحيطين به هذا النبأ، فيضيف مكرمة جديدة الى سجل علي، وفضيلة أخرى إلى فضائل فاطمة.. فأمر أنس بن مالك أن يجمع فئة من

(*) الناضح: الجمل الذي يستعمل في نقل الماء للسقي.

(٢٧) السيد محسن الأمين ـ المجالس السنية ـ ج ٣ ـ ص ٧٣ ـ ٧٤. ووردت قصة زواج فاطمة عليها السلام في معظم كتب الحديث.

الصحابة (رض) ليعلن عليهم نبأ تزويج فاطمة لعلي.. قال أنس بن مالك: فدعوتهم، فلما اجتمعوا عنده كلهم، وأخذوا مجالسهم، وكان علي غائباً في حاجة للنبي (ص) فقال النبي (ص):

(الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطواته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميّزهم بأحكامه، وأعزّهم بدينه، وأكرمهم بنبيّه محمد (ص)، انّ الله تبارك اسمه، وتعالت عظمته، جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عزّ من قائل:

(وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) فأمر الله يجري الى قضائه، وقضاؤه يجري الى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ثم انّ الله تعالى أمرني أن أزوّج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب...).

ثم دعا من بسر[٢٨] فوضعت بين أيدينا ثم قال انتهبوا فانتهبنا، فبينما، نحن ننتهب اذ دخل علي (ع) على النبي فتبسم النبي (ص) في وجهه ثم قال:

أنّ الله قد أمرني أن أزوّجك فاطمة على أربعمائة[٢٩] مثقال فضّة ان رضيت بذاك، فقال: **قد رضيت بذلك يا رسول الله،** قال أنس بن مالك: فقال النبي: **جمع الله شملكما، وأسعد جدّكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيراً طيّباً.**

قال أنس: (فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب)[٣٠].

وهذا الموقف النبوي المرتبط بالمشيئة والوحي، والأمر الإلهي، يلفت

---

(٢٨) البسر: التمر قبل أن يصير رطباً.

(٢٩) ذكرت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت (ع) أن مهر فاطمة كان (خمسمائة درهم).

(٣٠) الطبري ـ ذخائر العقبى ـ ص ٣٠ ـ ٣١. وأخرجه أبو الخير القزويني الحاكمي.

أنظارنا، ويستوقف خطانا، ويلقـي سؤالا هاماً وخطيراً علينا، وهو:

لماذا لم يرخص لفاطمة بتزويج نفسها..؟ بل، ولِمَ لَمْ يرخص لرسول الله، وهو أبوها ونبيها بتزويجها ـ والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ـ إلا بعد أن نزل القضاء بذلك.

ولماذا خصّ زواج فاطمة بهذه الميزة..؟ فلا بد اذن وأن يكون هناك سر وحكمة الهية ترتبط بهذا الزواج، وتتـوقف على هذه العـلاقة الانسـانية الخطيرة، علاقة فاطمة بنت رسول الله (ص) بابن عمـه وأخيه علي بن أبي طالب (ع) كما كان يسميه رسول الله (ص) وعاش معه في ظلال الوحي ونما في مدرسة النبوة حتى حق له أن يصف هذه العلاقة بقوله:

(وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القـريبة، والمنـزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني الى صـدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل)[٣١].

(... ولقد كنت أتبعه، اتّباع الفصيل إثرْ أمّه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرّسالة، وأشمّ ريح النّبوّة...)[٣٢].

إن هذا السر والاعداد لم يكن غامضاً، وهذه العنـاية لم تكن مجـرد علاقة رحم وقرابة، فالأمر ذو علاقة بحياة هذه الأمة، والعلاقة ترتبط بامتداد فـرع النبوة، والامـامة، فشـاء الله أن يزوج خيـرة نساء هـذه الأمة ـ بضعـة رسول الله (ص) ـ بخيرة رجالها.

فعلي هو الذي قال رسول الله (ص) فيه لفاطمة:

---

(٣١) الامام علي /نهج البلاغة ـ تنظيم د. صبحي الصالح ـ ط ١ ص ٣٠٠.
(٣٢) الامام علي /نهج البلاغة. تنظيم د. صبحي الصالح ص ٣٠٠.

(انّي سألت ربّي أن يزوّجك خير خلقه). . وقال له:
(أمـا ترضى أن تكـون منّي بمنزلـة هارون من مـوسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي)[٣٣].

وفاطمة هي التي قال لها: **(أما ترضي أن تكوني سيّدة نساء المؤمنين)**. وبذا كانا أحب الناس لرسول الله وأقـربهم الى نفسه، (سئلت عـائشة: أي الناس أحب الى رسول الله (ص)، قالت فاطمة، قيل: من الرجال، قالت: زوجها، ان كان ما علمت صوَّاما قوَّاما)[٣٤].

وينعقد الزواج، ويبنى بيت أهل بيت النبوة، ويرعاه رسول الله، ويعرّف به، ويؤكد أن علياً وفاطمة وذريتهما هم أهل بيته، ومن علي وفاطمة ذريته وأبناؤه وعصبته.

روى ابن عباس قال: (كنت أنا والعباس جالسين عند رسول الله (ص) اذ دخل علي بن أبي طالب فسلم فرد عليه رسول الله (ص) السلام، وقام اليه وعانقه وقبله بين عينيه وأجلسه عن يمينه، فقال العباس: يا رسول الله أتحبُّ هذا؟ فقال رسول الله (ص):
(يا عمّ والله، الله أشدّ حبّاً له منّي، انّ الله جعل ذرّية كل نبيّ في صلبه، وجعل ذرّيتي في صلب هذا)[٣٥].

وهكذا شاء الله أن تمتدّ ذرية رسول الله (ص) عن طريق علي وفاطمة، ويكون منهما الحسن والحسين (ع) والذرية الطاهرة أئمة وهداة لهذه الأمة. . ولهذا الأمر والسر الخطير كان زواج فاطمة أمراً إلهيّاً لم يسبق رسول الله (ص) اليه، ولم يتصرف حتى نزل القضاء، كما صرح هو نفسه (ص) بذلك.

---

(٣٣) الطبري ـ ذخائر العقبىٰ ـ ص ٦٣. وخرجه مسلم وأبو حاتم.
(٣٤) ذخائر العقبىٰ ص ٦٢. أخرجه الترمذي.
(٣٥) ذخائر العقبىٰ ص ٦٧. وأخرجه أبو الخير الحاكمي في الأربعين.

الزواج الفريد

.. وينطلق رسول الله (ص) يعقد القران والبشر يغمر قلبه:

(.. انّ الله أمرني أن أزوّجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضّة ان رضيت بذاك، فقال علي: قد رضيت بذلك يا رسول الله...).

وهكذا نزل القضاء وتطابقت الارادات، وتم عقد القران، وزوج رسول الله (ص) فاطمة من علي، والسرور يطفح على وجهه، والسعادة تملأ نفسه.. ويستقبل الامام علي (ع) هذه الهدية الربانية بالشكر والثناء، فيسجد لله شاكراً حين يخبره رسول الله (ص) بتزويجه فاطمة(*) (ع).. ويسمّي رسول الله (ص) مهر فاطمة (أربعمائة مثقال فضّة) أو خمسمائة درهم كما جاء في بعض الروايات عن أهل البيت (ع) وفي روايات أخرى (٤٨٠) درهماً.

انه مهر مثالي متواضع ينم عن عظمة رسول الله (ص) وفاطمة، ويثبّت مبدأً اسلامياً للمرأة المسلمة، ويعطي درساً عملياً لحل أخطر مشكلة اجتماعية يواجهها الإنسان في عملية الزواج، وهي مشكلة غلاء المهور، والتباهي بضخامتها. فهذه فاطمة خيرة النساء، وبنت رسول الله (ص)، تتزوج عليا لدينه واخلاصه ومبادئه، لا للمال والثروة وعرض الحياة الدنيا، وتقترن به بمهر زهيد متواضع يحطم قيمة المادة، ويلغي دورها الخداع في مشروع الزواج والاقتران الروحي النبيل، ويُحل القيم والمعاني الانسانية بدلاً منها..

فالزواج في عرف الإسلام عملية اقتران روحي ونفسي، ورابطة إنسانية

(*) لقد تم زواج علي من فاطمة في السنة الثانية للهجرة.. وكان عمرها كما في بعض الروايات خمس عشرة سنة، وفي بعضها الآخر عمرها عشر سنوات، وفي بعضها ثمان عشرة سنة.

تتعالى على المادة، ووسائل الحياة التافهة الرخيصة.. وهذه فاطمة تضرب المثـل الأعلى في موقفهـا فتكتب درساً بليغـاً للمرأة المسلمـة.. لـذا خلد موقفها، وعظم شأنها، فقد ذهبت قرون، وفنت كنوز الذهب والفضة، وباد أثاث الديباج والحرير، ودرست قصور الرخام وزخارف العاج والفسيفسـاء، وخبا لمعان الجواهر والـدرر، وبلت أطواق اللؤلؤ والجـواهر، وعـظمة علي باقية، ومجد الزهراء يعلو فوق كل مجد.. وحـديث زواجها انشـودة عذبـة وذكرى عطرة على كل فم، وحياتها مع زوجها مدرسة ورسالة تعلم الأجيال، وترسم طريق الحياة العائلية السعيدة..

لقد زوج رسول الله (ص) فاطمة بمهر متواضع وأثث بيتها بما يعادل هذا المهـر، لتعرف الأجيـال فناء المـادة، وتصاغـر شأنهـا أمام القيم والمعـاني الإنسانية الرفيعة..

تسلم رسول الله (ص) دراهم المهر الزهيد من علي بن أبي طالب (ع) وأشرف بنفسه على تجهيز ابنته واعداد بيتها المتواضع: في أثاثه ومحتواه.. العظيم: في مجده ومقامه..

(فقبض منها قبضة فأعطاها بلالاً، وقال ابتع لفاطمة طيبا، ثم قبض منها بكلتا يديه، فأعطاه أبا بكر وقال: ابتع لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثـاث البيت، وأردفه بعمّار، وعدة من أصحابه، فكانوا يعرضون الشيء على أبي بكر، فان استصلحه اشتروه (وقبض) قبضة كانت ثلاثة وستين، أو ستة وستين فأعطاها أم أيمن لمتاع، ودفع باقي ثمن الـدرع الى أم سلمة، وقـال ابقيه عندك) وهكذا أرسل رسول الله (ص) الى السوق عدة من أصحـابه لاعـداد جهاز فاطمة، وشراء ما يحتاجه بيتها الجديد.. وهو:

(قميص بسبعة دراهم، وخمار بأربعة دراهم، وقطيفة سوداء خيبريـة، وسرير مزمل بشريط، ـ أي ملفوف بالشريط ـ وفراشان من خيش مصر حشو احدهما ليف، وحشو الآخر من صوف الغنم، وأربع مرافق من أدم الطائف حشوها من اذخر، وستر رقيق من صـوف، وحصير هجـري، ورحى لليد، ومخضب من نحاس، وسقاء من أدم، وقعب للبن وشن للماء، ومطهرة مزفتة،

وجرة خضراء، وكيزان خزف، وقطع من أدم، وعباءة قطوانية، وقربة ماء[٣٦])[٣٧].

وراح علي من جانبه يهيء البيت، ويعده أبسط اعداد، وأيسر تهيئة، فقد نشر أرض البيت بالرمل اللين، ونصب خشبة من حائط الى حائط لتوضع عليها الثياب، وبسط اهاب (جلد) كبش، ومخدة ليف في بيت فاطمة الجديد.. لقد هيأ علي البيت، وراح ينتظر قدوم فاطمة وحلول الزهراء..

وتمضي تسعة وعشرون يوماً، أو شهر، ولم تنتقل فاطمة إلى بيتها الجديد بعد.. ويحول الحياء بين علي وبين الافصاح لرسول الله (ص) عن رغبته.. فيصحبه أخوه عقيل ويتوجها الى بيت رسول الله فيلقيان أم أيمن ـ مولاة رسول الله ـ ويحدثانها برغبة علي، فتذهب الى أم سلمة زوجة رسول الله (ص)، وتعرض عليها الأمر، وتخبر بقية نساء النبي (ص)، فيجتمعن ويذهبن الى رسول الله (ص)، ويخبرنه برغبة علي، فيجيب الرسول (ص) طلب علي..

ويزداد اهتمام الرسول (ص) وعنايته بفاطمة ليعوضها غياب أمها الحنون خديجة، في مناسبة يكون للأم شأن خاص فيها فيساهم هو بنفسه بزفاف فاطمة، ويطلب من أزواجه اعداد فاطمة وتهيئتها كما تعد الفتيات ليلة الزواج ويستجبن لأمر الرسول (ص)، وتعد فاطمة (ع)... ويدعو رسول الله (ص) لاقامة الوليمة، وإعلان الزواج، ويولم علي الوليمة، ويساهم الأنصار والمهاجرون نبيهم أفراحه بزواج ابنته من ابن عمه وأحب الناس إليه.

وروي عن شرحبيل بن سعيد الأنصاري قال: لما كان صبيحة العرس،

---

(٣٦) خيش: نسيج غليظ. مرافق: جمع مرفقة وهي ما يتكأ عليه. الادم: الجلد. الاذخر: نبات طيب الرائحة. هجري: نسبة الى مدينة هجر. رحى: الاداة التي يطحن بها. المخضب: اناء لغسل الثياب. سقاء: وعاء يكون للماء واللبن. قعب: قدح ضخم غليظ. شن: القِربة. مطهرة: كل ما يتطهر به من اناء وإبريق. مزفتة: مطلاة بالزفت. كيزان: كوز. خزف: ما عمل من الطين وشوى بالنار فصار فخارا.

(٣٧) السيد محسن الأمين ـ المجالس السنية ـ ج ٢ ـ ص ٧٧ ـ ٧٨.

أصابت فاطمة رعدة، فقال لها رسول الله (ص): زوجتك سيدا في الدنيا، وانه في الآخرة لمن الصالحين.

وقد دخل رسول الله (ص) علىٰ فاطمة بقدح فيه لبن، فقال: إشربي فداك أبوك. ثم قال لعلي: إشرب فداك إبن عمك[٣٨].

وهكذا تم الزواج واكتمل بناء البيت الجديد، وأرسى رسول الله قواعده الشامخة، فأرسى معه تشريعاً وحياة وفلسفة للزواج والأسرة، وقيمة للمرأة في رسالته الإنسانية الخالدة، كي تكون طريقاً، وسنة للمقتدين بمنهجه وسنته في الحياة. . .

فقد كان يجسد طيلة حياة فاطمة معه مبادىء رسالته، وقيم شريعته، التي تشخص موقع المرأة، وقيمتها وحقها في الحياة. . فقد كان الأب الرسول يحب الطفلة الصغيرة، ويملأ قلبها بحبه، ويحنو عليها ويقبلها، ثم يتولى أمر زواجها وشؤون تجهيزها وزفافها ووليمة عرسها. . أي عناية هذه التي يُعنى بها نبي الإسلام بالمرأة، وأي مكانة للأسرة والمرأة والزواج في شريعته الإنسانية الخالدة.

انها الدروس والعبر، والمثل الرائدة للمجتمع، والمنهج السلوكي لبناء الأسرة المسلمة وتكوين الجيل الصالح . .

انها التطبيقات العملية للعلاقات الاجتماعية والروابط العائلية والمواقف السلوكية التي أمر بها الله تعالى وجسَّدها، بعد أن دعا اليها، رسوله الكريم (ص).

---

(٣٨) الاربلي ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة ص ٤٧٣.

فاطمة الزوجة

وتنتقل فاطمة الى بيت زوجها المتواضع، علي بن أبي طالب (ع) سعيدة راضية. . فقد علمها أبوها (ص) معنى الحياة، وأوحى لها بأن الإنسانية هي جوهر الحياة، وأن السعادة الزوجية القائمة على الخلق والقيم الإسلامية هي أسمى من المال، والقصور، والزخارف، وقطع الأثاث، وتحف الفن والزخرفة. . وتعيش فاطمة في كنف زوجها، قريرة العين، سعيدة النفس. . لا تفارقها البساطة، ولا تبرح بيتها خشونة الحياة. . فهي زوجة علي، بطل الإسلام، ورجل البطولة والفداء، وحامل لواء النصر والجهاد. . وعليها أن تكون بمستوى هذه المهمة الخطيرة. . وأن تكون لعلي كما كانت أمها لرسول الله (ص) تشاركه في جهاده، وتصبر على قساوة الحياة ومرحلة الدعوة الصعبة التي يتصدر علي طلائعها ببطولة وبسالة. . فكانت كذلك. . وكانت بمستوى مهمتها التي اختارها الله تعالى لها. .

فقد روي عن الامام علي (عليه السلام) في حديث تزويجه بفاطمة قال: ثم صاح بي رسول الله (ص): يا علي. فقلت: لبيك يا رسول الله. فقال: ادخل بيتك وألطف بزوجتك وأرفق بها فان فاطمة بضعة مني يؤلمني ما يؤلمها ويسرّني ما يسرّها. قال علي (عليه السلام): فوالله ما أغضبتها ولا أكرهتها علىٰ أمر حتىٰ قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً، ولقد كنت أنظر اليها فتنكشف عني الهموم والأحزان.

ولم يكن رسول الله (ص) ليترك هذا الغرس النبوي، دون أن يرعاه ويحتضنه. . فمدّ رسول الله (ص) رعايته، وحاط فاطمة وعلياً بتوجيهه وعنايته، فعاش الزوجان في ظل رسول الله (ص)، وتحت كنفه ورعايته. . ومنح رسول الله (ص) فاطمة بعد زواجها ما لم يمنحه لأحد، حتى بلغ من شدة

عنايته بفاطمة، وتعلق قلبه بها: أنه إذا أراد الخروج في سفر أو غزوة، كانت فاطمة آخر إنسان يودعه، وإذا عاد من سفره أو غزوه، كان أول انسان يلتقي به هو فاطمة.

(فعن ثوبان) قال: كان رسول الله (ص) اذا سافر آخر عهده اتيان فاطمة، وأول من يدخل عليه اذا قدم: فاطمة ـ عليها السلام ـ أخرجه أحمد)[٣٩].

(وعن أبي ثعلبة قال: كان رسول الله (ص) اذا قدم من غزوة أو سفر بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم أتى فاطمة، ثم أتى أزواجه..)[٤٠].

فأية علاقة هذه، وأية رابطة تربط رسول الله (ص) بابنته الحبيبة فاطمة، انها علاقة الروح والمبدأ، وجامعة الغاية والهدف.

وتعيش فاطمة في بيتها كربَّة بيت، تعتني بشؤون منزلها، وتدير حاجاتها بالاعتماد على جهودها.. فلم يكن لديها خدم ولا عبيد، ولا اجراء، فكل حياتها كدح وجهاد.. كانت فاطمة تطحن الشعير وتدير الرحى بيدها، وتصنع أقراص الخبز بنفسها، وتكنس البيت، وتدبر مستلزمات الأسرة.. وقد كان رسول الله (ص) وعلي (ع) يريان ذلك من فاطمة فيشاركانها العناء، ويهونان عليها متاعب الحياة.. بل وكان علي (ع) وربما النبي (ص) يساعدانها في أعمال المنزل، وتدبير شؤون البيت.

فقد صوَّر لنا التاريخ ودوّن كتاب السير والأثر، صورة الحياة العائلية الفريدة التي كانت تعايشها فاطمة مع زوجها وأبنائها ـ أهل بيت النبوة ـ عليهم السلام ـ تحت ظلال أبيها رسول الله (ص)، فقد روي أنه: (دخل رسول الله (ص) على فاطمة وهي تبكي، وتطحن بالرحى، وعليها كساء من أجلة الإبل، فلما رآها بكى، وقال: يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا اليوم لنعيم الآخرة غدا، فقالت فاطمة: يا رسول الله، الحمد لله علىٰ نعمائه والشكر لله

(٣٩ و ٤٠) الطبري ـ ذخائر العقبى ـ ص ٣٧ ـ أخرجه أبو عمر ـ.

علىٰ آلائه)[41]. و(دخل النبي (ص) على فاطمة وهي تطحن مع علي، فقال النبي لأيكما أعقب، فقال علي لفاطمة فانها قد أعيت، فقامت فاطمة، فطحن النبي (ص) مع علي لفاطمة)[42].

وروي عن الامام جعفر الصادق (ع) أنه:

(تقاضى علي وفاطمة الى رسول الله (ص) في الخدمة فقضى على فاطمة بخدمتها ما دون الباب، وقضى على علي بما خلفه، فقالت فاطمة: فلا يعلم ما دخلني من السّرور إلاّ الله باكفائي رسول الله تحمّل أرقاب الرّجال)[43].

وصورة أخرى يصورها التاريخ عن حياة فاطمة (ع) في بيتها وكدحها في ادارته، وتدبير شؤونه، وتربية أبنائها، وتحملها المعاناة والتعب، فقد روي: (بينما النبي، والناس في المسجد ينتظرون بلال أن يأتي فيؤذن اذ أتى بلال فقال له النبي (ص): ما حبسك يا بلال؟ فقال: اني اجتزت بفاطمة وهي تطحن، واضعة الحسن عندها وهو يبكي فقلت لها: أيهما أحب اليك، ان شئت كفيتك ابنك، وان شئت كفيتك الرحىٰ، فقالت: أنا أرفق بابني، فأخذت الرحىٰ فطحنت، فذاك الذي حبسني، فقال النبي (ص): رحمتها رحمك الله)[44].

هذه الصورة العائلية، واللقطة الفذة من حياة المجتمع الإسلامي والحياة النبوية الكريمة توضح لنا صور الحياة التعاونية وعلاقة الرجل بالمرأة، وعظمة التواضع عند قادة الإسلام وعظماء البشرية فمحمد (ص) يساعد فاطمة ويعينها على طحن طعامها، وعلي يشاطرها العمل في المنزل.. وبلال يعرض خدماته على فاطمة فيعينها، فينجز بعض أعمالها.. انها الصورة المثالية لحياة مجتمع صنعه الإسلام بمبادئه وأخلاقه، وأنها الصيغة التشريعية لحياة العائلة

(٤١ و٤٢) ابو الحسن ورام بن ابي فراس المالكي الأشتري ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر ـ ج ٢ ـ ص ٢٣٠. رواه في المناقب عن تفسير الثعلبي عن جعفر بن محمد (ع) وعن تفسير القشيري عن جابر الانصاري. ورواه السيوطي في الدر المنثور.

(٤٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة.

(٤٤) أبو الحسن ورام بن أبي فراس المالكي الأشتري ـ تنبيه الخواطر ـ ج ٢ ـ ص ٢٣٠.

المثالية في الإسلام ولمكانة المرأة وعلاقتها بالزوج والأسرة في هذه الرسالة الإلهية الخالدة. . .

فرسول الله وعلي وفاطمة مثال الأب والزوج والبنت والزوجة في الإسلام، وعلى شاكلة هذه الأسرة يجب أن تبنى الأسرة المسلمة. . وبمثل هذه العلاقة يجب أن تشاد العلاقات بين أفرادها. . فرسول الله (ص) وعلي وفاطمة قدوة وأسوة، وكان بامكان رسول الله أن يتخذ العبيد والخدم لفاطمة، وأن يوفر لها المال والثروة ومتع الحياة.

إلا أن رسول الله القائد والقدوة، الداعي الى العدل والمساواة، والرافض لمتع الدنيا وعرضها يريد أن يجسِّد مبادئه سلوكاً وحياة لأمته. بل يريد من المصلح، والمربي، والحاكم، والقائد، أن يعلم، ويقود، ويربي، بسلوكه وسيرته. . قبل أن يدعو الناس بلسانه ومواعظه.

وتأتي المواقف والشواهد دليلاً. . والعمل لساناً بليغ التعبير، قوي الوقع والأثر.

روت أسماء بنت عميس عن فاطمة بنت رسول الله (ص): ان رسول الله (ص) أتاها يوما، فقال: أين ابناي؟ يعني حسناً وحسيناً، قالت: قلت: أصبحا وليس في بيتنا شيء نذوقه.

فقال لعلي (عليه السلام): اذهب بهما فاني أتخوف أن يبكيا عليك وليس عندك شيء.

فذهب بهما الىٰ فلان. . فتوجه اليه رسول الله (ص) فوجدهما يلعبان في مسربة[٤٥] بين أيديهما فضل من تمر.

فقال: يا علي الا تقلب[٤٦] إبنيّ قبل أن يشتد الحر عليهما؟

فقال علي (عليه السلام): أصبحنا وليس في بيتنا شيء، فلو جلست يا رسول الله حتىٰ أجمع لفاطمة تمرات.

---

(٤٥) المسربة: المرعىٰ.

(٤٦) (تَقَلَّب) في الامور: تصرف فيها.

فجلس رسول الله (ص) وعلي (عليه السلام) ينزع[47] لليهودي كل دلو بتمرة - أجراً عليه - حتىٰ إجتمع لـه شيء من تمر فجعله في حجـزته[48] ثم أقبل، فحمل رسول الله (ص) أحدهما وحمل علي (عليه السلام) الآخر[49].

هذه صورة من حياة الكدح، والصبر على شظف العيش ومعاناة أهل البيت - علي وفاطمة والحسن والحسين -، وهـذا رسول الله يشـاطرهم تلك الحياة الصعبة، يشاطرهم بروحه وأحاسيسه، وبجهده واهتمامه..

انها الصورة الفريدة للحياة، رجل كعلي في الإسلام، وامرأة كفاطمة بنت محمد (ص) وابناهمـا الحسن والحسين يعانـون هذه الحيـاة القاسيـة، فيعمل علي بكد يده[50]، ويكدح ليوفر حفنة تمر قوتا لعياله.. انها مدرسة النبوة تصنع الحياة، وتعلم الأجيال كيف يمـارس الإنسان المسلم الحيـاة، ويتفاعل معها، ويكافح ويعمل.. لقد خبر علي وفـاطمة الحيـاة، وعرفـاها جهاداً وكفاحاً، وآمنا بأن العمل جهـاد وشرف، فعمـل علي لكسب القوت وتحصيل طعام الأسرة، وكدحت فـاطمة في بيتهـا وعملت من دون كلل أو ملل، من أجل زوجها وولديها، باخلاص وتجرد ورضى، حتى فقد ورد انها

---

(٤٧) (نزع) الشيء: أخرجه وجذبه.

(٤٨) (الحجزة): موضع شد الازرار من الوسط.

(٤٩) الطبري /ذخائر العقبىٰ ص ٤٩ - الفضائل الخمسة في الصحاح الستة ج ٣ ص ١١ - الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٣٢ قال أخرجه الدواليبي. وقد ذكره الطبري في ذخائر العقبى: (... يلعبان في مشربة). والمشربة: الغرفة.

(٥٠) استمر الامام علي (عليه السلام) في مسيرته المبـاركة تلك حتى استشهـاده (عليه السلام) وهو القائل: ولو شئت لاهتديت الطريق الىٰ مصفىٰ هذا العسل، ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز - الحرير - ولكن هيهات ان يقودني جشعي تخير الاطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا عهد له بالقرص ولا طمع له بالشبع...

وهو القائل: والله لو اعطيت الاقاليم السبعة بما تحت أفلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت، ما لعلي ونعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ..

وهـو القائـل ايضاً: والله لقـد رقعت مدرعتي - ثـوب من صوف أو جبـة - حتىٰ استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل الا تنبذها - تهملها وتتركها - عنـك فقلت اغرب - ابعد - عني فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ. الامام علي - نهج البلاغة.

كانت تستقي بالقربة في بيت زوجها حتىٰ أثّر في صدرها وتطحن بالرحىٰ حتىٰ مجلت يداها[٥١]، وتكسح البيت وتوقد النار حتىٰ اغبرّت ودكنت[٥٢] ثيابها فاصابها من ذلك ضر شديد، وازدحمت متاعب العمل وأعمال المنزل عليها، ففكرت في أن تطلب من أبيها رسول الله (ص) أن يوفر لها خادماً، ولكن رسول الله (ص) قدم لها درساً ومنهجاً، حري بالأجيال وقادة الأمم أن يتعلموه، ويعوا ما به من قيم ومعان انسانية عليا.

روي عن علي (ع) أنه قال: (إن فاطمة شكت ما تلقاه من أثر الرحى، فأتى النبي (ص) سبي، فانطلقت، فلم تجده، فوجدت عائشة، فأخبرتها، فلما جاء النبي (ص) أخبرته عائشة بمجيء فاطمة فجاء النبي (ص) الينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال: على مكانكما، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني إذا أخذتما مضاجعكما، فكبرا أربعا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، وأحمدا ثلاثا وثلاثين، فهو خير لكم من خادم يخدمكما[٥٣]) ـ أخرجه البخاري وأبو حاتم ـ[٥٤].

هذا الدرس هو تواضع القيادة في المجتمع الإسلامي، وتعودها على أن تعيش بمستوى الطبقات الفقيرة الكادحة في مجتمع المسلمين.. ففاطمة بنت محمد (ص) وغيرها من عامة المسلمين سواء، لا فارق بينها وبين غيرها، إلا فارق التقوى وميزة الإخلاص لله؛ لذا حرص رسول الله (ص) أن يعلمها درساً في العبادة والتوحيد، ويوجه نظرها الى الارتباط بالله سبحانه، وسحب العلائق من عالم الدنيا، كي تكون مثلاً في حياتها ومركزها، وقدوة في التواضع وحب

(٥١) مجلت يداها: ثخن جلدها، وقيل جرحت وصار تحته ماء أصفر. والوصف ورد في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام.
(٥٢) إغبرت ودكنت: تغيرت بالدخان والرماد.
(٥٣) ويسمىٰ هذا بتسبيح الزهراء (عليها السلام) وقد وردت روايات تؤكد علىٰ إستحبابه وعظيم الأجر في قراءته عقب كل فرض صلاة.
(٥٤) الطبري /ذخائر العقبى ص ٤٩. ورواه الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه) والبخاري في باب مناقب علي (عليه السلام) ـ ونحوه في صحيح مسلم، وسنن ابي داود ج ٢ ص ٣٣٤.

العمل... ورائدة في المساواة والزهد في هذه الحياة.

فأين الإسلام من الترف الفاجر الذي نعلم به، ونشاهده اليوم لدى القادة والزعماء...

وأين الإسلام من «المحسوبيّة» و«المنسوبيّة» المتفشية في صفوف الطبقات السائدة...

وأين سيرة المصطفى (ص) وأهل بيته (ع) من غطرسة الأغنياء وتبذير المترفين وإلى جانبهم الجياع والفقراء..

فاطمة الأم

يقول رسول الله (ص):

(. . . انّ الله جعل ذريّة كل نبيّ في صلبه، وجعل ذرّيتي في صلب هذا - يعني عليا -)[٥٥].

وتثمر شجرة النبوة، وتلد فاطمة الحسن ثم الحسين (ع) فيستقبلهما رسول الله (ص) كاستقباله لميلاد فاطمة، ويسميهما حسنا وحسينا. . ويحتلان من نفسه موقع الولد الحبيب من قلب أبيه الحنون، وتبدأ هذه العلاقة الأبوية والروحية بين رسول الله (ص)، وبين الحسن والحسين من يوم الميلاد، فهي علاقة النبوة بالامامة، وعلاقة حفظ الشريعة وقيادة الأمة - بعد رسول الله (ص) - بالتبليغ والرسالة، فكانت هذه العلاقة علاقة نسب وروح ومبدأ وهدف؛ لذا كان رسول الله (ص) يحتضن الحسن والحسين ابني فاطمة ويقول: **(كلّ ولد أب فانّ عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة فانّي أنا أبوهم وعصبتهم)** - أخرجه أحمد في المناقب[٥٦] -.

ولقد كان لرسول الله (ص) ما أراد، فقد ترك ولداه الامامان الحسن والحسين[*]، أثرهما البالغ على تاريخ هذه الأمة، وقيادة روح اليقظة، وتجديد شباب الإسلام بالمعارضة، والشهادة والدم الطاهر المعطاء، في حياتهما، وبعد مماتهما.

فقد امتدت روح الحسين الشهيد ثورة عارمة في ضمير الأمة الإسلامية،

---

(٥٥) الطبري /ذخائر العقبىٰ ص ٦٧. وأخرجه أبو الخير الحاكمي في الاربعين.

(٥٦) الطبري/ ذخائر العقبىٰ ص ١٢١.

(*) ولد الامام الحسن في ليلة النصف من رمضان المبارك في السنة الثالثة من الهجرة. وولد الحسين في الخامس أو الثالث من شعبان في السنة الرابعة من الهجرة.

وقوة محركة لركودها واستكانتها، وكانت ذرية الحسن والحسين وأحفادهم وأنصارهم فيما بعد طاقة محركة في تاريخ هذه الأمة، وقوة دافعة فيه، فكانوا منطلق الثورة والمعارضة لكل ظلم وطغيان على امتداد تاريخ هذه الأمة.. وهذا بعض ما كان يستهدفه رسول الله (ص) من عنايته بالحسنين، وتأكيد أبوته لهما، والاعلان عن حبه وعطفه عليهما..

فقد ورد عنه (ص) قوله:

(هذان إبناي من أحبّهما فقد أحبّني)[٥٧].

(الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة)[٥٨].

(إبناي هذان امامان قاما أو قعدا)[٥٩].

وشهد المسلمون حب رسول الله للحسن والحسين وعنايته بتربيتهما والحث على حبهما والتمسك بهما.. فعرفوا مقامهما، وخبروا مكانتهما من رسول الله (ص)..

ثم ولدت فاطمة بعد الحسين (ع): زينب الكبرى[*] بطلة كربلاء، وشريكة الحسين (ع) في جهاده وبطولته. وكانت ولادتها المباركة في اليوم السابع عشر من شهر رجب في السنة الخامسة من الهجرة النبوية، فزفت البشرى الى رسول الله (ص) فاتجه الى ابنته فاطمة يشاركها فرحتها وسرورها، وأتى مهنئاً الى بيتها، وسمى المولودة الجديدة (زينب) فحملت زينب هذا الاسم الوسام ليلمع عنواناً بارزاً في جهاد الحسين وملحمة كربلاء، ومأساة أهل البيت هناك.

---

(٥٧) ذخائر العقبى ص ١٢٤. وخرجه ابن السري وصاحب الصفوة.

(٥٨) ذخائر العقبىٰ ـ ص ١٢٩. وأخرجه أحمد والترمذي وابو علي بن شاذان، وابن السمان في الموافقة، وخرجه ابو حاتم والمخلص الذهبي.

(٥٩) الطبرسي ـ مجمع البيان في تفسير القرآن /تفسير سورة آل عمران الآية ٦١.

(*) جاء في بعض الروايات أن فاطمة ولدت بعد الحسن محسناً فمات صغيراً، وجاء في بعضها أنه أسقط جنيناً.. كما ذكر بعض المؤرخين أن فاطمة (ع) كانت لها بنت ثالثة أصغر من أم كلثوم اسمها رقية وقد ماتت ولم تبلغ الحلم.

ثم تحمل فاطمة بحمل آخر، فتلد بنتا، فتكون الرابعة في أبناء فاطمة، فيسري نبأ الميلاد الى رسول الله (ص)، ويأتي كعادته الى فاطمة، يسرها ويهنئها، ويسمي المولودة (زينب الصغرى) ثم تلقب (بام كلثوم).

وهكذا ولدت فاطمة أربعا، ولم يمتد بها العمر طويلاً. . فقد وافاها الأجل، وهي لما تزل شابة غضة، في مقتبل العمر، فالتحقت بأبيها رسول الله (ص). . وبالتحاقها بعالم الخلد والنعيم، بقي أبناؤها وأكبرهم لم يجاوز السابعة من عمره صغارا في سن الطفولة، يحدب عليهم أبوهم علي (ع) حدب رسول الله (ص) على فاطمة في صغرها وصباها، فدرجوا وشبوا وتربوا في ظلال علي (ع) الذي تربّىٰ في ظل رسول الله (ص) ونشأ على حب الإسلام والتفاني من اجله، فأثرت هذه الروح والتربية التي تلقاها الحسن والحسين واختاهما ببيت النبوة في حياتهم وتكوينهم. . فكانوا كما أراد رسول الله (ص). . .

وهكذا تكشف لنا السنة النبوية أن فاطمة هي قاعدة أهل بيت الرسالة، وأم الأئمة (ع)، وامتداد النبوة. تحدّث رسول الله عنها وعن زوجها وابنيها الحسن والحسين، وعن حبه لهم وارتباطه بهم. . لا ليعبر عن مشاعر القربىٰ والنسب، أو رابطة العاطفة وعلاقة الأبوة. . فهو رسول الله (ص) لسان الوحي الذي لا ينطق عن الهوى، وهو الذي يجسد بكل كلمة وعمل يصدر عنه حكماً وتشريعاً ومفهوماً رسالياً للمسلمين، وهو داعية التوحيد والاخلاص الذي لا يحب ولا يبغض الا في الله ولله. .

فما كان قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين اذن الا تعبيراً عن مقامهم، ومكانتهم عند الله سبحانه، وتشخيصاً لموقعهم، ودورهم في حياة هذه الأمة وتاريخها.

حتىٰ قال رسول الله (ص) لعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام):

(أنا سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم).

وهذا يدل على ان رسول الله (ص) كان يرى فيهم تجسيد الرسالة

وتبلور العقيدة حتىٰ جعل سلمهم سلمه، وحربهم حربه، وكما نعلم فان سلم رسول الله (ص) هو سلم الله وحربه هي حرب الله تعالىٰ[٦٠].

فقد أراد رسول الله (ص) بذلك أن يكون الحسن والحسين محور توحيد الأمة، ومركز التقارب، وسبب اجتماعها من بعده.. فتجتمع أمته على حبهما وولائهما وامامتهما، عندما يشتد الخطب، وتعصف المحن، وتتحرك عناصر الفتنة والفرقة...

لقد كان رسول الله (ص) يخطط لحماية أمته من الفرقة، وحفظ مبادئه عن طريق ايجاد وتركيز قيادة ـ امامة ـ يثبت هو حبها وولاءها، ويدعو الى الالتزام بها، فلا يفترق عنها أحد ممن يؤمن برسالته، وينتهج نهجه، ويشعر بشعوره.

فكان هذا التخطيط، وهذا السلوك أهم ما يخلِّفه قائد لأمته.. لا للحفاظ على الرسالة السماوية فحسب، بل لضمان وحدة كلمة الأمة وتحقيق تطلعاتها الرسالية.

(٦٠) رواه الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٤٩ ـ وابن ماجة في مقدمة سننه في فصل الحسن والحسين (عليهما السلام) ـ مسند ابن حنبل ج ٢ ص ٤٤٢ ـ والسيوطي في الدر المنثور ـ والصدوق في معاني الأخبار ـ والطوسي في الأمالي ـ والطبري في ذخائر العقبىٰ ص ٢٣، وغيرهم.

فاطمة الطاهرة

تحدث رسول الله (ص)، ونطق لسان النبوة الصادق بمقام فاطمة وزوجها وابنيها ـ الحسن والحسين ـ وما كان هذا المأثور عن رسول الله (ص) الا ترديدا لصدى الوحي، وصياغة لمضمون القرآن، الذي شهد بالطهارة وسمو المقام، فقد أنزل الله سبحانه فيهم آيات بينات، خصص رسول الله (ص) معانيها في هذه الفئة الطاهرة ـ فاطمة وزوجها وابنيها ـ ففيهم نزلت آية التطهير، والمباهلة، والمودة، وسورة الإنسان، وغيرها كثير من آيات الذكر الحكيم.

فقد روى جمع من الرواة أن قوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ انما نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين، نذكر من هذه الروايات ما رواه أبو هريرة عن أم سلمة (رض) قالت: (جاءت) فاطمة (ع) إلى رسول الله (ص) ببرمة لها، قد صنعت فيها عصيدة، تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه، فقال: أين ابن عمك، وابناك؟ فقالت في البيت. فقال: ادعيهم فجاءت عليا فقالت: أجب النبي (ص) أنت وابناك، قالت أم سلمة: فلما رآهم مقبلين مدّ يده الى كساء كان على المنامة، فمده وبسطه، فأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم وأومأ بيده اليمنى الى ربه (تعالى ذكره)، ثم قال: (**اللهمّ هؤلاء أهل البيت، فاذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا**)[٦١].

---

(٦١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت سنة ٨٤٥ هـ) ـ فضل آل البيت/ ص ٢٥/ ط ـ ٢ ـ عن تفسير الطبري /ج ٧/٢٢.

وأراد رسول الله أن يعرف بأهل بيته، وأن يشخص مدلول الآية، والأشخاص المعنيين بها، ـ كما تحدث الرواة بذلك ـ فصار يمر على بيت علي وفاطمة والحسن والحسين ستة أشهر، ثم يقف ببابهم، ويردد قول الله تعالى: ﴿**انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾.

فقد جاء بحديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن أنس: (أن النبي (ص) كان يمر ببيت فاطمة (ع) ستة أشهر، كلما خرج إلى الصلاة فيقول: (الصلاة أهل البيت، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)[٦٢].

ويرتبط بهذا المقام الروحي السامي، والكمال السلوكي الرشيد، لأهل هذا البيت، ترك رسول الله (ص) باب بيتهم مفتوحاً على مسجده حين أمر بسد أبواب بيوت أصحابه التي كانت تؤدي الى المسجد كافة.. فعن زيد بن الأرقم قال: (كان لنفر من أصحاب الرسول (ص) أبواب شارعة في المسجد قال: فقال يوماً سدوا هذه الأبواب الا باب علي، قال: فتكلم في ذلك ناس، قال: فقام رسول الله (ص) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فاني ما أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، واني والله ما سددت شيئاً، ولا فتحته، ولكن أمرت بشيء فاتبعته..)[٦٣]. وعن ابن عمر، أن عمر قال: (أُوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لأن يكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، زوجه رسول الله ابنته، وولدت له، وسد الأبواب الا بابه في المسجد، واعطاه الراية يوم خيبر)[٦٤].

وفي روايات أخرى نقرأ حادثة تاريخية عظيمة، ووحياً قرآنياً يوضح مكانة أهل البيت، ويشخص مقامهم الرفيع عند الله سبحانه..

---

(٦٢) المقريزي ـ فضل آل البيت /ص ٢٤. وفي الطبري ص ٢١. وأخرجه أحمد. وأخرج حديث الكساء الترمذي.

راجع كذلك: حديث الكساء للعلامة المحقق السيد العسكري ففيه التفصيل.

(٦٣ و ٦٤) الطبري ـ ذخائر العقبىٰ ـ ص ٧٦، ٧٧. وأخرجه أحمد عن إبن عمر، ورواهُ بريدة.

فقد ذكر المفسرون أن قول الله تعالى: ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾[٦٥].

انها نزلت لتحديد موقف الرسول (ص) من نصارى نجران الذين جاؤوا لمجادلته، ومناقشته، والرد عليه، فأمر الله نبيه أن يطلب منهم المباهلة، وهي: أن يخرجوا ويخرج النبي وأهل بيته، فيدعو كل فريق على الفريق الآخر، ويجعل اللعنة على الكاذبين، وإن الصادق من يستجاب دعاؤه..

فاستجاب النصارى لطلب الرسول (ص) هذا، وخرجوا للمباهلة، وخرج رسول الله ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، فكان خروجهم تفسيراً للآية الكريمة وافصاحاً عن معناها والأشخاص المعنيين بها.. وعندما التقى الفريقان في مكان المباهلة، ونظر وفد النصارى الى محمد (ص) وأهل بيته (ع) خافوا وتراجعوا وأيقنوا أن دعوة النبي وأهل بيته لا شك مجابة.. فطلبوا من رسول الله (ص) أن يعفيهم من المباهلة فقبل (ص) بذلك وصالحهم على (٨٠ر٠٠٠) ثمانين ألف درهم، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله (ص). فقد نقل ابن الأثير في أخبار هذه الحادثة ما يلي: (وأما نصارى نجران، فانهم أرسلوا العاقب والسيد في نفر الى رسول الله (ص) وأرادوا مباهلته، فخرج رسول الله (ص) ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوه، وصالحوه على ألفي حلة، ثمن كل حلة أربعون درهما، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله (ص)...)[٦٦].

وجاء في تفسير الطبرسي لهذه الآية ـ آية المباهلة ـ ما يلي: (... أجمع المفسرون على أن المراد بأبنائنا: الحسن والحسين، قال أبو بكر الرازي: هذا يدل على أن الحسن والحسين ابنا رسول الله (ص) وأن ولد

---

(٦٥) آل عمران ـ ٦١.

(٦٦) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ٢ ـ ص ٢٩٣.

الابنة هو ولد في الحقيقة... ثم تابع تفسيره قائلاً: (ونساءنا) اتفقوا على أن المراد بها فاطمة (ع) لأنه لم يحضر المباهلة غيرها من النساء، وهذا يدل على تفضيل الزهراء (فاطمة) على جميع النساء، ويعضدها ما جاء في الخبر أن النبي قال: **(فاطمة بضعة منّي يريبني ما رابها)**. وقال: **(انّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضائها)**. وقد صح عن حذيفة أنه قال: (سمعت النبي يقول: أتاني ملك فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، أو سيدة نساء أمتي).. ثم قال الطبرسي (وأنفسنا) يعني عليا خاصة، ولا يجوز أن يكون المعني به! أي (النبي) لأنه هو الداعي، ولا يجوز أن يدعو الإنسان نفسه وانما يصح ان يدعو غيره، وإذا كان قوله وأنفسنا لا بد أن يكون اشارة الى غير الرسول، وجب أن يكون اشارة الى علي، لأنه لا احد يدعي دخول غير أمير المؤمنين علي (ع) وزوجته وولديه المباهلة، وهذا يدل على غاية الفضل، وعلو الدرجة، والبلوغ منه الى حيث لا يبلغه أحد، اذ جعله الله نفس الرسول...)[٦٧].

وهكذا يتحدث القرآن الكريم عن مقام فاطمة وأهل البيت (ع) وبأنهم هم المختارون للدعوة المقبولة عند الله سبحانه، والصفوة في أمة محمد (ص).

والآيات الواردة في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) كثيرة، وكلها توضح وتؤكد بمعانيها وسبب نزولها مقام أهل هذا البيت، وعلو مكانتهم، ومن جملة ما نزل فيهم من القرآن آية المودة فعن ابن عباس قال: لما نزلت: **﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾**.

قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال: علي وفاطمة وابناهما ـ أخرجه أحمد في المناقب ـ [٦٨].

ومما نزل فيهم أيضاً من القرآن «سورة الإنسان» شاهدا ومتحدثا

---

(٦٧) الطبرسي ـ مجمع البيان ـ سورة آل عمران ـ الآية ٦١.

(٦٨) الطبري ـ ذخائر العقبىٰ ـ ص ٢٥.

بفضلهم، وعارضا هذا النموذج من طلائع الايمان الفذة، ومثلاً أعلى في الايثار والكرم، وسمو الأخلاق، والرحمة بالمحتاجين، وداعيا للمسلمين الى الاقتداء بهم والاقتباس من سيرتهم، فقد ذكر المفسرون أن آيات هذه السورة (الإنسان) من قوله تعالى: **﴿إن الأبرار يشربون﴾**، الى قوله: **﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾** نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين وجارية كانت لهم تسمى فضة، وقصة هذه الآيات: أن الحسن والحسين مرضا، فنذر علي وفاطمة وفضة على شفاء الحسن والحسين صيام ثلاثة أيام فشفي الحسنان.. فصام علي وفاطمة وفضة اداءً لنذرهم، ولم يكن عندهم شيء من الطعام يومذاك فاستقرض علي (ع) ثلاثة أصوع شعير، فطحنت فاطمة للطعام صاعا منها، وصنعت خبزا، وصلى علي (ع) المغرب وقدمت الطعام ليأكلوا، فطرق مسكين بابهم، وطلب طعاماً، فأعطوه طعامهم، ولم يتذوقوا الا الماء.

وفي اليوم الثاني صاموا أيضاً، وطحنت فاطمة قسماً من الشعير، ثم صنعت منه خبزاً، وقدمته الى علي (ع) واذا بيتيم يطرق الباب، ويطلب من أهل بيت النبوة أن يطعموه طعاماً، فأعطوه الطعام.. أما هم فلم يتذوقوا شيئاً غير الماء.

وفي اليوم الثالث صاموا كذلك وطحنت فاطمة (ع) ما تبقى من شعير واختبزته وقدمته إلى علي.. وإذا بأسير يطلب منهم طعاماً، فأعطوه له، ولم يتذوقوا إلا الماء..

فلما كان اليوم الرابع، وقضوا نذرهم جاء علي ومعه الحسن والحسين (ع) وبهما ضعف شديد الى رسول الله (ص) فبكى رسول الله (ص) لما شاهد ما بهما من جوع وضعف، فنزل جبريل (ع) بهذه السورة ـ سورة الانسان ـ ومن جملة آياتها الآية المشخصة للحادثة ذاتها، وهي قوله تعالى:

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾[٦٩].

---

(٦٩) سورة الانسان ـ ٨ ـ ٩ يراجع مجمع البيان /تفسير سورة الإنسان.

وهكذا يعرض القرآن أهل بيت النبوة نموذجاً للشخصية الإسلامية المتفانية في ذات الله، المتجردة عن حب الدنيا وزخرف الحياة، المنتصرة على شهوة القرص ومضغة الطعام..

يعرضهم قدوة في الايثار وتقديم الغير على النفس، فيقدم درساً فريداً في الانتصار على الذات وسمو الأخلاق، والتسامي السلوكي الذي يحلق بالطليعة المؤمنة الى مستوى المبادىء والقيم الإسلامية بل يقدمهم ليعرض التجسيد العملي للاسلام، من خلال عرض نموذج حي للمبادىء والقيم، فيرسم بهذا الحدث لوحة مرئية الى جانب آي المبادىء والقيم.. وذلك هدفه، وتلك فلسفته وحكمته من عرض القصص وضرب الأمثال ونقل الوقائع والأحداث، لينقل الإنسان من خلال هذا العرض، وذلك الوصف من عالم الفكر والمعرفة والنظرية، الى ميدان العمل، وتجسيد الحدث أو الواقعة، ليتفاعل معها الإنسان بحسه ووعيه ووجدانه فينفعل بها، ويستفيد الدرس والعبرة والتجربة منها، لذلك يدعونا الى مودة أهل البيت (ع)، والالتزام بحبهم.. وما كان القرآن ليقصد بالحب أو المودة إلا مودة العقيدة، وحب العمل والتعلق بشخصيات أهل البيت (ع) التي جسدت الإسلام سلوكاً في الحياة.

ونحن حين نعرض هذه اللوحات السلوكية الفذة، إنما يهمنا منها أمران:

الأول: إن الإسلام ليس قيماً نظرية مثالية محضة.. وانما هو تنظيم منهجي للحياة يحقق أسمى المراتب الحضارية للإنسان.. كل حين.

الثاني: إن أهل البيت عليهم السلام ليسوا أصحاب نظريات واجتهادات ومذاهب.. وإنما هم التجسيد الحي الصادق للرسالة.. شاء الله تعالى أن يكونوا كذلك، فكانوا كما أراد جلّ شأنه.

فاطمة المجاهدة

منذ أن دخل رسول الله (ص) المدينة المنورة وكان دائباً على هدم أركان الجاهلية، واستئصال جذورها، وضرب مواقعها.. فكانت حياته في المدينة المنورة حياة جهاد وبناء.. جهاد المشركين والمنافقين، واليهود والصليبيين، وبناء دولته الإسلامية العظيمة، ونشر الدعوة وتبليغها في كل بقعة يمكن لصوت التوحيد أن يصل اليها، فراح رسول الله (ص) يحارب بالكلمة والعقيدة تارة، وبالسيف والقوة تارة أخرى، وبالأسلوب الذي يمليه الموقف، وتفرضه الحكمة..

وهكذا جاهد رسول الله (ص)، وقاتل في مرحلة حرجة صعبة، لم يكن يملك فيها من المال والجيوش والاستعدادات العسكرية ما يعادل، أو يقارب جيوش الأحزاب، وقوى البغي والضلال، التي تصدَّت لدعوة الحق والهدى، بل كانت كل قوته قائمة في ايمانه وانتصاره بربه وبالفئة المخلصة من أصحابه.

والذي يقرأ تاريخ الدعوة، وجهاد رسول الله (ص)، وصبره واحتماله، يعرف عظمة هذا الإنسان الرسول، ويدرك قوة عزيمته، ومدى صبره ورعاية الله ونصره ولأولئك المجاهدين الذي حملوا راية الجهاد بين يديه، فيكتشف النصر، ومصدر القوة والمعنوية العالية...

ولقد مرت هذه الفترة الجهادية الصعبة، بكامل ظروفها وأبعادها بفاطمة (ع)، وهي تعيش بكنف زوجها وأبيها.. تعيش بروحها ومشاعرها، وبجهادها في بيتها، وفي مواساتها ومشاركتها لأبيها، في شدته ومحنته.. فقد شهدت جهاد أبيها وصبره واحتماله، شاهدته وهو يجرح في «أحد» وتكسر

رباعيته[٧٠]، ويخذله المنافقون، ويستشهد عم أبيها حمزة، أسد الله، ونخبة من المؤمنين معه.

فتأتي فاطمة أباها، وهي تبكي، وتحاول تضميد جرح رسول الله (ص) وقطع الدم الذي كان ينزف من جسده الشريف الطاهر.. فكان زوجها علي (ع) يصب الماء على جرح رسول الله (ص) وهي تغسله، ولما يئست من انقطاع الدم أخذت قطعة حصير فأحرقتها، حتى صار رماداً، فذرته على الجرح حتى انقطع دمه..

وفي مواقع أخرى يتحدث لنا التاريخ عن مشاركة فاطمة (ع) بروحها ووجدانها ومشاعرها لأبيها في كفاحه وصبره وجهاده.

فقد روي أن رسول الله (ص) قدم من غزاة له، فدخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم بدأ ـ كعادته ـ ببيت فاطمة قبل بيوت نسائه.. جاءها ليزورها، ويسر بلقائها، فرأت على وجهه آثار التعب والاجهاد، فتألمت لما رأت، وبكت، فسألها: **ما يبكيك يا فاطمة؟**، فقالت:

أراك قد شحب لونك، فقال لها: يا فاطمة انّ الله عزوجل بعث أباك بأمر لم يبق على ظهر الأرض بيت مدر ولا شعر، الاّ أدخله به عزّا أو ذلاّ، يبلغ حيث يبلغ الليل)[٧١].

وليست هذه العاطفة، وتلك العناية والمشاركة مع الأب الرسول (ص) من فاطمة (ع) هي كل ما تقدمه لأبيها بل، ويبلغ حبها لأبيها، وايثارها له، واهتمامها به، ومشاركتها له في شدته وعسرته، انها جاءت يوم الخندق رسول الله (ص) وهو منهمك مع أصحابه في حفر الخندق، لتحصين المدينة، وحماية الإسلام.. جاءت وهي تحمل كسرة خبز (فرفعتها إليه فقال:

---

(٧٠) (الرباعِيَة): السن بين الثنية والناب، وهي أربع: رباعيتان في الفك الأعلى ورباعيتان في الفك الأسفل.

(٧١) الفيروزآبادي ـ فضائل الخمسة ـ ج ٣ ص ١٣١. حلية الأولياء لأبي نعيم ج ٢ ص ٣٠٠ ـ كنز العمال ج ١ ص ٧٧. وذكره الهيثمي في مجمعه ج ٨ ـ ص ٢٦٢.

ما هذا يا فاطمة؟ قالت: من قرص اختبزته لابنيّ، جئتك منه بهذه الكسرة، فقال:

يا بنيّة أما إنّها لأوّل طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاث)[٧٢].

فهذه صورة مشرقة لجهاد المرأة المسلمة، وتصنعها فاطمة في ظلال رسول الله (ص).. فهي تشارك: في صبرها، واحتمالها، ومشاعرها، وامكانياتها، لتشد أزر الإسلام، وتكافح جنبا الى جنب مع أبيها وزوجها وأبنائها في ساحة واحدة، وخندق واحد، لتدون في صحائف التاريخ درساً عملياً تتلقاه أجيال النساء والفتيات في هذه الأمة المسلمة، فيتعلمن حياة الايمان، ويكتشفن عمق الأثر العملي البنّاء، الذي تتركه عقيدة التوحيد في حياة المرأة المسلمة فتشارك الرجل في حياته وجهاده، ومهمات رسالته، بعيدة عن اللهو والعبث والضياع، مشغولة بالعطاء الاجتماعي والبناء الروحي وحمل الرسالة وصناعة الأجيال.

---

(٧٢) الطبري ـ ذخائر العقبىٰ ـ ص ٤٧. وخرجه الامام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام.

فاطمة البتول

الزهد والعبادة صفة طبيعية واضحة في حياة أهل البيت (ع)، فهم المثل الأعلى، والقدوة الرائدة، والشخصيات الإسلامية القمّة. . .

ومنهج أهل البيت (ع) في الزهد والعبادة، هو منهج الإسلام، بصفائه وأصالته، كما بلّغه رسول الله (ص)، فليس الزهد والعبادة في منهجهم انقطاعاً عن الحياة، أو فرارا من مسؤوليات الإنسان الاجتماعية. . بل الزهد والعبادة عندهم تعال على متع الحياة، وتسام على أوطارها الفانية.

والعبادة في منهجهم، صياغة الحياة، وملء أبعادها، وفق مشيئة الله، وصفاء العلاقة معه وشدة الارتباط به سبحانه. . لذلك نجد الزهراء، العابدة، الزاهدة، المتبتّلة، التي سميت البتول لكثرة عبادتها وتبتلها، نشاهد حياتها جهاداً وعملا، وكفاحا، وزهداً، وعبادة وتبتلا. .

نشاهد الزهد في عظم شخصيتها، وتسامي نظراتها. . وترفعها عن الخضوع للذات الحياة وزخارف العيش، ومغريات المتع. . ففاطمة في بساطة بيتها، وفي خشونة عيشها، وفي تواضع حياتها، تمثل الزهدبأدق معانية، وتحفظ وهي في مقامها الرفيع، للمرأة المؤمنة طريق المسلمة الواعية، وتعرفها قيمة الحياة، وكيفية التعامل معها. . وليس بوسع حديثنا هذا ان يلم بكل مآثر فاطمة، ومناقبها في هذا المجال، فالأمثلة كثيرة، والشواهد عديدة، بل وكل حياة فاطمة مثل وشواهد، الا أن في اختيار بعض مآثرها، وعرض نموذج من سلوكها الايماني الزاهد أثراً في نفس المقتدي، ودرساً للمسلم المهتدي، ومنهجاً للمرأة المسلمة الناضجة. .

من هذه المآثر، ما روت اسماء بنت عميس قالت: (كنت عند فاطمة اذ دخل عليها النبي (ص) وفي عنقها قلادة من ذهب أتى بها علي بن أبي

طالب (ع) من سهم(*) صار اليه فقال لها: **يا بنيّة لا تغتري بقول الناس، فاطمة بنت محمد وعليك لباس الجبابرة**، فقطعتها لساعتها، وباعتها ليومها.. واشترت بالثمن رقبة مؤمنة(*)، فاعتقتها، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فسُرَّ بعتقها، وبارك علياً)[٧٣].

وعن ثوبان قال: (قدم رسول الله (ص) من غزاة له، فأتى فاطمة، فاذا هو يمسح على بابها، ورای على الحسن والحسين (ع) قلبين[٧٤] من فضة، فرجع رسول الله (ص)، فلما رأت فاطمة ذلك ظنت أنه لم يدخل عليها من أجل ما رأى، فهتكت الستر، ونزعت القلبين من الصبيين، فقطعتهما، فبكى الصبيان، فقسمته بينهما، فانطلقا الى رسول الله (ع) وهما يبكيان فأخذ رسول الله (ص) منهما فقال: **يا ثوبان اذهب بهذا الى بني فلان** ـ أهل بيت في المدينة ـ **فاشتر لفاطمة قلادة من عصب، وسوارين من عاج، فانّ هؤلاء أهل بيتي، ولا أحبّ أن يذهبوا طيّباتهم في حياتهم الدّنيا**)[٧٤].

هذه صورة من مفهوم الزهد عند فاطمة، تعال على الذهب والمال، وترفع على الحلي.. تعال عليها وتحرر من زخرفها وسلطانها، وتحويل كل ما فيها ليكون أداة ووسيلة لتحرير الإنسان، وانقاذ انسانيته، لذلك باعت فاطمة القلادة، لتحرر العبد، وتهب له الحرية.. لتهب له الحياة، لتساهم في بناء

(*) السهم: ما يوزع على المجاهدين من غنائم الحرب التي يغنمها المسلمون في الجهاد.

(*) رقبة مؤمنة: عبداً مملوكاً مؤمناً.

(٧٣) الطبري ـ ذخائر العقبى ـ ص ٥١ ـ وأخرجه الامام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام. الحاكم في مستدرك ج ٣ ص ١٥٢ ـ والصدوق في العيون.

(٧٤) قلبين: سوارين.

(٧٥) ذخائر العقبىٰ ص ٥١ ـ ورویٰ الصدوق نحوه في الأمالي ـ وابو داود في سننه ـ وأحمد في مسنده.

واستندنا في استخراج هذه المصادر وغيرها من كتاب فضائل الخمسة في الصحاح الستة للسيد الفيروزآبادي، وكتاب نجمة البيان في تفضيل سيدة النسوان للسيد عبد الرسول الشريعتمداري الجهومي وعوالم العلوم والمعارف والاحوال للبحراني والاصفهاني وغيرها.

المجتمع الإسلامي الحر.. لتكتب كلمة مضيئة في تاريخ الحرية، تقرأها الأجيال، وتعرفها المرأة من بعد فاطمة.. وتعيها الأسر والطبقات الحاكمة، فتقرأ أن المال والثروة وجدت لخدمة الإنسان، ولتحريره، وصون كرامته، لا لاستبعاده ومصادرة حريته.

وهكذا كان منهج أهل البيت في الحياة، وهكذا رسموا الطريق واضحا أمام الأجيال..

وهكذا ربى محمد (ص) ابنته فاطمة، لتكون مثلا حياً للمرأة المسلمة، وقدوة للفتاة المؤمنة، ونموذجاً رسالياً في دنيا الإنسان..

وفاطمة الزاهدة.. فاطمة المجاهدة.. هي فاطمة العابدة المتبتلة.. هي التي قال عنها ولدها السبط الحسن (ع):

(رأيت أمّي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة وساجدة، حتى اتّضح عمود الصّبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات، وتسمّيهم بأسمائهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لم لا تدعين لنفسك، كما تدعين لغيرك: فقالت يا بني الجّار ثم الدّار)[٧٦].

وعن الحسن البصري (ماكانت امرأة في هذه الأمة أعبد من فاطمة، فكانت تقوم حتى تتورم قدماها)[٧٧].

انه خلق رسول الله (ص) الايثار، وحب الآخرين، والتجرد من الأنانية، والدعاء بالرحمة والمغفرة، وحب الخير للغير، انه القلب الكبير، المليء بالحب والعطف على هذه الإنسانية، والداعي لها بالنجاة والهداية.. فالدعوة بالخير لا تصدر الا عن قلب نقي محب للخير، كقلب فاطمة.. انها معلمة

---

(٧٦) السيد عبد الرزاق كمونة الحسيني ـ النفحات القدسية في الأنوار الفاطمية ـ الفصل ـ ١٣ ـ ص ٤٥. نقلاً عن قبس من سيرة الزهراء ـ منشورات مكتبة مسجد زين العابدين ـ الكويت.

(٧٧) المصدر نفسه.

ومربية، ومثل أعلى في عبادتها وزهدها، في سلوكها، وفي بيتها، وعلاقتها بابنيها وزوجها، وفي وقوفها بين يدي ربها، وفي عطفها على الإنسانية، وحب الخير لها.

إن بوسعنا أن نعرض عن جميع هذه النعوت.. فحسبنا أن نقول إنَّ فاطمة امرأة «مسلمة» وكفى بهذه الهوية علوّ مقام، ورفعة درجة، وسمّو منزلة عند الله تعالى.

فاطمة المحتسبة

ويبسط نـور الرسـالـة إشعـاعه في ربـوع الجـزيـرة.. ويكمـل رسول الله (ص) دينه، ويبلغ رسالته، ويضع أمته على المحجة الواضحة، ويثبت البناء الشامخ.. رسالة وأمة، وحضارة، ودولة.. أكمل رسول الله (ص) مهمته على هذه الأرض وآن له أن يلتحق بربه، ويحيا حياة الخلف والنعيم، فيدنو منه نداء الأجل.. ويمرض رسـول الله (ص)، ويشتد عليه مرضـه.. وفاطمة تنظر اليه فتشعر أنها هي حـاملة الألم والمرض.. وينـظر (ص) اليها فيراها وقد غاب عنه شخصه الكريم، ودمعة الحزن والفراق عاجـزة عن صهر أحزانها، فلم يمنعه مرضـه من العطف عليهـا، وتخفيف الحزن والألم عن نفسها، خصوصاً وهو يعلم ما ستعانيه فاطمة بفقده، وأفول ظله الكريم من حياتها. جاءت فاطمة لتعود أباها جاءته بخطى وئيدة حزينة حتى قربت منه فرحب بها، وهش لها، ثم أجلسها الى جنبه.

قالت عائشة: (كنت جالسة عند رسول الله (ص) فجاءت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشية رسول الله (ص) فقال: **مرحباً بابنتي!** فأجلسها عن يمينه، أو عن شماله ثم أسرَّ اليها شيئاً فبكت.. ثم أسرَّ اليها فضحكت، قالت، قلت: مـا رأيت ضحكاً أقـرب من بكاء، استخصـك رسول الله (ص) بحـديثه ثم تبكين!؟ قلت: أي شيء أسرَّ اليك رسول الله (ص)؟ قالت: **ما كنت لأفشي سرّه**، فلما قبض (ص) سألتها، فقالت:

قال: انّ جبريل (ع) كان يأتيني كل عام فيعارضني بالقرآن مرّة، وإنّه أتاني العام الماضي فعارضني مرّتين، ولا أظن أن أجلي قد حضـر، ونعم

السّلف أنا لك. قالت: وقال: أنت أوّل أهل بيتي لحقاً بي[٧٨]، قالت: فبكيت لذلك، ثم قال: أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة أو نساء العالمين؟ قالت: فضحكت)[٧٩].

وتمر أيام المرض ثقيلة وئيدة، فيعايشها المسلمون بترقب وحذر.. وتعايشها فاطمة بحزن وألم.. ويأذن الله لنبيه أن يلحق به، ويمضي الى عالمه العلوي، فيختاره تعالى الى جواره وينتقل الى الرفيق الأعلى، فترزأ البشرية بنبيها، وتفقد الأرض كوكب الهداية والرحمة، وتغلق بموته أبواب الخطاب الالهي الى الأبد عن هذه الأرض.. وتشتد الرزية على فاطمة، ويعظم المصاب في نفسها، وتظل تعيش بعد أبيها في حزن وألم، وهي ترقب ساعة اللحاق به، والعيش معه.. في جنات الخلد.

ولم تعش الزهراء طويلاً بعد أبيها، وكما أخبرها (ص) أنها أول أهل بيته لحاقاً به.. فقد اختلف المؤرخون في المدة التي عايشتها فاطمة بعد أبيها، فذهب بعضهم الى أنها عاشت خمسة وسبعين يوماً، وذهب آخرون الى أنها عاشت ثلاث أشهر، وقال غيرهم أنها عاشت ستة أشهر، وقد عاشت فاطمة هذه المدة الوجيزة محتسبة، قضتها بالعبادة والانقطاع الى الله سبحانه، كما ساهمت فيها مساهمة فعالة في قضية الخلافة والبيعة.. فقد كانت فاطمة تقف الى جانب الإمام علي (ع)، وترى أن الخلافة لعلي بعد رسول الله (ص)، وكانت تلتقي بالمهاجرين والأنصار وتحاورهم في أمر الخلافة.

وأن خلافاً وقع بين أبي بكر وفاطمة (ع)، وبينها وبين عمر، حول ميراثها من أبيها، فقد جاءت فاطمة تطالب بميراثها.. تطالب بفدك[٨٠] وما أفاء

---

(٧٨) ابن سعد في الطبقات الكبرى ـ ج ٢ ـ ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ والاستيعاب ج ٤ ص ١٨٩٤ ومسند أحمد ج ٦ ص ٢٨٢ ـ ومسلم ج ٧ ص ١٤٢، ١٤٣ نحوه ـ وابن ماجة ج ١ ص ٤٩٤، وغيرهم.

(٧٩) نقل ابن سعد في الصفحة ذاتها نصاً آخر للحديث: ومما جاء فيه: (إنه يقبض في وجعه، فبكيتُ..، ثم أخبرني أني أول أهله لحاقاً به فضحكتُ).

(٨٠) فدك: قرية زراعية من قرى الحجاز تقع بالقرب من خيبر، وقد صالح أهلها النبي على نصف حاصلها وهي ملك رسول الله (ص) فقد أفاء الله عليه بلا حرب ولا قتال. =

الله على ابيها (ص) بالمدينة وبخمس خيبر فرفض أبو بكر أن يعطيها شيئاً، وقال لها ان رسول الله قال: (لا نورث) ما تركناه صدقة، وقد دار بينها وبين أبي بكر حوار طويل كانت نتيجته أن تمسك أبو بكر برأيه، وتمسكت فاطمة برأيها. . وقد حاول أبو بكر استرضاء فاطمة (ع) قبل موتها وازاحة أثر الموقف عن نفسها الا أنها ظلت ترى أن لها من ميراث أبيها ما لغيرها من المسلمين من مواريث آبائهم، وأن معنى قول رسول الله «لا نورث» ليس هو عدم انطباق قوانين الميراث على الأنبياء، وقد ورث النبي سليمان داود، كما نص القرآن على ذلك تعالى ﴿**وورث سليمان داود**. . .﴾[81]، كما أن زكريا يدعو الله تعالى أن يرزقه من يرثه، فرزقه يحيى ﴿**ورثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا* يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى**. . .﴾[82].

وليس معنى «يرثني» أن يرث النبوة، لأن النبوة ليست بالوراثة انما يورث المال والممتلكات، ولا يمكن حمل قول الرسول (ص) (انا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة)، على عدم وراثة المال والممتلكات لانه مخالف لصريح القرآن، وانما يمكن أن يؤول بان ما تركه الانبياء في أيدي الناس من أموالهم ولم يسددوها منهم في حياتهم فهي لا تورث كما يورث سائر الناس بل هي صدقه لهم.

= ﴿وما أفاءَ الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله علىٰ من يشاء والله علىٰ كل شيء قدير﴾ الحشر/٦.

(فعن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت «وآت ذا القربى حقه» دعا رسول الله (ص) فاطمة سلام الله عليها فأعطاها فدكاً).

(وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿**وآت ذا القربى حقه**» أقطع رسول الله (ص) فاطمة سلام الله عليها فدكاً). راجع الهيثمي في مجمعه ج ٧ ص ٤٩، الذهبي في ميزانه ج ٢ ص ٢٢٨، المتقى في كنز العمال ج ٢ ص ١٥٨، وأخرجه الحاكم في تاريخه وابن النجار. وغيرهم، نقلاً عن فضائل الخمسة في الصحاح الستة ج ٣ ص ١٣٦.

(٨١) سورة النمل الآية ١٦.

(٨٢) سورة مريم الآيتان ٦ و ٧.

فاطمة الفقيدة

بعد وفاة أبيها (ص) اشتد عليها الحزن والأسى، ونزل بها المرض، حتى غدت نحيلة سقيمة، وبقيت تعاني من شدة المرض أربعين ليلة، حتى وافاها الأجل المحتوم، فكانت كما وعدها الصادق الأمين، أول أهل بيته لحاقاً به.. وعلى الرغم من اشتداد الألم، فان فاطمة كانت تبدو في اليوم الأخير من حياتها وكأنها تتماثل للشفاء، فقد قامت من فراشها وغسلت ولديها الحسن والحسين، وألبستهما ثيابهما. ثم طلبت منهما أن يزورا قبر جدهما رسول الله (ص)، وعلى الرغم مما بدا عليها من تحسن في صحتها ونشاطها، الا أنها كانت تستعد للرحيل وتسرع الخطى للحاق بأبيها (ص) فطلبت من أسماء بنت عميس أن تحضر لها ماء لتغتسل به.. فاغتسلت، ولبست أحسن ثيابها.

وعندما أحست بالأجل يدنو، وبأنها تنعي الى نفسها طلبت من أسماء أن تضع لها فراشاً وسط البيت، فاضطجعت في فراشها، وهي مستقبلة القبلة، ثم دعت أسماء وأم أيمن وطلبت احضار علي بن أبي طالب (ع)، فحضر علي (ع)، فقالت: **(يا ابن العم انّه قد نعيت اليّ نفسي، وانّني لا ارى ما بي الّا انّني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي، قال لها علي: أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله: فجلس عند رأسها، وأخرج من كان في البيت، ثم قالت: يا ابن العم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني، فقال: معاذ الله، أنت أعلم، وأبر، وأتقى، وأكرم، وأشدّ خوفاً من الله من أن أوبّخك بمخالفتي، وقد عزّ عليّ مفارقتك وفقدك، إلّا أنّه أمر لا بدّ منه، والله لقد جددت عليّ مصيبة رسول الله، وقد عظمت وفاتك وفقدك فانّا لله وانّا اليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأحزنها، هذه، والله، مصيبة لا عزاء عنها، ورزيّة لا خلف لها، ثم بكيا جميعاً ساعة، وأخذ عليّ**

رأسها وضمّها الى صدره، ثم قال أوصيني بما شئت، فانّك تجدينني وفياً، أمضي كلّما أمرتني به، واختار أمرك على أمري، ثم قالت جزاك الله عنيّ خير الجّزاء، يا ابن عمّ أوصيك أوّلا أن تتزوّج بعدي بابنة أختي أمامة، فانّها تكون لولدي مثلي فانّ الرّجـال لا بدّ لهم من النّسـاء. .)[٨٣] ثم أتمت وصيتها،وقد بدأتها بتلك الكلمة ـ كلمة الاعتذار من محسن لا يسيء، وبتلك المشاعر ـ بمشاعر الحب والاخلاص من زوجة وفية مخلصة لزوج مخلص. . أرادت فاطمة أن تختم بها علاقة الحياة الزوجية المثلى بينها وبين علي (ع) فلم يملك بطل المعارك وقاهر الصناديد أمام هذه الكلمات الدافئة الحـزينة، الا أن ينفجـر باكياً، والا أن ينطلق حزيناً، والا أن يضم فاطمة الى صدره، وهو يدري أن لا لقاء الا في ظلال رسول الله (ص).

وفي لحظات الفراق، وساعة الوداع لا يحضر في النفس شيء كحضور الأحبة وتصور الغياب ولم يكن لفاطمة في دنيا الناس شيء أحب من ولديها الحسنين وبناتها الصغار، لذلك تابعت الوصية فكانت آخر ما نطقت به بعد الاعتذار الى أمير المؤمنين (ع) هي العناية بـالحسنين وبناتهـا الصغار، وأن يتزوج بأمامة بنت أختها زينب، لشدة حب أمامة لأبناء فاطمة وقربهم منها(*). . لتعوضهم حنان الأمومة، وتحنو عليهم بقلب الحب والرعاية.

وتودع فاطمة عليا وأهل بيته، وترتفع روحها الطاهرة الى عالم الخلد والنعيم. . ويصوت الناعي بفقد فاطمة. . وتضطرب المدينة، وتروع القلوب المؤمنة بفقد فاطمة، بقية رسول الله (ص)، وفرع النبوة. . وتجتمع نساء بني هاشم ونساء المهاجرين والأنصار، ويحتشد أهل المدينة بباب علي (ع)، وقد ذكر الخطب بيوم رسول الله (ص)، فأحيط بيت فاطمة بالعبرات وآهات الحزن والأسى. . وكان الحشد ينتظر أن يشيع الجسد الطاهر الى مثواه الأخير. . الا أن علياً أخرج إليهم سلمان ـ أو ابا ذر ـ وأمره أن يصرف الجميع. . فان فاطمة

---

(٨٣) الأمين ـ المجالس السنية ـ ج ٢ ـ ص١٢٣.

(*) لقد نفذ أمير المؤمنين (ع) الوصية، فتزوج بامامة بنت ابي العاص بن الـربيع بنت زينب أخت فاطمة (ع).

أوصت أن لا يشيعها الناس، وأن لا يدخل جثمانها أحد. . وفعلا فقد قام الأمام علي بتغسيلها، ولم يشاركه أحد من النساء الا اسماء بنت عميس[*]، وكان الحسنان يحملان الماء، ويدخلانه الى المغتسل، ولم يشارك في الغسل ولم يحضرها غيره، وغير الحسنين وزينب وأم كلثوم وفضة جاريتها وأسماء بنت عميس، ثم صلى عليها علي (ع) وكفنها، وبقي الجثمان الطاهر حتى هجعت العيون، وغطى الليل سماء المدينة الحزين فوضعها على نعش[٨٤] صنعته أسماء بنت عميس لفاطمة (رض) وحمل الجثمان الى البقيع، كما في بعض الروايات، والمشيعون علي والحسنان، وعمار ومقداد وعقيل والزبير وأبو ذر وسلمان وبريدة ونفر من بني هاشم، وأودع الجثمان الطاهر هناك، وغطى أثر القبر لئلا يُعرف!! ويُذكر أن علياً (ع) حين أنزل فاطمة هاجت به الأحزان، وازدحمت في نفسه، وعظم عليه الفراق، كبر عليه الموقف، وهو يرى دموع الحزن تتواثب من عيني الحسنين، على قبر فاطمة، فوقف على قبرها معبراً عما في نفسه من حب لها، ووفاء لزوجيتها، وحزن على فراقها، ووفاء لأبيها (ص).

وهكذا طوت الزهراء فاطمة صفحة الحياة، لتبدأ مرحلة الخلود في عالم الفردوس، ولتحيا أبداً في ضمير التاريخ ودنيا الإسلام.

(*) أسماء بنت عميس: زوجة جعفر بن ابي طالب، وقد هاجرت معه الىٰ الحبشة.

(٨٤) ذكر المؤرخون أن أول من حُمل علىٰ نعش هي فاطمة عليها السلام صنعته لها أسماء بنت عميس علىٰ النحو الذي شاهدته في الحبشة أيام هجرتها.

فقد روي عن أبي عبد الله ـ الصادق ـ عليه السلام قال: أوّل نعش أحدث في الاسلام نعش فاطمة. انها اشتكت شكوتها التي قبضت فيها وقالت لأسماء: إني نحلت، وذهب لحمي، الا تجعلين لي شيئاً يسترني؟ قالت أسماء: اني اذ كنت بارض الحبشة رايتهم يصنعون شيئاً، أفلا أصنع لك؟ فان أعجبك أصنع لك.

قالت: نعم، فدعت بسرير فأكبته لوجهه، ثم دعت بجرائد فشدَّدته علىٰ قوائمه، ثم جلّلته ثوباً، فقالت: هكذا رأيتهم يصنعون، فقالت ـ فاطمة ـ: اصنعي لي مثله، استريني سترك الله من النار.

التهذيب ج ١ ص ٤٦٩ ـ البحار ج ٤٣ ص ٢١٢ ح ٤٢.

الفهـرس



سلسلة
حياة النبي محمد وأهل بيته

٤

الإمام
الحسن بن علي (ع)
المجتبى

إعداد:
نخبة من العلماء

دار المحجة البيضاء

دار الرسول الأكرم (ص)

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ص. ب: ١٤/٥٤٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لا أَسأَلُكُمْ عليهِ أَجراً إلّا المَودَّةَ في القُرْبى﴾

(الشورى/٢٣)

«من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن علي».

رسول الله (ص)

«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».

رسول الله (ص)

بيت للمجد

. . . تبارى الصحابة لخطبة الزهراء (ع) من أبيها رسول الله (ص) لادراكهم ما تتمتع به من علو قدر، وعظيم شأن في ميزان الرسالة، إذ هي بضعة المصطفى (ص) وحبيبته، وسيدة نساء العالمين.

وكان الرسول (ص) يرفض كل طلب بصددها.

وفي أحد الأيام أحيط علي (ع) بأمر فاطمة، وكيف أن بعض الصحابة قدموا على خطبتها فرفض الرسول (ص) طلبهم. . . فوجد في نفسه رغبة ليتقدم إلى خطبتها من الرسول القائد (ص).

وقبل أن يستأذن علي للدخول على المصطفى (ص) لاطلاعه على رغبته تلك كان جبريل (ع) قد سبق في إبلاغ الرسول (ص) بأمر الله سبحانه وتعالى بتزوج فاطمة من علي (ع).

وقد ورد أن الأمر الإلهي، على لسان الوحي المقدس جاء بالنص الآتي: (. . . يا محمد إن الله تعالى يقرأ عليك السلام، ويقول لك إني قد زوجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملأ الأعلى، فزوجها منه في الأرض)[1].

ويطرق علي (ع) باب حجرة أُم سلمة (ره) حيث كان رسول الله (ص) عندها، فيأذن له بالدخول، ويأخذ مكانه الى جنبه. . . فيبادره الرسول (ص) بقوله:

(إني أرى أنك أتيت لحاجة، فقل حاجتك، وأبدِ ما في نفسك، وكل

---

(١) الحافظ محب الدين الطبري (توفي سنة ٦٩٤ هـ) - ذخائر العقبىٰ في مناقب ذوي القربىٰ - ص ٢٢ - ط ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

حاجة لك عندي مقضية). . .

وحين أطلع علي قائده الحبيب محمداً (ص)، أنه جاء خاطباً فاطمة؛ ما كان من المصطفى (ص) إلا وتهلل وجهه فرحاً، ودخل على الزهراء (ع) ليطلعها على الأمر، ليرسي بذلك مفهوماً إسلامياً خالداً، من أن الزواج ينبغي أن يبتنى على الرضا والقبول من كلا الزوجين، لتقوم الأسرة على التلاحم والود والصفاء. . .

وخاطب الرسول (ص) بضعته بقوله:

(إن علي بن أبي طالب ممن قد عرفت قرابته، وفضله واسلامه. . . وقد ذكر من أمرك شيئاً فما ترين؟).

فاستولى الحياء على زهرائه (ع)، وطال السكوت، والرسول (ص) يتأمل تقاسيم وجهها، فكان يقرأ الرضاء بجلاء عليها، ثم خرج (ص) وهو يردد من أعماق قلبه الطاهر: (. . . **الله أكبر . . . سكوتها إقرارها)**. . .

وما أن عاد المصطفى (ص) من فاطمة (ع) حتى خاطب علياً (ع) بقوله: **(فهل معك شيء أزوجك به؟)**، من أجل أن يرسي لأمته عبر الأجيال حكماً إسلامياً يقضي بأن يتحمل الرجل دفع المهر لزوجته كأول مظاهر الانفاق والقيمومة على المرأة. . . .

ولم يكن علي (ع) ليملك غير سيف وناضح[2] ودرع، فحدث الرسول (ص) بذلك، فأجابه الرسول (ص):

(أما سيفك فلا غنى بك عنه، تجاهد به في سبيل الله، وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك، وتحمل عليه رحلك في سفرك).

وهكذا أمره ألا يبيع سيفه وبعيره. . . بيد أنه أباح له بيع درعه ذاك الذي سبق للرسول (ص) أن وهبه إياه، لاتقاء ضرب العدو. . .

باع علي (ع) درعه، وقدم ثمنه لرسول الله (ص) لتجهيز الزهراء (ع)

---

(٢) الناضح: البعير الذي يستقى عليه.

فوزعه الرسول (ص) على كل من: بلال وسلمان وأُم سلمة ليجهزوا فاطمة، من أثاث وعطور ولوازم. . .

وهكذا كان، فقد أحضر القوم المتاع، وكان كل ما فيه في غاية البساطة.

وقد أحب الرسول (ص) أن يعلم المسلمين بأمر خطبة علي (ع) للزهراء، فجمع بعضاً من أصحابه ليشهدوا مراسيم عقد الزواج المبارك فقال (ص):

(الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطواته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان الله تبارك اسمه، وتعالت عظمته جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً، أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عزّ من قائل: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾ فأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة، إن رضي بذلك علي بن أبي طالب)، ثم دعا بطبق من بسر[3] فوضعت بين أيدينا ثم قال انتبهو فانتبهنا فبينما نحن ننتبه إذ دخل علي (عليه السلام) على النبي (ص) فتبسم النبي صلّى الله عليه وآله وسلم في وجهه ثم قال: إن الله قد أمرني أن ازوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة ان رضيت بذلك، فقال قد رضيت بذلك يا رسول الله، قال أنس: فقال النبي (ص) جمع الله شملكما وأسعد جدّكما وبارك عليكما وأخرج منكما كثيراً طيباً، قال أنس فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيب[4].

---

(٣) البسر: التمر.

(٤) ذخائر العقبىٰ: ص ٣٠.

ولم يمض سوى شهر واحد على مراسيم عقد الزواج، حتى اتصل عقيل بن أبي طالب (ره) بأخيه علي (ع)، حاثاً أياه على الزواج قائلاً له:

(... فما بالك لا تسأل رسول الله (ص) أن يدخلها عليك، فتقر أعيننا باجتماع شملكما؟).

فاتفقا على مفاتحة الرسول (ص) بهذا الشأن، على أنهما التقيا بأُم أيمن بركة بنت ثعلبة، المرأة الجليلة، وأحاطاها علماً بما ارتأيا، فاقترحت أن تفاتح أمهات المؤمنين بالأمر، ليفاتحن بدورهن رسول الله (ص) وهكذا كان...

حيث اجتمعن بالرسول (ص) وأطلعته أُم سلمة نيابة عنهن بالأمر، فدعا الرسول (ص) علياً (ع) ولما حضر عنده، خاطبه (ص): **(أتحب أن تدخل عليك زوجتك؟)** فأجابه الإمام (ع): **نعم**، فرد رسول الله (ص): **(حباً وكرامة)**.

ثم ان الرسول الكريم (ص) أمر علياً (ع) أن يقيم وليمة للمؤمنين، فتولت نساء النبي (ص) إعداد الطعام بأنفسهن، وتناول المدعوون طعام الإمام (ع).

ثم أمر الرسول (ص) أُم سلمة وبقية أُمهات المؤمنين، بأن تزف فاطمة إلى بيتها الجديد... وتظاهرت كوكبة من المؤمنين بقيادة الرسول (ص) مهللين ومكبرين وألقت أزواج الرسول (ع) أراجيز وأناشيد احتفاءً بالمناسبة الكريمة...

وبعد زفاف الزهراء (عليه) أقبل رسول الله (ص) إلى الإمام مهنئاً: **(بارك الله لك في ابنة رسول الله)**، ثم أخذ (ص) إناء من الماء وتلا عليه من الذكر الحكيم وأمر علياً والزهراء (عليهما السلام) أن يشربا منه، ثم نضح شيئاً منه على رأسيهما ووجهيهما ودعا لهما بقوله:

(اللهمانهما أحب الخلق اليَّ، فبارك في ذريتهما، واجعل عليهما منك حافظاً وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم).

وهكذا أُشيد للمجد أعز بيت وقامت مدرسة الامامة في ظل الوحي والرسالة لكي تصنع على عين الله وفي ضوء شريعته ومنهاجه القويم.

ومن هذه المراسيم تتجلى لنا عظمة منهج الإسلام في بساطته ويسره، في استجابته لرغائب النفس والجسد، في مطابقته لمقتضيات الفطرة، في ملاءمته لظروف الحال والواقع، من غير تكلف ولا عنت،ومن دون إحراج ولا جنف...

ومن هنا صار للسنة النبوية المقام الهام في معرفة منهج الإسلام، وفي دورها في تنظيم سلوك وروابط الفرد والأسرة والمجتمع...

أيّ وليد؟

وفي اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثالثة من الهجرة أعلن البيت النبوي، نبأ ميلاد السبط الأول، وزفت البشرى إلى المصطفى (ص)، فعلا محياه الكريم كثير من البشر واكتنفه الحبور، فهب إلى بيت زهرائه الطاهرة (ع)، ليحمل لها تهانيه، ويفضي لها بمسراته...

وقدم إليه الوليد المبارك، تحمله أُم سلمة (ره) أو أسماء بنت عميس ـ في رواية ـ، فاستقبله الرسول (ص) بكل كيانه الطاهر، فحمله بين يديه، وقبله وضمّه الى صدره، ثم أذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ليكون صوت الحق أول صوت يطرق سمعه وكيانه...

والتفت الرسول (ص) لعلي (ع) قائلاً:

ـ أي شيء أسميت ابني؟

ـ ما كنت لأسبقك بذلك...

ـ ولا أنا سابق ربي[٥].

ولم يكد هذا الحوار الكريم بين الرسول (ص) ووصيِّه حول تسمية الوليد يصل إلى نهايته حتى تنزَّل الوحي الإلهي المقدس على رسول الله (ص) يبلغه بأن سبحانه قد سمى الوليد المبارك «حسناً»[٦].

وبهذا قد انتهت الحلقة الأُولى من المراسيم الإسلامية التي قوبل بها الوليد الكريم «حسن»...

(٥) ذخائر العقبى /الطبري/ ص ١٢٠.
(٦) أهل البيت /الإمام الحسن/ توفيق أبو علم، ص ٢٦٤، ط ١ عام ١٩٧٠، والمجالس السنية، المجلد ٢/ السيد محسن الأمين العاملي ـ الحسن بن علي/ احواله.

وحين أطلّ اليوم السابع من ميلاده الميمون، حلَّ رسول الله (ص) عند فاطمة (ع) لاتمام بقية المراسيم، فعمد الـرسول (ص) إلى كبش فعقه ومنح القابلة فخذاً منه وديناراً، تقديراً لجهودها من أجل الوليد ووالدته الزهراء. . .

ثم عمد (ص) الى رأس الوليد فحلقه، وتصدق بزنة شعره فضه، وطلاه بالخلوق[٧]، ونهى عن طلي رأس الوليـد بالـدم، معلناً أن ذلـك من أخلاق الجاهلية - وكان ذلك مألوفاً - ثم أمر بختنه فختن. .

ولقـد أصبحت المـراسيم التي أُجـريت للحسن (ع)، من لـدن جــده المصطفى (ع)، سُنة، استن المسلمون بها فيما بعد. . .

---

(٧) نوع من الطيب.

السبط في الكتاب والسنة

للحسن السبط (ع) كما لسائر أهل البيت (ع)، مكانة عظمى في كتاب الله تعالى وسُنة رسوله (ص).

فهذا القرآن الكريم، دستور الأمة، ومعجزة الإسلام الخالدة، يحمل بين طياته الآيات البينات التي تنطق بمكانة الحسن (ع)، وأهل البيت (ع) عند الله تعالى ورسالته؛ منها:-

١ - آية التطهير: **﴿إنَّما يُريدُ الله ليُذْهِبَ عَنكُمُ الرجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِركُمْ تَطْهيراً﴾**.

(الأحزاب - ٣٣)

فقد ورد في سبب نزولها أن النبي (ص) دعا بعباءة خيبرية، وجلَّلَ بها علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، ثم قال: (**اللهم إن هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**)[٨].

فنزلت آية التطهير، استجابةً لدعاء المصطفى محمد(ص).

وهكذا تحمل الآية الكريمة شهادة الله تعالى بطهارة أهل البيت (ع)، ونأيهم عن الرجس، وكونهم الاسلام الحي المتحرك.

٢- آية المباهلة: **﴿فَمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِن بَعْدِ ما جاءكَ مِنَ العلمِ فَقُلْ**

---

(٨) أخرج الحديث كل من مسلم في صحيحه، والترمذي في صحيحه، والنسائي في الخصائص، والطبري في تفسيره، وغيرهم، كما أورده صحيح مسلم، مجلد ٤ رقم الحديث ٢٤٢٤ عن طريق عائشة بلفظ آخر مشابه، وللتفاصيل يراجع فضائل الخمسة في الصحاح السنة: للفيروز آبادي.

تَعالَوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكُمْ ونساءنا ونساءكُمْ وأنفُسَنا وأنفسكُمْ ثُم نَبتهِل فَنجْعل لَعَنةَ الله على الكاذبين﴾.

(آل عمران ـ ٦١)

ففي أسباب نزول هذه الآية الكريمة قال المفسرون وأولو العلم القرآني إنها نزلت عندما اتفق نصارى نجران مع رسول الله (ص) أن يبتهل كلا الطرفين الى الله تعالى، أن يهلك من كان على الباطل في دعوته واعتقاده، وخرج الرسول (ص) بأهل بيته: علي وفاطمة والحسن والحسين، دون سواهم من البشر للمباهلة، وحين رأى النصارى الوجوه الزكية التي خرج بها الرسول (ص) لمباهلتهم اعتذروا للرسول عن مباهلته(ص)، وأذعنوا لسلطان دولته بدفعهم الجزية...

وأنت ترى أن الآية الكريمة عبرت عن الحسنين (ع) بالأبناء، وعن محمد (ص) وعلي (ع) «بأنفسنا»، أما فاطمة، فقد مثلت نساء المسلمين جميعاً في ذلك، كما وردت بلفظ «نساءنا»، الأمر الذي يشير بصراحة إلى ما يحظى به أهل بيت الرسالة (ع) من مقام كريم عند الله ورسوله (ص).

٣ ـ آية المودة: **﴿... قُلْ لا أسألُكُمْ عليهِ أجراً إلاّ المودّة في القُربى﴾.**

(الشورى ـ ٢٣)

قال المفسرون إن الآية نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع)، ففي الصحيحين ومسند أحمد بن حنبل وتفسير الثعلبي، وتفسير الطبرسي، عن ابن عباس: قال لما نزل قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى، قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: **علي وفاطمة وابناهما**[٩].

وعن علي بن الحسين (ع) وسعيد بن جبير وعمرو بن سعيد وعن أبي

---

(٩) ذخائر العقبى /الطبري/ ص ٢٥.

جعفر وعن أبي عبدالله (ع) عن رسول الله (ص)، أنه قال. حين سئل عن مفاد هذه الآية: «**أن تودوا قرابتي...**»[١٠].

واذ نكتفي بهذا القدر اليسير من الآيات، التي تؤكد مكانة الحسن السبط (ع)، وأهل البيت (ع) جميعاً عند الله تعالى يحسن بنا أن نشير الى بعض النصوص التي وردت عن رسول الله (ص) بشأن الحسن (ع)، ومكانته الرفيعة في دنيا الرسالة الإسلامية، ورسولها القائد (ص):

١ ـ روى البخارى ومسلم عن البراء قال: رأيت رسول الله (ص) والحسن بن علي (ع) على عاتقه، وهو يقول: **اللهم إني أحبه فأحبه**.

٢ ـ روى الترمذي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله (ص) حاملاً الحسن بن علي (ع)، فقال رجل نعم المركب ركبت يا غلام، **فقال** النبي (ص): **ونعم الراكب هو**.

٣ ـ عن الحافظ أبي نعيم عن أبي بكر قال: كان النبي (ص) يصلي بنا، فيجيء الحسن وهو ساجد، وهو إذ ذاك صغير، فيحل على ظهره ومرة على رقبته، فيرفعه النبي (ص) رفعاً رقيقاً، فاذا فرغ من الصلاة، قالوا: يا رسول الله إنك تصنع بهذا الصبي شيئاً لا تصنعه بأحد؟

فقال (ص): (**إن هذا ريحانتي**).

٤ ـ عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله (ص): أيّ أهل بيتك أحب إليك؟ قال: (**الحسن والحسين**).

٥ ـ وعن عائشة قالت: إن النبي كان يأخذ حسناً فيضمه اليه ثم يقول: (**اللهم إن هذا ابني، وأنا أحبه، فأحبه، وأحب من يحبه**).

٦ ـ وعن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله (ص): (من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن علي).

٧ ـ عن يعلي بن مرة قال: خرجنا مع النبي (ص) وقد دعينا إلى طعام فإذا الحسن (ع) يلعب في الطريق فأسرع النبي (ع) أمام القوم ثم بسط يده

---

(١٠) راجع المصدر السابق، ص ٢٦.

فجعل يمر مرة ها هنا، ومرة ها هنا يضاحكه حتى أخذه فجعل إحدى يديه في رقبتـه، والأخرى على رأسـه ثم اعتنقه فقبله، ثم قـال: **حسن مني وأنـا منـه أحب الله من أحبه.**

٨ ـ وعن الغزالي في الاحياء أن النبي (ص) قال للحسن (ع): أشبهت خلقي وخلقي[١١].

هـذا غيض من فيض، ومن شاء الاستـزادة، فليراجـع ينـابيـع المـودة للقندوزي الحنفي، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادي، ومسند أحمد بن حنبل، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي وغيرها.

وهكـذا تتجلى مكـانـه الحسن السبط (ع) في دنيـا الإسـلام، من خـلال الكتاب العزيز والسنة الشريفة...

ونحن إذ نستعرض صفحة من صفحات تاريخنا المجيد عن مكانة الإمام السبط الحسن (ع) لا نستهـدف العـرض التـاريخي المجـرد عن الهـدف الرسالي... وإنما نعني بالدرجة الأولى بتقـديم نماذج في سلوك شخصيـاتنا الإسلامية، التي جسَّدت في ساحة الواقع أروع تطبيقات الإسلام، لتكون لنا وللأجيال قدوة وأسوة.

---

(١١) اخترنا هذه الأحاديث الصحيحة من الفصول المهمة /لابن الصباغ المالكي، واعلام الورىٰ/ للطبرسي، وأهل البيت/ للأستاذ توفيق أبو علم، والمجالس السنية/ للسيد محسن الأمين العاملي، وقد وردت في كثير من الكتب سوىٰ ما ذكرنا.

الملامح الشخصية

المتتبع لحياة الحسن السبط (ع)، وأخيه الحسين (ع) لا بد أن يصل إلى حد القطع انهما (ع) قد توافرت لهما من التربية والإنشاء الروحي والفكري ما لم يتسنَّ لسواهما بعد جدهما (ص) وأبيهما (ص)، فبصمات الوحي والإعداد الإلهي، ضارا طابعاً مميزاً لشخصيتهما (ع) في شتى الملامح والعناصر والمنطلقات، فانهما تلقيا أرقى ألوان التربية الإسلامية على يد جدهما الرسول (ص) وأبيهما علي (ع) وامهما الزهراء (ع)، من خلال القدوة والتوجيه المباشر الحي، ولئن فقدا جدهما (ص) وأمهما في سن مبكرة، فان الامداد التربوي بقي هو هو، يتلقيانه في ظلال أبيهما علي بن أبي طالب (ع) تلميذ رسول الله (ص) وربيب مدرسة الوحي، التي تشع على الناس هدى ورحمةً.

وهكذا عايش الحسنان مرحلة الاعداد الإلهي وأُعِدّا لتحمل أعباء الدعوة لرسالة الله، بشكلها ومضمونها، فكانت ثمرة ذلك الاعداد الفذ، أن صار الحسنان إسلاماً يسير على الأرض.

وبما أن عناصر شخصيتي الإمامين لا تختلف بحال، لذا كانا نسخة واحدة من حيث السلوك والمسار والخطى والأهداف، حسب ما يحكم به الإسلام بالنظر إلى الواقع... وإنَّ طبيعة حديثنا يقتضي أن نسوق أمثلةً حية من نشاطات الإمام الحسن السبط (ع) الروحية والعلمية والخلقية:

١ ـ الجانب الروحي:

إن الإعداد الأصيل، الذي توفر للإمام السبط (ع)، قد وفر لكيانه الروحي سمواً شاهقاً، فكان تقربه إلى الله وانشداده إليه سبحانه أمراً يهز

القلوب ويخشع له الوجدان.

وهذه إضمامة من هذه المظاهر التي تكشف هذا الجانب من شخصيته.

فعن الإمام الصادق (ع) قال: **إن الحسن بن علي (ع) كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم.**

وورد في روضة الواعظين: إن الحسن (ع) كان إذا توضأ أرتعدت مفاصله واصفر لونه، فقيل له في ذلك، فقال: حق على كل من وقف بين يدي رب العرش، أن يصفر لونه وترتعد مفاصله...

وعن الإمام الصادق (ع): **إن الحسن بن علي (ع) حج خمساً وعشرين حجة ماشياً، وقاسم الله تعالى ماله مرتين... وقيل ثلاث مرات.**

وعن علي بن جدعان، وأبي نعيم في حلية الأولياء وطبقات ابن سعد: إن الحسن (ع) خرج من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرات حتى أنه كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً، ويعطي خفاً ويمسك خفاً...

وكان إذا بلغ باب المسجد، يرفع رأسه وهو يقول: **إلهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم.**

وكان (ع) إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى وإذا ذكر القيامة والعرض على الله يشهق شهقة يغشى عليه منها.

وكان (ع) إذا قرأ القرآن ومر بآية فيها: ﴿**يا أيها الذين آمنوا...**﴾ قال: **لبيك لبيك اللهم لبيك...**

أما صدقاته وانفاقه في سبيل الله، فحسبك فيه خروجه من ماله من أجل الله مرتين، ومقاسمته إياه ثلاث مرات[١٢].

---

(١٢) للاستزادة يراجع كشف الغمة، ج ٢/ ومناقب آل أبي طالب، جـ٣/ والمجالس السنية/ وأهل البيت (ع) لتوفيق أبو علم/ وتذكرة الخواص وغيرها.

٢ ـ الجانب العلمي:

إذا كان العقل الحي المتفتح ركيزة أساسية من مرتكزات الشخصية الإسلامية، وإذا كان الرسول (ص) والأئمة الهداة من أهل البيت (ع) قد تسنموا قمة التسلسل في درجات الشخصية الإسلامية، باعتبار خضوعهم للاعداد الإلهي المباشر، في شتى عناصر الشخصية ومكوناتها.

أقول من خلال هذا التصور الدقيق، فإن الإمام السبط (ع) والهداة الميامين (ع)، وقد توافر لهم من النشاط الفكري الرائد، وفي شتى مجالات الحياة، ما لم يتوافر لسواهم من البشر، دون الأنبياء (ع)، يعلل ذلك طبيعة التلقي الذي يتوافر للأئمة (ع) فالامام (ع)، اما أن يتلقى العلم عن الرسول (ص) مباشرة، أو يتلقاه بالواسطة عن طريق إمام سابق عليه، وأما الأمور المستجدة في حياة البشر، فإن سمو الكيان الداخلي للإمام (ع)، وروحيته الفائقة، تؤهله للمعرفة عن طريق ذاتي، الأمر الذي دعا المتكلمين الإسلاميين أن يطلقوا على علم الإمام (ع)، من خلال هذه الزاوية، بالعلم الحضوري، حيث أن علمه بهذا الصدد لا يحتاج الى بحث أو تعلم من آخرين، وإنما يتلقاه عن طريق الإلهام المباشر، والإلهام ليس وحياً كما هو معلوم.

وبمقدور أي منصف أن يدرك هذه الحقيقة، من خلال تتبعه لحياة الأئمة (ع)،الذين لميحدثناتاريخهم قط أن أمراً قد أشكل عليهم في اي باب من أبواب الجانب المعرفي، أو أنهم قد تعذرت عليهم الإجابة عن سؤال، أو استفسار أو إشكال سواء في أمر فكري أو تشريعي أو علمي أو نحو ذلك. ونذكر طرفاً من الجانب العلمي الذي روته سيرة الإمام الحسن (ع) كأمثلة على غزارة علم الإمام أو اكتمال معرفته:

أ ـ كتب إليه الحسن البصري، يسأله عن **القضاء والقدر**:

فأجابه الإمام السبط (ع): (أما بعد فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، أن الله يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر، إن الله لم يطع مكرهاً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو

المالك، لما ملكهم، والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخييرا ونهاهم تحذيراً، فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنهـا صاداً، وان انتهـوا إلى معصية فشاء أن يمن عليهم، بأن يحول بينهم وبينها فعل، وإن لم يفعل فليس هـو الذي حملهم عليها جبـراً ولا ألزمـوها كـرهاً، بـل مَنَّ عليهم، بأن بصـرهم وعـرفهم، وحذرهم، وأمـرهم ونهاهم، لا جبـراً لهم على مـا أمـرهم بـه، فيكونوا كالملائكة، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه، ولله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين. . .)[١٣].

وهكذا، وبعبارات وجيزة يوضح الإمام (ع) قضيـة هي من أكثر قضـايا الفكر تعقيداً وعمقاً، حتى أنها لشدة عمقها ضل فيها الكثير من رجال الفكر، بل نشأت عنها تيارات متطرفة ـ كالأشاعرة والمعتزلة ـ حول التفسير العقائدي السليم والذي يكشف عنه قول الإمام، المعبِّر عن العمق والاصالة في الفهم والمعرفة الإسلامية. . . الأمـر الذي يُشعـر بارتبـاط الإمام السبط (ع) بمنـابع الرسالة الصافي وارتياده من مفاهيمها الأصيلة.

ب ـ قيل له: **ما الزهد؟**

قال: **الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا.**

قيل: فما **الحلم؟**

قال: **كظم الغيظ وملك النفس.**

قيل: **ما السداد؟**

قال: **دفع المنكر بالمعروف.**

قيل: **فما الشرف؟**

قال: **اصطناع العشيرة وحمل الجريرة.**

قيل: فما **النجدة؟**

---

(١٣) تحف العقـول عن آل الـرسـول (ص) /بـاب مـا روي عن الحسن (ع) ص ١٦٦، ط ٥.

قال: **الذب عن الجار، والصبر في المواطن، والإقدام عند الكريهة.**

قيل: **فما المجد؟**

قال: **أن تعطي في الغرم، وأن تعفو عن الجرم.**

قيل: **فما المروءة؟**

قال: **حفظ الدين، وإعزاز النفس، ولين الكنف، وتعهد الصنيعة، وأداء الحقوق، والتحبب إلى الناس...**[14].

جـ - سأل رجل شامي الإمام السبط (ع):

كم بين الحق والباطل؟

قال (ع): **أربعة أصابع، فما رأيت بعينك فهو الحق وقد تسمع بأذنك باطلاً كثيراً.**

قال الشامي: كم بين الإيمان واليقين؟

قال السبط (ع): **أربعة أصابع، الإيمان ما سمعناه، واليقين ما رأيناه.**

قال: كم بين السماء والأرض: قال: (ع): **دعوة المظلوم.**

قال الشامي: كم بين المشرق والمغرب؟

قال (ع): مسيرة يوم للشمس[15].

د - **ومن تراثه الفكري الزاخر قوله (ع): (أيها الناس إنه من نصح لله وأخذ قوله دليلاً هُدي للتي هي أقوم، ووفقه الله للرشاد وسدده للحسنى، فإن جار الله آمن محفوظ، وعدوه خائف مخذول، فاحترسوا من الله بكثرة الذكر، واخشوا الله بالتقوى، وتقربوا إلى الله بالطاعة، فإنه قريب مجيب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿... وإذا سألكَ عِبادي عَني فإني قَريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعانِ، فَلْيستَجيبوا لي وَلْيؤمِنوا بي لعَلهُمْ يَرْشُدون﴾[16]،**

---

(١٤) المصدر السابق - ص ١٦٢.

(١٥) مناقب آل أبي طالب/ ابن شهراشوب/ باب إمامة أبي محمد الحسن (ع).

(١٦) سورة البقرة الآية ١٨٦.

فاستجيبوا لله، وآمنوا به، فإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا، والذين يعرفون ما جلال الله أن يتذللوا له، وسلامة الذين يعلمون ما قدرة الله أن يستسلموا له، ولا ينكروا أنفسهم بعد المعرفة، ولا يضلوا بعد الهدى، واعلموا علماً يقيناً انكم لن تعرفوا التقى، حتى تعرفوا صفة الهدى ولن تمسكوا بميثاق الكتاب، حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف، ورأيتم الفرية على الله والتحريف، ورأيتم كيف يهوى من يهوى، ولا يجهلنكم الذين لا يعلمون، والتمسوا ذلك عند أهله، فإنهم خاصة نور يستضاء بهم، وأئمة يقتدى بهم، بهم عيش العلم وموت الجهل، وهم الذين أخبركم حلمهم عن جهلهم، وحكم منطقهم عن صحتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وقد خلت لهم من الله سنة، ومضى فيهم من الله حكم، إن في ذلك لذكرى للذاكرين، واعقلوه إذا سمعتموه، عقل رعاية، ولا تعقلوه عقل رواية، فإن رواة الكتاب كثير، ورعاته قليل، والله المستعان[١٧].

هـ ـ وسئل عن السياسة يوماً فأجاب (ع):

هي أن ترعى حقوق الله وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات فأما حقوق الله ـ فأداء ما طلب، والاجتناب عما نهى؛ وأما حقوق الأحياء: فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أُمتك وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأُمته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي.

أما حقوق الأموات: فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم، فان لهم رباً يحاسبهم).

هذه نبذة من علومه وقبسات من أنوار معرفته وكمال عقله الذي حباه الله به، ذكرناها كنماذج من الإرث الفكري الزاخر الذي تركه الإمام السبط (ع)

---

(١٧) تحف العقول عن آل الرسول/ باب ما روي عن الإمام الحسن (ع) ص ١٦٣ ط/ ٥.

لأجيالِ الأُمة الإسلامية بامتدادها التاريخي[18].

٣ ـ الجانب الخلقي:

هذا الجانب من شخصية الإمام السبط (ع) حين نتناوله بالدراسة لم نكن لنقصد بحال أن الائمة الهداة (ع) يتباينون في هذا الجانب أو سواه من عناصر الشخصية الإسلامية المثلى، فهم سواء في ذلك، وحين نسلط الضوء على الجانب الأخلاقي من شخصية الإمام الحسن السبط (ع) فإنما نعني بذلك عرض نماذج من أخلاقه واسلوب تعامله مع الناس، وتمشياً مع خطتنا هذه نذكر طرفاً من أخلاقه المثلى، لكي تكون مثلاً يُحتذى ومنهجاً يُقتدى:

تواضعه:

أ ـ روت كتب السيرة أنه (ع) مرَّ على جماعة من الفقراء، قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز، كانوا قد التقطوها من الطريق، وهم يأكلون منها، فدعوه لمشاركتهم في أكلها، فأجاب دعوتهم قائلاً:

﴿إن الله لا يحب المتكبرين﴾.

ولما فرغ من مشاركتهم، دعاهم لضيافته، فأغدق عليهم المال وأطعمهم وكساهم.

ب ـ وروي عنه أنه (ع) مرَّ على صبية يتناولون طعاماً، فدعوه لمشاركتهم فأجاب الدعوة، ثم دعاهم الى داره وأجزل لهم العطاء.

جـ ـ وورد أنه كان جالساً في مكان، وعندما عزم على الانصراف، دخل المكان فقير، فحياه الإمام السبط (ع) ولاطفه، ثم قال له:

(**إنك جلست على حين قيام منا، أفتأذن لي بالانصراف؟**).

فأجاب الرجل: نعم يا آبن رسول الله.

والحديث يكشف عن حسن المعاشرة بالإضافة إلى التواضع.

---

(١٨) للاستزادة يراجع كتاب حياة الإمام الحسن (ع)/ باقر شريف القرشي، ج ١، ص ٣٤٠ وما بعدها.

إحسانه لمن أساء إليه:

أ ـ روي أنه وجد شاة له قد كسرت رجلها فقال لغلام له:

ـ من فعل هذا؟

ـ أنا.

ـ لِمَ ذاك؟

ـ لأجلب لك الهم والغم.

فتبسم السبط (ع)، وقال له:

لأسرك.

فأعتقه وأجزل له العطاء.

ب ـ وروي أن شامياً ممن غذاهم معاوية بن أبي سفيان بالحقد على آل الرسول (ع)، رأى الإمام السبط راكباً، فجعل يلعنه!! والحسن (ع) لا يرد عليه، فلما فرغ الرجل؛ أقبل الإمام عليه ضاحكاً وقال:

أيها الشيخ، أظنك غريباً، ولعلك شبهت؟ فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وان كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك الينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كبيراً).

فلما سمع الرجل الشامي كلامه بكى، ثم قال:

أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليَّ، والآن أنت وأبوك أحب خلق الله إليَّ.

ثم استضافه الامام (ع) حتى وقت رحيله، وقد تغيرت فكرته وعقيدته ومفاهيمه عن أهل البيت (ع)...

سخاؤه:

لعل أبرز صفات الإمام السبط (ع) وأكثرها جلاء من بين أخلاقه

السامية: السخاء، فهدف المال لديه أن يكسو عرياناً، أو يغيث به ملهوفاً، أو يفي دين غارم، أو يرد به جوع جائع، وقد قيل له مرة: لأي شيء لا نراك ترد سائلاً؟

قال (ع): **(إني لله سائل، وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلاً، وأرد سائلاً، وأن الله عوَّدني عادة: أن يفيض نعمه عليَّ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشى ان قطعت العادة أن يمنعني العادة).**

وهذه نماذج من كرمه السابغ:

جاءه أعرابي سائلاً: فقال:

(أعطوه ما في الخزانة) وكان فيها عشرة آلاف درهم.

فقال له الأعرابي: يا سيدي هلا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي!!

وكأنَّ الإمام (ع) يجيبه:

نحن أناس نوالنا خضل	يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا	خوفاً على ماء وجه من يسل
لو علم البحر فضل نائلنا	لغاض من بعد فيضه خجل

إشترى الإمام السبط (ع) بستاناً من الانصار بأربعمائة ألف درهم، ثم بلغه أنهم احتاجوا إليه الناس، فرد البستان اليهم دون مقابل. تلك هي بعض شمائل الإمام (ع) وبعض مواقفه السخية مع أبناء الامة والتي كان لها أبعد أثر في تجسيد الخلق الإسلامي الرفيع[١٩].

وإلىٰ هنا أصبح بمقدورنا أن نكون فكرة واضحة عن عناصر شخصية الإمام السبط (ع)، باعتبارها، وشخصيات المعصومين (ع) من أرقىٰ نماذج الشخصيات الإسلامية التي عرفها تاريخ هذا الكوكب بعد الأنبياء (ع).

وانما سردنا بعض المواقف الواقعية والعملية لنلقم حجراً أعداء الإسلام الذين يزعمون أن الإسلام منهج نظري غير قابل للتطبيق.

---

(١٩) للاستزادة يمكن مراجعة: أهل البيت/ توفيق أبو علم وغيره من كتب السيرة.

دور السبط في الحياة الإسلامية

بدأ دور الإمام السبط يتألق في دنيا الإسلام في وقت مبكر، وقبل أن يتلقىٰ عهد الإمامة من أبيه (ع).

فقد برز دوره الإيجابي بجلاء، منذ أن بايعت الجماهير المسلمة الإمام علياً (ع) بالخلافة، وقد بلغ ذروته بعد رحيل الإمام القائد علي (ع) إلىٰ ربه الأعلىٰ.

فلقد مارس الإمام الحسن (ع) ألوان المهام التي تولاها بكفاءة وقدرة وحكمة وبصيرة عزّ نظيرها.

علىٰ أن المتتبع لسيرة الإمام السبط (ع) يدرك أن دوره (ع) إنما كان ذا شوطين متكاملين:

أولاً: في عهد أبيه:

لقد تميز دور الإمام السبط (ع) في عهد أبيه (ع)، وفي أيام خلافته علىٰ وجه التحقيق، بالخضوع التام لأبيه قدوة وإماما، وقد كان يتعامل معه لا كابن بارٍ له فحسب، وإنما كجندي مطيع، بكل ما تحمله كلمة الجندية من مضامين الطاعة والانضباط، الواعية المدركة لمسؤولياتها.

ومن أجل ذلك فقد كان دور الإمام السبط (ع) طوال الأيام الحاسمة التي عايشها والده الإمام علي (ع) يتجلىٰ في تجسيد مفهوم الانقياد لإمامه وملهمه (ع).

وهذه بعض مهامه في هذا الشوط من حياته:

أ ـ عندما تعرض معسكر الإمام علي (ع) إلىٰ العدوان علىٰ أثر تمرد طلحة والزبير في البصرة، وقيام حركة البغاة في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان... احتاج الإمام (ع) إلىٰ إسناد جماهير الكوفة للذود عن الحق،

واخمـاد الفتنـة التي أججهـا روادهـا، وقـد اختـار الإمـام علي (ع) نجله الحسن (ع) لهذه المهمة... لشحـذ همم أهل الكـوفة، وحملهم علىٰ دعم الموقف الإسلامي الأصيل، الذي يمثله علي (ع)، فاستجاب الإمـام الحسن لـطلب أبيه وغـادر إلىٰ الكوفـة بصحبة عمـار بن ياسـر، وهـو يحمـل كتـاب علي (ع) إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري عامله علىٰ الكوفة يبلغه فيه باستغنائه عن خدماته، بسبب تحريضه الناس علىٰ القعود عن نصرة علي (ع)، وعدوله عن الحق المبين.

وما أن بلغ السبط (ع) الكوفـة إلاّ وانهالت عليـه الجموع معلنـة الولاء والنصرة، فألقىٰ فيهم خـطاباً أيقظ من خـلاله الهمم، وبعث النشـاط، وحفز النفوس علىٰ حمل راية الجهاد.

وقد نجح الإمام السبط (ع) في استنفار الجماهير لنصرة الحق، والذود عن الرسالة، ودولتها الكريمة[٢٠].

ب ـ انتهت معركة الجمل في البصرة، وسرعان مـا تحركت قـوىٰ أهل الشـام بقيادة معـاوية حتىٰ أخـذت مواقعهـا في صفين، وأحيط علي (ع) بنبأ تحرك الحزب الأموي، فأطلع جنـده علىٰ الأمر، واستشـارهم فيه، فـأظهروا الـطاعة والانقيـاد لأميـر المؤمنين (ع)، وفي الأثنـاء وقف الإمـام الحسن (ع) خطيباً بين الجماهير، موقظاً للهمم باعثاً العزم والنشاط في النفوس:

(الحمـد لله، لا إله غيـره، وحده لا شـريك لـه، وأثني عليه بمـا هـو أهله... إن ممـا عظم الله عليكم من حقـه، وأسبـغ عليكم من نعمـه مـا لا يحصىٰ ذكره، ولا يؤدىٰ شكره، ولا يبلغه صفة ولا قول، ونحن إنما غضبنا لله، فإنه منَّ علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه، قولاً يصعد إلىٰ الله فيه الرضا، وتنتشر فيه عارفة الصدق، يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربنا، قولاً يزيد ولا يبيد، فإنه لم يجتمع قوم قط، علىٰ امـر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم، فـاحتشدوا في قتـال عدوكم:

---

(٢٠) تراجع حياة الإمام الحسن بن علي (ع) باقر شريف القرشي، جـ١، ط٢، ١٩٦٥ النجف، ص ٣٨٧.

معاوية وجنوده، فإنه قد حضر، ولا تخاذلوا، فإن الخذلان يقطع نياط القلب، وإن الإقدام علىٰ الأسنَّة نجـدة وعصمة، لأنـه لم يمتنع قـوم قط إلّا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الذلة وهداهم إلىٰ معالم الملة. . .)[21].

وهكـذا انصبَّ بيان الإمـام السبط (ع) علىٰ توثيق أواصـر الـوحـدة ورصِّ الصفوف، وجمع الكلمة، لمواجهـة الحزب الـذي يقوده معـاوية وحفنـة من النفعيين.

جـ ـ كان الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قد حذَّر من التحكيم لأنه خدعة، وبعد مهزلة التحكيم، التي انتهت بخذلان أبي موسىٰ الأشعري للإمام علي (ع)، ساد الاضطراب معسكـر الإمام (ع) وتصـدع أيما تصـدع، وجعل كل فريق يتبرأ من الفريق الآخر، ويشتم بعضهم بعضـاً، فقرر الإمـام علي (ع) أن يجلي للقوم حقيقة الموقف، في كون التحكيم فاسداً، لنأيه عن الحق والمنـطق، وأسند مهمـة ذلك لـلإمام السبط أبي محمـد الحسن (ع)، قائلاً:

قم يا بني، فقل في هذين الرجلين: عبـد الله[22] بن قيس، وعمرو ابن العاص، فقام الإمام السبط خطيباً ليجلي حقيقة الموقف:

(أيها الناس قد أكثرتم في هٰذين الرجلين، وانما بعثا ليحكما بالكتاب علىٰ الهدى، فحكما بـالهوىٰ علىٰ الكتـاب، ومن كان هكـذا لم يُسمَّ حكماً ولكنه محكوم عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمـر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة إنه خالف أباه إذ لم يرضه لها، ولا جعله في أهل الشورى، وأُخرىٰ أنه لم يستأمره في نفسه، وثالثها: إنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها علىٰ الناس.

وأما الحكومة، فقد حكم النبي (ص) سعد بن معاذ، فحكم بما يرضي الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله (ص)[23]).

---

(٢١) المصدر السابق، ص ٤٣٢.
(٢٢) عبد الله بن قيس: هو أبو موسىٰ الأشعري.
(٢٣) المصدر السابق، ص ٤٧٩.

وهكذا وضع الإمام السبط (ع) النقاط علىٰ الحروف، وكشف عن زيف التحكيم، وأبان خطأ أبي موسىٰ الأشعري الذي انتخبته الغوغاء من جيش الإمام (ع)، وفرضته علىٰ الموقف دون روية وتدبر، والرجل معروف بسوء طويته.

فقد أوضح السبط (ع) بعض أخطائه، ومنها خلعه للإمام علي (ع) وتسميته عبد الله بن عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين، وهو أمر ينطوي علىٰ أخطاء ثلاثة دون سائر الأخطاء التي خرج بها تحكيمه الهزيل:

أولها: إن عمر بن الخطاب حين عين الستة الشورىٰ عند اقتراب أجله لم يجعل ابنه عبد الله واحداً منهم لعلمه أنه لم يرفع الىٰ مستوىٰ خلافة الناس وقيادتهم العامة.

وثانيها: إن البيعة كما كان سائداً آنذاك، إنما يعقدها المهاجرون والأنصار ومن بعدهم تكون بيعة الأُمة، فكيف جاز للأشعري أن يعقد أمراً من وراء ظهورهم؟.

وثالثها: إن الأشعري حين عينه في تلك الساعة لم يكن ليستطلع رأيه في ذلك، ولم يعلم هل أنه يواجه ما صرح به (الأشعري) بالرفض أم القبول، فالرجل لا علم له بالأمر ابتداء ولم يأخذ رأيه في تلك المسألة التاريخية.

ثم إن السبط (ع) ضرب للناس مثلاً علىٰ التحكيم الواقعي المرضي عند الله، فذكر تحكيم الرسول (ع) لسعد بن معاذ، في قضية بني قريظة بعد انتصار الرسول (ع) حيث نطق بالحق، وبما أراده الله تعالىٰ من قتل للمقاتلين منهم وسبي ذراريهم . . .

د ـ اشتراك السبط (ع) إلىٰ جانب ذلك في جميع حروب والده الإمام علي (ع) في البصرة، والنهروان، وصفين، وكان له دوره الحاسم فيها.

حيث خاض تلك المعارك، وأخمد تلك الفتن متجرداً من كل دافع أو باعث سوىٰ الحرص علىٰ منهج الإسلام.

هذه بعض المواقف العملية التي نهض الإمام السبط (ع) بها في عهد أبيه (ع)، حيث تمثل الحلقة الأُولىٰ من دوره الرسالي في دنيا المسلمين.

ثانياً: أيام حكمه:

بدأ الشوط الثاني من دور الإمام (ع) في دنيا الإسلام بعهد أبيه له بالإمامة، فعلىٰ أثر تعرضه للاعتداء الأثيم الذي ارتكبه ابن ملجم وآخرون، أوصىٰ الإمام الراحل (ع) إلىٰ ولده الحسن بقوله:

(... **يا بني، إنه أمرني رسول الله (ص) أن أوصي إليك وأدفع اليك كتبي وسلاحي، كما أوصىٰ إليَّ ودفع إليَّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلىٰ أخيك الحسين...**) ثم أقبل علىٰ ابنه الحسين فقال: (**وأمرك رسول الله (ص) أن تدفعها إلىٰ ابنك هذا**) ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال له: (**وأمرك رسول الله (ص) أن تدفعها إلىٰ ابنك محمد ابن علي، فأقرئه من رسول الله ومني السلام**)[٢٤].

ثم أشهد علىٰ وصيته تلك الحسين ومحمداً ابنه، وجميع أولاده، ورؤساء شيعته وأقطابهم.

علىٰ أن آخر أيام الإمام علي (ع) قد طفحت بالعديد من الوصايا التوجيهية، من أجل إقامة الحق، والتزام جانبه، وكان أغلبها ينصب علىٰ أولاده، ويخص منهم الإمام الحسن (ع)، بالذات تأكيداً لخلافته له وإمامته بعده...

وبعد رحيل الإمام علي (ع) إلىٰ الرفيق الأعلىٰ هبت الكوفة الىٰ المسجد فزعة مذهولة لهول المصاب الأليم، فوقف السبط (ع) بين تلك الكتل البشرية الهائلة، يوجه أول بيان له بعد رحيل القائد العظيم (ع):

(... **لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل، ولم يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله (ص) فيقيه بنفسه،**

---

(٢٤) يراجع اعلام الورىٰ/ للشيخ الطبرسي، ط ٣، ص ٢٠٦ وما بعدها (النصوص الدالة علىٰ إمامة الحسن (ع) نقلاً عن الكافي، كما يراجع حياة الحسن بن علي للقرشي، جـ ١، ص ٥١٥/ وكشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ١٥٥ والبحار، جـ ٤٢، ص ٢٥٠ وغيرها.

وكان رسول الله (ص) يوجهه برايته فيكنفه جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا يرجع حتىٰ يفتح الله علىٰ يديه، ولقد توفي في هذه الليلة التي عرج فيها عيسىٰ ابن مريم (ع) وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسىٰ (ع)، وما خلَّف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه)[٢٥].

إلى هنا توقف الإمام الحسن (ع) عن الاسترسال بخطبته، حيث أرسل دموعه مدراراً، بعد أن تمثلت له صورة الراحل العظيم (ع) وأعماله ومواقفه الخالدة، وشاركة الحاضرون في البكاء...

ثم استأنف بيانه قائلاً:

(أيها الناس، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني، فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير النذير، وأنا ابن الداعي إلىٰ الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرائيل ينزل الينا، ويصعد من عندنا، ومن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم علىٰ كل مسلم، فقال تبارك وتعالىٰ لنبيه (ص): ﴿قُلْ لا أَسأَلُكُمْ عليهِ أَجراً إلاّ المودَّةَ في القُربىٰ، وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيها حُسْناً...﴾[٢٦]، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت...)[٢٧].

وبهذا طرح الإمام السبط (ع) مواصفات القائد الراحل (ع) كما طرح مؤهلاته هو، ومكانته في دنيا الإسلام والمسلمين، وكونه الأَوْلىٰ بقيادة سفينة المسلمين، الىٰ حيث الحق الإلهي، دون سواه من البشر.

وما أن أنهىٰ الإمام خطابه حتىٰ نهض ابن عباس يحفز الناس علىٰ البيعة، وهكذا كان... فقد بويع الإمام (ع).

وحيث تمت البيعة للحسن السبط (ع) خليفة وأميراً للمؤمنين في

---

(٢٥) أعلام الورى بأعلام الهدى (النصوص الدالة على إمامة الحسن) ص ٢٠٦ وما بعدها وحياة الحسن بن علي للقرشي مع اختلاف يسير، جـ ٢، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢٦) سورة الشورىٰ الآية ٢٣.

(٢٧) حياة الإمام الحسن بن علي (ع)/القرشي جـ ٢، ص ٣٣.

الكوفة، وفي أمصار أُخرىٰ فيما بعد، وتناقلت الأنباء أمر رحيل علي (ع) الىٰ ربه وانتقال الخلافة الىٰ نجله السبط (ع).

شمت معاوية بوفاة علي (ع) واحتفلت عاصمته، وعمها السرور!!

بيد أن معاوية قد هزه أمر بيعة الإمام الحسن (ع)، فدعا مستشاريه، وقادة أتباعه، إلىٰ عقد مؤتمر طارىء في بلاطه للتشاور، حول الأحداث الجديدة، ولرسم سياسته التي يواجه بها الإمام الحسن (ع) فقرر المؤتمرون بث الجواسيس في داخل المجتمع الإسلامي الذي يقوده الإمام الحسن (ع) لبث الإرهاب وإشاعة الدعايات ضد حكم أهل البيت (ع) لصالح الفتنة في الشام، في الوقت الذي يمارس الحزب الأموي عملاً واسعاً لكسب الزعامات والوجوه المؤثرة في سير الأحداث في العراق لصالح الحزب الأموي، وذلك من خلال الرشاوي والوعود المغرية والهدايا والتهديد والوعيد، والىٰ غير ذلك...

وقد بادر معاوية فوراً الىٰ وضع خطط المؤتمر موضع التنفيذ، فشكل شبكة تجسسية، وعين للنهوض بمهامها رجلين من أمكر رجاله أحدهما «حميري» أرسله للكوفة، وآخر «قيني» أرسله للبصرة...[٢٨].

علىٰ أن خطط الإمام السبط (ع) القاضية باحكام أجهزة الدولة وبنائها بناء راسخاً[٢٩]، سرعان ما أتت أكلها بكشف الخطط الأموية.

وعلىٰ أثر كشف نيات معاوية المناوئة لدولة أهل البيت (ع) أرسل الإمام الحسن السبط (ع) كتاباً إليه يتوعده ويهدده بالحرب:

(... أما بعد فإنك دسست إليَّ الرجال، كأنك تحب اللقاء، لا أشك في ذلك، فتوقعه إن شاء الله، وبلغني عنك أنك شمتَّ بما لم يشمت به ذوو الحجىٰ، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأُوَل:

فأنا ومن قد ماتَ منا لكالذي ... يروح فيمسي في المبيت ليغتدي

---

(٢٨) الفصول المهمة في معرفة الأئمة /لابن الصباغ المالكي/ باب ذكر الحسن (ع) ص ١٣٥ وما بعدها.

(٢٩) صلح الإمام الحسن/ محمد جواد فضل الله ط ١٩٧٣ ص ٦٠.

فقل للذي يبقىٰ خلاف الذي مضىٰ   تجهـز لأُخرى مثلهـا فكـأن قـدِ)[٣٠]

وقد راوغ معاوية، برسالة جوابية، وادعىٰ فيها عدم شماتته بموت الإمام علي (ع)، مما لسنا بصدد ذكره هنا. وتبادلت الرسائل بين الإمام السبط (ع) ومعاوية، وكان أهمها كتاب السبط (ع) لمعاوية بوجوب التخلي عن انشقاقه والانضواء تحت لوائه الشرعي، ثم تصاعد الموقف بعدها حتىٰ كتب معاوية الىٰ السبط (ع) كتاباً يطلب منه التنازل عن الحكم!! والانضواء تحت حكمه علىٰ أن تكون الخلافة له من بعده...

فتأمل الخداع والمساومات!!

غير أن الإمام (ع) أجابه بكتاب وجيز يحمل روح الإصرار والحزم: (**أما بعد، فقد وصل كتابك تذكر فيه ما ذكرت، وتركت جوابك... وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحق تعلم أني من أهله، وعليَّ إثم ان أقول فأكذب والسلام**)[٣١].

وانقطعت الرسائل بعد ذلك.

وتفاقم الموقف.

وأعلنت حالة الحرب بين الطرفين...

وكان معاوية هو البادىء باعلان الحرب من جانبه، فحرك جيوشه نحو العراق.

ورددت آفاق الدولة الإسلامية، أنباء التحركات الأموية باتجاه العراق، مما جعل الإمام السبط (ع) يبادر إلىٰ إعلان الدفاع لمواجهة العدو الزاحف.

فقد أذاع الإمام بياناً دعا فيه الأُمة إلىٰ حشد طاقاتها والتجهز للحرب:

(**أما بعد فإن الله كتب الجهاد علىٰ خلقه وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد، اصبروا إنَّ الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر علىٰ ما تكرهون، فاخرجوا رحمكم الله إلىٰ معسكركم بالنخيلة حتىٰ**

---

(٣٠) أهل البيت/ توفيق أبو علم.

(٣١) شرح النهج لابن أبي الحديد جـ ١٦ ص ٣٧.

ننظر وتنظرون ونرىٰ وترون. . .[32].

ومما يحز في النفس أن الجموع التي استمعت إلىٰ بيان الإمام السبط (ع) كانت قد غمرتها الاشاعات والدعايات الأموية، فبدلاً من أن تهب للدفاع عن الحق الصراح، أُصيبت بالذهول ولفها الارتباك، فواجهت إمامها الحق ببرود تام ولم تحظ دعوته للتجهز للحرب والاستعداد له وتحمل مسؤوليات الجهاد بالقبول.

فقد برزت معالم إيثار العافية والقناعة بالأمر الواقع جلية علىٰ سلوك بعض القوم. . . وأغرت أموال الحكم الأموي قوماً آخرين. . .

ولقد أُصيب الإمام (ع) بخيبة أمل، حين تكشف له واقع الجماهير التي يقودها والتي كان يرىٰ فيها القاعدة التي يستند إليها في درء الأخطار المحدقة بالرسالة الإسلامية، من جراء نشاط الحزب الأموي المعادي.

ووسط تلك الكتل البشرية الهامدة، التي فقدت إحساسها وحيويتها بمجرد هزة بسيطة:

نتيجة لضعف الرصيد الإيماني في تركيبها الروحي.

ونتيجة لعدم إدراكها لمهماتها التاريخية في حفظ الرسالة الإلهية من تيار الفتنة المتصاعد.

ونتيجة لعدم إدراكها لدور خط الإمامة الذي يقوده الإمام السبط (ع) في الحياة الإسلامية، ومدىٰ ضرورة إطاعته والذود عنه كممثل حقيقي للإسلام الذي تنزل به الوحي علىٰ رسوله الكريم (ص). . .

أقول وسط تلك الكتل المذهولة المهزومة. . . جلجل نداء النفر المخلصين للإسلام وقادة ركبه الحقيقيين من أهل البيت (ع) فعبروا عن إخلاصهم الذي لا يعرف التراجع وصبوا لومهم علىٰ تلك الجموع المتخاذلة، وتقحموا الموقف بجرأة وثبات.

وكان في طليعة أولئك المتقين المخلصين: عدي بن حاتم، وقيس ابن

---

(٣٢) شرح النهج لابن أبي الحديد جـ ١٦ ص ٣٨ ط ١٩٦٢.

سعد بن عبادة، ومعقل بن قيس، وزياد بن صعصعة التميمي[٣٣].

فقد أنّبوا الناس ولاموهم وحرضوهم علىٰ النهوض بمسؤولياتهم الرسالية، والتفتوا في ذات الوقت لامامهم السبط (ع) وشدوا علىٰ يديه، وعاهدوه علىٰ المضي قدماً في نصر الحق ومواجهة الطغيان والفتنة.

فأثنىٰ الإمام (ع) علىٰ موقفهم الصادق، وخاطبهم بقوله:

(صدقتم رحمكم الله، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء، والقبول والمودة الصحيحة، فجزاكم الله خيرا)[٣٤].

وقد خفَّ المخلصون علىٰ الفور وعسكروا في النخيلة[٣٥]، كما أمرهم إمامهم (ع)، وقد تبعهم الإمام (ع) بعد ذلك بجيش روىٰ بعضهم أن تعداده كان أربعة آلاف مقاتل، علىٰ أن يلتحق به بقية الناس.

وكان الإمام (ع) يأمل أن يعود الناس إلىٰ نصرة الحق فيُقبلون علىٰ الدفاع عن الإسلام.

بيد أن استمرار تخاذلهم حمل الإمام السبط (ع) علىٰ العودة مجدداً لعاصمته الكوفة لحث الناس علىٰ اللحاق به.

وهكذا سار بجيش كبير ولكنه ضعيف في معنوياته يستبد به الخور والتشتت، حتىٰ بلغ النخيلة، فنظم الجيش، ورسم الخطط لقادة الفرق، وارتحل بعد ذلك إلىٰ دير عبد الرحمن، وهناك قرر إرسال طليعة عسكرية كمقدمة لجيشه، واختار لقيادتها ابن عمه عبيد الله ابن العباس، وقد جاء في بيان التكليف ما يلي:

(... يا ابن العم إني باعث معك اثني عشر ألفا فيهم فرسان العرب، وقراء المصر، الرجل منهم يزيد الكتيبة، فسر بهم وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك، وادنهم من مجلسك، فانهم بقية ثقات

---

(٣٣) شرح النهج جـ ١٦ ص ٣٩.

(٣٤) نفس المصدر.

(٣٥) النخيلة/ موضع قريب من الكوفة باتجاه الشام.

أمير المؤمنين؛ وسر بهم علىٰ شط الفرات، ثم امض حتى تستقبل بهم جيش معاوية، فإن أنت لقيته فاحتبسه حتىٰ آتيك فإني علىٰ أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هٰذين - قيس بن سعد وسعيد بن قيس - وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتىٰ يقاتلك، فإن فعل فقاتله، وإن أُصبت فقيس بن سعد علىٰ الناس، فإن أُصيب فسعيد بن قيس علىٰ الناس)[36].

واتخذت الطليعة مواقعها في (مَسكِن) علىٰ نهر الدجيل في العراق، في وقت تحرك الإمام السبط (ع) في جيشه فعسكر في (مظلم ساباط) قرب المدائن.

ولم يمضِ بعض الوقت حتىٰ طفت علىٰ السطح كل العلل التي تفشت في معسكر الإمام (ع) علىٰ شكل تمزق وخور وفتن واضطراب وتآمر علىٰ القيادة ذاتها... مما أرغم الإمام (ع) علىٰ توقيع وثيقة مع معاوية.

إن هذه الوثيقة خافية علىٰ كثير من الباحثين، ممن تناولوا حياة الإمام السبط الحسن (ع)، خافية في ظروفها وملابساتها... خافية في أسبابها ودواعيها... وخافية في نتائجها...

ولهذا سنحاول فيما يلي نتناول هذه الوثيقة بالنقد والتحليل لعلنا نصل إلىٰ حقائق الأُمور... فتتضح عبقرية الإمام الحسن (ع) أكثر فأكثر.

---

(٣٦) يراجع هامش حياة الحسن/ للقرشي جـ٢ ص ٧٢ ص ١٩٦٥ نقلاً عن الخرايج والجرايح ص ٢٢٨ وشرح النهج جـ١٦ ص ٤٠.

مبررات الوثيقة وبنودها

منذ أن واكبنا الإمام السبط (ع) في سيرته العملية ـ سواء كانت في عصر الإمام أبيه (ع) أو في عهد حكمه ـ ونحن نشهد شخصيته من العزة في القمة، ومن العزيمة والمضاء في الذروة، ومن سرعة التحرك لحسم المواقف ما يقل نظيرها.

لمسنا ذلك وعايشناه بوعينا، في ضوء وثائق تاريخية لا يرقىٰ إليها الشك.

لمسنا ذلك في إثارته لعزائم أهل الكوفة لنصرة الإسلام في معركة الجمل.

ورأيناه وهو يشحذ الهمم لصد معاوية في صفين.

وشهدناه وهو يخاطب معسكر أبيه بعد التحكيم.

وجاء عهده فوجدناه كما كان في عهد أبيه يمتلىء عزماً ومضاء وحنكة وتدبيراً. فقد بادر علىٰ الفور في احكام دولته، وترسيخ دعائمها، وأصر علىٰ مقارعة الباطل الأموي، وإخماد فتنة الشام من أجل ترسيخ وتدعيم دولة الإسلام.

وقد واجه كل محاولات معاوية، التي سبقت الحرب بنفس متعالية سامقة، لا تعرف إلا الحق، ولا تطأطىء للباطل رأساً طرفة عين...

بيد أن الظروف الموضوعية، التي ألمت بالإمام السبط (ع)، قد أحرجت موقفه بشكل يندر نظيره في التاريخ.

فالجيش الذي يقوده الحسن (ع) سادته البلبلة ودب فيه المرجفون والأذناب حتىٰ كاد أن يسلم الإمام (ع) لعدوّه!! والأمة التي يستند اليها

ويخطط لمستقبلها ويقود مسيرتها، قد غيرت مسارها لصالح خصمه، من فرط الاشاعات والاغراءات.

وهكذا تغيرت موازين القوىٰ في دولته ذاتها باتجاه خدمة المصالح الأموية.

وهذه ـ فيما يلي ـ أهم الأحداث الأليمة التي ألمت بالإمام السبط (ع) عبر مواجهته للزحف الأموي الغادر:

١ ـ خيانة قائده علىٰ خط النار ـ عبيد الله بن العباس ـ والتحاقه بمعاوية، ومعه ثلثا الطليعة التي كلفت بمواجهة العدو الزاحف مما أثار موجةً من البلبلة والاضطراب في معسكر الإمام (ع) وهو في أحرج ساعاته.

وخيانة عبيد الله بن العباس إنما جاءت لقاء رشوة تلقاها من معاوية!!!

٢ ـ ان القوات العسكرية التي يقودها الإمام السبط (ع) ذاته، كانت تتوزعها الشعارات والأهواء والمصالح والأفكار(٣٧).

ففيها جماعات زحفت من أجل الغنائم فحسب!!

وفيها الحاقدون ـ مجرد حقد علىٰ البيت الأموي ـ ولكن نفوسهم تنطوي علىٰ بغض إمامة الحسن (ع) وأهل بيته كذلك!!

وفي الجيش عدد كبير من المتعاطفين مع الحزب الأموي في الشام!! طمعاً بالوعود الملوَّح بها.

هذا بالإضافة الىٰ سريان روح السأم من القتال في معسكر الإمام (ع)، سيما وأن قطعاته المقاتلة سبق وأن خاضت حروب الإمام الراحل (ع) الثلاث: الجمل والنهروان وصفين، وهي لما تندمل جراحاتها بعد.

والىٰ جانب هؤلاء وأولئك توجد ثلة من المخلصين لأهل البيت (ع)، ولكن مستواها الكمي لا يتناسب وحجم الغوغاء المتزايد، والتدابير الكيدية المناوئة.

---

(٣٧) الارشاد/ للمفيد ص ٢٠٨ والفصول المهمة/لابن الصباغ المالكي ص ١٤٦.

٣ ـ إغداق معاوية بالأموال الوفيرة علىٰ زعماء القبائل وأصحاب التأثير في المجتمع العراقي بسخاء منقطع النظير، فنقض عزائمهم وطابت نفوسهم وتخلوا عن عزمهم علىٰ مسايرة الإمام السبط (ع) في مواجهة معاوية[٣٨].

وقد كان المال سلاحاً ذا حدين، فإلىٰ جانب تأثيره الفعال في قلب موازين القوىٰ لصالح معاوية، فإنه بلغ في نفوس العراقيين مبلغاً يثير الدهشة، حين توالت كتبهم علىٰ معاوية تعلن له الولاء والطاعة، وتعاهده علىٰ تسليم الإمام الحسن السبط (ع) له أسيراً، عندما تحين ساعة الصفر وتضطرم نار الحرب[٣٩]!!

ولذا أشار الإمام (ع) ذاته:

(والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتىٰ يدفعوني إليه سلماً، والله لئن أسالمه وأنا عزيز، أحب إليَّ من أن يقتلني وأنا أسير أو يمنَّ عليَّ فتكون سبةً علىٰ بني هاشم)[٤٠].

٤ ـ اهتمام السبط بحقن دماء الأُمة وحفظ دماء المخلصين فيها علىٰ وجه الخصوص.

وهذه بعض تصريحات الإمام (ع) التي تكشف عن تلك النية الطيبة:

(إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين داع).

(... ما أردت بمصالحتي معاوية إلا أن أدفع القتل عنكم).

٥ ـ قوة العدو، وتمتع جيشه بروح انضباطية عالية، بالنظر لتوفر عامل الطاعة، واختفاء التخريب بين صفوفه، خلافاً للعراق الذي استبد به الانشقاق من خلال الشعارات، والأفكار والأهواء، والمصالح المتضاربة، التي تمزق جيش الإمام (ع) وتضعف من مقاومته.

---

(٣٨) صلح الحسن/ فضل الله ص ٧٦.

(٣٩) ارشاد /للمفيد/ في بيان حالات الحسن (ع) ص ٢٠٩ وما بعدها.

(٤٠) أهل البيت /توفيق أبو علم/ الإمام الحسن (ع) ص ٣٣٥.

٦ ـ تمتع الحسن (ع) بروح إيمانية من الطراز الأول ـ كما رأينا في أبعاد شخصيته ـ فهو المطهر من الرجس، بصريح القرآن الكريم، وهو أحد أركان العترة المباركة، بصريح قول رسول الله (ص) فيه، فكان ينأىٰ عن المكر والغدر.

فكانت هذه الروح المتعلقة بالله تعالىٰ، والمستلهمة منه، ومن شرعه الكريم، أنىٰ تسير، والىٰ أين تسير، تُحتِّم علىٰ السبط (ع)، أن لا يتورط في حرب تسيل بها الدماء، وتزهق فيها الأرواح، فضلاً عن أنَّ شروط النجاح فيها ـ بالمفهوم الإسلامي ـ غير متوافرة بحال، كما رأينا في الوضع العام لأتباعه وجنده، وهذا مخالف لواقع معاوية الذي لا يهمه أن تسيل الدماء، وتزهق النفوس، ما دامت الغاية لديه أن يظل حاكماً علىٰ المسلمين، تجبىٰ له الأموال، ويتلذذ بالنعيم الدنيوي والسلطان الزائل... وقصر الخضراء...

٧ ـ حين رأى الإمام استقطاب معاوية للناس، أراد أن يكشف للناس حقيقة معاوية عن كثب، الأمر الذي يتم، إذا انفرد معاوية بالحكم، واستأثر بإدارة شؤون الأمة، لترىٰ الأمة طبيعة هذا الحكم، وتكتشف البون الشاسع بينه وبين صورة التطبيق المثالية، أيام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وليتحمل الذين أطاعوا معاوية، ورفعوه على الأعناق، مسؤولية هذه المأساة التاريخية التي خسرت فيها الأمة قيادة أهل البيت (ع) وإمامتهم الرائدة... لا في فترة وجودهم المبارك بل استمرت الآثار السلبية تتوالىٰ علىٰ الأمة جيلاً بعد جيل حتىٰ أصبح منهج الإسلام المقدر له أن يسود وأن يحكم... تراثاً تاريخياً في بطون الكتب!!

٨ ـ محاولات الاغتيال الأثيمة التي تعرض لها الإمام (ع): فلقد تعرض الإمام لمحاولات أثيمة لاغتياله عدَّ منها المؤرخون ثلاثاً[41].

احداها: حين رماه شخص بسهم وهو يصلي فلم يفلح في إيذائه.

ثانيها: حين طعنه رجل في خنجر أثناء الصلاة.

---

(٤١) حياة الحسن بن علي (ع)/القرشي جـ٢ ص١٠٣ ـ ١٠٥ ط٣.

وثالثها: وفي المحاولة الثالثة كانت نجاته باعجوبه، فقد هجمت عليه عصابة من الغوغاء، وانتهبوا فسطاطه، وأخذوا مصلاه من تحته، وفي تلك الأثناء هجم عليه الجراح بن سنان الأسدي، وطعنه، بمغوله[42] ـ سيف دقيق ـ في فخذه وجرحه جرحاً بالغاً، بلغ عظم الفخذ[43]، فاستسلم الإمام (ع) للفراش بعد تلك المحاولة، ونزل عند عامله علىٰ المدائن سعد بن مسعود الثقفي للعلاج...

٩ ـ سلاح الدعاية الواسعة الذي استخدمه معاوية لبلبلة وتشويش ذهنية المجتمع العراقي، فكان جواسيسه وأنصاره يثيرون الدعايات المغرضة، بين الحين والآخر، وكانت الغوغاء تنفعل بها، وتتصرف وفقاً للأغراض التي أُثيرت من أجلها، فعلىٰ سبيل المثال نذكر منها:

أ ـ إشاعتهم أن الحسن يكاتب معاوية علىٰ الصلح.

ب ـ إشاعتهم أن قيس بن سعد قد استسلم لمعاوية.

جـ ـ وكانت أقوىٰ اشاعاتهم يوم جاء الوفد الأموي يطلب الصلح من الإمام (ع)، وعندما رفض الإمام (ع) مطالب معاوية، خرج الوفد المفاوض، وأشاع في الناس أن الحسن قد أجاب إلىٰ الصلح، فحقن الله به الدماء!! وكان لتلك الإشاعة دور فعال في إثارة الغوغاء علىٰ السبط (ع) حيث هجموا علىٰ فسطاطه، واعتدوا عليه!! منددين بالصلح المزعوم، مع تقاعسهم عن الدفاع والقتال!!

١٠ ـ رواج دعوة معاوية للصلح بين صفوف جيش الإمام، قبل قبولها من قبل الإمام الحسن، حيث وجدت تلك الدعوة هوىٰ في النفوس المهزومة في معسكر الإمام (ع)، فقد رحب بها أنصار معاوية ابتداءً، وروجوا لها، ثم سرت في نفوس أكثرية الجيش الذي يقوده الإمام (ع)، مما جعل الإمام يقبلها كأمر واقع.

---

(٤٢) يذكر ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنه: (معول) وليس (مغول) راجع ج ١٦ ص ٤١.

(٤٣) الارشاد/ للشيخ المفيد «في بيان حالات الحسن (ع)»، ص ٢٠٩.

١١ ـ لقد وجد الأمة، سواء من حوله أو حول معاوية، في غفلة عن واقعها المنحرف، وفي سكوت مطبق عن احقاق الحق وازهاق الباطل، فأراد الإمام (ع) أن يكشف زيف دعاة الفتنة، ومدىٰ تنكبهم عن الصراط المستقيم، وجحودهم للعهود والمواثيق، وتلهفهم للسلطة والسيطرة، مهما كانت الوسيلة، واستهانتهم بمقدرات الأمة، ومقررات الإسلام. . . ليكون ذلك كله تعرية لما آل اليه الحكم، وتوطئة لثورة الإمام أبي الشهداء الحسين بن علي (ع).

هذه قارئنا العزيز: أهم المبررات والعوامل التي فرضت علىٰ الإمام الحق (ع) أن يستجيب للوثيقة التي أملتها عليه الظروف. أرأيت لو أن حاكماً أو قائداً في التاريخ واجه بعض ما واجهه الإمام (ع) أيسلك غير هذا السبيل؟

فإن المواجهة، بعد الذي رأيت، تعد ضرباً من اللامعقول، لا يقدم عليها إنسان عادي، فكيف يمارسها رجل عظيم كالحسن بن علي (ع)؟. . .

ولربما ذهب البعض إلىٰ القول أن الأجدر بالحسن (ع) أن يضحي من أجل حقه، ولكن الحسن (ع) لو قاتل لقُتل وجميع أهلْ بيته، ولما رست السياسة المنحرفة دورها في اطفاء نور الإسلام إلىٰ الأبد، ولما وجد بعد ذلك من يفرق بين الحق والباطل، ولما أدركت الأمة ـ كما أدركت بعد حين ـ أي تسلط كان عليها، وأية سياسة عبودية انقادت اليها. . .

إن حرص الإمام (ع) علىٰ الهدىٰ والحق، جعله يختار التوقيع علىٰ الوثيقة ليمارس بعد ذلك دوره في بيان الشريعة وأحكامها، وأبعادها لأمة محمد (ص)، فيما تبقىٰ من حياته كما سترىٰ في المرحلة الثانية.

ومن المناسب هنا أن ندون أهم بنود الوثيقة التي أبرمها الإمام الحسن (ع) مع معاوية[٤٤]:

أولاً: أن يتولىٰ إدارة شؤون الأمة معاوية بن أبي سفيان، شريطة أن يلتزم بكتاب الله وسنة رسوله (ع).

ثانياً: أن يتولىٰ الإمام الحسن (ع) مهام القيادة في الأمة بعد وفاة

(٤٤) للتفاصيل يراجع: الفصول المهمة/ لابن الصباغ، وأهل البيت/ أبو علم.

معاوية، فان كان أجل الحسن قد حلَّ حينئذ، فالحسين (ع) يتولى الأمر.

ثالثاً: أن يمنح الناس حق التمتع بالحرية والاستقرار سواء أكانوا عرباً أم غير عرب، من أهل الشام، أم من أهل العراق، وأن لا يؤاخذوا علىٰ مواقفهم السابقة من الحكم الأموي.

هذه أهم البنود التي اتفق الطرفان بشأنها، وهي كما يتضح للقارىء اللبيب، ذات فاعلية عظمىٰ لصالح الأمة الإسلامية، ورسالتها الكريمة.

والوثيقة هذه تعتبر أقصىٰ ما كان بإمكان الإمام السبط (ع) أن يحققه للأمة، ولرسالتها، ولو كان هناك من بديل أفضل، يستطيع أن يحققه، لما توانىٰ عن إتيانه بحال.

ولعل في ردوده التالية علىٰ المعترضين علىٰ الوثيقة خير توضيح لأهمية مواقفه هذه في دنيا المسلمين: قال (ع) لبشير الهمداني عندما لامه علىٰ الصلح:

(لست مذلاً للمؤمنين، ولكني معزهم، ما أردت بمصالحتي إلا أن أدفع عنكم القتل، عندما رأيت تباطؤ أصحابي ونكولهم عن القتال)، حيث كان المعترض أول المرتعدين من القتال.

وقال (ع)، لمالك بن ضمرة، عندما كلمه بشأن الوثيقة مع معاوية:

(إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين داع).

وقال (ع)، مخاطباً أبا سعيد:

(يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية، علة مصالحة رسول الله لبني ضمرة، وبني أشجع، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية)[٤٥].

ولأهمية الوثيقة وآثارها الإيجابية لصالح الإسلام والمسلمين أشار الإمام محمد الباقر (ع) بقوله: **(والله للذي صنعه الحسن بن علي (ع) كان خيراً لهذه**

---

(٤٥) تصريحات الإمام الحسن (ع) اعتمدنا علىٰ ذكرها علىٰ حياة الحسن بن علي جـ ٢ / للقرشي، بحث (المندوون بالصلح) ص ٢٨١.

الأمة مما طلعت عليه الشمس. . .)[46].

ذلك لأن القائد الحكيم، مع أنه يعتد بالواقع الموضوعي، عندما يتخذ موقفاً ما ازاء الأحداث، إلا أنـه يرىٰ ببصيـرته وفكـره ما لا يـراه الكثير ممن يعاصرونه. . . الا بعد حين، وهذا ما وقع للإمام (ع).

(٤٦) روضة الكافي جـ ٨ ص ٣٣٠.

فترة ما بعد الوثيقة

بعد توقيع الوثيقة، بقي الإمام السبط (ع) في الكوفة، أياماً قليلة، والألم يعتصر قلبه للذي كان... ثم تهيأ للسفر الىٰ مدينة جده الأعظم (ص).

وعندما تحرك موكبه الشريف، خرجت الكوفة بجميع من فيها، وهم يندبون حظهم العاثر، والأسىٰ يعلو نفوسهم، وهم بين باك وآسف علىٰ ما كان!! كيف لا، وهم يرون الذلة بعد رحيل الحسن (ع) وآل البيت (ع) قد خيمت علىٰ مدينتهم، والاستكانة قد علت نفوسهم، وتحكمت طغمة الفتنة فيهم.

فها هو معاوية ينقل الخلافة والقيادة العامة من الكوفة إلىٰ دمشق، وها هي القطعات العسكرية الأموية تدخل الكوفة، وتشدد قبضتها عليها، وتثير الهلع في النفوس، وتفرض ارهاباً منقطع النظير...

من يُداهنُ يُرشىٰ!!

ومن يعارض يقتل!!

سارت قافلة الإمام (ع) تطوي البيداء والألم يحز في نفسه، وهو يفارق عاصمته، وربوع ذكرياته المجيدة، وأصفياءه وشيعته الذين نصروه بكل ما أُوتوا من تصميم وارادة، حتىٰ أسقط ما في أيديهم، وتمت محاصرتهم ومطاردتهم بكل وسيلة وبكل اسلوب رخيص... وبدأت الطغمة الأموية البطش بهم.

حتىٰ إذا اقتربت قافلته من المدينة المنورة؛ هب أهلها لاستقبال الإمام وأهل بيته (ع)، والبشر يعلو وجوههم، كيف لا وقد حلت البركة بينهم وأقبل

الخير كل الخير إلىٰ ديارهم. . .

وما ان استقرت الدار بأبي محمد (ع) وأهل بيته، حتىٰ مارس مسؤولياته الرسالية، بنمط جديد.

فإذا كان بالأمس حاكماً، يدير شؤون الأُمة ويخطط لمستقبلها من خلال منصب الإمامة السياسية، ويقود السفينة إلىٰ شاطىء السعادة والخير والهدىٰ، فإنه بعد الوثيقة قد اختط بها درباً جديداً. . . حيث أنشأ مدرسة وقيادة فكرية كبرىٰ، لتكون محطة إشعاع للهدىٰ والفكر الإسلامي، تهتدي الأُمة من خلالها إلىٰ صراط الله المستقيم، ورسالته الخاتمة.

ولقد كان لتلك المدرسة، دور فعال في بلورة الذهنية العامة، وتسديد إتجاهاتها وانقاذها من موجة الانحراف التي تساندها الجهات الرسمية، التي يقودها معاوية بن أبي سفيان. . .

وقد آتت مدرسة الإمام السبط (ع) أكلها ضعفين، حين تخرج في أروقتها، جهابذة العلماء والرواة، أمثال الحسن المثنىٰ والمسيب ابن نجبة، وسويد بن غفلة، والشعبي، والأصبغ بن نباتة، وأبو يحيىٰ النخعي، وإسحاق بن يسار وغيرهم. . .

وإذا كان الإمام (ع) قد حقق للرسالة الإسلامية نصراً رائعاً بهذا الصنيع، فإنه أسدىٰ للامة وللرسالة في ذات الوقت فضلاً جليلاً آخر. . . فقد كان يدعو الناس للاستقامة في الخلق والدين، وسلوك سبيل الرسول (ع) وأهل بيته (ع)، والعمل بكل ما من شأنه إشاعة المعروف في المجتمع وإلغاء أي وجود للمنكر. . .

هذا إلىٰ جانب اهتماماته الاجتماعية من اهتمام بالفقراء، والمساكين وذوي الحاجة، وتفقد ذوي المسكنة، مما أشرنا إلىٰ بعضه عند الحديث عن بعض جوانب سيرته (ع).

وإذا تجاوزنا دوره الفكري والثقافي، فمن الطبيعي أن نلتقي بالإمام (ع) وهو يخطط لمستقبل الرسالة علىٰ المستوىٰ الاجتماعي، والسياسي.

فالحسن (ع) من خلال اضطلاعه بالعمل الثقافي والاجتماعي نهج نهجاً فذاً لصالح الرسالة الإلهية والأمة، حيث أوجد تياراً إسلامياً واعياً لدوره الرسالي في الحياة.

فقد صار واضحاً للأمة أن الإمامة الشرعية، هي حق لأهل البيت (ع)، والحسن (ع) طليعتهم؛ وأن معاوية واضرابه، لا يصلحون للحكم قط، وأن طاعتهم لا تتفق والخط الإسلامي الأصيل.

وقد صار بمقدور الإمام الحسن (ع)، ورجال الفكر الإسلامي الذين تخرجوا من مدرسته، أن يوجدوا أمة واعية سياسياً ومعارضةً للحكم الأموي، فكراً، واسلوباً، ومساراً، وأن تبقىٰ هذه الأمة تنافح وتكافح عن الحق الإسلامي عبر الأجيال.

علىٰ أن أجهزة الحكم الأموي لم يكن خافياً عليها ذلك النشاط الإسلامي الفتي؛ فكانت تحسب حسابه، وتدرك نتائجه.

ومن أجل ذلك عقد أقطاب السياسة المنحرفة اجتماعاً لهم للتداول في ذلك الشأن وهم بالاضافة إلى معاوية، عمرو بن العاص! والوليد ابن عقبة بن أبي معيط!!، وعتبة بن أبي سفيان!! والمغيرة بن شعبة!!

ومما جاء في حديثهم لمعاوية: (ان الحسن قد أحيا أباه وذكره: قالَ فصدقَ، وأمر فأُطيع، وخفقت له النعال، وان ذلك لرافعه إلىٰ ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسيء الينا...)[٤٧].

وهذا الحديث علىٰ وجازته يعتبر أخطر تقرير يقدمه أقطاب البيت الأموي، وقادته إلىٰ زعيمهم معاوية، حول نشاط الإمام السبط (ع)... فقولهم: (خفقت النعال خلفه)، هو تعبير دقيق يدل علىٰ أن الحسن (ع) قد أعدَّ أمةً من الناس يسيرون خلفه ويجتمعون به، ويخطط لهم ويثقفهم، ويوضح لهم معالم الطريق وطبيعة المواقف... وحقيقة الإسلام وقواعد حكمه العادل...

---

(٤٧) أهل البيت/ توفيق أبو علم ص٣٤٣ عن شرح النهج لابن أبي الحديد.

ولقد نمت حركة الإمام السبط (ع)، حتىٰ بلغ به الحال أن يغادر إلىٰ دمشق، عاصمة الحكم الأموي، ويناقش معاوية ويبين له شطحات الحكم وألاعيبه، واسفاف القائمين عليه، ونأيهم عن الخط الإسلامي الأصيل، بشكل أدت فيه[٤٨] مناظراته هناك إلىٰ كسب المؤيدين والأنصار الىٰ أهل البيت (ع).

بيد أن التحرك الجديد للإمام (ع) والمهمة التاريخية الجديدة التي نهض بأعبائها للحفاظ على مسار الخط الإسلامي السليم في دنيا الناس، جعل الحكم الأموي يفقد صوابه وينتهج سياسة معادية للقضاء على الإمام (ع) وقيادته الإسلامية.

وكان أهم ركائز تلك السياسة المعادية للإمام وأتباعه:

أولا ـ مطاردة القيادات المؤمنة في كل قطر إسلامي، وقتل الكثير والكثير منهم كحجر بن عدي وأصحابه، ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأمثالهم... والتنكيل بهم حيثما كانوا.

ثانياً ـ التضييق على عموم شيعة علي (ع)، بالكبت والترويع والتشريد، وقطع الأرزاق، والارهاب، وهدم دور ومساكن البعض، وسوى ذلك...

ثالثاً ـ الاستعانة ببعض الوعاظ، والمحترفين الموالين للسلطة... لتشويه سيرة أهل البيت والإمام علي (ع) على وجه الخصوص وسبّه على المنابر إلى جانب تلفيق الأحاديث لصالح معاوية وحزبه... وطرح معتقدات باطلة ونسبتها إلى شيعة أهل بيت النبوة (ع).

رابعاً ـ بذل الأموال بلا حساب، للزعماء والقيادات القبلية، التي يخشى من تحركها، فعلى سبيل المثال نذكر: مالك بن هبيرة السكوني، الذي هاله ما نزل بحجر بن عدي وأصحابه فراح يخطط لاعلان التمرد المسلح، على

---

(٤٨) يراجع كتاب حياة الحسن جـ ٢/ للشيخ القرشي للاطلاع على تلك المناظرات ص ٣٠٥ وما بعدها.

الحكم الأموي فما كان من معاوية إلا ونقض همته، بمائة ألف درهم!! بعثها إليه، فطابت نفسه وتخلى عما عزم عليه(٤٩) وهكـذا سواه. . . كمـا قال أحـد الشعراء:

فـلســان ينــوشـكـم بــالــدنــانيــر يُـقــطع
وضـميــر يـهــزُّكـم بــالـكــراسـي يُــزعــزع

خامساً ـ وكان آخر بنود تلك السياسة الجائرة اغتيال الإمام الحسن (ع) بـالسم!! حيث دسه معـاويـة إليــه من خـلال زوجـة الإمـام «جعــدة بنت الأشعث»!!.

وكـانت شهادتـه عليه السـلام في السابـع من صفـر ـ أو في الخـامس والعشرين من ربيع الأول ـ سنة خمسين للهجرة كما جاء في بعض الروايات.

وكان قد أوصىٰ (ع) أن يدفن إلىٰ جوار جده رسول الله (ع). . . إلا أن بني أمية ووالي المدينة منعوا من ذلك(٥٠)!!

فاضطر أهل البيت عليهم السلام، أن يدفنوه في البقيع، إلىٰ جنب أمه فاطمة الزهراء عليها السلام.

فسلام عليك يا أبا محمد الحسن بن علي.

مظلوماً. . .

حياً. . .

وميتاً. . .

(والحَمد لله ربّ العالمين)

---

(٤٩) يـراجـع ثـورة الحسين (ع) /محمـد مهـدي شمس الـدين ص ١٢٧ ط ٤، ١٩٧٧ بيروت.

(٥٠) قال ابن أبي الحديد: (قال أبو الفرج: دفن الحسن عليه السّلام في قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم في البقيع وقـد كان أوصىٰ أن يـدفن مع النبي صلىٰ الله عليه وآله، فمنع مروان بن الحكم من ذلك، وركبت بنو أمية في السلاح، وجعل مروان يقول: * يا رب هيجا هي خير من دعة *).
(راجع شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ٥٠ ط ١٩٦٢/ مصر).

الفهـرس

سلسلة
حياة النبي محمد وأهل بيته
٥

الإمام الحسين بن علي عليه السلام الشهيد

إعداد :
نخبة من العلماء

دار المحجة البيضاء

دار الرسول الأكرم «ص»

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٤٧٩

مقدمة خاصة

إن الاهتمام برسول الله (ص) وأهل البيت (ع)، تربية وتأهيلاً وتفضيلاً، لم يكن اهتماماً عاطفياً بقدر ما هو امتثال لأمر إلهي قاطع، صدر عن رب العالمين، حينما أوحى برسالته الخالدة إلى محمد بن عبد الله ليخرج البشرية من ظلمات الالحاد والشرك الى نور الايمان والتوحيد، آمراً رسوله بقوله عز من قائل:

﴿لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودَّة في القربى﴾

فكانت مودتهم ان لاقوا التقتيل والتعذيب والتشريد، وتجرعوا المحن والغصص، صابرين محتسبين، هم وشيعتهم الأبرار، بشكل يفتت الاكباد، ويذيب الجماد.

ولما أخذت الدار على عاتقها نشر نبذة صغيرة عن النبي (ص) وأهل البيت (ع) في محاولة منها للتعريف بهؤلاء الأفذاذ، ليتسنى لكل مسلم التعرف على قادته بشكل صادق وواعي ويكون من السهل التعرف على أئمتنا حتى لا نكون ممن ماتوا ولم يتعرفوا على أئمة زمانهم فموت ميتة الجاهلية.

فمع الحلقة الخامسة من تلك الحلقات:

مع الامام الحسين بن عَلي (ع)

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

«حسين مني وأنا من حسين
أحبَّ الله من أحبّ حسينا،
حسين سبط من الأسباط».

رسول الله (ص)

دور الاسلام في تخليد الامام:

* الوليد المبارك.
* منزلة الحسين (ع).
* ملامح شخصية الحسين (ع).

الوليد المبارك

بعد حول من ميلاد الحسن السبط (ع)، وفي اليوم الثالث من شهر شعبان المبارك، السنة الرابعة من الهجرة، زُفّت البشرىٰ الىٰ الرسول (ص) بميلاد الحسين (ع) فأسرع الىٰ دار علي والزهراء (ع)، فقال لأسماء بنت عميس: **(يا أسماء هاتي ابني)**، فحملته إليه، وقد لُفَّ في خرقة بيضاء، فاستبشر (ع) وضمَّه إليه وأذَّن في أُذنه اليمنىٰ وأَقام في اليسرىٰ، ثم وضعه في حِجْرهِ وبكىٰ، فقالت أسماء: فداك أبي وأُمي ممَّ بكاؤك؟.

قال (ع): **من ابني هذا.**

قالت: إنه ولد الساعة.

قال (ع): **(يا أسماء تقتله الفئة الباغية من بعدي، لا أنالهم الله شفاعتي)** ثم قال: **(يا أسماء لا تخبري فاطمة فانها حديثة عهد بولادته)**[1].

ثم ان الرسول (ص) قال لعلي (ع): **أي شيء سميت ابني؟.**

فأجابه علي (ع): **ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله.**

وهنا نزل الوحي المقدس علىٰ حبيب الله محمد (ص) حاملاً اسم الوليد من الله تعالىٰ، واذ تلقىٰ الرسول (ص) أمر الله بتسمية وليده الميمون، التفت الىٰ علي (ع) قائلاً: **سمِّه حسيناً.**

وفي اليوم السابع، أسرع الرسول (ص) الىٰ بيت الزهراء (ع)، فعقَّ عن الحسين كبشاً، وأمر بحلق رأسه، والتصدق بزنة شعره فضة، كما أمر بختنه، وهكذا أجرىٰ للحسين (ع) ما أجرىٰ لأخيه الحسن (ع) من مراسيم إسلامية[2].

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهُدى/الطبرسي/باب خصائص الامام أبي عبدالله (ع) /ط ١٣٧٩ هـ. ص ٢١٧.

(٢) أشعة من حياة الإمام الحسن بن علي (ع)/منشورات مؤسسة البلاغ.

منزلة الحسين (ع)

لأبي عبد الله الحسين (ع)، مكانة عظمىٰ، لا يرقىٰ اليها سوىٰ أبيه وأُمه وأخيه السبط والأئمة من ولده عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، ولو بذل المؤرخ وسعاً، لتتبع ما يحظىٰ به الحسين (ع)، من مقام رفيع، بلغ القمة السامقة في دنيا المسلمين، لخرج بسفر جليل في هذا المضمار، وبقدر ما تسمح به المحاولة التي بين أيدينا سنشير إلىٰ بعض المنطلقات الأساسية التي تبرز مكانة الحسين (ع) في معيار الشريعة الإلهية. . .

فالقرآن الكريم ـ الوثيقة الإلهية العظمىٰ ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يعرب في العديد من آياته الكريمة عن الشوط البعيد الذي قطعه الحسين (ع) من درجات الرفعة عند الله تعالىٰ، وهذه جملة منها:

١ ـ آية التطهير: ﴿**إنَّما يُـريدُ الله ليُـذهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ أهـلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهيراً**﴾.

(الأحزاب ـ ٣٣)

أورد أهـل الصحاح في سبب نـزول هذه الآيـة، أن النبي (ص) دعا بكساء، وجلَّل به علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، ثم قال: (**اللهم هؤلاء أهل بيتي، فاذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا**)[٣]. فنزلت الآية الكريمة في المناسبة المذكورة، والآية المباركة شهادة من الله تبارك وتعالىٰ بطهارة أهل البيت (ع) وعلو مكانتهم وأنهم أعلىٰ مراتب الشخصية الإسلامية.

٢ ـ آية المباهلة: ﴿. . **فَمَن حاجَّكَ فيه مِنْ بعد ما جاءَكَ من العِلم،**

(٣) يراجع صحيح مسلم (فضائل الصحابة) وصحيح الترمذي جـ٢/ومسند أحمد ابن حنبل/ ومستدرك الصحيحين/ومجمع البيان وغيرها.

﴿فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أَبناءَنا وأبناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكم، ثمَّ نبتهِل فَنَجْعَلْ لَعنَةَ الله علىٰ الكاذبين﴾.

(آل عمران ـ ٦١)

ففي سبب نزول هذه الآية؛ ذهب أهل التفسير، وأولو العلم[٤] انّها نزلت عندما اتّفق نصارى نجران مع رسول الله (ص) أن يبتهل كلا الطرفين الىٰ الله تعالىٰ، أن يُهلك من كان في دعوته علىٰ الباطل؛ وفي الموعد المقرر للمباهلة، خرج رسول الله (ص) بأهل بيته (ع)، وقد احتضن الحسين (ع)، وأخذ بيد الحسن (ع) وفاطمة تسير خلفه، وعلي يمشي خلفهم، والنبي (ص) يقول: **إذا دعوت فأمِّنوا**. . . ولكن النصارىٰ حين رأوا هناك تلك الوجوه الزكية والجلال يؤطرها اعتذروا للرسول (ص) عن المباهلة، وأذعنوا لسلطان دولته الكريمة؛ ودفعوا له الجزية. . .

وأنت ترىٰ الآية الكريمة تعبر عن الحسنين بالأبناء وعن النبي محمد (ص) وعن علي بـ «أنفسنا»، أما فاطمة فقد مثلت نساء المسلمين جميعاً في ذلك، كما وردت بلفظ (نساءنا) الأمر الذي يشير بصراحة وجدية إلىٰ أن ما يحظىٰ به أهل البيت (ع) من مقام رفيع عند الله لا يرقى إليه سواهم قط، وإلا لأحضر الرسول (ص). غيرهم للمباهلة.

٣ ـ آية المودة **﴿قُلْ لا أَسأَلُكُم عليهِ أَجراً إلاّ المودَّةَ في القُربىٰ﴾**.

(الشورىٰ ـ ٢٣)

قال المفسرون إن الآية المذكورة نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع)، فعن جابر بن عبد الله قال: جاء أعرابي الى النبي (ص)، فقال يا محمد أعرض عليَّ الإسلام. فقال (ص): **(تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله)**، قال: تسألني عليه أجراً؟.

قال (ص): **(لا، إلا المودة في القربىٰ)**.

---

(٤) راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ١/ص ٢٤٤ لمعرفة المصادر المجمعة على ذلك كالزمخشري في تفسيره والفخر الرازي وصحيح مسلم ومسند أحمد بن حنبل والدر المنثور للسيوطي والترمذي وسواهم.

قال: قرباي أو أقرباؤك؟

قال (ص): (**قُرباي**).

قال الأعرابي: هاتِ أُبايعك، فعلىٰ مَنْ لا يُحبك ولا يُحبُّ قُرباكَ لعنةُ الله. قال (ص): **آمين**[٥].

وفي مسند أحمد بن حنبل والصحيحين وتفسير الثعلبي وتفسير الطبرسي عن ابن عباس (ره): قال لما نزل ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ**﴾؛ قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبتْ علينا مودتهم قال (ص):

(**علي وفاطمة وابناهما**).

فمن خلال هذه الآيات الكريمة تتجلىٰ مكانة الحسين (ع) وأهل البيت (ع) ومنزلتهم السامية عند الله تعالىٰ، إلا أنه من نافلة القول أن نشير الىٰ بعض النصوص التي وردت عن رسول الله (ص) بشأن الحسين (ع) لإبراز المكانة الرفيعة التي يمثلها في دنيا الرسالة والأُمة:

١ ـ في صحيح الترمذي عن يعلىٰ بن مرة، قال: قال رسول الله (ص): (**حسينٌ مني وأنـا من حسين، أحبَّ الله مَنْ أحبَّ حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الأسباط**)[٦].

٢ ـ عن سلمان الفارسي قال: سمعت رسول الله (ص) وهو يقول: (**الحسن والحسين ابنايَ من أحبَّهما أحبَّني ومن أحبني أحبَّه الله ومن أحبه الله أدخله الجنة؛ ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله النار علىٰ وجهه**)[٧].

٣ ـ عن البراء بن عازب يقول: رأيت رسول الله (ص) حاملاً الحسين

---

(٥) فضائل الخمسة جـ ١ ص ٢٥٩ عن حلية الأولياء جـ ٣ ص ٢٠١/ وعن السيوطي في دره المنثور/وأسد الغابة/ ومستدرك الصحيحين/وتفسير ابن جرير الطبري/وغيرها مع اختلاف في الألفاظ والروايات.

(٦) فضائل الخمسة، ج ٣، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٧) إعلام الورى/الطبرسي/ (فضائل السبطين) ص ٢١٩.

بن علي علىٰ عاتقه وهو يقول: (**اللهم إني أحبه فأحبه**)[٨].

٤ ـ وعن عبد الله بن مسعود قال: ان رسول الله قال في الحسن والحسين (ع): (**هذان ابناي فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد ابغضني**).

٥ ـ وعن علي بن الحسين عن أبيه عن جده (ع): **ان رسول الله (ص) أخذ بيد الحسن والحسين وقال: (من أحبني وأحب هذين وأباهما كان معي يوم القيامة)**[٩].

---

(٨) الفصول المهمة لابن الصباغ.

(٩) تذكرة الخواص/ابن الجوزي/فصل «حب رسول الله الحسن والحسين».

ملامح شخصية الحسين (ع)

في بحثنـا السابق[10] كنـا قـد ألمحنـا الىٰ أن شخصيـة الحسنين (ع) تجمعهما شمائل واحدة، فكلاهما معـاً قد عـايشا مـرحلة الإعداد الإلهي، لتحمل أعباء الرسالة والدعوة، وكلاهما خضعا إلى لـون موحـد من التربيـة والتوجيه والإنشاء الروحي والفكري تحت إشراف جدهما الأعظم (ع) وأبيهما علي وأمهما الزهراء (ع).

وهكذا جاءت ملامح شخصيتهما تجسيداً لرسالة الله تبارك وتعالىٰ فكراً وعملاً وسلوكاً.

ولئن كنا قد أشرنا إلىٰ أمثلة تعرّف بشخصية الحَسَن السبط (ع) فاننا هنا نمارس الدور نفسه في الإشارة الىٰ بعض الأمثلة الحية التي تعكس لنا ملامح شخصية الشهيد الحسين (ع) في الجانب الفكري والروحي والعملي:

١ ـ علاقة الامام بالله:

بمقدورنا أن نستجلي عمق علاقة الحسين (ع) بربه الأعلىٰ سبحانه، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كونه قد تعاهـدته يـدا الرسـول (ص) بالإنشـاء الروحي والفكري جنباً الىٰ جنب مع علي والزهـراء (عليهما السلام)، لتحديـد اطار شخصيته ومسارها في الحياة.

* فقد قيل له يوماً ما أعظم خوفك من ربك!؟، فقال: **(لا يأمن من يوم القيامة إلا من خاف الله في الدنيا)**[11]. . .

* **وكان (ع) إذا توضأ تغير لون وجهه، وارتعدت مفاصله، فقيل له في**

---

(١٠) أشعة من حياة الامام الحسن السبط (ع). منشورات مؤسسة البلاغ.
(١١) المجالس السنية/السيد محسن الأمين.

ذلك، فقال: (حق لمن وقف بين يدي الملك الجبار أن يصفر لونه وترتعد مفاصله)[11].

* في ليلة العاشر من محرم الحرام، طلب الإمام الحسين (ع) من الجيش الأموي أن يمهله تلك العشية قائلاً: **(إنا نريد أن نصلي لربنا الليلة ونستغفره فهو يعلم إني أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار).**

* وفي أرهب الساعات وأحرجها، تحل صلاة الظهر في نهار العاشر من المحرم، فيطلب الحسين من المعتدين أن يوقفوا عنهم الزحف حتىٰ يصلُّوا لله تعالىٰ.

ان هذا السلوك، يعكس لنا عمق العلاقة التي تربط الحسين بالله سبحانه، ومدىٰ حُبِّ الحسين لله تبارك وتعالى.

* وكان يدعو ربه تعالىٰ بهذا الدعاء: **(اللهم ارزقني الرغبة في الآخرة، حتىٰ أعرف صدق ذلك في قلبي بالزهادة مني في دنياي، اللهم ارزقني بصراً في أمر الآخرة حتىٰ أطلب الحسنات شوقاً، وأفر من السيئات خوفاً يا رب. . .)**[12].

هذه بعض مصاديق العلاقة الروحية بين الحسين وربه سبحانه وتعالىٰ وسوف نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه العلاقة بالذات في مجال ثورة الحسين وتضحيته البطولية الفذة في سبيل الله تعالىٰ.

٢ ـ علاقة الامام بالناس:

حين نتطلع إلىٰ الجانب الخلقي من شخصية الإمام الحسين (ع) نلمس مدىٰ تفاعله مع الأمة بمختلف قطاعاتها باعتباره قدوتها المثلىٰ، ولا نقصد بحال أن الحسين (ع) يباين سواه من الأئمة (ع) في طبيعة التفاعل مع الجماهير أبداً، فان لون التفاعل مع الأمة وطبيعته بالنسبة للأئمة (ع) تحددها

---

(١٢) كشف الغمة في معرفة الأئمة/للعلامة الاربلي/ط ١٣٨٥ هـ جـ ٢ ص ٢٧٤.

رسالة الله تعالى والتي تمثل الأئمة (عليهم السلام) صورتها التطبيقية في دنيا الواقع.

ولكننا حين نشير الى الجانب الأخلاقي من شخصية الامام الحسين (ع)، فانما نطرح بعض المصاديق لذلك التفاعل السامي المشرق:

أ ـ فمن تواضعه (ع):

في أنه مرَّ بمساكين وهم يأكلون كسراً لهم على كساء، فسلم عليهم، فدعوه إلى طعامهم، فجلس معهم، وقال: **لولا أنه صدقة لأكلت معكم**، ثم قال (ع): **قوموا الىٰ منزلي**، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم(١٣).

وبمقدورنا أن نكتشف مدى تواضعه وعمقه من خلال هذا المصداق العملي الذي ذكرناه، إذا أعدنا إلىٰ الأذهان ما يتمتع به الحسين (ع) من مستوىٰ قيادي في الأمة، فهو مرجعها الفكري والقيادي، وإمامها المنصوص عليه من الله ورسوله (ص).

ومكانته الاجتماعية لا يرقىٰ إليها رجل في عصره قط؛ حتىٰ أن ابن عباس الصحابي الجليل ـ وهو أسن منه ـ كان يمسك له الركاب حتىٰ يركب فرسه اجلالاً له واعظاماً(١٤).

ولعظم منزلته كان الناس إذا التقوا به أثناء مسيره الىٰ الحج ماشياً، ينزلون عن ركائبهم اجلالاً طالما هو يسير(١٥).

أقول ان ادراكنا لمكانة الحسين (ع) الاجتماعية في دنيا المسلمين، يجعلنا ندرك مدىٰ تواضعه، إذا ألفيناه يتعامل مع أبسط الناس في المجتمع بذلك السلوك الإنساني الرفيع.

ومن المصاديق العملية علىٰ تواضعه (ع) كذلك، أنه مرَّ علىٰ مساكين يأكلون في الصفة، فدعوه للطعام، فنزل (ع) وقال: **(إن الله لا يحب**

---

(١٣) مناقب آل أبي طالب/ ابن شهر آشوب «مكارم أخلاقه (ع)».

(١٤) المجالس السنية مجلد (١) المجلس الرابع/وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٢٤٥.

(١٥) أهل البيت/ أبو علم (تواضعه وزهده).

المستكبرين) ثم تناول معهم الطعام وقال لهم: **قد أجبتكم فأجيبوني**، قالوا: نعم، فمضىٰ بهم الى منزله، وقال للرباب: **اخرجي ما كنت تدخرين**[١٦].

ومما يدل علىٰ مدىٰ تفاعله الايجابي مع الناس، ورعايته لشؤون الأُمة:

ـ ما رواه شعيب بْن عبد الرحمن قال: (وجد على ظهر الحسين بن علي يوم الطف أثر، فسألوا زين العابدين عن ذلك. فقال: **هذا مما كان ينقل الجراب علىٰ ظهره الىٰ منازل الأرامل واليتامىٰ والمساكين**)[١٦].

الأمر الذي يشير الىٰ تواضع منقطع النظير، واهتمام بشؤون الأُمة ووعي للمسؤولية وشعور عميق بها لا ندَّ له.

ب ـ وأما عفوه عن المسيء:

فهو في القمة كسائر أخلاقه (ع). ومن مصاديقه العمليـة: أن ارتكب غلام له ما يستوجب التأديب، فأراد تـأديبه، فقـال له الغـلام: يا مـولاي: «**والكاظمين الغيظ**»، قال الامام: **خلوا عنه**.

قال الغلام: «**والعافين عن الناس**».

فقال الإمام: (**قد عفوت عنك**).

قال: يا مولاي (**والله يحب المحسنين**).

قال (ع): (**وأنت حر لوجه الله، لك ضعف ما كنت أعطيك**)[١٧].

هذه نتف يسيرة استلهمنا من خلالها الجانب الخلقي في شخصيته عليه السلام.

٣ ـ ملامح فكر الإمام:

من المناسب أن نذكر طرفاً من نشاطاته الفكرية الرائدة كمصاديق عملية علىٰ ما يتمتع به من علو شاهق في مستواه العقلي الذي صقله منهج الله وحدد مساره ومنهاجه:

---

(١٦) مناقب آل أبي طالب/(مكارم أخلاقه).

(١٧) كشف الغمة ج ٢ ٢٤١.

أ ـ قال له نافع بن الأزرق ـ زعيم الأزارقة من الخوارج:

صف لي الهك الذي تعبده.

فرد عليه الإمام بقوله: (**يا نافع من وضع دينه علىٰ القياس لم يزل الدهرَ في الالتباس، مائلاً اذا كبا عن المنهاج، ظاعناً بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل، يا ابن الأزرق: أصف إلهي بما وصف به نفسه، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير مستقصىٰ، يوحد ولا يُبَعَّض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات لا إله إلا هو الكبير المتعال**).

فبكىٰ ابن الأزرق وقال: ما أحسن كلامك[18].

ب ـ قال عليه السلام عند مسيره الىٰ كربلاء وهو يقوّم الموقف العام، ويحدد مدى الانحراف الذي آلت اليه الأوضاع، ويشير الىٰ عزمه علىٰ كسب الشهادة من أجل الحق[19]: (**إن هذه الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعىٰ الوبيل، ألا ترون إلىٰ الحق لا يعمل به؟! والىٰ الباطل لا يتنهىٰ عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً، فاني لا أرىٰ الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما، إن الناس عبيد الدنيا والدين لعق علىٰ ألسنتهم يحوطونه ما درَّت معائشهم، فاذا محصوا بالبلاء قَلَّ الدَّيانون**).

جـ ـ وها هو يحدد بوعي صارم درجات العلاقة بالله: (**إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادات**)[20].

د ـ وقد خطب عليه السلام مرة، محدداً مواصفات الحكم الأموي وما

---

(١٨) أهل البيت/أبو علم «باب علمه وفصاحته وبلاغته».

(١٩) تحف العقول/ ابن شعبة الحراني، ط/٥ «باب ما روي عن الحسين (ع)» ص ١٧٤.

(٢٠) تحف العقول عن آل الرسول/الحراني/ ط ١٣٩٤ هـ/باب «ما روي عن الحسين (ع)» ص ١٧٥.

آلت إليه الأوضاع السياسية والادارية من وجهة النظر الإسلامية: (... **أيها الناس ان رسول الله (ص) قال: (من رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً علىٰ الله أن يدخله مدخله)، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم، انكم لا تسلموني ولا تخذلوني؛ فان تممتم علىٰ بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أُسوة، وان لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فانما ينكث علىٰ نفسه وسيغني الله عنكم)**[٢١].

هذه شذرات يسيرة من أفكاره العظيمة التي تحتل مركز الريادة في الفكر الإسلامي الأصيل، ومن شاء المزيد فليراجع سيرته العطرة، فان له فيها خير عون علىٰ ادراك ما للحسين (ع) من بعد نظر وسعة فكر وإيمان[٢٢].

* * *

---

(٢١) خطبته أمام كتيبة الحر بن يزيد الرياحي/الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين (ع) جـ ١ عبد الكريم القزويني.

(٢٢) يراجع الوثائق الرسمية لثورة الحسين (ع)/عبد الكريم القزويني. وحديث كربلاء لعبد الرزاق المقرم الموسوي/ط ١٣٩٤ هـ ص ١٣٤.

دور الامام في تخليد الاسلام

* توطئة.
* أحداث ما بعد الوثيقة.
* لماذا الثورة؟.
* رياح الثورة.
* نكوص أهل الكوفة.
* في الطريق إلىٰ العراق.

توطئة

المتتبع لحياة الحسين بن علي (ع)، يدرك بعمق أن دوره في الحياة الإسلامية قد بدأ مبكراً، فقد ساهم في حركة الإسلام الصاعدة وهو ما زال في دور الصبا، فقد كان دوره جلياً في إمامة أبيه أمير المؤمنين (ع) إذ شارك في حروبه الثلاثة: الجمل وصفين والنهروان جنباً لجنب مع أبيه وأخيه والمخلصين من البررة من الصحابة والتابعين.

أما في إمامة أخيه الحسن (ع)، فقد عاش جندياً مطيعاً لأخيه (ع) يرىٰ ما يرىٰ، ويسلك ما يسلك، فعايش معه أحداث إمامته، بما فيها الوثيقة... بكل وقائعها وظروفها، ثم رحل الىٰ المدينة المنورة مع أخيه، وبقية أهل البيت (ع)، ليمارسوا دورهم الرسالي في حفظ الرسالة من تيار التحريف المتعاظم، حيث انصبت مهمتهم الرسالية علىٰ التوجيه الفكري والخلقي، وتقويم سلوك الناس، وتبيان المسؤولية الشرعية كما ألمحنا الىٰ ذلك في دراستنا لحياة الإمام الحسن (ع).

علىٰ أن دور الإمام الحسين (ع) بعد رحيل أخيه الحسن (ع) إلىٰ ربه الأعلىٰ سبحانه، قد دخل مرحلة جديدة، وفقاً للملابسات التي استجدت في مسيرة الأمة، وحيث أن كل إمام من أئمة أهل البيت (ع) يتحدد دوره وفقاً لطبيعة الظروف الاجتماعية والفكرية والسياسية، فإن الحسين (ع) قد اختط طريقاً جديداً في تحديد مسار الحركة الإسلامية الأصيلة التي اضطلع بقيادتها بعد وفاة أخيه الحسن (ع) مباشرة، وبأدق عبارة بعد أن آل إليه أمر الإمامة الشرعية للمسلمين، حسبما قضت به الارادة الإلهية التي عبَّرت عنها أحاديث رسول الله (ص) وتصريحاته بهذا الشأن، منها:

ما رواه جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي علىٰ النبي (ص) فسمعته

يقول: (**ان هذا الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**)، قال: ثم تكلم بكلام خفي عَلَيَّ، فقلت لأبي: ما قال؟

قال، قال (ص): (**كلهم من قريش**)[٢٣].

وعن عبابة بن ربعي عن جابر قال: قال رسول الله (ص): (**أنا سيد النبيين وعلي سيد الوصيين وإن أوصيائي بعدي اثنا عشر أولهم علي وآخرهم القائم المهدي**)[٢٤].

وعن سلمان (ره) قال: دخلت علىٰ النبي (ص) فإذا الحسين علىٰ فخذيه وهو يقبل خديه ويلثم فاه، ويقول: (**أنت سيد ابن سيد أخو سيد، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام وأنت حجة ابن حجة أخو حجة أبو حجج تسعة، تاسعهم قائمهم المهدي**)[٢٥].

وهناك عشرات الأحاديث والتصريحات الكريمة سوىٰ ذلك، يعلن الرسول (ص) من خلالها كون خلفائه من بعده اثني عشر؛ مرةً بالتصريح بأسمائهم، ومرة بالتلميح[٢٦].

أقول بعد أن آل أمر إمامة الأُمة الإسلامية الىٰ الحسين (ص) في الفكر والعمل حدد مسار القضية الإسلامية وفقاً لمقتضيات الظروف الملمة بالأُمة في عصره، هذا الذي سنتناول طرفاً منه من خلال هذه الصفحات إن شاء الله تعالىٰ:

---

(٢٣) صحيح مسلم ج ٢ أخرجه بطرق شتى وبالفاظ عديدة متقاربة والبخاري والترمذي وأبو داود.

(٢٤) ينابيع المودة جـ٣ (الباب السابع والسبعون).

(٢٥) ينابيع المودة عن الحمويني وموفق بن أحمد الخوارزمي وسليم بن قيس الهلالي.

(٢٦) راجع ينابيع المودة/للشيخ القندوزي جـ٣ (في بيان الأئمة الأثني عشر باسمائهم).

أحداث ما بعد إبرام الوثيقة

دخل معاوية الكوفة بعد التوقيع علىٰ الوثيقة مع الإمام الحسن (ع) وأطبق جيشه عليها، فخاطب أهلَ الكوفة من فوره قائلاً: (**يا أهلَ الكوفة أَتـرَوْني قاتلتُكم علىٰ الصلاةِ والزكاة والحج، وقد علمتُ أنكم تُصلون وتُزكون وتَحُجون، ولكنني قاتلتُكم لأتأمَّرَ عليكُم وعلىٰ رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا إنَّ كلَّ مال أو دمٍ أُصيبَ في هذه الفتنة فمطلول، وكلَّ شرط شرطُته فتَحتَ قدميَّ هاتين. . .**)[٢٧].

فكان خطابه ذاك بمثابة الغاء رسمي لبنود الوثيقة المبرمة مع الامام السبط حسب عبارته السالفة (كل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين) ولم يمضٍ على صفاء الجو السياسي لمعاوية غير أيام بدأ ينفذ مخططاً مناقضاً تماماً للوثيقة؛ وقد انصب مخططه العدواني البغيض على ما يلي:

١ ـ إشاعة الإرهاب والتصفية الجسدية لكل القوى المعارضة للحكم الأموي سيما أتباع الإمام علي (ع) منهم، ومتابعتهم، واخراس كل لسان حر بكل وسائل التنكيل والاضطهاد.

وبمقدور القارىء الكريم أن يدرك أبعاد تلك السياسة الهوجاء من خلال النص الآتي الذي يوصي به معاوية أحد قادة جيوشه: (. . . فاقتل كل من لقيته ممن ليس هو علىٰ مثل رأيك، واضرب كل ما مررت به من القرىٰ، واحْرِب الأموال، فإن حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب. . .)[٢٨].

وإذا كان المخطط الأموي المنحرف الذي يعكس النص السابق في

(٢٧) شرح النهج لابن أبي الحديد جـ ١٦ ص ١٥/ط ١٩٥٩ م دار أحياء الكتب العربية.
(٢٨) شرح النهج/ لابن أبي الحديد جـ ٢ ص ٨٦.

طبيعته.وانحرافه، قد بدأ تنفيذه في عهد علي (ع)، فإنه بعد توقيع الوثيقة قد اتخذ أبعاداً أشد خطورة، وأبعد أثراً في إراقة الدماء البريئة، وتصفية المعارضين بشتىٰ مذاهبهم، وفي طليعتهم أتباع الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام.

فقد كتب معاوية إلى ولاته في جميع الأمصار: (انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه)[٢٩].

وكتب كتاباً آخر جاء فيه: (من اتهمتوه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره)[٣٠].

وقد صور الإمام محمد الباقر (ع) تلك المأساة الدامية بأقصر عبارة وأدقها حين قال: (... **فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكل من يُذكر بحبنا والانقطاع الينا سجن، أو نهب مالَه، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد الى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين (ع)**)[٣١].

وكان في طليعة ضحايا تلك المجزرة الرهيبة كوكبة من الصحابة الأبرار أمثال: حجر بن عدي وجماعته، ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأوفىٰ بن حصن، وسواهم كثير، ومن شاء الإحاطة بمزيد من الأرقام الدالة على مواقف معاوية فدونه الطبري والكامل وشرح النهج وغيرها.

٢ ـ اغداق الأموال من أجل شراء الضمائر والذمم إمعاناً في إذابة الشخصية وتمكيناً للسياسة المنحرفة من تحقيق أهدافها السوداء، وقد تم فعلاً شراء نوعين من الناس: ـ

أ ـ بعض الوعاظ والمحدثين الذين كان لهم دور مفضوح في العمالة لمعاوية وافتراء الأحاديث الكاذبة ونسبتها الى الرسول (ص) للنيل من علي (ع) وأهل بيته قاطبة مما لسنا الآن بصدد ذكرها.

(٢٩ و٣٠) المصدر السابق جـ ١١ ص ٤٥.

(٣١) نفس المصدر ص ٤٣،

ب ـ الوجوه الاجتماعية التي يخشى من تحركها ضد الحكم الأموي، وهو أسلوب مارسه معاوية وغيره من ساسة الحكم حتى صار إحدى متبنيات السياسة الأموية في جميع مراحلها وعلى وجه التحقيق، وليس أدل على ذلك من ارسال معاوية الى مالك بن هبيرة السكوني ألف درهم حين بلغه استياؤه من قتل معاوية للصحابي الجليل حجر ابن عدي وأصحابه (رض)؛ فما كان من السكوني إلا أن أخذ ثمن ضميره وتخلّىٰ عن عزمه على التحرك بوجه الظلم والفساد!!!.

٣ ـ المضايقة الاقتصادية واسلوب التجويع: ـ

وهو من أكثر الأساليب الأموية تأثيراً سلبياً في نفسية الأُمة المسلمة باذلالها واشاعة المسكنة في نفوس ابنائها.

وبالنظر الى أن السياسة المذكورة تقوم على أساس محاربة القوى المعارضة في رزقها وقوتها اليومي، فقد سلك معاوية أبشع الطرق لمحاصرة شيعة أهل البيت (ع) على وجه الخصوص ومضايقتهم اقتصادياً كما تشير الوثائق التاريخية الى ذلك، ومنها بيان معاوية الذي بلغه لجميع ولاته بهذا الصدد: (... انظروا الى من قامت عليه البينة أنه يحبُّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، واسقطوا عطاءه ورزقه)[٣٢].

وعلى المرء أن يقدر أبعاد تلك السياسة الهوجاء التي درج على انتهاجها البيت الأموي من تخريب للضمائر وإفساد للنفوس وهي مسألة ليست يسيرة وليست طارئة، وانما منحها معاوية صفة الاستمرارية طيلة العشرين سنة التي صفا الجو السياسي له فيها. (٤١ هـ حتى ٦٠ هـ).

٤ ـ العمل على تمزيق أواصر الأُمة الإسلامية باثارة الروح القومية والقبلية والإقليمية بين قطاعاتها المختلفة امعاناً منه في الهاء الأُمة في تناقضات جانبية على حساب تناقضها الأساسي مع الحكم الأموي الجائر،

---

(٣٢) مشار إليه سابقاً.

وذلك في ممارسة إثارة الضغائن بين القبائل العربية وأشغالها بالصراعات الجانبية فيما بينها كالصراع الذي نشب بين قيس ومضر، وأهل اليمن والمدينة، وبين قبائل العراق فيما بينها!!؟ واثارة العنصرية عند العرب ضد المسلمين من غير العرب الذين يعرفون تاريخياً باسم الموالي، وبمقدور المرء أن يجد آثار تلك السياسة الجاهلية جلياً في أشعار مسكين الدارمي والفرزدق وجرير والأخطل وسواهم[٣٣].

٥ ـ إغتيال الامام السبط الحسن بن علي (ع) باعتباره الممثل الشرعي للتيار الإسلامي السليم في دنيا المسلمين.

٦ ـ تتويج معاوية لولده (يـزيد) ملكاً على الأُمة تحت ظـلال الكبت والاضطهاد والاغراء والترغيب، خلافاً للوثيقة التي تقضي أن يكون الحسن خليفة للمسلمين بعد موت معاوية، فإن كان الحسن هو الآخر قد رحل الى ربه يومها فالحسين ولي الأمر...

وهكذا استكمل معاوية مخططه في نقض كل بند من بنود الوثيقة التي عقدها مع الإمام الحسن (ع) وبذلك فان معاوية قد ارتكب شططاً آخر تجاوز فيه حدود المفهـوم الإسلامي في الحكم، من خـلال اتخاذ «الـوراثة» ذات الطابع الدكتاتوري اطروحة للحكم في دنيا المسلمين؛ الأمـر الذي عـرض المبدأ الإسلامي والأُمة الإسلامية إلى أعنف كارثة في تاريخها حيث بدأ مسار حركتها بأخذ طريقة باتجاه مغاير للخط الإسلامي الأصيل بشكل لا غبار عليه.

وقد تبلور واقع الانحراف الذي خططت له السياسة الأموية الذي يرعاه معاوية ويتبناه بشكله المرعب فور موته بتولي ابنه يزيد الحكم الموروث.

إن منح يزيد السلطة ليقود الأُمة الإسلامية، ويخطط لمستقبلها، ويحدد مسارها؛ معناه الإنهاء العملي للوجود الإسلامي على الإطلاق، وردة واقعية عن مبادىء السماء، وعودة الجاهلية ولكن في ثوب جديد.

---

(٣٣) ثورة الحسين/محمد مهدي شمس الدين (احياء النزعة القبلية واستغلالها) طبعة دار الأندلس بيروت/ص ٦١ وما بعدها.

فيزيد هذا ـ كما تؤكد المصادر التاريخية ـ يغلب عليه طابع الشذوذ في شتى أفكاره وممارساته ومشاعره، الأمر الذي يحمل المنصف على القول بأن يزيد لم يتوفر له أي انفتاح واعٍ على الرسالة الإسلامية وأهدافها العليا التي تحقق أرقىٰ صياغة للإنسان ـ كفرد وكعضو في المجتمع ـ صياغة لا تتصل مطلقاً بمرتكزات الجاهلية من قريب أو بعيد.

وحين يعدم يزيد الجو التربوي الذي يوفره الإسلام عادة لأبنائه فان الأمر لا يدعو الى العجب بعد ذلك إذا أطلعنا التاريخ الإسلامي على نشاطات مشبعة بروح الانحراف عن الإسلام مما كان ابن معاوية يمارسها على مسمع ومرأى من كثير من المسلمين في بلاد الشام، كاللهو الماجن واللعب الخليع وشرب الخمر ومنادمة الفتيات والغناء... وحسبك به استهتار أنه يُلبس كلابه أساور الذهب(٣٤).

وهكذا وقفت الأمة على عتبة تاريخ جديد من حياتها، وأصبحت أمام خيارين: ـ

اما تبني سياسة الرفض القاطع للواقع الذي فرض عليها مهما كان الثمن... أو القبول بسياسة الأمر الواقع، حيث عليها أن تتنازل عن رسالتها وسر عظمتها وعنوان عزتها في الحياة.. فكيف كان الأمر...؟

---

(٣٤) يراجع السفر القيم للامام الحسين (ع)/للأستاذ عبدالله العلايلي/ ومع الحسين في نهضته/ أسد حيدر.

لماذا الثورة؟ !

من خلال متابعتنا لحياة الحسين (ع) والأحداث التي عايشها والظروف التي أحاطت به تكشَّف لنا بجلاء أنه لم يكن يمتلك مستلزمات الفوز المادي في معركته مع سلطة الجور الأموي، وحتى الذين كاتبوه من أهل الكوفة، لم يكن قد عوَّل عليهم، وانما أعلن ثورته، قبل أن تصل كتبهم ورسلهم إليه.

فقد أذاع بيانه الأول في مدينة جده (ص)، وأنباء ولاء أهل الكوفة وصلته وهو في مكة ـ أي بعد اعلان ثورته وتحركه المبارك ـ.

ثم إن الحجاز لم يمنحه الدعم المناسب إذا تخطينا الدعم العاطفي حتى أنه أدرك عدم قدرة مكة على حمايته من السلطة الأموية التي تريد به السوء.

وهكذا سار نحو العراق لكي لا تراق دماء آل الرسول (ص) في الحرام.

ولكنه مع علمه بالموت، كان مصراً على تفجير الثورة، ومواصلتها حتى النهاية المحتومة.

فلم هذا الإصرار إذن؟

بل لماذا الثورة؟

وللإجابة على هذا السؤال الكبير ينبغي أن نضع نصب أعيننا الحقائق الآتية: ـ

أولاً: تولى يزيد بن معاوية تدبير شؤون الأُمة وهو غرٌ منحرف له خطورته على مستقبل الأُمة، بالنظر إلى أن يزيد نزق، لم يحظ بأي نصيب من التربية الإسلامية السليمة، فقد نشأ في بيت لم تشرق شمس الهداية الإسلامية في آفاقه قط... ومن هنا فليس من الغرابة بمكان أن تؤكد النصوص

التاريخية تعاطي يزيد الخمر، والقمار، وسائر أنواع السلوك المغاير للسلوك الإسلامي[٣٥].

يزيد هذا ـ بشذوذه وترديه ـ فضلاً عن جهله بالخبرات العملية للمهام التي أنيطت به تولى زعامة شؤون المسلمين!!!

وهذا ما أعطى كل الفرص لتكريس كل ألوان الانحراف عن الرسالة الغراء، ومقولاتها الأساسية، بيد أن القوى المخلصة للرسالة ـ والحسين إمامها ـ قد استفادت كثيراً من نقاط الضعف، بل ومن التردي المفضوح، في شخصية هذا الحاكم. . .، بالنظر الى أن قطاعات واسعة في الأمة بدأت تعي الى حد الوضوح منطلقات هذه الشخصية المغايرة للشخصية الإسلامية، مما منح الرافضين للتحريف فرصة تبديد الجمود الذي انتاب الذهنية العامة بممارسة نوع من الإيقاظ والتحريك. لقطاعات الأمة باتجاه المصلحة الإسلامية العليا. . . التي باتت تفرض اللجوء الى العنف على أعلى المستويات. . . فها هو الحسين بطل الاسلام المخلد يخطب في الجيش الأموي بقيادة الحر بن يزيد الرياحي[*]، حين التقى معه في أرض العراق موضحاً أخطر جوانب الانحراف في الحكم الأموي:

(. . . أيها الناس إن رسول الله (ص) قال: من رأى سلطانا جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عبادة الله بالاثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله؛ ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. . .).

وبهذه التصريحات والخطب وسواها يلقي الامام (ع) أضواء كاشفة على

---

(٣٥) يراجع: الإمام الحسين (ع)/عبدالله العلايلي ومروج الذهب «أحوال يزيد».
(*) لقد تغير موقف الحر فانضم إلى معسكر الحسين واستشهد معه.

حقيقة الحكم الأموي، ويستحث العواطف ويشحذ الهمم لنفض غبار الجهل بالواقع عن كاهل الأمة، ورفض كل صيغ الاستسلام اللامشروع لحكمهم.

ثانياً: إن المستوى العام للأمة كمجموع، دون المستوى المطلوب في مواجهة تيار الانحراف العاتي، وهذه حالة مرضية برزت بشكلها المؤلم بالميل الى الراحة والسكون والاتجاه نحو المصلحة الخاصة وغياب الروح الجهادية عن المسرح الاجتماعي؛ وقد تبلورت تلك الظاهرة الخطيرة، بتكديس الأموال الطائلة لدى القيادات العليا في المجتمع الإسلامي، بشكل يثير الدهشة[٣٦].

ولئن كان أصحاب النفوذ في الأمة قد استغلوا نفوذهم لجمع المال، ومضاعفة الأرباح، فإن قطاعات الأمة عامة، قد ظهر لديها هذا الميل الدنيوي بشكل مفضوح، فعبّر عن نفسه بالإخلاد الى الراحة والطمأنينة، كبديل للروح الجهادية التي تتطلب ركوب كل مشقة، وهي حالة تمخضت عن ربع قرن من الزمان ـ على أقل تقدير ـ تغلب فيها أصحاب التيار النفعي في الأمة، واستحوذوا على مراكز التوجيه فيها...

وقد لا يبدو غريباً أن يقف كثير من رجالات المسلمين لابداء نصيحتهم للإمام الحسين (ع) أبّان إعلان ثورته، بعدم مواجهة الحكم الأموي، خوفاً منهم عليه من الاستشهاد مع إدراكهم الحقيقي للانحراف الأموي من جهة وأحقية الإمام الشهيد (ع) في التصدي للانحراف من جهة أخرى... فقد خاطبه (عمر الأطراف) بقوله: (حدثني أبو محمد الحسن عن أبيه أمير المؤمنين، أنك مقتول فلو بايعت لكان خيراً لك).

وفاتحة عبدالله بن عمر بن الخطاب بضرورة عدم التصدي لبني أمية... كذلك فاتحه عبدالله بن الزبير، هذا فضلاً عن جماعة من أهل بيته[٣٧].

هذه بعض مظاهر غياب الروح النضالية لدى الغالبية العظمى من

---

(٣٦) يراجع مروج الذهب للمسعودي بهذا الصدد.

(٣٧) يراجع مقتل الحسين/للسيد الموسوي المقرم ص ١٩٤ وما بعدها.

رجالات المسلمين، أما جماهير الأُمة فقد سرت فيها هذه الروح السلبية بشكل مرعب، فأهل الكوفة مثلاً على ما بذلوه من مواثيق وإيمان مغلظة في وعودهم المتكررة بنصرة الحسين (ع) إن هو قدم الى مصرهم ـ كما عبروا في رسائلهم التي بعثوها إليه ـ أهل الكوفة أولئك قد تناسوا كل الذي قطعوه على أنفسهم من تعهدات ومواثيق أمام موجة الإرهاب التي مارستها الطغمة المحلية الحاكمة التي يتزعمها ابن زياد الى جانب الاموال التي بذلها الحكم. والوعود والاغراءات العريضة، ولعل في كلمة الفرزدق للحسين (ع) حين سأله عن أوضاع الناس في العراق: (... قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أُمية...) أدق وصف لغياب الشعور بالمسؤولية أمام الله والرسالة لدى السواد الأعظم، والتي كانت مظهراً جلياً من مظاهر النفاق الاجتماعي الذي اجتاح الناس كنتيجة طبيعية لسياسة التخريب الأموية للضمائر ـ كما أسلفنا ـ مما كان عاملاً أساسياً في نقض الناس لبيعة الحسين (ع)....

لقد كانت هذه الظواهر سبباً أساسياً من أسباب إعلان الثورة المباركة، لكي يهز الضمائر الميتة التي لفها ضباب التهالك على الحياة الدنيا، لأنه (ع) كان مدركاً بشكل قاطع أن حالة الخنوع التي تعايشها الأُمة وقتئذ ليس لها أي مبرر شرعي على الإطلاق، بل إن الشريعة ذاتها تطرح ابتداء مفاهيم وتصورات تلزم أتباعها بشكل لا غبار عليه برفض الواقع الذي تغيب فيه شمس العدالة والهداية، الواقع الذي يتخذ التهالك على الحياة الدنيا مقياساً وهدفاً، والركون الى المتع المادية والشهوات غاية ومأرباً، وهي حقائق ناصعة عبرت عنها الشريعة المقدسة في مواضع عديدة من كتاب الله تعالى:

فمرة تشجب الركون للحياة الدنيا اذا تعارضت مع روح التضحية من أجل الرسالة: **﴿... يا أيُّها الذينَ آمنُوا ما لَكُمْ إذا قِيلَ لكُم انفروا في سبيل الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرضِ أَرضِيتم بالحياة الدُنيا مِنَ الآخرة فما متاعُ الحياةِ الدُنيا في الآخرة إلاَّ قليل. إلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً ويَستَبْدِلْ قوماً غَيْرَكم ولا تَضُرُّوهُ شيئاً والله على كلِّ شيء قدير﴾**.

(التوبة ـ ٣٨، ٣٩)

ومرة تجعل الركون للظالمين أمراً محظوراً: **﴿ولا تركنوا الى الذينَ**

ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُم النارْ﴾، وأُخرى تعلن الرسالة أن المؤمنين هم طوع ارادتها، معبأون لمصالحها، وهم لا يدَّخرون وسعاً في الذود عنها: **﴿إنَّ اللّهَ اشترىٰ مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَهم بأنَّ لَهُم الجَنَّة يقاتِلونَ في سَبيلِ اللّهِ فَيَقْتلون وَيقتَلونَ وعداً عليه حقاً. . . ﴾**.

(التوبة ـ ١١١)

فبناء على هذا الفهم المعمق لرسالة الله تعالى من قِبَل الحسين (ع) ـ وهو الصورة التطبيقية لدين الله ـ أعلن رفضه الصارم للواقع المعاش دون أدنى التفات إلى ما أبداه القوم من تحفظات ومخاوف.

وبالنظر لوعي الحسين (ع) لمسؤولياته، ومدى سلامة خطه ومنهجه في رفض الواقع، فليس غريباً بعد ذلك أن يناشد ناصحيه والقلقين عليه ويدعوهم للوقوف الى جنبه، والاندماج بخطه الذي هو خط الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده الصادقين، كما فعل مع عبدالله بن عمر حين طالبه بالعدول عن رأيه في إعلان الثورة بوجه الانحراف الأموي حيث خاطبه بقوله: **(اتق الله يا أبا عبدالرحمن ولا تدعنَّ نصرتي)**.

وهكذا يندفع الحسين (ع) بحرارة وعنف لتبديد ضباب الهجعة الذي حجب الرؤية الرسالية وأمات الضمائر زمناً طويلاً، فعطل روح الجهاد في الأُمة لصالح الطغاة المتسلطين على رقابها، ولغسل الذهنية العامة مما علق بها من غبار السياسة الطاغية المتسلطة على العقول ولإحداث هزة عنيفة في ضمير الأُمة لتعي واقعها وما آل اليه من انهيار وتفسخ وانحراف وضلال.

ثالثاً: اطلاع الأُمة على المفهوم الإسلامي للإمامة الشرعية وأبعادها ومنطلقاتها: فإن خطورة الدور الذي لعبته السياسة الأموية في المفاهيم الإسلامية لم يأت من القاعدة أبداً، وانما انحدر من القيادات العليا التي استحوذت على وسائل التوجيه الاجتماعي في الأُمة، وهذه مسألة جديرة بالدرس والاستيعاب.

لقد كان الحسين (ع) يدرك ذلك أيما ادراك فبدأ عمله لإرشاد الأُمة الى مواضع الخطر في الحكم الأموي باعتباره حكماً مغايراً لمفهوم الإمامة في

مؤسساته وأشخاصه، وهذه مسألة تمثلها أُطروحة الحكم الوراثي الدكتاتوري التي وضعها معاوية موضع التنفيذ عند عقدة البيعة لابنه يزيد.

وبذلك يكون معاوية قد وضع الحجر الأساسي لأخطر انعطاف في مسار الحكم الإسلامي امتدت آثاره السيئة حتى يومنا الحاضر وخدمت أعداء الإسلام ما يفوق حدَّ التصور.

وتمشياً مع متطلبات الرسالة الإسلامية والشروط الموضوعية التي يشترط توفرها في الحاكم المسلم، انطلق الحسين (ع) لبلورة هذا المسألة في ذهنية الجماهير المسلمة عن طريق الخطب والبيانات في كل فرصة يجدها مناسبة للبيان، منها:

(أيها الناس إنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق يكن أرضىٰ لكم، ونحن أهل بيت محمد (ص) أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين بالجور والعدوان)(٣٨).

ومنها قوله:

أما بعد فان الله اصطفى محمداً (ص) على خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته، ثم قبضه إليه، وقد نصح لعباده وبلَّغ ما ارسل به (ص)، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا، وكرهنا الفرقة، وأصبنا العافية، ونحن نعلم إنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد بعثت رسولي اليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أُميتَتْ والبدعة قد أُحيَيتْ، فإن تسمعوا قولي أهدكم الى سبيل الرشاد)(٣٩).

بهذه الكلمات المدوية، وسواها كشف الإمام الحسين (ع) النقاب عن ان بني أمية لا يصلحون للحكم، نظراً لمخالفتهم للخط الإسلامي المرسوم، كما أَطْلَعَ الأُمة على النهج الذي يجب أن يلتزم به الحاكم الإسلامي،

---

(٣٨) من خطبته في أصحاب الحر في كربلاء.

(٣٩) من كتابه إلى أهل البصرة.

والصفات الإسلامية مما هو متوفر في شخصيته هو (ع) باعتباره غرس النبوة، ووليد الرسالة وتلميذ الوحي المقدس.

وهكذا كان إبراز المفهوم الإسلامي للإمامة في الأغراض الأساسية لنهضة الحسين (ع) يصحبه فضح الخلافة الأموية المتبناة.

رابعاً: الإنسان في الرسالة الإسلامية لا تبرر له الرسالة ـ بحال ـ النكوص عن واجبه كإنسان رسالي، فهو في رحاب الرسالة ليس فرداً مستقلاً بذاته، وانما هو فرد مندمج في رسالة يستجيب لمطالبها، ويفي بالتزاماته نحوها، ويضحي إذا حزب الأمر من أجلها. . . وما فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وغيرها إلا ترجمة صادقة لهذه الروح التي يفضيها الإسلام الحنيف على أتباعه، بيد أن هذه المسألة تتناسب تناسباً تصاعدياً مع ارتقاء المرء في الخط المثالي للرسالة الإلهية.

والحسين باعتباره شبل علي وحفيد محمد (ص)، ووليد الرسالة، كان صفحة نقية من صفحات الرسالة، وترجمة حية لكل منطلقاتها وتصوراتها؛ الأمر الذي جعله أول ملب لنداء الرسالة في عصره ليفي بذلك بالتزاماته نحوها، وهكذا كان. . .

على أن وفاءه بالتزاماته نحو شريعة الله تعالى كان يفرض سلوك منهج الثورة، ولا سبيل سواه، لأنه بدون الثورة لا يرتجىٰ أي إصلاح، وبيان ثورته (ع) الأول يجسد هذه الحقيقة بكل مدلولاتها الايجابية: (. . . **واني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي، صلى الله عليه وآله، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأَبي علي ابن أبي طالب. . .**).

وهكذا يكون قد أدى فريضة يرى نفسه ملزماً باتيانها باعتباره أطيب غرس للرسالة في عصره، وأحرص شخص على الحفاظ عليها.

هذه هي المبررات الأساسية التي منحت الحسين (ع) وأصحابه حق إعلان الثورة الظافرة، مدوية في دنيا الناس. . . مخلدة الإسلام. . . ملهمة الثوار عبر الأجيال للذود عن الإسلام والصمود في معارك الجهاد المقدس.

رياح الثورة

ما أن هلك معاوية إلا وامتطى دست الحكم ابنه يزيد، وأمر ولاته بأخذ البيعة له على الناس، ولا سيما الحسين (ع) على وجه الخصوص لقناعة البيت الأموي، انه عنوان الصمود الراسخ الذي لا يتزعزع، فمتى صار بمقدورهم إخضاعه ـ وهيهات ـ انهارت أمامهم السدود وهانت كل معارضة بعده.

وعلى الفور كتب يزيد الى واليه على المدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ البيعة له من أهل المدينة بشكل عام والحسين (ع) بشكل خاص، فما كان من الوالي إلا وأسرع بتنفيذ أمر سلطانه، فأرسل الى الحسين (ع) أحد غلمانه وكان ذلك في ساعة متأخرة من الليل، فأدرك الامام كنه ذلك، واستعد للأمر فاستصحب معه ثلاثين رجلاً من أهل بيته (ع) وشيعته، وأوصاهم بالوثوب الى داخل دار الوالي إذا حزب الأمر ورفع الحسين (عليه السلام) صوته...

واستقر المجلس بالحسين (ع) فعرض الوليد أمر البيعة ليزيد، الا أن الإمام (ع) عرض على الوالي فكرة إرجاء ذلك الى وقت أنسب، كأن يكون مع بيعة الناس سواء بسواء: (... **مثلي لا يبايع سراً فإذا دعوت الناس الى البيعة، دعوتنا معهم، فكان أمراً واحداً**)[40].

والحسين (ع) انما فعل ذلك ليعد للأمر عدته، وحتى لا يثير السلطة المحلية لفترة معينة على الأقل، غير أن مروان بن الحكم الذي كان حاضراً، حرَّض الوالي على إرغام الحسين (ع) بالقوة على البيعة فان لم يستجب فمن

(٤٠) الفصول المهمة/لابن الصباغ، فصل مخرجه الى العراق/ومقتل الحسين للمقرم/ص ١٤٢.

الضروري قتله، وإلا فإن الزمام سيفلت من يدي الوليد وأسياده؛ إلا أن الإمام قد واجه الموقف بحزم وأغلظ القول لمروان وأنذره، فوقعت بين الطرفين مشادة كلامية عنيفة انتهت بهجوم أصحاب الحسين الى داخل الدار واصطحابهم اياه الى داره[41].

ومن هنا بدأ مسار الرفض لسياسة الغدر والتنكيل تتصاعد نحو الذروة، وعزم الإمام الحسين (ع) على مواجهة مسؤولياته الرسالية المعدة له باعتباره إمام الأمة الشرعي وقائدها الأمين على رسالتها الغراء.

وهكذا قصد قبر جده الرسول (ص) وصلى عنده ركعات ثم دعا ربه تعالى: **(اللهم إن هذا قبر نبيك محمد (ص) وأنا ابن بنت نبيك وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحب المعروف وانكر المنكر، وأسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه إلاّ اخترت لي ما هو لك رضىً ولرسولك رضىً)**[42].

وهكذا يعاهد الحسين (ع) ربه على الذود عن حياض الرسالة مهما كلفه الثمن طالما يحقق رضوان الله تعالى.

وهذا ما ندركه من خلال مقاطع الدعاء الذي يعرض الحسين (ع) نفسه من خلالها جندياً اندكت ذاته كلها على عتبة الرسالة الإلهية بشكل لم يشعر لها وجوداً إلا من خلال ما يتحقق للرسالة من مصلحة وعلو شأن.

وهكذا باع الحسين نفسه لله ومن أجل الله...

ومن هنا يعجل الإمام (ع) بجمع أهل بيته وأصحابه المخلصين ويبلغهم بوجهته ومسيره الى حرم الله مكة...

ويكثر المعترضون، ويلحون عليه بتغيير الوجهة والمسار حفاظاً عليه من القتل، في حين دعاه آخرون الى الخنوع لضعف في النفوس وخور في العزيمة.

---

(٤١) الإرشاد/للشيخ المفيد (ذكر الحسين بن علي (ع)) ط ١٣٧٧ هـ ص ١٨٣.
(٤٢) مقتل الحسين/عبد الرزاق المقرم ص ١٤٧.

ولكن عزم الحسين (ع) على نصرة الحق، لم يثنه وعيد أو اعتراض أو سواهما، ولو وقفت الجبال الشامخات للحيلولة دون مساره لما أفلحت أن تثنيه عن عزمه، وهكذا كان. . .

فأذاع بيان ثورته الأول، الذي جاء على شكل وصية كتبها إلى أخيه محمد بن الحنفية: (. . . **وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص) أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن ردَّ عليَّ هذا؛ أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين**)[٤٣].

وقد كان بيانه الخالد بمثابة الإعلان الرسمي لثورته كما كان كذلك تحديداً لحجم الانحراف الذي آلت إليه الأمور، بحيث اختفى فيها المعروف وشاع من خلالها المنكر، كما أن البيان الحسيني قد حدد أهداف الثورة ودوافعها الأساسية بتعبير جلي مقتضب.

وسار موكب الحسين (ع) الى مكة المشرفة، ولسانه لهج بذكر الله، وقلبه عامر بحب الله، فدخلها وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**ولما توجه تلقاء مدين قال عسىٰ ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾.

فنزل دار العباس بن عبد المطلب وزحفت إليه جموع المؤمنين من أهل مكة ومن القاصدين اليها احتفاء بمقدمه[٤٤]. . .

وفيما كان يتابع الامام الحسين (ع) أصداء تولّي يزيد للحكم في أقاليم الدولة الإسلامية ترامت إلى سمعه الأنباء من أنَّ الكوفة عاصمة العراق تشهد تحركاً ثورياً وهزةً سياسية ذات بال؛ فقد تحركت قوى المعارضة بعد طول كبت واضطهاد، ورأت أن الفرصة قد حانت للانعتاق من نير السياسة الطاغية،

---

(٤٣) الوثائق الرسمية لثورة الحسين/عبد الكريم القزويني ص ٣٦ نقلاً من مقتل الخوارزمي.

(٤٤) الفصول المهمة/لابن الصباغ المالكي.

وكان في طليعة المتحركين شيعة أهل البيت (ع) بطبيعة الحال؛ فقد عقدوا اجتماعاً طارئاً لتدارس الموقف المتفجر في الكوفة، وما تفرضه عليهم المرحلة بعد تولي يزيد بن معاوية لادارة شؤون الأمة المسلمة.. فقام (سليمان بن صرد الخزاعي) ـ الذي عقد الاجتماع في داره ـ بينهم خطيباً وأعلمهم أن الحسين (ع) قد أعلن رفضه لحكم يزيد وها هو في مكة، وحيث أنهم شيعته وأنصاره، فان كان بمقدورهم نصرته واسناد موقفه بكل ما أوتوا من قوة فمن الضروري إعلامه بذلك الموقف؛ وإن لم يكن لديهم القدرة على النهوض بالمسؤولية فانه لا يصح مكاتبته ثم التخلي عنه إذا حزب الأمر.

بيد أن الحاضرين أعلنوا دعم الإمام (ع) بكل ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً: (نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه)[٤٥].

وبعد اتفاق الكلمة واجتماع الرأي على بيعة الحسين (ع) كتب زعماء الكوفة كتاباً ضمنوه رفضهم للحكم الأموي جملة وتفصيلاً، وأنهم لا يرضون بديلاً للحسين (ع) قط، ثم توالت الكتب من الكوفة تحمل دعوتهم الملحة للإمام (ع) للّحوق بالكوفة خليفة وإماماً للمسلمين، وقد بلغ الأمر بالناس هناك؛ ان رفعوا الى الامام قوائم بأسماء العشائر التي تنتظر قدومه حيث بلغ تعدادها مائة ألف مقاتل[٤٦]...

وبعد دراسة موضوعية للأمر من لدن الامام الحسين (ع) اقتنع بضرورة إرسال نائب عنه، له الأهلية لأخذ البيعة من أهل العراق وتكثيف الطاعة والولاء لأهل البيت (ص)، الممثلين العمليين لرسالة الله تعالى، وفي طليعتهم الحسين (ع).

وهكذا اختار الحسين (ع) ابن عمه مسلم بن عقيل الرجل التقي الفذ وذا المؤهلات الفكرية والقيادية الفريدة التي تمنحه قدرة استقطاب الأنصار

---

(٤٥) الإرشاد للشيخ المفيد «في خروج الحسين من المدينة» ص ١٨٤ وما بعدها.
(٤٦) مع الحسين في نهضته/أسد حيدر «في الكوفة».

هناك. . . وتوجيه التيار لصالح الرسالة والدعوة.

وقد حمله الإمام (ع) رسالة خاصة الى الجماهير هناك. . . وقياداتها على وجه الخصوص ضمنها بياناً مركزاً لمواصفات رسوله إليهم، ومهمته التي بعث من أجلها وهي دراسة الموقف عن كثب والاطلاع على حقائق الأمور بشكل مكثف ودقيق؛ وهذا نص كتابه: ـ

* * *

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(من الحسين بن علي، إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين: أما بعد فان هانيا وسعيداً قدما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم أنه ليس علينا إمام، فاقبل لعلَّ الله يجمعنا بك على الحق والهدى؛ وأنا باعث اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فان كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عَليَّ به رسلكم، وقرأت كتبكم، فاني أقدم اليكم وشيكاً إن شاء الله تعالى، فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط الدائن بدين الحق، الحابس نفسه على ذلك لله والسلام)[٤٧].

واستقبلت الكوفة مسلماً استقبال الولاء والطاعة، وعقدت البيعة للحسين (ع) عن طريقه، بشكل جعل ابن عقيل يقتنع أن ذلك التحول لصالح أهل البيت (ع) ورسالة الله تعالى، ليس أمراً عادياً يجوز التغاضي عنه، وإنما هو حقيقة موضوعية قائمة، لا يمكن التغاضي يوماً عن استقطابها قبل أن تطرأ أحداث أو يستجد ما ليس في الحسبان.

ومن هنا ارتأى مسلم «عليه الرحمة» أن يبعث تقريراً للحسين (ع) يوضح من خلاله مسار الأحداث وحقيقة الموقف، في الوقت الذي يدعوه للحلول بين أظهر أنصاره في الكوفة:

(أما بعد فان الرائد لا يكذب أهله وإن جميع أهل الكوفة معك، وقد

---

(٤٧) الوثائق الرسمية لثورة الحسين (ع)/عبد الكريم القزويني، نقلاً عن الطبري.

بايعني منهم ثمانية عشر ألفاً، فعجِّل الإقبال حين تقرأ كتابي هذا والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)[٤٨].

على أن الحسين (ع) في ذات الوقت رأى أن يفاتح رجالات أهل البصرة بموضوع تصديه للانحراف والظلم، فكاتبهم بذلك، وكانت إجابة يزيد بن مسعود النهشلي (ره) أروع اجابة وأخلصها حيث عبر عن ولاء آل تميم وبني سعد لآل البيت (ص).

غير أن المؤلم حقاً أن تصل رسالته والحسين (ع) في ساحة الجهاد على صعيد الطف...

وهكذا تأخرت جحافل النهشلي عن نصرة الحق، حتى أنه حين بلغه أمر استشهاد الحسين (ع) بعد ذلك فزع ولفظ أنفاسه (ره)، لفوات فرصة نصرة سبط الرسول (ص) وعدم المساهمة فيها.

* * *

(٤٨) نفس المصدر/وعن الطبري أيضاً.

نكوص أهل الكوفة

في البدء اصيبت سلطة الحزب الأموي في العراق بذعر شديد وهي ترى الانتصارات المظفرة لصالح رسالة الله وممثلها الحقيقي الإمام الحسين ابن علي (ع)؛ حتى أن قواها قد شلت ازاء الزحف الجماهيري باتجاه الطاعة للإمام (ع).

فالإدارة المحلية الأموية التي يضطلع (النعمان بن بشير) بمهام توجيهها قد شُلَّت، ولم يكن بمقدورها أن تعمل شيئاً، وهي ترى التحول الجديد لصالح الرسالة والدعوة.

ولقد بلغ بالنعمان أن أعلن حياده وكأن الأُمور التي تدور في الساحة لا تعنيه: (أما بعد فاني لا أقاتل إلا من يقاتلني، ولا أثب إلا على من يثب عليَّ، ولا آخذ بالظنة أحداً..)[٤٩].

وتداول زعماء الحزب الأموي في الأمر وما ينبغي عمله، فاجمعوا على إطلاع يزيد بن معاوية على حقيقة الموقف، وهكذا كان...

فكتب عمر بن سعد، وعمارة بن عقبة الأموي، وعبدالله بن مسلم الحضرمي كتاباً الى سيدهم في الشام يحيطونه علماً من خلاله بكل التطورات التي استجدت في الكوفة، فاضطرب يزيد للنبأ... فأشار عليه مستشاره الخاص أن يقلد عبيد الله بن زياد ولاية الكوفة لشدة قسوته وتمرسه في ازهاق الأرواح وعدم اكتراثه لمعاني الرحمة والعطف وسواها من المفاهيم الإنسانية... ولحقده الأسود على آل رسول الله (ص).

---

(٤٩) الإرشاد/للشيخ المفيد/ومع الحسين في نهضته/ اسد حيدر «مع اختلاف يسير في الألفاظ»...

وتلقى ابن زياد عهد يزيد، فخلف أخاه على البصرة وأسرع إلى الكوفة في فرقة من الجيش قوامها خمسمائة رجل، كما استصحب في مسيرة بعض زعماء اهل البصرة، ممن لهم تأثير نفسي قوي على القبائل في الكوفة بسبب روابط القربى...

وهكذا سلك ابن زياد الاسلوب العسكري والمكر والتمويه الدبلوماسي معاً. فضلاً عن أساليب الإغراء المادي والقهر والإرهاب فيما بعد... علماً بأن ابن زياد قد سبق جنوده في دخول الكوفة متنكراً... واتجه الى قصر الامارة فدخله وأبلغ النعمان بن بشير بأمر عزله من الولاية.

ثم بادر إلى جمع الناس... وألقى أول بيان له فيهم وقد ضمنه اغراءاته العريضة لمن يسلك سبيل السياسة الأموية وينأى عن خط الإسلام الأصيل!!! كما ضمنه كذلك تهديداته الصارمة التي لا تعني غير الموت لكل إنسان يقف في وجه الظلم الأموي وهذا نص بيانه:

(أما بعد فإن أمير المؤمنين يزيد ولاني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بانصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم والإحسان إلى سامعكم ومعطيكم كالوالد البر، وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليتق امرؤ على نفسه...)[٥٠].

ثم أمر العرفاء[٥١] تحت ضغط التهديد أن يقدموا كشوفاً بأسماء الذين خرجوا عن الخط الأموي المرسوم، والا فان عقوبته الصلب على باب داره.

وهكذا ساد الكوفة جو إرهابي أحمر. فانقلب ميزان القوى لصالح البيت الأموي، حيث تم اعتقال زعماء الشيعة والموالين لحركة الإسلام التي يقودها الإمام الحسين (ع)...

---

(٥٠) الإرشاد/ للشيخ المفيد «في حالات مسلم بن عقيل» ص ١٨٨

(٥١) العريف: هو القائم بأمور القبيلة والجماعة من الناس ويتعرف الحاكم عن طريقه أحوالهم.

وهكذا ساد الخوف واستبد القنوط بالكثير من الناس بشكل أصبحت فيه القبيلة تمنع زعيمها من الاستمرار في التصدي للتسلط الأموي، والأمهات يحبسن أولادهن عن الخروج الى نصرة مسلم ابن عقيل؛ وأصحاب الأطماع انقلبوا إلى قصر الأمارة، فرحاً بالمال الوفير الذي أغدقه ابن زياد عليهم... وهكذا تمزق مجتمع الكوفة بشكل عملي...

أما المخلصون للدعوة ورسالة الإسلام، ممن لم يتعرضوا للاعتقال، فقد تحول اتصالهم بمسلم الى السرية بأمر منه بناء على ما تقتضيه الظروف التي أَلَمتْ بالأمة...

وهكذا تحولت البيعة... بل الدعوة للإسلام الصحيح، إلى دعوة سرية، وانتقل مسلم من دار المختار بن أبي عبيدة، المقر الأول للبيعة، الى دار هانىء بن عروة كأنسب دار للتحول الجديد، وذلك بالنظر لاخلاص هانىء الى الرسالة والدعوة وعراقته في الولاء لأهل البيت (ع) منذ عصر أمير المؤمنين، هذا بالاضافة الى المكانة الاجتماعية المرموقة التي يحتلها في الكوفة حيث يقود قبيلة عظيمة العدد ولها حلفاؤها وأجنحتها...

ولقد كان أهم ما يشغل ذهن ابن زياد ويملأ تفكيره أن يتعرف على المكان السري الذي يقيم فيه مسلم (ره).

ولقد حامت الشكوك حول دار هانىء، للمكانة المرموقة التي يحتلها، ولأنه الحصن الراسخ لبيعة الحسين (ع) في الكوفة كما يعلم الأمويون وعملاؤهم.

وهكذا انتشر جواسيس الطغمة الأموية المحلية بحثاً عن مسلم وتسلل منهم «معقل»[٥٢] الى دار هانىء، وأظهر الولاء، وصار يتردد أياماً على الدار، حتى قاده مكره الى كشف وجود مسلم (ره).

ومن هنا، جاء دور تخذيل القواعد التي يقودها هانىء، ليتسنى لابن

---

(٥٢) مقتل الحسين/للمقرم/ص ١٧٧.

زياد أن يصطدم به وجهاً لوجه، حيث مارس ابن زياد كل وسيلة لتفتيت القوة الضخمة التي تسند هانياً، وذلك عن طريق اغداق المال والاغراء بالمناصب، بالخداع والوعود والتهديد، وفعلاً نجحت الخطة الى حدما، واستقطب الحكم الأموي بعض الشخصيات، وبناء على ذلك جرت محاولة اعتقال هانىء من خلال تدبير لئيم . . .

واعتقال هانىء يعني اصابة الحركة الحسينية بالشلل التام وتصفيته تعني تصفية الوجود العملي للثورة في الكوفة . . .

وهكذا كان مسلم واعياً لحقيقة الموقف، مما ينبغي التحرك لانقاذ ما يمكن انقاذه، أو التعرض لنفس المصير الذي يتعرض له هانىء حصن الثورة وقاعدتها الصلبة في الكوفة، ولكن من خلال احداث ضجة سياسية واجتماعية هائلة، تبقى اصداؤها في التاريخ، وهكذا كان . . .

فما أن أُشيع نبأ اعتقال هانىء بن عروة من لدن السلطة حتى تحرك مسلم تحركاً عسكرياً، وحاصر دار الحكومة، فأغلق ابن زياد وأنصاره أبواب القصر، واحتموا داخل قصرهم؛ وقد اتخذت كتائب الجيش مواقعها حول قصر الإمارة، وأعلنت الثورة التي كادت أن تعصف بالوجود الأموي . . .

فقد أشار المؤرخون الى أن الجيش الذي قاده مسلم (ره) كان عظيماً في عدده وعدته، وكان مقسماً الى فرق وكتائب وقيادات[٥٣] . . .

على أن الذي يبدو هو أنّ ابن زياد قد استعمل كل ما لديه من وسائل خداعية وتخذيلية للخروج من المأزق، فأشاع في الناس، عن طريق جواسيسه والموالين له، أنَّ جيشاً أموياً هائلاً على أبواب الكوفة؛ وثارت ثائرة الاشاعات في المدينة . . . وضخمت النفوس المهزومة تلك الاشاعات، وضاعفت منها، وكثر اللغط، وانتشر الرعب، وصارت المرأة تمنع ابنها وتلزمه على الفرار، والرجل يمنع ابنه وأخاه[٥٤].

---

(٥٣) مقتل الحسين (ع)/عبد الرزاق المقرم «نهضة مسلم» ص ١٧٩ .

(٥٤) المصدر السابق ص ١٨٠ .

وهكذا، وهكذا... حتى فرَّ الكثير من جيش مسلم، واستبدَّ الذعر بغيرهم، ولعبت المطامع، ونجحت محاولات التخذيل... حتى لم يبق ملازماً لمسلم غير ثلة من المخلصين، اذ خاضوا غمار حرب الشوارع، واتخذوا من محلة «كندة» في الكوفة قاعدة لصمودهم، حيث أبدى مسلم شجاعة نادرة قلَّ نظيرها، حتى قضى شهيداً من أجل الله ورسالته العظمى، فلم يلن،ولم يستسلم ولم ينكل عن حمل الأمانة التي كلف بحملها قط...

أما هانيء بن عروة فقد قتل هو الآخر في الساعة التي قتل فيها مسلم.

وهكذا انهدَّ ركنا حركة الحسين (ع) في الكوفة، وفقدت الحركة باستشهادهما أعظم قياداتها المبدئية في العراق... وباءت الكوفة بذُلّ الهزيمة، وسادها ظلام الإرهاب... وأحكم الجلادون قبضتهم على مصائر الناس.

في الطريق إلى العراق

بلغ القلق بالحكم الأموي كل مبلغ، حين أدرك زعماؤه أن الحسين (ع) قد استقطب مكة، أو كاد، لصالح نهضته المباركة؛ وخوفاً من ذلك أرسل يزيد جيشاً من الشام، وولى عمرو بن سعيد بن العاص قائداً عاماً له، وألزمه بقتل الحسين (ع) أنى وجده، ومهما كلفه من ثمن. . .

وحين تلقىٰ الامام نبأ الزحف الأموي باتجاه بيت الله الحرام كبر عليه أن تستباح حرمته، علماً منه بأن يزيد وجنوده لا يرعون حرمة للبيت ولا لحجاجه، ومن هنا قرر مغادرة مكة والاتجاه الىٰ العراق، علىٰ أنه كان مدركاً النتيجة الحتمية التي سيؤول اليها، كما يتجلىٰ ذلك من خطبته عند خروجه من مكة:

(الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلىٰ الله علىٰ رسوله، خط الموت علىٰ ولد آدم مخط القلادة علىٰ جيد الفتاة، وما أولهني إلىٰ أسلافي اشتياق يعقوب الىٰ يوسف وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء فيملأن، مني أكراشاً جوفاً، واجربة سغباً، لا محيص من يوم خط بالقلم. . .)[55].

ولقد عزَّ علىٰ الكثير أن يخرج الحسين (ع) الىٰ العراق خشية عليه من القتل، ولكنه أصر علىٰ المسير وفي الوقت ذاته كان يؤكد لهم أنه سيُقتل؛ فها هو يخاطب ابن عباس حين ألح عليه بتغيير وجهة مسيره:

(. . . واللهِ لا يدعوني حتىٰ يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فاذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتىٰ يكونوا أذل من فرام المرأة)[56].

---

(٥٥) مقتل الحسين (ع)/عبد الرزاق الموسوي المقرم ١٩٣.

(٥٦) نفس المصدر ص ١٩٧/فرام المرأة: خرقة تستعملها المرأة أثناء الحيض.

وها هو يخاطب أخاه محمد بن الحنفية بقوله: **(أتاني رسول الله (ص) بعد مفارقتك، فقال: يا حسين اخرج، فان الله قد شاء أن يراك قتيلاً)**[٥٧].

وقال لعبد الله بن الزبير: (. . . **وايم الله لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني، حتىٰ يقضوا فيَّ حاجتهم ليعتدونَ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت)**[٥٨].

سار ركب الحسين (ع) وهو واثق من قتله، ولكنه كان واثقاً من أن النصر الحقيقي لرسالة الله تعالىٰ سيكون باستشهاده كما أنه علىٰ ثقة تامة بعدم وجود ناصر للرسالة سواه، ومن أجل هذا سلك الدرب وشق طريقه نحو النصر التاريخي المؤزر واعتمد الشهادة والتضحية الساخنة السخية سبيلاً لتخليد الإسلام.

وفي الطريق إلىٰ العراق كان يلتقي بالمسافرين ويستفسر عن أحوال الناس ووجهتهم في العراق، وكان الجواب الحاسم: ان السيوف مع بني أُمية والقلوب معه!!.

بيد أنه كان يعلم تلك الازدواجية ويعلم أن الإرهاب السياسي كان مستشرياً وهو علىٰ يقين أن الشخص هناك تتجاذبه قوتان: قوة الإيمان بالرسالة وحق أهل البيت (ع) في تسيير دفة الحياة الإسلامية، وقوة الخوف من السلطة الأموية وإرهاب الجلادين، وحب الدنيا والركون الىٰ الراحة والدعة. . .

بيد أن الحسين (ع) كان واثقاً أن الأُمة لا تستيقظ إلا بهزَّة كبرىٰ، ولتكن الهزة استشهاده، ومن معه من ذريَّة رسول الله (ص).

وفي الطريق الىٰ العراق جرت محاولة لحمل الحسين (ع) علىٰ الذهاب الىٰ الكوفة لقتله قبل تفجير الثورة، ولكنه أبىٰ وأفشل المخطط الغادر، وواصل المسيرة إلىٰ كربلاء، مهد الثورة، ومصرع الأبطال، ومنار المجد الخالد، ورمز العزة والاباء. . .

---

(٥٧) نفس المصدر ص ١٩٥.

(٥٨) المصدر السابق ص ١٩٤.

الحسين في كربلاء

تحرك موكب الحسين (ع) يوم التروية ـ الثامن من ذي الحجـة ـ سنة (٦٠) هجرية، فأثار هذا التحرك تساؤل الناس... لماذا يخرج الحسين (ع) من مكة يوم التروية، وغداً هو يوم عرفات، يوم الحـج الأكبر... ويجيب الحسين (ع) علىٰ تساؤل الناس: (**إن بني أُمية يريدون قتلي، وإني أخشىٰ أن أُقتل في حرم مكة المكرمة، فتهتك حرمتها في هذا الشهر الحرام...**).

لقد أشار الىٰ ذلك بشكل واضح في أحاديثه مع الناس، وأخبرهم بأن ذلك نص يرويه عن أبيه عن جده رسول الله (ص)... فقد أخبر عبد الله بن الزبير في حوار جرىٰ بينهما في مكة المكرمة بهذا الخبر قائلاً:

(**إن أبي حدثني أن لها (مكة) كبشاً به تستحل حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش**)[٥٩].

ثم قال له:

(**والله لئن أقتل خارجاً منها (مكة) بشبر، أحب اليَّ من أن أُقتل فيها، ولئن أقتل خارجاً منها بشبرين، أحب اليَّ من أن أقتل خارجاً منها بشبر، وايم الله لو كنت في حجر هامة من هـذه الهوام لاستخـرجوني حتىٰ يقضـوا بي حاجتهم**)[٦٠].

لقد خرج الحسين (ع) من مكة متوجهاً الىٰ كربلاء، مستجيباً لاستغاثة الناس، ودعوة أهل العراق، واعلانهم البيعة له...

الا أن الأحداث قد تغير مسارها... والرأي العام قد لعبت به عناصر

---

(٥٩) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ/ج ٤/ص ٣٩.

(٦٠) المصدر السابق.

التجسس والارهاب والرشاوي، فحدث النكوص والتراجع. . . وبدأ الناس ينكثون العهد ويتخلون عن بيعة الإمام الحسين (ع). . . ولقد ازداد الأمر سوءاً بمقتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب (ع) مبعوث الحسين (ع)، وممثله الىٰ العراق. . . والحسين لم يعلم بذلك. . .

لقد واصل الحسين (ع) مسيره الىٰ العراق دون أن يتأثر بما قدم بين يديه من اقتراح، وحث علىٰ التراجع عن التوجه الىٰ العراق. . . فهو مصر، وماضٍ في قراره المقدس. . .

وفي الطريق، وفي منطقة تدعىٰ (الصفاح) التقىٰ الفرزدق، الشاعر المعروف بحبه لأهل البيت (ع)، فسأله الحسين (ع) عن اتجاه الرأي العام، والوضع السياسي في العراق، فأجاب الفرزدق:

(قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أُمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء. . .). فقال الحسين (ع): **(صدقت لله الأمر، يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، ان نزل القضاء بما نحب فنحمد الله علىٰ نعمائه، وهو المستعان، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يعتد من كان الحق نيته، والتقوى سريرته)**(٦١).

ومضىٰ الحسين (ع) في طريق الثورة والمسير. . . وسرىٰ نبأ هذه الثورة، وتحرك القائد المغوار، فاضطربت السلطة الأموية في الكوفة. . . واتخذت عدة اجراءات للحيلولة دون نجاح حركة الإمام وثورته المقدسة. . . وكان والي الكوفة آنذاك ورأس السلطة والادارة فيها عبيد الله بن زياد. . . وكان من تلك الاجراءات قطع الطريق علىٰ الحسين (ع) والحيلولة بينه وبين دخول الكوفة، ومنع الناس من الدخول اليها والخروج منها. . . لئلا يتصل أحد بالحسين (ع)، فبعث مدير شرطته (الحصين بن نمير التميمين)، وكلفه بتنفيذ المهمة، فنزل الحصين في القادسية، وأنزل قواته علىٰ طريق مرور الامام الحسين (ع). . . ونشرها علىٰ خط عسكري يمتد من القادسية حتىٰ

---

(٦١) المصدر السابق/ص ٤٠.

(خفـان) وآخر من القـادسية حتى (قـطقطانـة)، ومد انتشـارهـا حتىٰ جبـل (لعلع). . .

وقد نجحت هذه الخطة الخبيثة بالحيلولة دون الدخول والخروج من العراق، كما نجحت بالقبض علىٰ رسل الحسين (ع) الىٰ أهل الكوفة، وقتلهم ظلماً وعدواناً.

أما الحسين (ع) فما زال يواصل السير، ويستحث الخطىٰ نحو الهدف المنشـود؛ الا أنه، وفي الـطريق في منطقـة تدعىٰ (زبـالة)، فـوجىء بخبر استشهاد ممثله في الكوفة، مسلم بن عقيل، وأحد أركان البيعة في الكوفة وهو هانیء بن عروة. . .

فجمع أصحابه وأهل بيته الذين كـانوا بصحبتـه وصارحهم بـالنكوص والارتداد الذي حصل في الكوفة، وجاء في خـطابه الشـريف: (**قد خـذلنا شيعتنا، فمن أحب أن ينصرف، فلينصرف، فليس عليه منا ذمام**)، فتفرقوا يمينا وشمالا، حتىٰ بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من مكة[٦٢].

ومع ذلك فان الحسين (ع) ما زال مصراً علىٰ قراره، يواصل المسير نحو العراق. . . بنفس العزيمة التي انطلق بها من مكة المكرمة، وحين توغل الحسين (ع) في أرض العراق، التقىٰ بجيش كثيف، يزحف نحوهم بقيادة الحر بن يزيد الرياحي. . . مما دعاه الىٰ اختيار موقع عسكري حصين، يفوت به الفرصة علىٰ جيش العدو المتوجه نحوه، فنزل الحسين (ع) وأصحابه في ذلك الموقع، وهو عبارة عن موقع، يكون فيه جبل (ذي حسم) عند ظهورهم، وجيش العدو أمامهم، فلا يستطيع تطويقهم، أو الالتفاف عليهم. . .

أما القائد الأموي، فقد نزل بجيشه أمام مخيم الحسين (ع)، وشكل خطاً عسكرياً أمام تحركه. . .

لقد استقر المعسكران في مواجهـة متوتـرة، والجيش الأموي يتـربص بالحسين (ع) الدوائر. . . وعندما دخل وقت صلاة الظهر أمر الحسين (ع) أحد

(٦٢) المصدر السابق/ص ٤٣.

أصحابه، فأذن للصلاة... وبعد الأذان، قام الحسين (ع) خطيباً في الفريقين موضحاً رأيه ومواقفه، وسبب تحركه، للجيش الأموي الذي يحاصره... وطالبهم بالوفاء بالعهود والمواثيق والبيعة التي كانوا قد واثقوه بها... فسكت الجميع، ولم يردوا علىٰ الخطاب...

وبعد فراغ الحسين (ع) من خطابه أمَّ الفريقين في الصلاة، فصلىٰ الجميع خلفه...

وعند صلاة العصر، وجه الحسين (ع) خطابا آخر للجيش الأموي الذي كان يحاصره، ونشر أمامهم خرجين مملوءين كتباً ورسائل، كلها تشهد بدعوتهم إياه، وبيعتهم له... ثم انصرف الحسين (ع) وأصحابه من ذلك المكان، وقائد الجيش الأموي يضايقه ويهدده بالقتل... والحسين (ع) يرد علىٰ تهديدهم:

(أفبالموت تخوفني، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله (ص) مخوفة ابن عمه، وقال:

أين تذهب، فانك مقتول، فقال:

سأمضي وما بالموت عار علىٰ الفتىٰ	**اذا ما نوىٰ حقاً وجاهد مسلما**
وواسىٰ الرجال الصالحين بنفسه	**وفارق مثبورا وخالف مجرما**
فان عشت لم أندم وإن مت لم ألم	**كفىٰ بك ذلا أن تعيش وترغما**

يئس الحر من الحسين (ع)، فابتعد عنه، واتخذ الحسين (ع) طريقه نحو الهدف المنشود، والجيش الأموي يسايره من بعيد، ويرقب تحركه.. حتىٰ وصل الىٰ قرية، من أرض العراق، تدعىٰ (نينوىٰ)، وفي هذا المكان التقىٰ رسول عبيد الله بن زياد، والي يزيد بن معاوية علىٰ الكوفة، بالحر بن يزيد الرياحي قائد الجيش الأموي، وهو يحمل معه رسالة منه، ونص الرسالة: (أما بعد، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عليك رسولي، ولا تنزله الا بالعراء في غير خضر، وعلىٰ غير ماء، فقد أمرت

رسولي، أن يلزمك، ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام)[٦٣].

وحين فرغ الحر من قراءة الرسالة، أطلع الامام الحسين (ع) بطلب عبيد الله بن زياد، وموقفه الشديد لعداوة الحسين (ع)... عندئذ قال الحسين للحر بن يزيد الرياحي: **إذن دعنا ننزل نينوى أو الغاضرية أو شفية**... أما الحر فقد رفض طلب الحسين (ع)، متذرعاً بالخوف من السلطة واستخباراتها...

فقام الحسين (ع) خطيباً في أصحابه، وقال: **(انه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وأن الدنيا قد تغيرت، وتنكرت، وأدبر معروفها، واستمرت حذاء، ولم تبق منها الا صبابة كصبابة الاناء، وخسيس عيش كالمرعىٰ الوبيل، ألا ترون الىٰ الحق لا يعمل به، والىٰ الباطل لا يتناهىٰ عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، فاني لا أرىٰ الموت الا سعادة، والحياة مع الظالمين الا برما)**[٦٤].

ثم واصل الحسين (ع) سيره متوغلاً في أرض العراق، ولم يستمر طويلاً حتىٰ اعترضه الجيش الأموي، وأخطره للنزول في مكان يدعىٰ (كربلاء)... وكان نزوله في هذه الأرض التي استشهد فيها هو وأصحابه، في اليوم الثاني من شهر محرم الحرام سنة (٦١) هجرية.

---

(٦٣) الشيخ المفيد/الإرشاد/ص ٢٢٦.

(٦٤) السيد ابن طاوس/مقتل الحسين/ص٣٢ ـ ٣٣.

في كربلاء

وهكذا حل الحسين (ع) وصحبه وأهل بيته الأبرار في عرصات كربلاء، ليكون رمزاً للأحرار، وشعاراً للثائرين علىٰ مر العصور والأجيال. . .

أما السلطة الأموية، وعلىٰ رأسها عبيد الله بن زياد في الكوفة عاصمة العراق، فراحت تبعث بقواتها، وتعبىء طاقاتها العسكرية؛ لأنها تعلم أن الحسين (ع) ليس بالشخص الذي يجهل قدره، وما زالت المخاوف تستولي عليهم، رغم قلة أصحاب الحسين (ع) وتخاذل أهل الكوفة عن نصرته. . .

لقد انتدب عبيد الله بن زياد عمر بن سعد ليتولى مهمة قيادة الجيش في حرب الامام الحسين (ع)، فتردد عمر في بداية الأمر، وخضع في نهاية المطاف للاغراء والملك والسلطان المتوهم، فقبل العروض الأموية، وتحرك يقود جيشه المكون من أربعة آلاف مقاتل، لحرب الحسين (ع)، ونزل علىٰ مقربة منهم. . . وحين نزل عمر بن سعد بجيشه وقواته، ليحاصر مخيم الامام الحسين (ع)، فتح الامام الحسين (ع) معه الحوار، واجتمع به عدة اجتماعات، فاقتنع بعد الحوار واجالة الرأي، بأن يرفع الحصار عن مخيم الامام الحسين (ع)، ويفتح أمامه طريق العودة والخروج من العراق الىٰ بلد آخر. . فكتب بذلك الىٰ عبيد الله بن زياد، فقبل الاقتراح وحاول العمل به. . . الا أن شمر بن ذي الجوشن الذي كان من ألد أعداء الحسين (ع)، حذر ابن زياد من أن الحسين (ع) إن استطاع التخلص من هذا الحصار، فسيكون في موقع القوة، وتصعب بعد ذلك مواجهته، وسينقلب الموقف لصالحه. . . اقتنع عبيد الله بن زياد بالآراء التي أغراه بها شمر بن ذي الجوشن. . فكتب رسالة الىٰ عمر بن سعد يهدده فيها ويرفض اقتراحاته،

وطلب من شمر بن ذي الجوشن أن يحمل الرسالة، وأمر عمر بن سعد بتنفيذ أوامــره بمحــاربــة الحسين (ع)، أو تسليم قيــادة الجيش لشمــر بن ذي الجوشن. . .

تسلم عمر بن سعد الرسالـة، وراح يخبر نفسـه بين محاربـة الحسين (ع)، وبين خسارة السلطة والقيادة. . . وأخيراً استولىٰ نزغ الشيطان واغـراؤه، فاختـار خسارة الدنيا والآخـرة، ورضي بحرب الحسين (ع). . . فحرك قواته في اليوم السـابع من شهـر محرم لتـطويق مخيم الحسين (ع)، والحيلولة بينه وبين نهر الفرات، ليموتوا عطشاً أو يضطروا للتسليم.

وعصر يوم الخميس، التاسع من المحرم الحرام، ابتدأ الزحف الآثم نحو مخيم الحسين (ع). . . الا أن الحسين (ع) حاول صد الزحف، وتفادي المـوقف. . . فطلب من أخيـه العبـاس بن علي (ع) أن يخـاطب الجيش، ويطلب منه الكف عن العدوان، فما سمع منهم غير رد من سلبت ارادته، وامتطت السلطة الآثمة ظهره، ما كان قولهم الا: (فلينزل الحسين علىٰ حكم الأمير، أو نقاتله).

يئس الحسين (ع) من هذا القطيع المسلوب الوعي والارادة، اللاهث وراء المغانم والحطام، فطلب من أخيه العباس أن يعود اليهم، ويفاوضهم علىٰ اعطاء الحسين (ع) مهلة تمتد طوال ليلة العاشر من المحرم، ليعطي قراره الحاسم. . . عرض العباس ذلك الطلب فوافق عمر بن سعـد وأركان جيشه أن يمهلوا الحسين (ع) ليلة واحدة. . .

واذن فغدا الموقف والمواجهة والمصير. . . وغدا العاشر من محرم يفتح التأريخ صفحة جديدة في مسيرة الاسلام. . .

يوم عاشوراء

أمضى الحسين (ع) وصحبه الأبرار، ليلة العاشر من المحرم بالصلاة والدعاء والمناجاة، والتهيؤ للقاء غده الحاسم...

مضت تلك الليلة، ومضى معها تأريخ طويل... وها قد ولد اليوم العاشر من المحرم... يوم الدم والجهاد والشهادة... يوم اللقاء والمصير...

وها هو عمر بن سعد يعد جيشه، ويعبىء قواته لقتال ابن بنت رسول الله (ص)، وخامس أهل البيت المطهرين (ع)... الذين فرض الله حبهم وولاءهم على هذه الأمة بنص كتابه الكريم..

رمق الحسين (ع) بطرفه الثابت، وقلبه المطمئن الشجاع كثافة العدو، وكثرة عدده وعدته... فلم تنل تلك الجموع من عزيمته، ولم يؤثر ذلك الموقف على قراره وارادته، بل كان كالطود الأشم، ثابت الجنان، قوي الارادة، لم يفزع الى غير الله... لذلك تجده يرفع يدي الضراعة والمناجاة:

(اللهم أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك، وشكوته اليك، رغبة مني اليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة)(٦٥).

نزل الحسين (ع) الى جند العدو، وقد تأهب للقتال، وإن المواجهة

---

(٦٥) الشيخ المفيد/الإرشاد/ص ٢٢٣.

أصبحت أمراً لا بد من حدوثه... لذلك شَرَعَ في تحصين مخيمه الذي يحوي الأهل والنساء... فأمر بحفر خندق يحيط بظهر المخيم، وأضرم فيه النار، ليمنع هجوم الجيش عليه...

اضطرمت النار في الخندق وأصبح ظهره محمياً، فتركزت المواجهة مع العدو في جبهة واحدة...

وقف الامام الحسين (ع) خطيباً، وراح يذكرهم بكتبهم ورسائلهم وبيعتهم له، فلم يستجيبوا له، ولم يتأثروا بندائه...

ثم عاد الحسين (ع) مرة أخرى، ووقف أمام الجيش على ظهر فرسه، ورفع كتاب الله، ونشره على رأسه، ثم قال: **(يا قوم: إن بيني وبينكم كتاب الله، وسنة جدي رسول الله (ص)**[٦٦].

فلم يستجب له أحد منهم... بل أصدر عمر بن سعد أوامره لحامل رايته بالتقدم، وأشعل نار الحرب بيده الآثمة، فاطلق أول سهم على معسكر الحسين (ع)، وقال (اشهدوا إني أول من رمىٰ)...

كانت تلك البداية منطلق الكارثة والمأساة التي ذهب ضحيتها سليل النبوة، وإمام المسلمين الحسين بن علي بن أبي طالب ـ سبط الرسول الأكرم محمد (ص) ـ...

لقد أصبح الامام الحسين (ع)، وأصحابه، وأهل بيته، واخوته، وأبناؤه، وأبناء عمومته، الذين لا يتجاوز عددهم ثماني وسبعين، أمام جيش كثيف يعد بالآلاف...

دارت رحى الحرب وتبارز الفريقان تارة وتلاحما في القتال تارة أُخرى...

وكان طبيعياً أن تمكن القوة جيش يزيد بن معاوية من قتل هذه الفئة القليلة العدد...

---

(٦٦) عبد الرزاق المقرم/مقتل الحسين/ ص ٢٢٣.

لقد تجسدت مأساة أهل البيت (ع)، ومظلوميتهم المؤلمة يوم كـربلاء الفجيعة . . .

لقد حدث التأريخ عن مشاهد وصـور مأسـاوية يصعب على الكـاتب والشاعر والفنان تصويرها . . . من ذلك مأساة طفل رضيع هو عبدالله بن الإمام الحسين (ع) . . . كـان الإمام الحسين (ع) قـد حمله الى المعسكر الأمـوي يطلب له الماء بعد أن حالوا بين مخيم الحسين (ع) وبين ماء الفرات، واشتد العطش على آل الرسول (ص) وصحبهم . . . حمله يطلب له الماء وليحرك ضمائرهم، ويثير إحساسهم الإنساني، فما كان منهم الا أن صوبوا سهماً نحو الرضيع فأردوه قتيلاً . . .

لقد آلم المنظر قلب الحسين (ع)، وحزت في نفسه صورة المأساة، الا أنه لم يتزعزع، ولم يضعف، ولكن ملأ كفيه من دم الطفل الشهيد، وراح يرمي به نحو السماء وهو يناجي ربه، ويحتسبه عنده مردداً: **هون علي ما نزل بي، آنه بعين الله**) . . .

استمرت المعركة طاحنة رهيبة، واستمر تساقط الشهـداء من أصحاب الحسين وأهل بيته (ع)، الواحد تلو الآخـر . . . والحسين (ع) هو آخـر من استشهد في تلك المعركة الخالدة، فكان الفداء المقدس لكلمة الحق، ودعوة الاسلام الـرائدة . . . لقد استقر سهم ذو ثلاث شعب في صدر الحسين (ع)، صعب عليه انتزاعه، ووقف نزيف الدم المنبعث من صدره المقدس، فهوى الى الأرض يسبح بدم الجهاد والشهادة . . .

لم يكتف الحقد الأموي بذلك كله، بل اتجه أحد أشقياء الجيش (شمر بن ذي الجوشن) نحو الحسين (ع) السبط فوثب على ظهره، واحتز رأسه من قفاه . . . وحال بين رأسه وجسده . . . ثم حـرك ابن سعد خيله لتـطأ جسد الحسين (ع)، وقلبه المطهر بحوافرها الحقودة . . .

وهكـذا تـوارى نجم الحسين (ع)، وحلت المـأسـاة، وحمـل رأس الحسين (ع) ورؤوس أصحابه، هدايا يقتسمها القتلة، ويرفعونها متوجهين بها الى والي يزيد بن معاوية الى الكوفة . . .

وبقيت الجثث الطواهر الزواكي ثلاثة أيام ملقاة على رمضاء كربلاء . . . قبل أن يدفنها جماعة من بني أسد كانوا يقيمون قرب أرض المعركة . . . ولم يكتف القتلة بكل ذلك، بل حملوا آل الرسول (ع) أسرى الى الكوفة ثم الى الشام . . . ويتقدم موكبهم الحزين رأس الحسين (ع) ورؤوس أصحابه .

دور المرأة في الثورة

من المقطوع به تاريخياً أن الحسين (ع) كان مدركاً أن مقاومته للسياسة الأموية ووقوفه الحازم في وجهها ليس له محصلة غير الشهادة في سبيل الله، سواء أبقي الحسين (ع) في المدينة المنورة أم في مكة المكرمة أم في أي أقليم آخر، ولكنه أراد أن يكون لاستشهاده أثر موضوعي في مسيرة الأمة التاريخية بحجم الأثر الذاتي الذي كسبه هو من نعيم ورضوان دائم، ومن أجل ذلك كان يخطط لافشال مشاريع الاغتيال التي شاءت السياسة الأموية تنفيذها للتخلص منه، لأن ذلك النوع من الموت ليس له دوي، أو ان دويه محدود، فلا تتبعه هزة بالمستوى المتوخى، ولا تعقبه ضجة على المستوى العام للأمة بامتدادها التاريخي.

اذن لا بدَّ من إنضاج الظروف الموضوعية لخلق خزة تاريخية ذات أثر موضوعي على حاضر الأمة ومستقبلها، الأمر الذي دعا الحسين (ع) الى التحضير الى معركة حقيقية بين معسكر الايمان الذي يقوده، وقوى الانحراف التي يقودها البيت الأموي، ومن أجل ذلك دعا الإمام (ع) الرجال للانخراط في صفوف الثورة، فكان لا يمر بقوم، أو بحي من أحياء العرب، وهو في طريقه الى العراق، حتى يدعوهم إلى نصرته، والانضواء تحت لوائه ليتسع مدار الضجة أفقياً وتاريخياً، ولعلنا هنا ندرك السر الذي جعل الحسين (ع) يحمل معه نساءه وأطفاله مع قناعته بالنتيجة المحتومة لتصديه للحكم الأموي.

فالحسين (ع) كان مقتنعاً الى حد القطع أن نساءه ونساء أنصاره سيتعرضن للسبي والاهانة من لدن عملاء السلطة الأموية، ولكنه كان يعلم أنَّ ذلك الاجراء سوف لن يستساغ جماهيرياً، وسيكون له دور متقدم في فضح السياسة الأموية، وتعريتها أمام الأمة، ووضع الضمير المسلم في إطار من

الحرج والتحدي الكبير بشكل لا يبقىٰ معه متسربلاً بالخنوع والذلة كما كان . . .

وإذا أضفنا الى دور النساء ذلك في كشف سوأة الحكم الأموي وتعريته، أقول إذا أضفنا الى ذلك دورهن بعد السبي : ـ في التحدث الى الناس، ومواجهتهم بالحقائق وفضح ألاعيب السياسة الأموية في كل من الكوفة والشام، ومن خلال الخطب والمناقشات ومهاجمة الحكام، تصبح الغاية التي حمل الحسين (ع) من أجلها نساءه الى قلب المعركة جلية لا تخفي على ذي لب . . .

ومن هنا فلا جرم إذا أكدنا أنَّ موضوع خروج النسوة مع الحسين (ع) وأصحابه كان أمراً مخططاً له مسبقاً، ومن أجل ذلك، فإن الامام (ع) حين حدثه أخوه «محمد بن الخفيه» بشأن النساء وعن عزمه على مغادرة مكة الى العراق، قال (ع) : **(قد شاء الله تعالى أن يَراهُنَّ سبايا)**(٦٧) .

ومن المناسب بعد ايضاح دور النساء في المسيرة الحسينية، أن نذكر بعضاً من البيانات المثيرة التي اذاعتها زينب الكبرى وسواها من فضليات النساء .

فهذه زينب عقيلة بني هاشم تخطب في أهل الكوفة مدشنة دور النساء في المسيرة الخالدة: (الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطاهرين أما بعد؛ يا أهل الكوفة . . . أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، الا وهل فيكم الا الصلف النطف، والعجب والكذب والشنف وملق الآماد وغمز الأعداء أو كمرعى على دمنة أو كفضة على ملحودة .

ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم ان سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنتحبون؟! اي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم

---

(٦٧) مقتل الحسين/المقرم ص ١٩٥، نقلاً عن البحار جـ ١٠ صفحة ١٨٤ .

بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وانى ترحضون، قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة وملاذ خيرتكم ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم، ومِدْرَة(*) ألسنتكم، ألا ساء ما تزرون، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً؛ فلقد خاب السعي وتَبَّتْ الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم، أتدرون أي كبدٍ لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم!.

ولقد أتيتم بها صلعاء عنقاء، سوداء فقماء، تأثاء، خرقاء، شوهاء، كطلاع الأرض وملاء السماء، افعجبتم إن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزى وانتم لا تنصرون.

فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثأر وان ربكم لبالمرصاد...)[٦٨].

وهكذا تضع زينب الكبرى أهل الكوفة أمام مسؤولياتهم، وتعكس لهم جسامة الخطر، وحراجة الموقف الذي هم فيه، بعد قتلهم الحسين (ع) مما أثار موجة عارمة من السخط الجماهيري على السياسة الأموية والضالعين في ركابها!.

ثم وجهت فاطمة بنت الحسين (ع) بيانها الخالد: (... أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل المكر والغدر والخيلاء، إنَّا أهل بيت ابتلانا الله بكم، وابتلاكم بنا، فجعل بلاءنا حسناً وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا، فنحن عيبة علمه، ووعاء فهمه، وحكمته، وحجته في الأرض في بلاده لعباده، أكرمنا الله بكرامته، وفضلنا بنبيه (ص) على كثير من خلقه تفضيلاً، فكذبتمونا وكفرتمونا ورأيتم قتالنا حلالاً، وأموالنا نهباً، كأنا أولاد الترك أو كابل، كما قتلتم جدنا بالأمس، وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت، لحقد متقدم، قرَّت بذلك

(*) المدْرَه: السيد الشريف المقدم في اللسان.

(٦٨) المجالس السنية ج ١ ص ١٣٠.

عيونكم، وفرحت به قلوبكم. اجتراء منكم على الله، ومكراً مكرتم، والله خير الماكرين، فلا تدعـوكم أنفسكم الى الجذل بمـا أصبتم من دمائنـا، ونالت أيديكم من أموالنا، فان ما أصابنا من المصائب الجليلة والرزايا العظيمة في كتاب، من قبل أن يبرأها الله ان ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور. . . تباً لكم، فانتظروا اللعنة والعذاب. . . فكأن قد حل بكم وتواترت من السماء نقمات، فيسحتكم بمـا كسبتم ويذيق بعضكم بـأس بعض ثم تخلدون في العـذاب الأليم، يوم القيامة بما ظلمتمونا ألا لعنة الله على الظالمين)[٦٩].

وهكذا تبعتها أم كلثوم بحديث مكثف يضرب على نفس الوتر، ويرمي الى ذات الغاية. . . غيـر أنَّ دور النسوة قـد تبلور بشكل صـارم في دمشق بالذات، حيث جـرت مناقشـات حادة وخـطب وتحديـات ويبدو أن العنصر النسائي في الحركة الحسينية قد اتخذ مواقع هجومية على الطغاة هناك. . . بدءاً من يزيد بن معاوية فما دون، وحسبنا في خطبة زينب في دار الحكم الأموي، وبحضور يزيد نموذجاً فذاً على تلك المواقف الجهادية الرائدة: ـ

(الحمـد لله رب العالمين، والصـلاة على رسـول الله وآلـه أجمعين، صدق الله حيث يقول: **﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون﴾**.

أظننت يـا يزيـد، حيث أخذتَ علينـا أقطار الأرض، وآفـاق السمـاء فأصبحنا نساق كما تساق الاماء، ان بنا هواناً على الله وبك كرامة، وان ذلك لعظم خطرك عنده، فشمختَ بأنفك ونظرت في عـطفك، جـذلان مسروراً حيث رأيت الـدنيا مستـوسقـة، والأُمـور متسقـة، وحين صفـا لـك ملكنـا، وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: **﴿ولا يَحسبَنَّ الذين كفروا انَّمـا نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم، انمـا نملي لهم ليزدادوا اثمـا ولهم عـذاب مهين﴾**.

---

(٦٩) المصدر السابق ص ١٣١.

أمن العدل يا بن الطلقاء؟ تخديرك حرائرك واماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد الى بلد، وتستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويصفح وجوههن القريب والبعيد، والدنيء والشريف وليس معهن من حماتهن حَمِيّ ولا من رجالهن ولي، وكيف ترتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء ونبت لحمة من دماء الشهداء. . .)[٧٠].

(وحسبك بالله حاكماً وبرسول الله خصماً وبجبرائيل ظهيراً، وسيعلم من بوأك ومكنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلاً، وأيُّكم شر مكاناً وأضل سبيلاً، وما استصغاري قدرك ولا استعظامي تقريعك توهماً لانتجاع الخطاب فيك، بعد ان تركت عيون المسلمين به عبرى، وصدورهم عند ذكره حرى. . . فكِدّ كيدك، وأجهد جهدك فوالله الذي شرفنا بالوحي والكتاب والنبوة والانتخاب لا تدرك أمدنا، ولا تبلغ غايتنا ولا تمحو ذكرنا، ولا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فَنَد، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعن الله الظالم العادي. . .)[٧١].

هذه شذرات يسيرة من البيانات العاصفة التي ادلت بها زينب وأخواتها على درب الجهاد، ذكرناها للتدليل على أن النساء كان لهن دور إعلامي فعال في إيضاح أهداف الثورة، وكشف مظلومية أهل البيت (ع) وأحقيتهم في سياسة أمور الناس، بالاضافة إلى تعرية الخط المنحرف الذي ينتهجه البيت الأموي في توجيه دفة الحياة الإسلامية، وتضليل سواد الأمة، وإغراء ذوي النفوس الضعيفة منها.

(٧٠) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٧١) مقتطفات من خطبة زينب في دمشق/تراجع الخطبة كاملة في الاحتجاج جـ٢.

مردودات الثورة

ألمحنا فيما سبق أن ثورة الحسين (ع) استهدفت أولاً وأخيراً خلق مناخ ملائم لصنع تيار عملي مضاد للتيار الأموي المنحرف يكون بمقدوره أن يطيح بالوجود الأموي . . . ويعيد الهدى للأمة.

ولقد جاءت النتيجة كما خطط لها ابتداءً، فلم يلبث الحسين (ع) وأصحابه أن يتخذهم الله شهداء أبراراً، حتى أصبح الحكم الأموي يفقد مبررات وجوده، فقد تمت تعريته تماماً، وافتضح للأمة تياراً معادياً للرسالة الإسلامية، والمصالح الحيوية للأمة، وحتى الذين اشتركوا في مأساة الطف لصالح البيت الأموي تعرضوا لتحول داخلي عنيف تحت مطارق تبكيت الضمير واليقظة الوجدانية . . .

وبناء على ذلك، تعرض المجتمع الإسلامي إلى زلزال عنيف، تمثل بسلسلة من الانتفاضات الشعبية الغاضبة، كثورة التوابين في العراق، وثورة المختار الثقفي، التي استأصلت شأفة الفئة الباغية التي دبرت قتل الحسين (ع) وأصحابه، وثورة المدينة وسواها.

ولئن كانت الثورات المذكورة لم تنه الوجود الأموي جذرياً، فقد عبرت عملياً عن تصاعد تيار الرفض للانحراف وتعاظمه بالاضافة الى تعبيرها الحي عن انعطاف مسيرة الأمة عملياً لغير صالح السياسة الأموية العدوانية.

ولقد استغلّت الدعوة العباسية كثيراً، تنامي ذلك التيار، وامتصت قواه تحت شعارات النصرة لأهل البيت (ع)، مما وفّر لها فرص التصفية العملية للوجود الأموي . . .

والنتيجة التي يمكننا الخلوص إليها أن ثورة الحسين (ع) قد أنضجت الظروف الموضوعية عملياً لافشال خطط السياسة الأموية، القاضية بحرف مسيرة الحضارة والحياة الإسلامية الحرة الكريمة بخلق روح الجهاد في الأُمة، واعتمدت الرفض والصمود والتصدي للتيار المنحرف الأهوج...

فسلام على سبط رسول الله الشهيد أبي عبدالله الحسين...

وعهداً في السير على خطه الجهادي المقدس...

وولاءً له ببذل النفوس ذوداً عن رسالة الإسلام العظيم...

(والحَمد لله ربّ العالمينْ)